

تاريخ الحركات القومية

الجزء الثالث

يقظة القوميات الأوربية الوحدات القومية

تأليف وتعريب

الدكتور نور الدين حاطوم

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر في جامعة الكويت

دار الفكر

علي مولا

تاريخ

الحركات القومية

يقظة القوميات الأوربية

الجزء الثالث

الوحدات القومية

تأليف وتعريب

الدكتور نور الدين جاطوم

رئيس قسم التاريخ في جامعة دمشق

دار الفكر والحديث، لبنان

الطبعة الأولى

١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م

إلى
جامعي الشمل ولامي الشعث
بناة الوحدة القومية
العز والخلود

الحركات القومية الأوربية
في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

القسم الأول

الوحدات القومية

المقدمة

تمت العاطفة القومية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، بالرغم من اخفاق الحركات القومية في ١٨٤٨ ، وايدت القوميات بقوى نشيطة حية ، وساعدت على تقوية عاطفة التضامن بين أعضاء الأمة الواحدة . ولقد وضحت هذه القوة بتأثير بعض الأوساط الفكرية التي حاولت أن تحيي ذكريات الشعب التاريخية وان تري هذا الشعب بأن له في الماضي وجدانا قومياً نشيطاً ، وانه يجب بالتالي إظهار هذه الارادة القومية في الحاضر . وتمت هذه القوة أيضاً بتأثير الصحافة اليومية . ولا شك في أن نمو الصحف لعب دوراً كبيراً في نمو العاطفة القومية لأن الجرائد وضعت الأفكار ، التي طرحتها الأوساط الفكرية ، في متناول الشعوب ، وجعلتها تفكر في مصيرها القومي .

وكلما قويت عاطفة التضامن أوجدت عند معظم الشعوب عاطفة حية في الشرف القومي ، ومعنى واضحاً للمصير القومي ، وفي الوقت ذاته رغبة في توكيد خصائص المزايا القومي في نظر الأجنبي .

بدأ نمو هذه العاطفة القومية في منتصف القرن التاسع عشر وقتل بوركيتين : من جهة ، حركة متجهة نحو المركز ، ومن جهة أخرى ، حركة منبعثة عن المركز .

لقد دفعت الحركة الأولى شعوب القومية الواحدة التابعة لدول مختلفة ، الى الاتحاد في دولة واحدة ، كما في تشكل الوحدات القومية .

وكان من نتيجتها اقامة دوله واحده قوية مقام تجزئة السيادة التي ترى في بعض مناطق اوربة .

ودفعت الحركة الثانية ، أي الحركة المنبعثة عن المركز ، الشعوب الخاضعة لسيطرة خارجية ، الى التحرر من هذه السيطرة . وهذه قضية الاقليات القومية .

وهاتان الظاهرتان نراهما باستمرار في تاريخ الحركات القومية .

المظهر الأول . - كان للمظهر الأول أي تشكيل الوحدات القومية دور مسيطر في الفترة الواقعة بين ١٨٥٠ و ١٨٧٠ . فقد وجدت ولاشك في بعض أجزاء اوربة حركات أقليات قومية ، ولكنها كانت قليلة الأهمية ، لأن حركة تشكيل الوحدات القومية كانت طاغية . ولا حاجة بنا لجهد كبير لفهم ما يمثل في تاريخ اوربة ، تشكيل الوحدة الألمانية وتشكيل الوحدة الإيطالية ، ولكنها لم تتحققا بشكل واحد : ففي تشكيل الوحدة الألمانية ، لم تزل كل السلالات التي كانت على رأس الدول . بل توضع فوق السلالات الموجودة سلطة عليا وهي السلطة الامبراطورية الألمانية وتشكلت الدولة الاتحادية الألمانية . وفي ايطاليا ، على العكس ، زالت السلالات الواحدة بعد الأخرى ، وتأسست المملكة الإيطالية بشكل وحدة . ولكن الأهمية الدولية لكل من هاتين الدولتين كانت متماثلة بشكل محسوس : وهي انشاء دول كبرى في مناطق أوربية كانت تسودها التجزئة الارضية . ومن الواضح ان هذا الحادث كان من طبيعته أن يغير توازن القوى في أوربة بصورة عميقة .

المظهر الثاني . - وهو قضية الاقليات القومية . فقد كانت دورها مسيطراً بعد ١٨٧٠ ، وظهرت في مناطق متعددة من أوربة حتى عام

١٩١٤ وما بعدها . ففي الدول « غير القومية » ، أي الدول التي تضم شعوباً مختلفة من حيث اللغة والدين والتقاليد ، أخذت هذه الشعوب اللامتناهية تشعر بالتدريب بالاختلافات التي تفصل فيما بينها ، حتى ان بعض جماعات هذه الشعوب ارادت أن تستعيد حريتها وثقافتها وثقوبها السيامي . وقد أثارت وغدت هذه اليقظة الشعور القومي عند هذه الشعوب ، على يد قليل من الناس ، وهم المفكرون دوماً ، من اساتذة وكتاب وكنسيين . فقد شجع هؤلاء الرجال الشعوب التي يعيشون بين ظهرانها على الحفاظ على فرديتها والاستمرار بالشكل بلغتها ، والتمسك بتقاليدها . بالرغم من أن هذه اللغة وهذه التقاليد كانت تختلف عن لغة وتقاليد الوسط الذي تعيش فيه هذه الشعوب . وكانت نتيجة الدعاية التي قامت في الاقليات القومية نضال يومي بين الاقليات القومية وحكومة الدولة التي يعيشون فيها : كالنضال في القضية المدرسية : ففي أي لغة يجب أن يكون التعليم ؟ ونضال في المحاكم : ففي أي لغة يمكن التعبير أمام المحاكم ؟ ونضال في تدارك الموظفين : فهل يلزم الموظفون بمعرفة لغة الشعب الذين هم مكلفون بإدارته أو يكفي بمعرفة اللغة الرسمية للدولة التي هم عاملها . وهذا النضال اليومي القائم على حوادث صغيرة ، ومنازعات صغيرة غدى حالة جزع دائم في بعض مناطق أوربة ، حتى توصلت شعوب الاقليات بالتدريب الى المطالبة باستقلالها الذاتي بل واستقلالها التام الناجز ، ويقصد بالاستقلال الذاتي الحق بأن تسن قوانينها بنفسها ، أي السلطة ، على الأقل ، في بعض القضايا ، بأعداد تشريعها الخاص في مجالس منتخبة . ويقصد بالاستقلال الحاله التي لاكتفي فيها هذه الشعوب بطلب حرية أعظم من النمو السيامي ، بل تريد الانفصال عن الدولة التي عاشت في ظلها حتى الآن .

إذا ألقينا نظرة على خارطة أوربة استطعنا أن نعين بسرعة المناطق التي توضع فيها قضايا من هذا النوع . وإذا اقتصرنا على أوربة الغربية وجدنا قضية الاقليات القومية في ايرلندة ، في الالزاس - لورين في الدور ١٨٧١ - ١٩١٤ . ونجد أيضاً قضايا مشابهة ، وإن كانت أقل أهمية ، في اسبانيا حيث نجد « نزعة استقلال ذاتي » وحتى في بعض الاوقات نزعة الانفصالية ، في كاتالونيا ، ونزعة استقلال ذاتي عند البشكنس (الباسك) الاسبان . ونرى قضايا من هذا النوع في البلاد الاسكندنافية : قضية الدانماركيين في شلزنبرغ الذين ادجروا في الامبراطورية الالمانية وأخذوا يطالبون بالانفصال ، وأيضاً قضية قومية يفكر بها قليلاً ، وهي الانفصال الذي حدث في ١٩٠٥ بين النورفيج والسويد .

وأخيراً يوجد نوع آخر من القضايا تختلف قليلاً عن التي ذكرناها آنفاً وهي قضية القوميات في بايجيكا : الفلامانديون من جهة ، والفالون من جهة أخرى . والاصل في هذه الحركة ، هو أن الفلامانديين الذين كانوا يتقدمون بطالبتهم الى الحكومة البلجيكية ، لا يؤلفون أقلية في البلاد ، بل ، بالعكس ، يؤلفون الاكثية ؛ ولكنهم يصرحون بأن الحكومة البلجيكية لاتعطي للغنة الفلاماندية والشعب الفلاماندي المكانة التي يستحقانها في الادارة وفي الحكم .

هذه هي بعض القضايا التي وضعت في البلاد التي تهتمنا مباشرة . ولكن ينبغي ألا ننسى قضية قوميات النمسا - هونغاريا ، وفي أوربة الشرقية ، القضية البولونية والقضية الفانلاديه ؛ وفي البلقان ، قضية ماكدونيا . وقد نشر رجل عظيم الخبرة في القضايا الدولية وهو نيقولا بوليتيس مقالاً قدر فيه عدد الأوربيين الذين يمكن أن يعتبروا في عام

١٩١٤ أقليات قومية ، ب ٦٠ مليوناً ، أي شعوباً غير راضية عن تبعيتها لدولة غربية عنها وتريد الانفصال ، أو على الأقل ، تريد الحصول في داخلها على الاستقلال الذاتي . ونرى من ذلك أن نسبة هذه الأقليات عظيمة أي ان ١٣ إلى ١٤ ٪ من سكان أوربة في عام ١٩١٤ كان يعيش في هذه الظروف . وفي ذلك ما يربنا أهمية القضية .

لقد كان لقضية الأقليات القومية تأثير غير منازع على السياسة الدولية . وذلك لعدة أسباب :

أولاً ، لأنها أضعفت الوضع الدولي لبعض الدول ، مثل النمسا - هونغاريا ، ولاحظ هذا الحادث وزراء الخارجية في الدولة النمساوية - الهونغارية : فقد كانت النمسا - هونغاريا تشعر بشقة وعناء عندما تريد أن تسلك سياسة خارجية قوية لأن هذه السياسة لا تحظى برضى جميع شعوب النمسا - هونغاريا ، لاسيما وأن هذه الشعوب كانت لها تطلعات مختلفة وعاطفة قومية مختلفة . وإن دولة في هذه الظروف ، دولة لا تشعر بحكومتها بأن وراءها شعباً متجانساً متلاحماً مستعداً لدعمها في حالة أزمة ، إن دولة من هذا النوع ترى نفسها متصاغرة في خلافاتها الدولية . وهذا مثل آخر نأخذه من القضية البولونية وما تمثله بالنسبة إلى سياسة روسيا الخارجية في القرن التاسع عشر : ففي حالة أزمة دولية ، كان قبصر روسيا مضطراً دوماً الى أن يتساءل : وإذا قت بالحرب فماذا يجري في بولونيا الروسية ؟ هل سيكون بولونيو الامبراطورية الروسية أوفياء مخلصين أو انهم يقيدون من الوضع للقيام بحركة ثورية ؟ ولا شك في أن هذا الاعتبار كان يثقل باستمرار على السياسة الخارجية الروسية . وكذلك كانت القضية الايرلندية تثقل باستمرار ، بين ١٨٧١ و ١٩١٤ ، على سياسة بريطانيا ، العظمى الخارجية : ففي ١٨٨٧ ، عند التهديد بوقوع خلاف فرنسي -

الماني ، كانت الحكومة الانكليزية أكثر حذراً ، كما كانت عليه في العادة . وكانت أكثر رغبة في تجنب نزاع دولي ، لأن قضية ايرلنده كانت تشغلها كثيراً . وإذا تأملنا في أوراق اللورد سالزبوري المنشورة نرى الدليل على هذا القلق : فقد كتب : « إن المصاعب الكبرى التي نواجهها الآن في ايرلنده لا يمكننا من أن نسمح لأنفسنا القيام بسياسة خارجية جريئة على القارة » . وفي تموز ١٩١٤ أيضاً ، عندما ظهر في الأفق السياسي منظور الحرب الأوروبية ، أي في ٢٣ تموز ١٩١٤ ، كانت القضية الايرلندية خطيرة في نظر الانكليز . وإذا قرأنا ذكريات ونستون تشرشل عن الحرب العالمية الاولى ، التي لعب فيها دوراً هاماً ، نرى قصة مجلس الوزراء الذي عقد جلسته في لندن في ٢٤ تموز ١٩١٤ وفيها يروي ونستون تشرشل ، أن النقاش قام بين الوزراء في قضية ايرلنده ، حتى أنه رسم مصور لكونتيات ايرلنده ووضع على الجدار ليتمكن جميع الوزراء من متابعة مختلف مظاهر القضية . وفي هذا النقاش عرضت على الوزير الأول البرقيات التي تبين خطورة الحالة في اوروبا ، وتنبئ بانذار النمسا - هونغاريا إلى صربيا . وتري قصة ونستون تشرشل ، بشكل يلفت النظر جداً ، كيف أن الوزراء يشعرون بعناء عندما يريدون رفع أعينهم عن مصور ايرلنده لينتقلوا إلى حوادث أخطر بكثير جرت بين النمسا - هونغاريا وصربيا . وظلت قضية ايرلنده مهيمنة على الأفكار . وفي هذه الحالة نرى أن قضية الأقليات القومية تؤثر مباشرة على السياسة الخارجية .

ثانياً ، لقد كان من طبيعة قضية القوميات أن تثير المنازعات بين الدول . لنأخذ حالة النمسا - هونغاريا وإيطاليا : فعلى الأرض النمساوية - الهونغارية نجد شعباً إيطالياً « أقليات قومية » ترجو الارتباط بالمملكة

الايطالية . فاذا دعمت الحكومة الايطالية مطالبهم وقعت في خلاف مع النمسا - هونغاريا . ولذلك كان لقضية القوميات أهمية عظمى في القضية البلقانية ، في قضية البوسنة والمهرسك .

ثالثاً ، تستطيع قضية الأقليات القومية أخيراً أن تغير توازن القوى تغييراً عميقاً إذا قويت الحركة وأصبحت قادرة على تقويض الدولة . وهذه حال حركة الأقليات القومية في دولة النمسا - هونغاريا التي أصبحت على شفا الانهيار . ويجب لا ننسى أن السفارات الأوربية أدخلت منذ ١٨٩٠ - ١٨٩٥ في حساباتها امكان تداعي النمسا - هونغاريا . وفي ذلك ما يدل على منظور قطيعة خطيرة جداً في التوازن الأوربي .

ومن هنا تظهر لنا أهمية قضية الأقليات القومية في العلاقات بين الدول ، وكيف كانت هذه القضية عنصر شغب واضطراب في العلاقات الدولية .

وفي عرضنا لمرحلي القضية : تشكل الوحدات القومية من جهة ، وقضية الأقليات القومية من جهة أخرى ، نريد أن ندرس الحركات القومية أي اننا سنحاول أن نفهم تيارات الرأي العام . ولكن محاولة إعادة بناء تيار الرأي العام ، إنما هي بالنسبة للمؤرخ عمل غير يقيني .

وهذا ما يجعلنا نصرح نحن المؤرخين الذين نعمل على حركات الرأي بأننا سنخضع في أكثر الاحتمالات . ومع هذا يجب أن نحاول أن نرى مطالب الشعوب ، وتنظيم حركات الرأي والمقاومة التي لاقتها ، كما يجب علينا أيضاً أن نفحص الانعكاسات السياسية لحركات الرأي هذه : انعكاسات السياسة الداخلية ، أي الانعكاسات التي تحدث في نطاق دولة ؛ وانعكاسات

السياسة الدولية . والخطة التي نريد اتباعها في دراستنا هي الآتية : ففي القسم الأول ندرس تشكل الوحدات القومية الكبرى أي الحركة القومية الألمانية والحركة القومية الإيطالية ، ولا نتابع القضية حتى تشكل الامبراطورية الألمانية ، وتأسس المملكة الإيطالية فحسب ، وإنما نلاحظ أيضاً أمر الحالة بعد هذين الحادتين . وفي القسم الثاني ندرس قضية الأقليات القومية في اوروبا الغربية والوسطى أي قضية ايرلنده ، وقضية الالزاس - لورين ، وقضية القوميات في البلاد الاسكاندينافية اي قضية شلزنبرغ والنورفيج ، والقضية الفلاماندية ، وأخيراً القضية الكاتالانية . وفي الختام نعطي لمحة مقتضبة عن الدور الذي لعبته قضايا القوميات أثناء حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ .

الفصل الأول

الحركة القومية الألمانية

البنفظة القومية في ١٨٥٩

لقد رأينا كيف تمثلت القضية الألمانية في النصف الأول من القرن التاسع عشر : فبموجب معاهدات ١٨١٥ وميثاق الكونفدراسيون الجرمانى ، الذي أدخل في هذه المعاهدات ، شكلت الدول الألمانية ، وعددها ٣٨ دولة ، كونفدراسيون دول . وكانت القضية المعروضة على بساط البحث معرفة ما إذا كان من الممكن أن يبقى هذا الكونفدراسيون أو أن تحل محله دولة ألمانية واحدة : ففي النظام الذي وضع عام ١٨١٥ حافظت دول الكونفدراسيون الجرمانى الثمانى والثلاثون على سيادتها ، وشكلت عصبة دائمة ، نوعاً من عصبة أمم . وألفت ، لدراسة قضاياها العامة ، هيئة مركزية تسمى الديياط . وكان هذا الديياط مجلس مندوبين ذوي صلاحيات واسعة ، مجلس مندوبين عن الحكومات . وعندما كان الديياط يتخذ قراراً ، وما كان ليتخذ قرارات هامة إلا بإجماع الأصوات ، فإن هذا القرار لا ينفذ إلا إذا قبلت كل دولة من الدول الثمانى والثلاثين الألمانية أن تنفذ هذا القرار .

ولم تكن المصالح الجماعية للدول الألمانية محمية حقاً في نظام هذا الكونفدراسيون الجرمانى . فمن ذلك أن هذا الكونفدراسيون لم يستطع

أن يعد جيشاً ألمانيا ، وإنما استطاع وبكثير من العناء ، أن ينشئ بعض الحصون الاتحادية . ولذا توطد الرأي في ألمانيا بأن النظام الموضوع عام ١٨١٥ غير قادر على أن يؤمن للدول الألمانية وضعاً كافياً على الصعيد الدولي .

في عام ١٨٤٨ ، قامت محاولة لتحويل هذا النظام وإقامة الوحدة الألمانية . وأدت هذه المحاولة ، على الورق ، الى التصويت على دستور ينص على أن تشكل الدول الألمانية ، عدا النمسا ، امبراطورية . ويجب أن تكون هذه الامبراطورية اتحادية أي يجب أن تحافظ كل دولة فيها على سيادتها في بعض القضايا : ولكن هذه الدول ، في القضايا المتعلقة بالدفاع القومي والسياسة الخارجية والجيش والجمارك وبالعلاقات الاقتصادية الدولية والنقل ، تخول سيادتها الى الحكومة المشتركة ، حكومة الامبراطورية الألمانية .

وصوت المجلس القومي الألماني في فرنكفورت على مشروع الدستور في بداية عام ١٨٤٩ ، وانتهى باخفاق تام ، لأن ملك بروسيا ، الذي قدم إليه تاج الامبراطورية الألمانية ، رفض هذا التاج وحاول ان يتناول القضية بشكل آخر ويؤلف اتحاد دول ألمانية تحت إدارته . ولكن الحكومة النمساوية أخرجت بروسيا لابداء رأيها فاضطرت أن تتخلى ، في آخر ١٨٥٠ ، عن خطتها في الوحدة الألمانية . وهذا ما سميناه « تراجع اولمütz » . ونذكر هذه المقدمات لأنها ضرورية لفهم ما نريد إيضاحه من حوادث آتية .

لقد وضعت غداة «تراجع اولمütz» قضية وهي : هل من الممكن أن محاولة الوحدة، التي تمت في ١٨٤٨ - ١٨٤٩ وأخفقت أن نتناول بنفس

الشكل أو بشكل آخر . وسنرى أولاً كيف كانت حالة ألمانيا بعد ١٨٥٠ ومن ثم كيف ظهرت ، في العام ١٨٥٩ « يقظة قومية » أي حركة رأي عام جديدة لصالح الوحدة الألمانية .

١ - تعمير الكونفدراسيون الجرمانى غداة ١٨٥٠

لقد نظر الى هذه القضية من وجهتي نظر : من وجهة النظر السياسية ومن وجهة النظر الاقتصادية .

من وجهة النظر السياسية ، تقرر في اولماتز تعمير الكونفدراسيون الجرمانى ، على ان ينعقد مؤتمر للأمراء لهذه الغاية في درسدن في شهر كانون الأول ١٨٥٠ . ولكن هل يعاد انشاء الكونفدراسيون بالضبط وبنفس الشكل الذي كان عليه قبل ثورة ١٨٤٨ أو يحاول تبديل نظامه ؟ ومن وجهة النظر الاقتصادية ، انشأت بروسيا منذ ١٨٣٤ الاتحاد الجرمانى « التسولفران » بين معظم الدول الألمانية ، باستثناء النمسا ، ولكن النمسا كانت ترى قبل ١٨٤٨ الخطر الذي يمثله الاتحاد الجرمانى بالنسبة لها ، وحاولت أن تدخل فيه ، فهل سيوسع الاتحاد الجرمانى حتى يشمل النمسا ؟ وفي أي الشروط توضع هذه القضايا ؟ اذا سلمنا بالانظمة السياسية التي ادى اليها « العهد الرجعي » ، بعد اخفاق الحركة الثورية في ١٨٤٨ - ١٨٤٩ ، وجدنا أن الرأي العام ، الذي كانت قوة كبرى للحركة الوحشية في ١٨٤٨ ، لم يكن لديه أي وسيلة عمل .

في النمسا ، لا يوجد نظام دستوري ، والنظام ، الذي أعد أثناء الثورة في ١٨٤٩ ، لم يطبق . والنظام ، الذي وجد في النمسا ويحافظ عليه حتى ١٨٥٩ ، كان يسمى « نظام باش » ، باسم وزير الداخلية ، ثم رئيس الحركات القومية - ٣ م (٢)

مجلس الوزراء النمساوي في ذلك العصر ، وكان يمتاز بفقدان أي هيئة تمثيلية ، لأن مجلس الدولة النمساوي كان يسميه الامبراطور عرضاً عن أن يكون منتخباً . ومن جهة ثانية ، كما يمتاز بفقدان كل حرية صحافة وكل حرية في مظاهرات الرأي : لقد كان نظام باش نظام ضغط وقر وارهاق ، نظام رقابة ضابطة .

في بروسيا ، ان الدستور ، الذي صوت عليه في كانون الأول ١٨٤٨ أثناء الثورة ، عدل عام ١٨٥٠ ، وأوجد نظام دستوري . ولكن رئيس مجلس الوزراء ، هانتويفل كان ضيق الفكر ، ولم يفهم إلا النظام التسلطي الاستبدادي ، ولذا طرد الموظفين الأحرار وضيق ، ما أمكن ، الحريات العامة . وكانت الرقابة البوليسية تسري حتى على المراسلات والحياة الخاصة .

وفي الدول الألمانية الأخرى ، باستثناء بافاريا ، ألغيت الإصلاحات الليبرالية التي منحت أثناء الثورة عام ١٨٤٨ . أما الهيئة المركزية في الكونفدراسيون ، أي دباط فرنكفورت ، فقد قرر ، في شهر آب ١٨٥١ ، أن يشكل لجنة تكلف بمراقبة السياسة الداخلية في الدول الألمانية . وسميت هذه اللجنة « اللجنة الرجعية » أي « لجنة رد الفعل الرجعي » ، وكان يراد منها اجبار الدول على أن تحذف عندها جميع القوانين التي من طبيعتها ، حسب تعبير الدباط ، « تعكير النظام العام » . كما تقرر أن الدباط ، في حالة اضطرابات داخلية في دولة المانية ، يستطيع أن يرسل مفوضين من قبل الكونفدراسيون ليعيد الأمن إلى نصابه ويوطد النظام .

وفي هذه الظروف كانت قضايا الانشاء (التعمير) متعلقة بالحكومات فقط ، لأن حركات الرأي العام لم تكن لها واسطة للظهور .

العمران السيامي. - في كانون الأول ١٨٥٠ كان على مؤتمر الأمراء الألمان أن ينعقد في درسدن لدراسة « تعمير » الكونفدراسيون . وقد عقد هذا المؤتمر جلساته في درسدن من كانون الأول ١٨٥٠ إلى أيار ١٨٥١ . ووجد نفسه أمام مشروع لمساوي وضعه الأمير شفارتزانبورغ ، رئيس مجلس وزراء النمسا . وكان هذا المشروع يهدف إلى إدخال الامبراطورية النمساوية كلها في الكونفدراسيون الجرمانى ، مع أن معاهدات ١٨١٥ نصت على أن البلاد الألمانية وحدها والبلاد التشيكية يجب أن تتبع الكونفدراسيون ، على حين أن كل القسم الهونغارى في الامبراطورية ، على العكس ، يجب ألا يؤلف جزءاً من الكونفدراسيون . وأرادت النمسا أن تضع على رأس هذا الكونفدراسيون الجديد « ديركتور » مؤلفاً من خمسة أعضاء وأن يكون رئيس هذا الديركتور مندوب النمسا .

إلا أن مشروع شفارتزانبورغ أخفق ، لأن الدول الألمانية «الوسطى» وقفت ضد مبدأ الديركتور ، ولأن بروسيا ، من جهتها ، قررت عدم دخول الامبراطورية النمساوية بكاملها في الكونفدراسيون . وبعد شهر من المناقشات العابثة لم ينته مؤتمر درسدن إلى شيء . ولذا لزم الرجوع إلى الحالة التي وجدت قبل الثورة ، أي ان الديباط الجرمانى اعيد توطيده في نفس الشروط السابقة . وظل الكونفدراسيون الجرمانى أيضاً عاجزاً كما كان في السابق .

والتجديد الوحيد بالنسبة للنظام السابق لعام ١٨٤٧ كان توقيع بروسيا والنمسا على معاهدة تحالف ، في ١٦ أيار ١٨٥١ . وبموجب هذا الصك تتكافل كل من بروسيا والنمسا اراضيها ، سواء ألفت هذه الأراضي جزءاً من « البünd » أي ، الكونفدراسيون الجرمانى ، أو لم تؤلف جزءاً منه .

ولكن هذه المعاهدة لم تبقى سارية المفعول إلا مدة ثلاثة أعوام ولم تجدد في العام ١٨٥٤ .

ومن الوجهة السياسية لم يعط مؤتمر درسدن أي حل ، على حين أن الرأي العام الألماني كان ينتظر منه شيئاً آخر . وبعد الحوادث الثورية في ١٨٤٨ و ١٨٤٩ لم يفكر أحد بأنه سيرجع بكل بساطة إلى الحالة التي كانت في ١٨٤٧ .

وظلت المنافسة قائمة ، بين بروسيا والنمسا ، في داخل الديباط وفي هذا الدور نفسه ، بين ١٨٥٢ و ١٨٥٩ ، أصبحت هذه المنافسة مكشوفة ، وفسحت مجالاً لمنازعات شخصية بين رئيس الديباط الذي كان ممثلاً للنمسا ، الكونت تون ، ويمثل بروسيا ، بسمارك ، وكانت هذه بداية حياة بسمارك الدبلوماسية . كان الكونت تون يريد الحفاظ على تفوق النمسا في الكونفدراسيون ، وكان مناصراً للسلام ، ولكنه كان يحرص بشدة على بقاء الامتيازات النمساوية . أما بسمارك ، رغم أنه شاب ، وكان عمره ٣٦ عاماً ، فكان يارس ، بفضل قوة شخصيته ، نفوذاً قوياً جداً في الديباط وفي الحكومة البروسية . ولنلاحظ أنه لم يكن لديه في تلك الآونة أي أحكام مسبقة ضد النمسا ، بل كان متعاطفاً ، في ١٨٥٠ ، مع « تراجع اولمütz » . وكان يرى بأن الحكومة البروسية أحسنت في تخليها أمام النمسا وعدم قيامها بالحرب . ولكنه ، أثناء اقامته في ديباط فرنكفورت ، أدرك بأن النزاع بين النمسا وبروسيا محتومٌ : وجعل حياة رئيس الديباط قاسية ، محاولاً أن يظهر ، في كل مناسبة ، أن بروسيا مساوية للنمسا .

ولم يكن من هذا التنافس بين بروسيا والنمسا إلا نتيجة واحدة :

وهي شل البرمائيات تماماً . ولنضرب على ذلك مثلاً جري بالضبط عام ١٨٥٢ في قضية متميزة وهي قضية الاسطول الحربي : ففي عام ١٨٤٨ ، لم يكن للكونفدراسيون الجرمانى اسطول . ولا عجب في ذلك ، لأنه لم يكن له جيش أيضاً . وأثناء ثورة ١٨٤٨ ومحاولة الوحدة الألمانية انشأت الحكومة المؤقتة الألمانية اسطولاً حربياً صغيراً بسبب الحرب ضد الدانمارك . وكانت من اللازم الحفاظ عليه والعناية به . غير أن الديباط لم يتوصل إلى الاتفاق على الشكل الذي يمكن به دفع تكاليف العناية بالسفن ، لأن الدول الألمانية الجنوبية ، التي ليس لها سواحل ، لم تكن لتهم مطلقاً بهذا الاسطول . هذا ولما كان الاجماع لازماً لاتخاذ قرار ، لم يتعين أي حل . وأخيراً ، بيع الاسطول الحربي الصغير بكل بساطة بالمزاد العلني . وهذا دليل على أن الكونفدراسيون الجرمانى والديباط ، الذي كان هيئته المركزية ، كانا عاجزين عن تحقيق أي شيء . وبالأجمال ، عاد الكونفدراسيون الجرمانى فسقط في الروتين القديم : وذلك لأن الدول الألمانية ظلت منقسمة ، ولأن الديباط بقي عاجزاً أيضاً في الأعوام ١٨٥٢ و ١٨٥٤ و ١٨٥٦ كما كان قبل ١٨٤٨ .

العموان الاقتصادي . - كانت القضية المطروحة معرفة ما إذا كان التنظيم الاقتصادي الألماني سيبقى بالشكل الذي أخذه قبل عام ١٨٤٨ . وكان هذا التنظيم الاقتصادي يمتاز بوجود الاتحاد الجمركي (التسولفران) ، وهو الاتحاد الذي شكل بين الدول الألمانية ، تحت إدارة بروسيا ، ولم تدخله النمسا . واستطاعت بروسيا ، في العام ١٨٥١ ، أن تتم تنظيم الاتحاد الجمركي : فمن ذلك أن هانوفر ، إحدى الدول الهامة في ألمانيا الشمالية ، بعد أن لم تكن حتى الآن داخلة في الاتحاد الجمركي ، قبلت الاشتراك به .

وهكذا استمرت السياسة البروسية في نموها في الطرق المألوفة .
وبذلت الحكومة النمساوية جهداً كبيراً للحصول على دخول النمسا
في التسولفران ، وتم هذا الجهد بخاصة بتوجيه وزير التجارة النمساوي .

وقد أدركت الحكومة النمساوية أن وجود التسولفران خطراً عليها
لا من الوجهة الاقتصادية فحسب ، بل أيضاً من الوجهة السياسية . فإذا
اعتادت الدول الألمانية أن تعالج القضايا الاقتصادية تحت إدارة بروسيا ،
فمن المؤكد أنها تستطيع بسرعة قليلة أو كثيرة أن تتوصل أيضاً الى
معالجة القضايا السياسية تحت ادارتها . ولذا طلبت حكومة فينا ، في
شهر تشرين الثاني ١٨٥١ ، اصلاحاً كاملاً للنظام الجمركي الألماني : فمن ذلك أن
سفارتزانبورغ ، الذي مازال رئيساً لمجلس الوزراء النمساوي في ذلك
الحين ، ومات بعد قليل ، دعا جميع الدول الألمانية الى « مؤتمر جمركي »
يعقد في فينا . وكان يراد من هذا المؤتمر ان يدرس ابرام معاهدة
تجارية بين النمسا والتسولفران ، بل وإبرام اتحاد جمركي بين النمسا والدول
التي تجمعت تحت إدارة بروسيا .

رفضت بروسيا أن تسهم في مؤتمر فينا ودعت الدول المشتركة
بالتسولفران الى عقد مؤتمر آخر . وهكذا وجدت الـ ٣٦ دولة ألمانية نفسها أمام
دعوتين : دعوة من بروسيا تقترح عليها تجديد التسولفران ، ودعوة من
النمسا تقترح إنشاء اتحاد جمركي جديد على أن يشمل الامبراطورية النمساوية .
وقد قبلت دول الجنوب : بافاريا ، فرقامبورغ ، دوقية باد الكمبري ،
وبعض دول من ألمانيا الوسطى ، بملكة ساكس ، مثلاً ، أن تشخص
الى اجتماع فينا . اعلنت الحكومة البروسية ، في ٢٧ ايلول ١٨٥٢ ،
بأنها لا تقبل بتجديد التسولفران مع الدول التي تقبل الاقتراحات النمساوية .

ولذا كانت الدول الألمانية مضطرة أن تجيب وتختار : فإذا قبلت اقتراحات النمسا ، قررت بروسيا طردها من التسولفرين ، والواقع أن الأوساط الاقتصادية في ألمانيا الجنوبية كانت قلقة جداً ، ورأت أن قطيعة التسولفرين ستكون نكبة عليها ، وأخيراً ردت الاقتراحات النمساوية . وانتهت الأزمة بحل تسوية : وذلك بأن قبلت بروسيا فقط ، في شهر شباط ١٨٥٣ ، بابرام معاهدة تجارية مساوية - بروسية ، ولكنها رفضت بصراحة دخول النمسا في التسولفرين .

وهكذا تصور ألمان الجنوب قطيعة التسولفرين ، بل والتهديد البسيط بهذه القطيعة ، نائبة . ولذا كانت بروسيا تتصرف ، في الواقع ، بواسطة ضغط اقتصادي يمكن أن تعطى يقيناً بفرض ارادتها . ولا شك في أن بروسيا ، بعد أن وضعت نفسها ، في التسولفرين ، على رأس الحركة الاقتصادية الألمانية ، قد أمنت لنفسها التفوق في عمل الوحدة الألمانية كله : وقد قال اقتصادي الماني : « إذا أخذت بروسيا ، بالقوة ، في ١٨٦٦ ، دوراً مسيطراً ، فقد فتحته سلفاً من قبل بتفوقها على الصعيد الاقتصادي ، » .

وبالاجمال ، إذا ألقينا نظرة عامة على قضية إعادة إنشاء الكونفدراسيون في ١٨٥١ - ١٨٥٢ ، نرى أن السياسة النمساوية اخفقت : ان النمسا التي حازت ، عند تراجع اولمترز ، نصراً مبيناً على بروسيا ، لم تستطع أن تجنح ثار هذا النصر ، ولم تستطع أن تنجح في ادخال الارض النمساوية بتمامها في الكونفدراسيون الجرمانى ، كما لم تستطع أن تنجح في إدخال النمسا في الاتحاد الجرمانى . ولكن ، إذا استطاعت بروسيا أن تقوض الحطط النمساوية ، فان هذا الفوز بقي سلبياً . فقد ظلت المنافسة البروسية - النمساوية تشل كل جهد في اصلاح الكونفدراسيون الجرمانى .

أمام هذه الحالة ، ظهر الرأي الليبرالي ، وأي الرجال ، الذين كانوا ، في العام ١٨٤٨ ، يتمنون الوحدة الألمانية ويحاولون تحقيقها ، فاقداً شجاعته فاتر العزم . ويجب أن نفكر ، لفهم هذا اليأس ، أن كثيراً من زعماء الحركة الثورية لعام ١٨٤٨ ، هاجروا لدى رد الفعل في عام ١٨٥٠ : ذهبوا إلى انكلترا ، وحتى إلى أمريكا ؛ ووجد مايقارب ٣٠٠.٠٠٠ مهاجر ألماني عام ١٨٥٢ . وغادر أكثر المناضلين في الحركة الثورية ألمانيا . ولذا اختلت أطر هذه الحركة تماماً ، وسحق الرأي الحر ، ولم يصدر عنه رد فعل . ووجدت عاطفة الحزن والنفور ، التي قلت اخفاق الثورة ، تعبيرها في الأدب ، حتى ان تشاؤم شوبنهاور ، هذا التشاؤم الذي ظل حتي الآن غير مفهوم ، قد نجح بعد ١٨٥٠ لأنه كان يتجاوب مع حالة الرأي في ذلك الحين .

ولذا لم يبق إلا مايجأ واحد في ألمانيا ، في وسط هذا اليأس العام الذي منيت به الأفكار الليبرالية والقومية ، وهو بلاط الأمير ارنست ساكس - كوبورغ - غوطا ، الذي كان أخاً للملك بلجيكا ليوبولد وأيضاً الأمير البيوت انكلترا ، زوج الملكة فكتوريا . فقد ضم الأمير ارنست ، في غوطا ، عاصمة أمارته ، عدداً من الكتاب الأحرار المجندين للوحدة الألمانية . وكان هؤلاء الكتاب ينشرون ، في غوطا ، مجلة صغيرة تسمى « رسول الحدود » وظلت ، خلال سبعة أو ثمانية أعوام ، التعبير الوحيد للحركة الوندوبه الألمانية . واستمر هؤلاء الكتاب السياسيون في التعبير عن ايمانهم بمستقبل ألمانيا ، ولكن عملهم لم يكن له كبير أهمية ، وذلك لأن الجمعيات السياسية كانت محرمة في كل الدول الألمانية .

٢ - البيقظة القومية عام ١٩٥٩

بعد سني اليأس ، سني الجبل ، يرى ، في ١٨٥٩ ، ظهور حركة رأي عام . وترجع هذه البيقظة إلى عدة أسباب :

(١) النمو الاقتصادي . - وهو السبب الذي يفكر به قليلاً ولاشك ، لأنه أقل ظهوراً من غيره ، ولكن درره نافذ وأكيد .

بدأت الصناعة الكبرى الألمانية بالنمو في الدور الواقع بين ١٨٥٠ و ١٨٦٠ . ومن الممكن أن نقول ان الحركة الصناعية الالمانية بدأت منذ هذا التاريخ . فقد بدأت بنمو انتاج الفحم ، ومنذ ١٨٥٠ ، كانت ألمانيا في الصف الثاني في أوربة كمنتج للفحم ، وتأتي مباشرة بعد بريطانيا العظمى . ولا نجعل أن الفحم كان في أساس صناعة القرن التاسع عشر ونمو الصناعات المختلفة : ففي صناعة المنشآت الميكانيكية ، بلغت اليد العاملة بين ١٨٤٨ و ١٨٦٠ الثلاثة أضعاف ؛ وفي الصناعات النسيجية ، ازداد عدد الانوال بمقدار خمسة أضعاف بين ١٨٥٠ و ١٨٦٠ ؛ وفي صناعة السكر ، وجد في عام ١٨٤٧ ست وتسعون مصنعاً ؛ وفي ١٨٦٠ ، وجد مائتان وسبع وأربعون مصنعاً .

وفي الوقت نفسه حصل تقدم في وسائل النقل : فقد كانت ألمانيا، في العام ١٨٥٠ ، تملك ٦٠٠٠ كم من الخطوط الحديدية ؛ وفي العام ١٨٥٦ كان عندها ١٤٠٠٠ كم ، وفي هذا الحين انشئت شبكة حديدية تصل الدول الالمانية كافة ، على حين أنه لم يكن في العام ١٨٤٨ إلا بعض خطوط حديدية ذات طابع محلي : ففي ١٨٥١ انشيء خط مونيخ - ليبزيغ - برلين ؛ وفي ١٨٥٩ خط ألمانيا الجنوبية الكبير في

كولونيا ماراً على طول الراين . وفي هذا الحين أيضاً اقيمت الاتصالات الحديدية مع فرنسا بواسطة فورباخ ومع سويسرا وحتى مع الحدود الروسية . كانت نتيجة هذه الحركة الاقتصادية هامة جداً : أولاً ، لأن سهولة السفر ، التي نتجت عن وجود طرق حديدية ، فتحت أفق الفكر عند الألمان وسمحت بانتشار الصحف بسرعة ؛ ومن جهة ثانية ، إن نمو الانتاج كان يصحبه نمو الطبقة الرأسمالية . وكان هؤلاء الرأسماليون الألمان ، كبار الصناعيين وكبار التجار ، يرغبون بإنشاء دولة ألمانية قوية لتستطيع هذه الدولة الألمانية أن تحمي ، في نظر الاجنبي ، مصالحهم الاقتصادية ، وان تكون قادرة أيضاً على خلق نظام نقدي عام . ولأنك في أن النمو الاقتصادي أوجد ، في بعض الاوساط التجارية والصناعية ، جواً ملائماً لفكرة الوحدة الألمانية .

٢) الأزمة الدولية عام ١٨٥٩ . - وهي السبب القطعي . فقد وضعت في هذا العصر قضية اللومبارديا - البندقية ، وهذا الاقليم مأهول بالايطاليين ، ولكنه كان تابعاً للإمبراطورية النمساوية ، وكان ملك بيمونت - ساردينيا يحلم بمحاربة النمسا ليخلص اللومبارديين - البندقيين ، حتى ان نابليون الثالث بعد مقابلة بلومبيير قبل بدعم هذه السياسة الساردية . ومنها كانت حرب فرنسا والدولة البيمونتية - الساردية ، ضد امبراطورية النمسا ، هذه الحرب التي كانت ترمي إلى امتلاك لومبارديا والبندقية . وكانت القضية الموضوعة أمام الكونفدراسيون الجرمان في أثناء هذه الأزمة هي الآتية : هل ستقوم الدول الألمانية بمناسبة هذه الحرب باظهار سياسة عامة ؟

ولا نريد الآن أن نتكلم عن قصة هذه الأزمة ، ولكننا نكتفي بأن نأخذ منها ما يهم موضوعنا .

حاولت النمسا ، عندما رأت اقتراب شبح الحرب ، أن تحصل على مساندة الدول الألمانية الأخرى . ومن الواضح أنه كان لها فيها مصلحة كبيرة . وبينما نرى دول جنوب ألمانيا تظهر عطفها على النمسا ، نجد أن بروسيا رفضت أن تزج بنفسها في هذه القضية وأعلنت حيادها .

وبعد أن أخفق الجيش النمساوي اخفاقه الأول ، عادت حكومة فيينا فألحت في طلباتها : حاولت أن تحصل على نجدة بروسيا . وكان ملك بروسيا فريديريك - غليوم الرابع ، منذ ١٨٥٨ ، في حالة صحية لا تسمح له بممارسة سلطته ، وكان الوصي ، أخوه الأمير غليوم ، وهو الذي أصبح فيما بعد الامبراطور غليوم الأول ، يرى أن الحرب الإيطالية أصبحت خطرة ويخشى من أن تقلب فرنسا الوضع الراهن الأرضي ، في أوربة ، الذي وضعته معاهدات ١٨١٥ . وتصور « وساطة مسلحة » ولكنه لم يشأ القيام بهذه الوساطة في الحال ، لأنه أراد أن يحصل ، مقابل الخدمة التي يقدمها للنمسا ، على تنازلات في القضية الألمانية ، كان يحصل مثلاً ، على تقسيم رئاسة الديباط بين بروسيا والنمسا . ولذا تحفظ في جوابه .

وبعد أن أخفقت النمسا ، في هاجنتا وفي سولفيرينو ، اصررت الحكومة النمساوية على طلبها أيضاً ، وأرسلت إلى برلين رجلاً عظيماً ، المارشال فيندشغفوانتز ، ليحاول اقناع الحكومة البروسية وبمجلها على مساعدته . ولكن الحكومة البروسية فضلت العمل من جهتها : فقد قررت استنفار ست قطع من الجيش البروسي وحشدتها على الراين ، وتجنيد هذه القطع الست يؤلف خطراً على فرنسا ولكنه ، من جهة ثانية ، لا ينبغي جد النمسا نجدة مباشرة .

وبالتالي ، ان الحرب الفرنسية - النمساوية لعام ١٨٥٩ التي انتهت ، في تموز ١٨٥٩ ، بمقدمات السلام في فيلا فوانسكا ، قد دارت رحاها دون أن تأتي الدول الألمانية لنجدة النمسا . ومع ذلك فان السياسة البروسية خدمت النمسا ، لأن استنفار قطع الجيش البروسي الست على الراين جعل نابوليون الثالث يفكر في أمره ؛ وهذا سبب من جملة الأسباب التي دفعت نابوليون الثالث إلى ابرام مقدمات الصلح . والجدير بالذكر ، في هذه المناسبة الهامة ، أن الدول الألمانية لم تستطع أن تقرر الاتفاق على شيء .

لقد أثارت أزمة ١٨٥٩ الرأي العام في البلاد الألمانية ، لأن كثيراً من الألمان فكروا بأن المانيا بحاجة ، أكثر من أي وقت مضى ، إلى أن تكون قوة دولية . وقد دلت تجربة حرب ١٨٥٩ على أن الكونفدراسيون الجرمان في كان عملياً عاجزاً في السياسة الدولية بسبب اختلاف بروسيا والنمسا . وكان بعض الألمان يتساءلون ما اذا كانت المانيا ، بسبب هذا العجز ، ستصبح بحالاً لتوسع اطماع نابوليون الثالث . وكان الرأي العام يشبه بنابوليون الثالث لأنه كان يريد تعديل الوضع الراهن الأرضي في اوروبا .

حركة الرأي . - وفي الوقت الذي انتهت فيه حرب ١٨٥٩ شوهدت في المانيا لحظة حركة رأي لصالح الوحدة . فقد تحرك الرأي العام من جديد حول القضايا التي كانت تعالج من قبل في ١٨٤٨ : قضية علاقات بروسيا والنمسا ، قضية مستقبل الدول الألمانية . وكان النقاش يجري لمعرفة ما اذا كانت بروسيا ، أثناء حرب ١٨٥٩ ، قامت بواجبها كدولة المانية ؟ أو ما اذا كان يجب عليها ، كدولة المانية ، أن تأتي لنجدة النمسا ؟

وعلى العكس ، يصرح آخرون ، بأن النمسا تحارب لقضية ليست في مصالحة المانية بل للحفاظ على اللومبارديا والبندقية الاقليمين الايطاليين ، وان الدول الألمانية ، بالتالي ، ليست بحاجة لأن ترج نفسها بهذه الحرب . وظل نزاع الأفكار بين من يرون أن النمسا مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالشعب الألماني بحياتها ، وتاريخها ، وبين من لا يعتقدون بذلك .

وقد ظهرت ، في حركة الأفكار هذه ، الاتجاهات القديمة التي عبر عنها من قبل في العام ١٨٤٨ .

الاتجاه الاول . - اتجاه الوحدة الألمانية تحت ادارة بروسيا مع ابعاد النمسا . وهذا هو الاتجاه الذي كان اتجاه دساتير ١٨٤٨ ، اتجاه « ألمانيا الصغرى » .

الاتجاه الثاني . - اتجاه الوحدة الألمانية النامية التي تشمل جميع الألمان بما فيهم المان النمسا . ولكن هذا يؤدي إلى تفتيت الدولة النمساوية ، أو ، على الأقل ، إلى إعادة بناء الدولة النمساوية على أساس اتحادي (فيدرالي) تستطيع فيه النمسا الألمانية أن تشترك في الدولة الاتحادية الألمانية مع بقائها عضواً في الامبراطورية النمساوية .

الاتجاه الثالث . - وهو اتجاه من يرغبون الوحدة الألمانية بشكل تشمل فيه الامبراطورية النمساوية . وهذا هو مشروع سفارتزانهبرغ القديم الذي ينص على ادخال الامبراطورية النمساوية كلها في اتحاد الدول الألمانية ، بالرغم من أن أكتريية الشعب ، في هذه الامبراطورية ، كانت سلافية وغير ألمانية .

كان انصار « ألمانيا الصغرى » أي انصار الاتجاه الأول يساقون

خاصة من بين الأوساط الليبرالية في ألمانيا الشمالية وألمانيا الوسطى .
وأنصار « ألمانيا الكبرى » ، أي ألمانيا مع ادخال النمسا ، يساقون بخاصة
من ألمانيا الجنوبية ومن الأوساط الكاثوليكية : وعلى العموم كانت
الكاثوليكيون أنصار ألمانيا الكبرى لأنهم لا يريدون أن يخاطروا ويجدوا
أنفسهم في امبراطورية ألمانية أكثرية شعبها بروتستانتية .

وبما بلغت النظر أن نرى رجلاً لعب دوراً رئيسياً في حركة ١٨٤٨ ،
وهو هينريك فون غاغيرن ، الذي كان رئيس المجلس القومي وطلب التصويت
على مشروع « ألمانيا الصغرى » ، يغير أفكاره ، في العام ١٨٥٩ ، ويصبح
نصيراً « لألمانيا الكبرى » ، ويريد تفاهماً بين النمسا وبروسيا بغية اصلاح
الكورنفدراسيون .

كانت نقطة استناد فكرة ألمانيا الكبرى عند المحافظين . فقد كانت
الطبقة النبيلة ، مالكة الأقطان ، الفلاحين المالكين ، وعند البرجوازية
الصغرى في المدن الصغرى ، بينما كانت فكرة ألمانيا الصغرى أي المقوم
« البرومي » ، نجد نقطة استنادها في الأوساط الصناعية والتجارية التي تريد
نظاماً قوياً .

الجمعية القومية . - وفي غضون ذلك قام فريق من أحرار الدول الألمانية في الشمال ،
نخص بالذكر منهم : بينيغسن ، الهانوفري الحر ، ويوهان ميكيل ،
وهو محام من غرتغن ، وأخيراً شولتز ديليتزش الاقتصادي ، وقرروا
في مؤتمر عقده في آب ١٨٥٩ أن ينشؤوا بمسانده الدوق ارنست
ساكس - كوبرغ - غوتا ، الذي سبق أن تكلمنا عنه ، جمعية
سياسية ، وأن ينشؤوا لها فروعاً في كل ألمانيا ، وأن تؤثر على الصحافة وعلى
البرلمانات . وقد انشئت هذه الجمعية السياسية فعلاً في ١٦ ايلول ١٨٥٩
في فرنكفورت - على - الماين ، على طراز « الجمعية القومية » التي
كانت توجد في ذلك الحين في ايطاليا . وكان برنامج هذه الجمعية القومية

« ناسيونال فواين » تحقيق الوحدة حسب الشعار « المانيا الصغرى » أي تحت ادارة بروسيا . وقد لاقت غناءً كبيراً في اعداد برنامج واضح ، لأن جميع أعضائها ، إذا كانوا على اتفاق على مبدأ المانيا الصغرى ، لم يكونوا على اتفاق على الشكل الصحيح الذي يجب اعطاؤه للدولة الألمانية ، دولة المستقبل . وقامت هذه الجمعية القومية بالدعاية بوسائل قانونية ، وجعلت مقرها في كوبورغ ، لأن مجلس الشيوخ في مدينة فرنكفورت رفض السماح للجمعية بالاستقرار في هذه المدينة . وانشأت جريدة ، وكانت تحلم بخاصة ، بتنظيم حزب سياسي كبير ا وهو الحزب الذي سيكون فيما بعد تحت اسم « الحزب القومي الليبرالي » .

وعلى العموم ، ان ألمانيا الشمالية وألمانيا الوسطى ، جهزت « الجمعية القومية » بالمشتريين . ومع ذلك ، وجدت كتلة الجمعية في المانيا الجنوبية ، وكان على رأسها كارل براتر الذي شارك في مذاهب الجمعية ، وكانت هذه الكتلة تأخذ اعضاءها من البورجوازية البروتستانتية . وعقدت « الجمعية القومية » مؤتمرات سنوية في ايلول ١٨٦٠ ، وفي آب ١٨٦١ ، للتعريف ببرنامجهما وقصدها .

لقد هيأت الجمعية القومية الرأي للحل الاتحادي الفيدرالي تحت ادارة بروسيا ، وشكلت مدرسة تعلمت فيها البورجوازية البروتستانتية . ولكنها لم تنجح في إثارة حركة جماهيرية ، واعترف مؤسسوها بذلك . وضمت الجمعية بسرعة ٢٥٠٠٠ عضو ، ولم تتجاوز هذا الرقم إلا قليلاً ، لأنها كانت تتطلب رسم اشتراك عالياً . وكان أعضاؤها مفكرين ، وقانونيين ، وتجاراً ، وصناعيين . ولذا كانت تكتلأ بورجوازيات ، ينظر الكاثوليكيون والديموقراطيون وبعض المحافظين البروسيين اليه بحذر وريبة ، ولا سيما بعد أن كشفوا تغلغل النفوذ اليهودي في الجمعية القومية .

الفصل الثاني

الحركة القومية الالمانية

من ١٨٦٣ الى ١٨٦٥

لقد استيقظت الحركة القومية الالمانية في ١٨٥٩ واستهدفت هدفاً مزدوجاً : من جهة ، تحويل نظام الكونفدراسيون الجرمانى الذي وضع عام ١٨١٥ ، وجعل المانيا دولة اتحادية بعد ان ظلت حتى الآن كونفدراسيون دول ؛ ومن جهة أخرى ، توكيد قوة المانيا في الخارج .

وتتصف الحركة القومية الألمانية ، في الدور الممتد بين ١٨٦٣ و ١٨٦٥ ، بصفتين متتابعتين : اولاً ، عجز الحكومات الالمانية عن تحقيق تحويل الكونفدراسيون ؛ ثانياً ، توكيد القوة الالمانية في قضية الدوقيات الدانماركية . ومن البديهي اننا لانريد ، في هذه المناسبة ، ان نعالج التاريخ الدبلوماسي للتنافس النمساوي - الالمانى ، لأن هذا يؤلف موضوعاً خاصاً ، ولكننا نريد ان نعالج ماهم الحركة القومية الالمانية .

١ - قضية اصلاح الكونفدراسيون

كان الرأي الالمانى يطالب، في العام ١٨٥٩ ، باعادة صهر الكونفدراسيون الجرمانى . ودرس هذا الصهر مرتين : في ١٨٦٣ وفي ١٨٦٣ من قبل

حكومات ال ٣٨ دولة المانية ، واريد تحويل كونفدراسيون الدول ، الذي وطد عام ١٨١٥ ، بشكل يعطيه قوة ونفاذاً لايمكها . واخفقت محاولات الاصلاح في الحالين وذلك بسبب الظروف التالية :

محاولة ١٨٦٢ . - في آخر ١٨٦١ ، قدمت الحكومة الساكسونية ، التي يرأسها بوست ، للديباط الجرماي ، الذي كان يمثل الهيئة المركزية للكونفدراسيون ، مشروع اصلاح يتضمن النقاط الآتية :

أ - ابدال الديباط بمؤتمر وزراء جميع الدول الألمانية وعقدته برئاسة النمسا وبروسيا بشكل متعاقب ، بينما كانت رئاسة الكونفدراسيون ، حتى الآن ، خاصة بالنمسا وحدها .

ب - انشاء برلمان الماني تنتخب اعضاءه المجالس التشريعية الموجودة في جميع الدول الألمانية (لاندتاغ) .

ج - تنظيم محكمة اتحادية لتسوية الصعوبات التي قد تنشأ عن تفسير صك الاتحاد .

ولكن الحكومة النمساوية رفضت هذه الخطة الاصلاحية التي اقترحتها الحكومة الساكسونية ، لأن النمسا كانت تريد الاحتفاظ برئاسة الكونفدراسيون لها وحدها دون منازع .

ووضعت الحكومة البروسية بدورها مشروع اصلاح يقترح جمع الدول الالمانية كلها ، الا النمسا ، في دولة اتحادية ، تحت ادارة بروسيا ، ويكون لبروسيا في هذه الدولة الاتحادية قيادة الجيش وبممارسة السلطة التنفيذية الاتحادية . اما النمسا ، التي وجدت نفسها مبعدة عن الدولة الألمانية ، فقد افترحت الخطة البروسية عليها تحالفاً مع الاتحاد الألماني . والفائدة التي يؤمنها هذا الاتحاد الى النمسا هي انه يضمن لها امتلاك جميع اراضيها ، حتى الاراضي غير التابعة للكونفدراسيون الجرماي .

الحركات القومية ٣ (٣)

رفضت النمسا هذه الخطة البروسية ودعمتها في هذا الرفض بافاريا وفرتامبرغ وهانوفر وساكس وحتى دوقيةتي هسن .

وأخيراً اقترحت النمسا نفسها خطة اصلاح : فقد اوجت بإنشاء « ديركتوار الرايخ » ، أي ان يوضع على رأس الكونفدراسيون هيئة من خمسة اعضاء : يمثل عن النمسا ، وواحد عن بروسيا ، وثلاثة من الدول الألمانية « المتوسطة » : بافاريا ، هانوفر ، ساكس . واقترحت ، عدا ذلك ، انشاء برلمان الماني تنتخبه مجالس (لاندتاغ) مختلف الدول . ولكن بروسيا عارضت هذه الخطة النمساوية معارضة صريحة ورسمية .

هذا ولما كان من المستحيل تحقيق اتفاق بين الدول الألمانية الرئيسية على وضع خطة لاصلاح الكونفدراسيون ، فقد توجب الحفاظ على « الوضع الراهن » .

ولنلاحظ ان هذا الشقاق كاد ان يؤدي الى نزاع ولكن الظروف الداخلية ، في ذلك الحين ، في بروسيا وفي النمسا ، لم تكن مهيأة : ففي النمسا كانت الأزمة الدستورية التي وضعت مشكلة العلاقات بين النمسا وهونغاريا موضع نزاع . ولا نريد الآن ان ندخل في تفصيلات هذه الأزمة التي لاتهمنا مباشرة . وفي بروسيا وجد نزاع دستوري ، بين الوزارة ومجلس النواب ، في موضوع التصويت على الاعتمادات العسكرية واصلاح الجيش . وبسبب هذه المصاعب الداخلية لم تشأ كل من بروسيا والنمسا ان تندفع في رأيا حتى النزاع .

وفي غضون ذلك ، في ايلول ١٨٦٢ ، وهذا التاريخ اساسي في تاريخ الوحدة الألمانية ، أصبح بسمارك رئيساً لمجلس الوزراء في بروسيا . فقد عهد الملك غليوم الاول اليه برئاسة الوزارة لأسباب سياسة داخلية

بصورة أساسية . وكان بسمارك ، في ذلك الحين ، يتمتع بشهرة الرجل القوي . وكان الملك يحرص على اصلاح الجيش ، فأراد ان يعتمد على هذه القوة لاختاد مجلس النواب البروسي . ان شخص بسمارك والطبع الذي عرف عنه ، والقوة التي برهن عليها من قبل ، وبخاصة الحزم في وجهات نظره في القضية الألمانية ، لأنه كان منذ عدة سنوات ، منذ ١٨٥٦ تقريباً ، مناصراً حازماً لتحقيق الوحدة الألمانية دون النمسا ؛ ان كل ذلك كان من طبيعته ان يؤثر على مجرى القضية الألمانية . ولكن بروسيا ، في العام ١٨٦٢ ، لم تكن بعد في حالة تدفعها إلى الالتزام حتى الأعماق لسببين : أولاً ، لأن الأزمة الداخلية البروسية مازالت مستمرة ؛ ثانياً ، لأن بسمارك ، منذ وصوله الى الوزارة ، اتخذ موقفاً فظاً حيال مجلس النواب البروسي : فقد صرح بأنه اذا لم يتوصل الى تحقيق اصلاح الجيش برأي البرلمان ، فسيحققه دون الاهتمام بالبرلمان . واذا رفض البرلمان ان يصادق على اعتمادات الموازنة ، فسيحكم دون موازنة . وقد ضاقت هذه الازمة عمل بسمارك كثيراً في الاشهر الاولى من حكمه .

ومن جهة اخرى ، ان ثورة البولونيين ضد سيطرة القيصر ربما كان من طبيعتها اثاره النزاع الدولي .

محاولة ١٨٦٣ . - افادت الحكومة النمساوية من هذه الظروف التي تضعف وضع بروسيا ، وقامت ، في العام ١٨٦٣ ، بمحاولة جديدة لاصلاح الكونفدراسيون الجرمانى .

اقترح الامبراطور فرانسوا - جوزيف عقد اجتماع للأمراء الألمان ، وانهقد هذا الاجتماع في ١٦ آب ١٨٦٣ في فرنكفورت ، وكان هدفه

دراسة هذا الاصلاح . وهذا المؤتمر هو مؤتمر امواء ، كما نلاحظ ، وليس « دياطلا » والمحاولة الاولى للأصلاح ، وهي محاولة ١٨٦٣ ، قام بها الديباط الجرمانى ، أي مجلس مندوبي الحكومات الالمانية ، أما المحاولة الجديدة وهي محاولة ١٨٦٣ فقد كانت على يد مؤتمر الأمراء الألمان انفسهم ، لامندوبيهم . وكان امبراطور النمسا يرى بانه يستطيع ، بتحدثه مع الامراء الالمان ، رأساً لرأس ، ان يتوصل الى غاياته بشكل أفضل .

وباستثناء ملك بروسيا ، نجد ان الأمراء الألمان ، عدا امير ليب وأمير آنهالت ، أي أميرى دولتين لا أهمية لهما ، قبلوا دعوة امبراطور النمسا . وعندما امتنع ملك بروسيا ، جاء فرانسوا - جوزيف لرؤيته ، في ٢ آب ، في غاشتايين ، لدعوته الى الاجتماع ؛ ولكن الملك رفض المجيء للاجتماع ، وبالرغم من اصرار النمسا ، تمسك برفضه . وفي الحقيقة ، ان الملك غليوم الأول ، لو ترك وقواه الوحيدة ، لكان اميل الى الشخصوس الى اجتماع فرنكفورت ، ولكن بسمارك ، وزيره الاول ، عارض في ذلك بعنف وصرح بتقديم استقالته ، اذا شخص الملك الى اجتماع فرنكفورت . ولذا انحنى الملك امام ارادة بسمارك . وكانت الحديث صاخباً ، لأن الملك ما كاد يخرج الا وأمسك بسمارك بمنضدة صغيرة وطرح بها في الهواء الى الطرف الآخر من الغرفة ، وكان ذلك منه ، كما قال ، بكل بساطة « تخفيفاً عن اعصابه » . وأخيراً انتصر بسمارك : لان ملك بروسيا رفض الذهاب الى اجتماع فرنكفورت .

انعقد الاجتماع ، واقتوتحت الحكومة النمساوية خطة لاصلاح الكونفدراسيون ، وعادت فيها الى خطتها في العام ١٨٦٢ ، اي الى انشاء حكومة ادارة « ديركتوار » للكونفدراسيون تضم خمسة اعضاء تحت

رئاسة النمسا ، واجتماع برلمان الماني يقوم مقام الديباط . ويتشكل هذا البرلمان من مندوبي المجالس التشريعية (لاندتاع) الالمانية . واخيراً انشاء محكمة اتحادية .

وفي ٨ ايلول ١٨٦٣ ، صوت على الحطة النمساوية في مؤتمر الأمراء بـ ٢٤ صوتاً مقابل ٦ ، وبين الاصوات المعارضة وجدت دولة لها بعض الأهمية : وهي دوقية باد الكبرى . وصوتت جميع الدول « الوسطى » لصالح الحطة النمساوية . ولكن هذا التصويت كان يرافقه حذر هام : وهو ان الأمراء اعربوا عن رغبتهم في ان يبلغ امبراطور النمسا هذا المشروع الى بروسيا ، بالرغم من انها رفضت دعوة اجتماع فرنكفورت ، ويحاول ان يتفاهم معها . ولذا فان النجاح الذي احرزته الحكومة النمساوية لم يكن الا ظاهراً . ومن الممكن ان يتساءل ماذا كانت الدول الالمانية تستمر في السير مع النمسا مع بقاء بروسيا جانباً .

والواقع انه قامت ، في ذلك الحين ، مظاهرات واضحة جداً في الرأي الألماني ضد الحطة النمساوية : فمن ذلك ان « الجمعية القومية » ، الخط القومي الأكيد الذي انشئ في الظروف التي ذكرناها آنفاً ، اقلت بنداء الى الشعب ضد الحطة النمساوية . وهذا النداء يقول : ان فرنسوا - جوزيف لا يستطيع ان يزعم بأن سيكون امبراطوراً المانياً ، الا اذا كان مستعداً للاعتراف بالأسس التي وضعها الدستور الألماني عام ١٨٤٩ ، الدستور الثوري ، الذي لم يطبق مطلقاً . وعدا ذلك ، اجتمع مندوبو المجالس التشريعية الألمانية، وعددهم ثلثائة تقريباً ، في فرنكفورت، في ٢٢ آب ١٨٦٣ لدراسة الحطة النمساوية : ولم يرفضوها بصورة مطلقة ولكنهم وضعوا لقبولها شروطاً لاتقبلها النمسا ، لأن هؤلاء النواب كانوا

يرغبون بأن ينتخب البرلمان الألماني مباشرة من قبل الأمة لا ان يعين من قبل المجالس التشريعية الألمانية ؛ ويرغبون ايضاً تحقيق مساواة مع النمسا وبروسيا في الكونفدراسيون . وبالتالي ، فان الجوهري من كل ذلك هو ان ما من احد في الرأي الألماني ، في ذلك الحين ، كان يعتبر أن من الممكن القيام باصلاح للكونفدراسيون دون رضى بروسيا ؛ وقد ابعدت بروسيا نفسها عن اجتماع فرانكفورت . ولكن الرأي الألماني ، كان يرى ، بالرغم من كل شيء ، بأنه من اللازم ان تطلب موافقتها .

بلغت الحكومة النمساوية مشروع الاصلاح ، في ٢٢ ايلول ١٨٦٣ ، الى الحكومة البروسية . فأجابت بروسيا بوضع ثلاثة شروط مبدئية :
١ - ارادت بروسيا ان تكون مساوية في الحقوق للنمسا في الكونفدراسيون ، أي أن تكون رئاسة الكونفدراسيون متناوبة بين بروسيا والنمسا .

٢ - ارادت بروسيا ان تحتفظ بحقها في الا تعلن الحرب على دولة أخرى ، حتى ولو قرر البرلمان الفدرالي الحرب ؛ او بتعبير آخر ، ارادت الحكومة البروسية ان تحتفظ باستقلال سياستها الخارجية . ومن الجلي ألا يقبل هذا الشرط .

٣ - لقد طالبت بروسيا ، كما قال قبل قليل اعضاء المجالس التشريعية الألمانية ، بان يكون البرلمان منتخبا من قبل الشعب لا معيناً من قبل اعضاء هذه المجالس التشريعية .

عندئذ طلبت الحكومة النمساوية ، في بلاغ ، في ٢٦ ايلول ١٨٦٣ ، من جميع الحكومات الألمانية ، ان تشكل كونفدراسيون دون بروسيا ، لأن بروسيا لا تريد ان تقبل بالخطة النمساوية ، واقترحت النمسا ان توضع

بروسيا خارجاً . ولكن الامراء لم يقبلوا ولم يتصوروا امكاناً لكونفدراسيون الماني دون بروسيا . ولم يكن هذا منهم قضية مبدأ ، بل قضية منفعة ، لأن هؤلاء الامراء الألمان كانوا يفكرون بأن سيادتهم تكون أكثر احتراماً فيما اذا كان للكونفدراسيون « رأسان » مساوي وبروسي ، في تنافس دائم . وعلى العكس ، اذا كان للكونفدراسيون رأس واحد ، وهو النمسا ، فانهم يجازفون في ان يجدوا انفسهم أكثر خضوعاً لزعيم الكونفدراسيون .

واخفقت الحطة النمساوية في آخر الأمر . حتى ان الامراء ، الذين وافقوا عليها مبدئياً ، لم يتمسكوا بهذه الموافقة عندما رأوا أن بروسيا مصممة على البقاء جانباً . واقتنع الرأي الألماني ، بان لا وحدة ممكنة باي شكل من الأشكال ، اذا لم تعط بروسيا موافقتها ، وهذا الاقتناع هام بالنسبة للمستقبل .

وفي الوقت نفسه ؛ بذلت الحكومة النمساوية جهداً ، دون جدوى أيضاً ، لمحاولة كسر الاتحاد-الجرماني ، التسولفرين ، وكانت المناسبة ابرام معاهدة تجارية بين فرنسا وبروسيا وقعت في ٢٩ آذار ١٨٦٣ . وبعد ابرام هذه المعاهدة ، اضطرت بروسيا ان تعدل تعرفات التسولفرين الجرمانية ، لدراسة اصلاح التعريفات ، فافادت الحكومة النمساوية من ذلك لتدعو من جانبها دول جنوب المانيا لعقد مؤتمر في مونيخ ، وتقترح على هذه الدول تشكيل اتحاد جرماني مع النمسا . واذا ما نجحت هذه الحطة النمساوية فان التسولفرين يفقد قسماً من اعضائه الذين ينفضلون عنه . وهذا ما يجعلنا نقدر اهمية هذا الحادث .

ولكن الحكومة البروسية تفادت مباشرة هذه الضربة : ففي ١٥

كانون الأول ١٨٦٣ صرحت بفسخ معاهدة التسولفرين ، واضافت مباشرة بأنها مستعدة الى انشاء هذا التسولفرين من جديد ، ولكن فقط مع الدول التي تقبل بالمعاهدة التجارية الفرنسية - البروسية .

على اثر ذلك ساد ذعر حقيقي في دول المانيا الجنوبية : ففي الاوساط الاقتصادية ، التجارية والصناعية ، تمسك الناس بشكل اساسي بالحفاظ على التسولفرين . وهذا التهديد كان كافياً لرد دول المانيا الجنوبية وتخليها عن اقتراح النمسا .

وهنا أيضاً يجب القيام بلاحظة ذات أهمية كبرى بالنسبة للمستقبل : وهي ان المصالح المادية للشعوب الألمانية كانت ، في الحقيقة ، مرتبطة ببقاء الاتحاد الجمركي الذي تشكل تحت ادارة بروسيا ، هذا الاتحاد الذي لم تشارك به النمسا . ولا شك في أن وجود التسولفرين ، والرابطة التي أوجدها بين المصالح الاقتصادية للدول الألمانية ، باستثناء النمسا ، هيأ بقوة الوحدة السياسية تحت ادارة بروسيا .

ومع هذا ، ففي آخر ١٨٦٣ ، بعد اخفاق كونفدراسيون فرنكفورت ، كان مستقبل القضية الألمانية غير يقيني : كانت بروسيا والنمسا تتبادلان اللوم ، وبدأت ألمانيا منقسمة على نفسها أكثر من أي وقت مضى ، وعلى أي حال ، بدأ واضحاً أن الأمراء الالمان كانوا عاجزين عن حل قضية تحويل الكونفدراسيون ، وعاجزين عن ارضاء الالمان التي اعرب عنها الرأي العام منذ ١٨٥٩ .

٣ - قضية الدوقيات الدانيماركية

يراد بالدوقيات الدانيماركية دوقيات : شلزيغ ، هولشتاين ، لاونبورغ . وكانت هذه الدوقيات الثلاث الواقعة في قاعدة شبه جزيرة جوتلاند ، في

ألمانيا الشمالية ، تابعة لملك الدانمارك بصفة اتحاد شخصي : كان عاقلها ملك الدانمارك ، ولكنها كانت تحافظ ، من وجهة النظر السياسية ، على نظام يختلف عن نظام الدولة الدانماركية الأصلية . وإذا أخذنا بإحصاء ١٨٦٠ وجدنا أن سكان الدوقيات ٩٩٢٠٠٠ نسمة ، مع أن باقي الدانمارك كان يضم ١٠٦٠٠٠٠٠ نسمة ، أي أن الدوقيات ، في ممتلكات ملك الدانمارك تمثل $\frac{2}{3}$ تقريباً .

ومن وجهة النظر اللغوية في الدوقيات نرى أن سكان هولشتاين ٥٤٠٠٠٠ نسمة تقريباً ، ولغتهم اللغة الألمانية . وأن سكان لاونبورغ ٥٠٠٠٠ نسمة ولغتهم الألمانية أيضاً . أما شلزيغ ، الواقعة في شمال هولشتاين ، فيبلغ سكانها ٣٩٥٠٠٠ منهم ٢٥٠٠٠٠ نسمة تقريباً يتكلمون الدانماركية ، والباقي أي أقل من ١٥٠٠٠٠ يتكلمون الألمانية .

ومن الواضح أن قضية القوميات موضوعة في هذه البلاد ، لأنه يوجد في الشلزيغ شعبان يعيشان جنباً إلى جنب ومن قوميتين مختلفتين : دانماركية وألمانية . ونلاحظ أن دوقية هولشتاين ، منذ ١٨١٣ ، تؤلف جزءاً من الكونفدراسيون الجرمانى ، بالرغم من أنها تابعة لملك الدانمارك ، بينما الشلزيغ لا تؤلف جزءاً منه .

لقد وضعت قضية الدوقيات على الصعيد الدولي لسببين :

الأول ، السبب الاساسي ، وهو أن السكان الالمان في الدوقيات كانوا يحتجون بخاصة ، منذ ١٨٤٠ ، على السيطرة الدانماركية . ومنذ أن ظهرت للعاطفة القومية الألمانية بقوة في ألمانيا أكثر من قبل ، كان من المنطق أن يظهر ألمانو الدوقيتين عاطفتهم القومية بشكل أوضح . ووجدت في الدوقيات حركة تنزع إلى ربط هذه الاراضي بالاتحاد

الجرماني ولكن كان يراد أيضاً ربط جميع الدوقيات ، حتى القسم الدانماركي : فقد دعمت جامعة كيل ، التي كانت المركز الفكري في الدوقيات ، بين ١٨١٥ و ١٨٤٠ ، فكرة « عدم قابلية قسمة » الدوقيات . وهكذا يجب أن نلاحظ ان ألمان الدوقيات لم يطالبوا بتطبيق مبدأ القوميات فقط ، بل كانوا يطالبون بأكثر من ذلك ، لأنهم لم يريدوا أن يلحقوا بالكونفدراسيون الجرماني المناطق المأهولة بالألمان في الدوقيات فحسب ، بل وأيضاً القسم الذي كان مأهولاً بالدانماركيين في الشلفينغ ، أي الشلفينغ الشمالية .

الثاني ، السبب الثانوي ، وهو قضية وراثة ، وذلك ان ملك الدانمارك فريدريك السابع ، الذي وصل إلى العرش في كانون الثاني ١٨٤٨ ، لم يكن له وارث مباشر ، ولم يكن القانون الوراثي واحداً في الدانمارك الاصلية وفي الدوقيات الدانماركية : فبموجب القانون الدانماركي ، يجب أن يعود عرش الدانمارك ، عند وفاة فريدريك السابع ، الى كويستيان آل غلوكسبورغ ، ابن عم الملك ؛ وبموجب عرف الدوقيات ، يجب أن يكون الارث ، بالنسبة للدوقيات فقط لبالنسبة لمجموع المملكة ، الى فريدريك آل اوغستانبورغ الذي كان ابن عم الملك أيضاً ؛ ولكن العلاقات فسدت بينها .

وقبل العصر الذي يشغلنا لفتت طويلاً قضية الدوقيات انتباه الدبلوماسية الاوروبية ، ولنذكر الحوادث الأساسية :

في ١٨٤٨ ثار الألمان الدوقيات على الدانمارك بمناسبة الثورة الالمانية . وألف الألمان الدوقيات حكومة مؤقتة في كيل ، ودعمهم المجلس القومي الالمان في فرانكفورت . وفسح هذا القرار مجالاً لحربين قام بهما الجيش

البرومي ضد الدانمارك ، باسم المجلس القومي الالماني ، وانتهت الحرب الاولى بهدنة ، في ٢٦ آب ١٨٤٨ ؛ وانتهت الثانية بمعاهدة برلين في تموز ١٨٥٠ . وبالرغم من أن بروسيا كانت منتصرة بقوة السلاح فقد تخلت عن الاستيلاء على الدوقيات لئلا تخرض الدول الكبرى ، وبخاصة ، لثلاث تغيط روسيا .

وفي ١٨٥٠ ، رفعت القضية أمام مؤتمر الدول عقد في لندن . وبعد مناقشات طويلة ، سوى هذا المؤتمر قضية الوراثة بمعاهدة ٨ أيار ١٨٥٢ ، وكانت الدول الكبرى ، بما فيها النمسا وبروسيا ، قد سوت سلفاً قضية الارث وعينت كريستيان آل غلوكسبورغ ليكون وارثاً ، وقررت في الوقت نفسه ، الحفاظ على سلامة الملكية الدانماركية : ووعد ملك الدانمارك ، معلناً ، بأن يمنح المساواة في المعاملة للألمانيين في والدانماركبين في الدوقيات . ولم يدع الكونفدراسيون الجرمان في لتوقيع هذه المعاهدة .

وفي الواقع ، وضعت هذه التسوية على بساط البحث ، ويجب ان نقول ان الحكومة الدانماركية كانت شيئاً في هذه القضية . لأنها لم تتمسك بدقة بتعهداتها ، وبذلت جهداً في « دثركة » الدوقيات ، أي أنها حاولت ، بتأثير المدرسة وتأثير الكنيسة ، ان تنمي استعمال اللغة الدانماركية ، وبالتالي كسب القضية لصالح العناصر الدانماركية على حساب العناصر الألمانية في الشلزيغ . وعدا ذلك ، نص في دستور ١٨٣٤ ، على أن تلتحق الشلزيغ بالدانمارك ، وتندمج بها ، بينما كان نظامها حتى هذا التاريخ مغايراً . ولم الشلزيغ لا الهولشتاين ؟ لأن ملك الدانمارك عرف كيف ينقذ ما يمكن انقاذه : فقد رأى أن ما لا يدرك كله لا يترك جله ، وكان يعلم بأنه لا يستطيع انقاذ الهولشتاين ، لأنها

مأهولة بالالمان فقط ، ولذا حاول انقاذ الشلزفيغ حيث كانت أكثرية السكان دانماركية . ومن الطبيعي أن يحتج ألمان الدوقيات على هذه « الدفركة » .

وفي سياق هذه التعقيدات توفي فريدريك السابع ملك الدانمارك ، في ١٥ تشرين الثاني ١٨٦٣ . وبسرعة هرع الامير كريستيان آل غلوكسبورغ ، الذي رشحه مؤتمر ١٨٥٢ ، واحتل العرش تحت اسم كويستيان الثاني . ولكن الامير اوغستانبورغ اعلن ، من جانبه ، بأنه دوق الشلزفيغ وهولشتاين ، بالرغم من القرارات التي اتخذها مؤتمر لندن ، واستنجد على عجل بالحكومات الالمانية بغية حماية حقوق الالمان في الدوقيات .

هذه ، باختصار ، عناصر قضية الدوقيات . أما النتائج التي نجمت عن هذه القضية فيما يتعلق بالحركة القومية الالمانية فهي كما يلي :

منذ أن استنجد اوغستانبورغ بالحكومات الالمانية ، اندفعت على الفور ، في ألمانيا كلها ، حمية العاطفة القومية . وفي كل مكان ، في ألمانيا الجنوبية ، اعرب الرأي العام عن ارادته بشكل صريح : وذلك بلزوم دعم حقوق الدوق اوغستانبورغ ، ودعم حقوق المانبي الدوقيات والانفصال عن الدانمارك . وفي ٢٤ تشرين الثاني ١٨٦٣ ، وجهت اللجنة الدائمة في « الجمعية القومية » (ناسيونال فراين) نداء الى الامراء الالمان والى الشعب الالمانى لصالح اوغستانبورغ ، وطالبت بأن تعمل الدول الالمانية ، وبالتالي ، الديباط الذي كان لسان حالها ، كل ما هو ضروري « لخلاص » الدوقيات . وتألقت « لجنة مساعدة المانبي الدوقيات » ، في غوتنغن ، وهذه اللجنة ، التي يرأسها ميكيل ، أحد مؤسسي « الجمعية القومية » ،

جمعت المال والسلاح لنجدة المائبي الدوقيات . ومن جهة ثانية ، عقد أعضاء اللاندتاغات الالمانية ، أو ، على الأقل ، عدد عظيم منهم ، في ٢١ كانون الاول ١٨٦٣ ، في فرنكفورت ، اجتماعاً وأعرب هذا الاجتماع عن ارادته في المعنى نفسه .

في ٧ كانون الاول ١٨٦٣ ، قرر الديباط الجرمني ، لسان حال الكونفدراسيون ، الاعتراف باوغستانبورغ دوقاً لشلزيغ وهولشتاين . وفي ١٢ كانون الاول ، احيطت الحكومة الدانماركية علماً بقرار الديباط : فقد طلب بأن تجلو عن دوقتي هولشتاين ولاونبورغ في مهلة سبعة أيام ، وتسلم ادارتهما إلى مفوضين مدنيين يعينهم الديباط الجرمني ، وبتعبير آخر ، حاول الديباط الجرمني بانذار الى ملك الدانمارك أن يفصل في القضية الارضية . ولكن لنلاحظ أن الكونفدراسيون الجرمني ، في هذا العمل ، لم يتنكر لتوقيعه ، لأنه لم يشترك في صك ١٨٥٢ أي الصك النهائي لمؤتمر لندن .

وفي الواقع ، ان كل شيء يتعلق بوقف الدولتين الكبيرين الألمانيين : النمسا وبروسيا ، لأن الدول الألمانية الثانوية لم يكن لها جيش رصين . لقد حاولت أن ترسل بعض الجنود إلى هولشتاين ، ولكن حرب الدانمارك ، في نظرها ، كان مشروعاً صعباً . وبالعكس إذا اشتركت النمسا وبروسيا ، سهل كل شيء .

قررت الحكومة البروسية أن تتدخل مباشرة . ولا شك في انها وجدت أمامها نقطة مربكة بالنسبة لها ، وهي أنها وقعت معاهدة ١٨٥٢ التي تعترف بحقوق كريستيان آل غلو كسبورغ في الارث الدانماركي . ولكن ملك الدانمارك ، من جهة أخرى ، لم يحترم تعهداته في موضوع « المساواة في الحقوق »

بين الألمان والدانمارك . فأفاد بسمارك من هذا التعهد وقال ، بأنه يتدخل ، من جانبه ، لا لصالح اوغستانبورغ ، بل لحماية ألماني الدوقيات الذين لم تعاملهم الحكومة الدانماركية كما يجب عليها أن تعمل . وكان هذا الموقف حازماً لأن بسمارك ، الذي كان ، في ذلك الحين ، لا يرغب مطلقاً في اعطاء الدوقيات لدوق اوغستانبورغ ، بل كان يفضل كثيراً أن يضمها إلى بروسيا ، لم يأخذ على نفسه تعهداً حيال اوغستانبورغ . أما النمسا ، فلم يكن لديها أي سبب مباشر للتدخل في هذه القضية ، والجدير بالذكر أن لديها من الأسباب ما يجعلها لا تعمل شيئاً ، باعتبار أنها دولة مؤلفة من عدة « قوميات » مختلفة ، وإن التدخل لصالح ألمان الدوقيات ، باسم مبدأ القوميات ، يمكن أن يكون خطراً عليها من وجهة سياستها الداخلية . ومع ذلك فإن الحكومة النمساوية قررت بأنها لا تستطيع البقاء جانباً . ونظراً لحماية الرأي الألماني ، رأى الامبراطور ، بأنه إذا لم يعمل شيئاً ، فإن الفرصة مواتية لأن يقال له بأن النمسا ليست « دولة ألمانية » ، لأنه لم يأت لنجد ألمان الدوقيات . ولذا فإن الحكومة النمساوية قررت مكرهه أن تشارك في السياسة البروسية . حتى ان الوزير النمساوي للشؤون الخارجية ، وشبرغ ، رأى أن الحالة أخذت تصعب شيئاً فشيئاً بين النمسا وبروسيا ، فأراد أن يحاول تقارباً : ومن الممكن أن تكون قضية الدوقيات مناسبة لهذا التقارب .

تفاهمت النمسا وبروسيا ووقعتا ، في ١٦ كانون الثاني ١٨٦٤ ، معاهدة : واتفقتا على أن توجهتا إنذاراً إلى الدانمارك مع مهلة ثمان واربعين ساعة ، وإذا لم تجل الدانمارك عن الدوقيات ، أن ترسلا اليها جيشاً مساوياً - بروسيا ، مع العلم بأن هذا الجيش النمساوي البروسي سيعمل مستقلاً عن الجيوش التي أرسلها الديايط .

أرسل الانذار ، فرفضته الدانمارك وبدأت الحرب . وإذا دامت هذه الحرب ، التي لا يهم تاريخها مباشرة موضوعنا ، عدة أشهر ، مع أن الدانمارك بـ ١٦٠٠٠٠٠ نسمة كان عليها أن تناضل ضد دولتين كبيرتين ، فذلك لأن القتال لم يكن كل الوقت ، فقد عقدت هدنات مؤقتة عدة مرات . ولم تمدد الدانمارك مقاومتها إلا أملاً بأن تأتي الدول الكبرى لنجدها . ولكن انكسرتا وفرنسا وروسيا لم تشأ التدخل بالسلاح للحيولة دون سحق الدانمارك . واضطرت الدانمارك أخيراً ، في ٣٠ تشرين الأول ١٨٦٤ ، في صلح فيمتا ، أن تتخلى عن الدوقيات لبروسيا والنمسا ، بما فيها الشلزيغ الشمالية . وعليه فإن صلح فيمتا لم يوقع على أساس مبدأ القوميات .

فسح مصير الشلزيغ وهولشتاين في المستقبل مجالاً لتهديد بالحرب بين النمسا وبروسيا . ونقتصر هنا على ذكر الحوادث العامة : لم يكن للحكومة البروسية ، بعد صلح فيمتا ، إلا رغبة واحدة وهي ضم الدوقيات إلى بروسيا . ولذا وجب إقصاء أوغستانبورغ ، وصرح بسمارك بأنه لا يقبل بوجود الدوق أوغستانبورغ على رأس حكومة الدوقيات إلا بثلاثة شروط : وذلك بأنه يتوجب على الدوق أن يبرم اتفاقاً عسكرياً مع بروسيا ، وأن يقبل بدخول الدوقيات في التسولفرابن ، وأن يتخلى لبروسيا عن ميناء كيل لتقيم فيه محطة بحرية . رفض أوغستانبورغ ودعمته النمسا . وكادت الدولتان ، بروسيا والنمسا ، أن تصلا إلى النزاع : كاد بسمارك أن يخلق حالة الأمر الواقع ، أي أن يصرح بضم الدوقيات إلى بروسيا ، ومن ثم أن ينتظر ردود فعل الحكومة النمساوية . وفي هذا ما يؤدي إلى الحرب رأساً . ولكن الملك غليوم ، في ذلك الحين ، لم يشأ الحرب . ومن

جهة ثانية ، إن موقف إيطاليا وموقف فرنسا ، في حالة حرب بمساواة - بروسية ، لم يتضعا بشكل كاف ، ولذا قرر بسمارك أخيراً أن يؤجل حل القضية وعقد مع النمسا تسوية جديدة . وهذه التسوية هي اتفاق غاشتاین ، في ١٤ آب ١٨٦٥ ، وبوجهه تسلم الشلزيغ لإدارة بروسيا وكذلك اللاونبورغ وهولشتاین ، باستثناء كيل ، إلى إدارة النمسا . وكانت هذه التسوية موقنة وتعتبر نقطة توقف بسيطة في السياسة البسماركية .

انعكاسات قضية الدوقيات - . وإذا أردنا أن نعرف انعكاسات هذه القضية على الحركة القومية الألمانية وعلى العاطفة القومية الألمانية ، وجدنا أن « الجمعية القومية » ، في ٣١ تشرين الأول ١٨٦٤ ، أي بعد صلح فيينا مباشرة ، عقدت اجتماعاً سنوياً . وفي هذا الاجتماع نوقشت قضية الدوقيات فأثارت أحكاماً مختلفة .

لقد كان بعضهم ، ولسان حالهم ميكيل ، يصرحون بأن الدوقيات يجب أن تشكل دولة جديدة في الكونفدراسيون الجرمانی . وأن يكون على رأسها الدوق اوغستانبورغ . وبالتالي يعارض هؤلاء السياسة البروسية ، ويصرحون بأن بروسيا ليس لها حق في تسوية قضية الدوقيات لصالحها الشخصي ، لاسيما وانما صرحت بأنها تتدخل لصالح المصالح الألمانية عامة ، وليس لها الحق في أن تحتكر فائدة هذا التدخل .

أما الآخرون ، وبخاصة البروسيون ، فقد أعربوا عن رأيهم لصالح سياسة بسمارك .

ومن جهة ثانية ، لقد تدخلت قضية السياسة الداخلية البروسية في النقاش . فقد كان أعضاء « الجمعية القومية » احراراً بخاصة ، ولذا غاظهم بعنف الموقف الذي اتخذته بسمارك في « النزاع الدستوري » حيث اساء

معاملة البرلمان البروسي، وهذا سبب آخر في عرقلة سياسته في قضية الدوقيات .
وأخيراً ، تبنت « الجمعية القومية » تقريراً يتضمن نص تسوية
تعلن أنها لصالح استقلال الدوقيات ، دون ضمها إلى بروسيا ، ولكنها
تقبل مع ذلك باحتلال بروسيا لمحنة كيل الملاحية . وبالأجمال ، ات
الجمعية القومية ، أي الكتلة الهامة من أنصار الوحدة الألمانية ، قد أعلنت
بالأكثوية أنها ضد سياسة بسمارك . ولذا انتقد اتفاق غاشتاین بعنف
حار في ألمانيا .

وأظهرت الدول « الوسطى » الألمانية استياءً عنيفاً ، لأن النمسا
وبروسيا سوتا قضية الدوقيات « مؤقتاً » دون أن تستشيراهما . وعبرت
العصبات السياسية الألمانية ، في الدوقيات نفسها ، عن تظلمها ، لأن اتفاق
غاشتاین يبعد ، في الواقع ، الدوق اوغستنبورغ . وأخيراً صرح
أحرار ألمانيا الشمالية ، وحتى أحرار البروسيين ، بأن اتفاق غاشتاین كان
اعلان حرب على الرأي العام ، لأنه يشكل خرقاً للحق ولا يعترف
باستقلال الدوقيات .

إن ما نستطيع استنتاجه من هذه القضية هو أن « خلاص » الدوقيات
من السيطرة الدانماركية كان نجاحاً وفوزاً للفكرة القومية الألمانية .
وقد تجاوز هذا الفوز هدفه ، لأن بروسيا والنمسا لم تكتفيا بفصل
الأراضي المأهولة بالألمان عن الدانمارك ، بل انهما فصلتا أيضاً أرضاً ،
الشازفينغ الشمالية ، مأهولة بالدانمارك . ولكن بروسيا ، التي حصلت على هذه
النتيجة ، أخذت الآن تبحث عن استغلالها لصالحها الشخصي ، وتتحدى
العواطف التي أعربت عنها أكثوية الدول وأكثوية الرأي العام الألماني .

ولذا فان قضية الدوقيات ، في عام ١٨٦٥ ، عكست بشدة الحركة القومية الألمانية ، ولكن بشكل مؤقت فقط .

وظأت الحالة في ألمانيا مبللة جداً بعد اتفاق غاشتاین ، لأن هذا الاتفاق لم يعط قضية الدوقيات إلا نتيجة مؤقتة ، ولأن قضية اصلاح الكونفدراسيون ، بعد اخفاق ١٨٦٢ و ١٨٦٣ ظلت معلقة دوماً . وظل الخصام النمساوي - البروسي يغذي في ألمانيا تهديداً بالخلاف . وكان بسمارك يرجو هذا الخلاف ويتمناه ، كما كان مصمماً على اثره في أول فرصة ملائمة .

الفصل الثالث

أزمة ١٨٦٦ في ألمانيا

أصل أزمة ١٨٦٦

لقد رأينا كيف أبرمت التسوية بين النمسا وبروسيا بشأن قضية الدوقيات ، باتفاق غاشتاین . وبالرغم من إبرام هذا الاتفاق ، الذي لم ير فيه بسمارك ألا وسيلة مؤقتة ، فقد هب نزاعاً مع النمسا - هونغاريا . ووجدت قضيتان في أساس هذا النزاع النمساوي - البروسي وهما : قضية الدوقيات من جهة ، وقضية اصلاح الكونفدراسيون الجرمانی ، من جهة اخرى .

قضية الدوقيات . - لقد قرر اتفاق غاشتاین تقسيم ادارة الدوقيات بين النمسا وبروسيا : للنمسا ادارة هولشتاین ، ولبروسيا ادارة الشلزيغ . وباعت هذه التسوية بضمن بخس حقوق الدوق اوغستانبورغ الذي كان يطالب بسيادة الدوقيات : فقد قام الدوق اوغستانبورغ وأنصاره بدعاية ضد اتفاق غاشتاین . وعارضت الادارة البروسية في الشلزيغ هذه الدعاية بينما تركتها الادارة النمساوية ، في الهولشتاین ، تعمل مائتشاء . ولم تهتم النمسا بقضية الدوقيات الا لتمنع بروسيا من الفوز التام ، وقبلما كانت يهملها نجاح دعاية اوغستانبورغ . ثم طلبت الحكومة البروسية الى الحكومة

النمساوية ان تتفق معها لقمع دعاية اوغستانبورغ . فأجابت النمسا ، بأن كل واحدة منها حرة في العمل كما يحلو لها في منطقة ادارتها . وهذا معناه عدم اتفاق النمسا وبروسيا على قضية الدوقيات .

قضية اصلاح الكونفدراسيون الالماني . - لقد قدر بسمارك ان قضية الدوقيات وحدها ليست أرضاً صالحة لاثارة نزاع مع النمسا - هونغاريا ، ورأى ، لوضع هذا النزاع في ظروف حسنة ، ان من الضروري وضع قضية أخرى وهي قضية اصلاح الكونفدراسيون . وقد اثبت هذه القضية في ١٨٤٨ ، وأخفقت محاولة الاصلاح في ذلك الحين . ولكن الرأي الالماني ، منذ ١٨٥٩ ، كان يطالب من جديد باصلاح الكونفدراسيون ، ورأى بسمارك ان يقترح ، كأساس لحطة الاصلاح ، انشاء بارلمان الماني تنتخبه الشعوب الألمانية بالتصويت العام . ولكن النمسا عارضت هذه الحطة .

وفي ٢٨ شباط ١٨٦٦ انعقد مجلس التاج البروسي ، أي مجلس الوزراء البروسي بحضور ملك بروسيا ، وقرر الحرب اذا لم تتخل النمسا عن موقفها وتتنازل . وقر الرأي في هذا المجلس أن تؤجل الحرب ريثما يتخذ بسمارك اعداداته الدبلوماسية الضرورية . وكان يراد من ذلك معرفة موقف الدول الكبرى الأوروبية في حال نزاع بين النمسا وبروسيا .

موقف الدول الكبرى . - لم يترك موقف روسيا مجالاً لشك : وكان يعتقد بأن تبقى محايدة . ولا شك في انها ، في ١٨٥٠ ، اثناء أزمة اولمتر اظهرت تفضيلها للنمسا ، ولكن الحوادث تطورت منذ ذلك الحين : ففي ١٨٦٥ عقد اتفاق بين بروسيا وروسيا بشأن القضية البولونية ، وكانت هذا الاتفاق يسمح لبسمارك بأن يأمل بأن تدع روسيا النزاع يقوم بين

النمسا وبروسيا دون ان تتدخل . أما انكاثرا فقد كان بسمارك على يقين من انها ستبقى محايدة ، لأنها لم تكن لهم - بشكل كاف في حوادث أوربه الوسطى لترغب بالتدخل .

وفي الحقيقة ان الدولتين اللتين كانتا ترغبان في هذا التدخل هما ايطاليا وفرنسا : فقد كانت لايطاليا مصلحة مباشرة بالدخول في النزاع ، لأنها بعد حرب الاستقلال الايطالي ، في عام ١٨٥٩ ، حررت لومبارديا دون البندقية التي ظلت اقلية بمساوياً . ولذا كان من المنطق ان تصبح ايطاليا حليفة لبروسيا ، تستفيد من هذه الحرب النمساوية - البروسية وتسترد البندقية . ولكن موقف ايطاليا كان يتعلق بشكل عريض بالموقف الذي تتخذه فرنسا . وهكذا حامت جهود بروسيا والنمسا حول فرنسا .

جهود بروسيا - لقد قام بسمارك بمحاولات مع نابوليون الثالث في بياريتز، في تشرين الأول ١٨٦٥ ، ولم تؤد مقابلة بياريتز الى نتيجة واضحة ، ولكن بسمارك عاد منها بانطباع : وهو ان محادثات نابوليون الثالث اقنعت ان فرنسا ، في حالة حرب بمساوية - بروسية ، لانهتم بخاصة بالقضية الايطالية ، وبالتالي ، يمكن ان تشجع التحالف بين ايطاليا وبروسيا . وهذا ماحدث فعلاً : ففي ٨ نيسان ١٨٦٦ ابرم التحالف بين ايطاليا وبروسيا ، وتم بمساعدة نابوليون الثالث الذي وعد الحكومة الايطالية ، بان بروسيا ، لمغامرة ما ، اذا تخلت عن التحالف الذي ابرمته ، فان فرنسا ، على أي حال ، لن تترك النمسا تسحق ايطاليا .

وربما كان نابوليون الثالث مستعداً للذهاب الى ابعد من ذلك : فقد حاول ، بين نيسان وحزيران ١٨٦٦ ، ان يرى ما اذا كان هنالك امكان للتحالف بين فرنسا وبروسيا ، ولكن نابوليون الثالث كان يريد ان

يدفع له ثمن هذا التحالف : كأن يطالب ، في مثل هذه الحالة ، بتعويضات أرضية على الضفة اليسرى لنهر الراين . ولم يشأ بسمارك ان يعطي هذه التعويضات الأرضية ، وبالتالي لم تؤد المفاوضة الفرنسية - البروسية الى شيء .

جهود النمسا - أما النمسا فقد بذلت جهوداً دبلوماسية لدى فرنسا لتحارل اقناع الحكومة الفرنسية بمنع التحالف الايطالي - البروسي . ولم تنجح في ذلك . لذا عادت الحكومة النمساوية الى خطة أكثر تواضعاً وحاولت ، على الأقل ، الحصول على حياد فرنسا . ووعدت فرنسا بهذا الحياد باتفاق سري وقع قبيل الحرب في ١٢ حزيران ١٨٦٦ : وذلك بان وعدت فرنسا بان تبقى محايدة ، أي لا تدعم بروسيا في نزاع مساوي بروسي بشرط واحد : وهو ان تتخلى النمسا ، ولو كانت منتصرة ، عن البندقية ل نابوليون الثالث ، الذي يتنازل عنها مباشرة لاطاليا ، وتعويضاً لذلك ، تستطيع النمسا ، اذا كانت منتصرة ، ان تحصل على توسعات أرضية في المانيا .

وفي هذه الشروط ظهرت الحالة الدبلوماسية . وتسارعت الحوادث في بداية حزيران ١٨٦٦ : فقد قررت الحكومة النمساوية احالة حل قضية الدوقيات الى الديباط الجرمني ، الهيئة المركزية للكونفدراسيون . ولكن بسمارك صرح بأن هذا القرار يؤلف انتهاكاً للمعاهدة التي ابرمت بين النمسا وبروسيا ، في كانون الثاني ١٨٦٤ ، بمناسبة قضية الدوقيات . وادخلت الحكومة البروسية مباشرة جيوشها في الهولشتاين أي في قسم الدوقيات الذي سلم لادارة النمسا . فأجابت الحكومة النمساوية بعرض هذه القضية الجديدة أمام الديباط ، لأن حك الكونفدراسيون الجرمني ، كما ابرم في عام ١٨١٥ ، يحرم على دولة من الدول الأعضاء في الكونفدراسيون

ان تهاجم أرض دولة أخرى عضواً ، وكانت الهولشتاين عضواً في الكونفدراسيون . وبموجب صك ١٨١٥ ، رفعت النمسا هذا الحلف الى الديپاٹ ، وطالبت من الحكومات الألمانية أن تقرر النفيہ ضد بروسيا ، وصرحت ان بروسيا ، خرقت الصك الاتحادي . وعند التصويت ، في ١٤ حزيران ١٨٦٦ ، انقسمت الدول الألمانية : فقد صوتت دول الجنوب وبعض دول الوسط أيضاً ودولة واحدة ، هانوفر في المانيا الشمالية ، لصالح النمسا . وصوتت الدول الأخرى ، وكانت دولاً صغيرة ، لصالح بروسيا . وانقسمت المانيا الى قسمين . ولم تنفجر الحرب بين بروسيا والنمسا فحسب ، بل وأيضاً بين بروسيا والدول الألمانية التي صوتت للنمسا . وهذا يعني حرباً أهلية ألمانية .

ونقتصر ، في حرب ١٨٦٦ ، على ذكر المراحل الأساسية : كانت بروسيا وإيطاليا متحالفتين ، وتستطيعان أن تضعا في خط القتال نحو ٥١٠٠٠٠ رجل . وتستطيع النمسا ، مع حلفائها الألمان ، أن تضع في خط القتال نحو ٤٧٠ ٠٠٠ ، ولكن على مسرح العمليات الأساسي ، أي حدود بوهيميا ، وجدت الجيوش النمساوية والبروسية متساوية عددياً .

سحق الجيش البروسي دون صعوبة جيوش الدول الألمانية التي دعمت النمسا . وكانت المعركة الكبرى في لانتغنوالدس ضد الجيش الهانوفري الذي كان يحاول أن ينحدر نحو الجنوب لينضم الى الجيوش البافارية . ووضعت الدول الألمانية خارجاً عن القضية بسرعة . ومن جهة أخرى ، على الجبهة الجنوبية ، أخفق الجيش الايطالي رغم تفوقه العددي الواضح على يد الجيش النمساوي في كوستوزا . وقامت على مسرح العمليات الأصلي ، في ٣ تموز ، أي بعد ثمانية عشر يوماً من بدء الحرب ، معركة سادوفا أو كونيغواتز ، كما يسميها البروسيون عموماً . وفي سادوفا غلب

الجيش النمساوي بقضه وقضيضه واضطر الى الانطواء باضطراب كامل ، نحو فينا . وقدرت القيادة النمساوية بأنها لاتستطيع الدفاع عن فينا ، ومن المحتمل ان تضطر الى الانطواء بجيوشها نحو هونغاريا .

وخلافا لكل ما كان منتظرا ، لان العالم كان يعتقد بحرب طويلة الأمد ، غلبت النمسا في أقل من ثلاثة أسابيع . وكان يراد الآن معرفة تسوية السلام : ففي ١ تموز ، غداة سادوفا ، انهضت الحكومة النمساوية نحو نابوليون الثالث واستنجدت بوساطته . وكان نابوليون الثالث نفسه في حالة مربكة جداً : فقد ترك الحرب النمساوية - البروسية وشأنها ، على حين أنه كان بإمكانه أن يمنعها لو كان حليفاً لأحد الخصمين ، ولكنه كان مقتنعاً بأنها ستدوم طويلاً . إلا أن النصر البروسي كان سريعاً للغاية ، فما العمل ؟ هناك حل : وهو استنفار الجيش الفرنسي ، وحمل الجيوش الفرنسية على الراين والفرل الى بروسيا : « مكانك » ، إلا أن الحكومة الفرنسية أبعدت هذا الحل بعد مناقشات دامت طويلاً في سان كلو ، حيث ظل نابوليون الثالث طوال يوم ٥ تموز . ولم يجرأ على استنفار الجيش الفرنسي ضد بروسيا واكتفى بتدخل دبلوماسي .

وفي ١٤ تموز اقترح نابوليون الثالث على الدولتين المتحاربتين : النمسا وبروسيا ، « أسس السلام » وهي كما يلي :

أ - حل الكونفدراسيون الجرمانى الذي وجد منذ ١٨١٥ .

ب - فى الاراضى الالمانية التى كانت تشكل الكونفدراسيون ، يجب فى المستقبل ، كما قال نابوليون الثالث ، تمييز ثلاثة أقسام :

١ - الاراضى الواقعة فى شمال خط نهر الماين ، ويجب أن تؤلف كونفدراسيون المانيا الشمالية تحت ادارة بروسيا .

٢ - دول المانيا الجنوبية : بافاريا ، فرانكربغ ، دوقية باد الكبرى .
وقسم من دوقية هس الكبرى ، ويجب أن تبقى مستقلة .

٣ - الاراضي النمساوية ، وهذا يعني أن النمسا ، منذ الآن فصاعداً ،
أبعدت عن القضايا الجرمانية .

وأخيراً اقترح نابوليون الثالث ، في جملة اقتراحاته ، ضم الدوقيتين ،
شازفيغ وهولشتاين ، الى بروسيا .

وكانت اقتراحات نابوليون الثالث نفسه موضوع مفاوضات خلال عشرة
أيام . واضطرت الحكومة البروسية أن تقبل الأسامي ، أي أنها اضطرت
أن تعدل عن الاستيلاء على المانيا الجنوبية ، ولكنها حملت جهودها كلها
على نقطة أخرى : ولعلنا نعلم تعقيد الخارطة السياسية في المانيا الشمالية
وكيف قسمت الاراضي البروسية الى قسمين . لذا طلبت الحكومة
البروسية السماح بضم عدد من الدول الالمانية الى بروسيا بشكل تستطيع
فيه تحقيق استمرار الاراضي بين قسمي الاراضي البروسية . وانتهى
نابوليون الثالث في هذه النقطة بالتنازل ، لأنه كان يرجو ، بالمقابل ، الحصول
على تعويضات .

وفي هذه الشروط وقعت ، في ٢٦ تموز ١٨٦٦ ، مقدمات صلح
نيكولسبورغ بين النمسا وبروسيا . واتبعت هذه المقدمات ، في ٢٣ آب ١٨٦٦ ،
بصلح براغ . وقد أسس هذا الصلح على المبدأ الذي سبق وقلناه وهو :
أن يكون كونفدراسيون المانيا الشمالية تحت ادارة بروسيا ، ومانيا
الجنوبية مستقلة ، والاراضي النمساوية منفصلة عن المانيا ، ومن جهة
أخرى ، تستطيع بروسيا ان تضم عدداً من الاراضي في المانيا الشمالية .
ولم يبق على الحكومة البروسية الا أن تقسم « كونفدراسيون »

ألمانيا الشمالية ، . وقد أخذ هذا الكونفدراسيون دستوراً ووضع هذا الدستور موضع التنفيذ في اليوم الأول من تموز ١٨٦٧ . وأدت أزمة ١٨٦٦ ، وهذه هي الفكرة الأساسية ، الى تفويض ألمانيا الكبرى ، نهائياً ، أي الى التخلي الكلي عن الصيغة التي بموجبها تستطيع ألمانيا أن تشمل الأراضي النمساوية . وبالمقابل ، لم تساعد أزمة ١٨٦٦ -بإمبارك على تحقيق الوحدة الألمانية تحت شكل « ألمانيا الصغرى » ، أي ألمانيا التي تضم كل الأراضي الألمانية ماعدا النمسا . وفي الواقع ، كان على ألمانيا الجنوبية ، حسب صاحب براغ ، ان تبقى مستقلة . وهذا حل ناقص ، ويجب أن نقول ، إذا كان هذا الحل على ما هو عليه فذلك ، لحد كبير ، بسبب تدخل نابليون الثالث الدبلوماسي . وقد فهم بإمبارك انه اذا أراد أن يتجاوز هذه الإرادة الفرنسية فعليه أن يجازف بالحرب ولم يشعر بنفسه أنه في حالة تمكنه من القيام بها في تلك الآونة .

ويرتبط بتاريخ الحركة القومية الألمانية في هذه الحرب قضيتان : أولاهما ، قضية الحلف النمساوي - البروسي الذي نشب في منتصف حزيران ١٨٦٦ وانتهى أخيراً « بتمزق » ألمانيا في حرب بين الدول الألمانية ، لأن هذه الحرب لم تكن حرباً بين النمسا وبروسيا فقط . وقد نتساءل عن الأسباب التي دفعت الدول الألمانية « الوسطى » ، أو الدول الألمانية الصغيرة إلى تحزبها ، إذ ربما كان بإمكانها أن تبقى محايدة بين النمسا وبروسيا .

والقضية الثانية ، هي أن الحلف النمساوي - الهونغاري كان من نتيجته إنشاء كونفدراسيون ألمانيا الشمالية ، تحت إدارة بروسيا . وبهذه المناسبة نتساءل ما هو موقف الأمراء الألمان ، وموقف الشعوب الألمانية .

٢ - تمزق ألمانيا عام ١٨٦٦

لم تقف الدول الألمانية حيال النزاع النمساوي - البروسي محايدة ، بل تحزب بعضها للنمسا والبعض الآخر لبروسيا ، ولهم هذا التمزق ، يجب أن ندرس من جهة موقف الرأي العام ، ومن جهة أخرى موقف الحكومات الألمانية .

موقف الرأي العام . - إذا تذكرنا الحركة القومية عام ١٨٥٩ وجدنا أن أنصار الوحدة الألمانية كانوا من الأوساط الليبرالية . فهل باستطاعة بسمارك أن يعتمد على الأحرار في بروسيا وعلى الأحرار في الدول الألمانية الأخرى لتحقيق الوحدة لصالح بروسيا ؟ من الوجهة النظرية يمكن أن يكون الأمر كذلك ، بيد أنه ، في الواقع ، كان مستحيلاً بسبب السياسة الداخلية البروسية : فمنذ ١٨٦١ قام في بروسيا نزاع خطير جداً بين البرلمان وحكومة الملك ، ولم يكن من جبي وبسمارك إلى السلطة ، في ايلول ١٨٦٢ ، إلا أن جعل هذا النزاع حاداً أكثر من قبل : فقد رفض البرلمان للحكومة الاعتمادات الضرورية لتحقيق الإصلاح العسكري ، فقرر بسمارك أن يتجاوز ، أي أن يحكم دون أن يصوت البرلمان على الموازنة ، وجبى الضرائب دون أن يسمح للبرلمان بجبايتها . وحكم بسمارك اذن في شروط غير قانونية ، ومناقضة للدستور تماماً . ومنذ ايلول ١٨٦٢ كان العراك عنيفاً بين بسمارك والأكثرية الليبرالية في البرلمان البروسي . وفي شباط ١٨٦٦ أيضاً ، ظل كل واحد من الفريقين على مواقعه . ورفض البرلمان مرة ثانية التصويت على الاعتمادات ، واجاب بسمارك مرة أخرى : سأعمل كما لو صوّتم عليها . لاستطيع ان أمنع الدولة من السير ، وعليه فستسير الدولة ولو في ظروف معاكسة للدستور .

وفي أيار ١٨٦٦ ، أي قبل قرابة شهر من بداية الحرب النمساوية - البروسية ، كان البرلمان البروسي منجلاً ، وفي الحملة الانتخابية قام الاحرار البروسيون ، خصوص بسمارك في السياسة الداخلية ، بحملة على هذا الغرض : وهو عدم التصويت على أقل اعتماد للحرب ضد النمسا مادام بسمارك في السلطة .

وكان على بسمارك ، في بروسيا ، أن يقف أمام معارضة تبدو مصممة وتلتحق كل قرار من القرارات في السياسة الخارجية بذهاب رئيس مجلس الوزراء ومغادرته السلطة . وكان لهذه الحال انعكاسات هامة في الأوساط الليبرالية في ألمانيا ، في خارج بروسيا ، وكان الاحرار في ألمانيا الجنوبية ، وفي هانوفر ، يتابعون عن كثب مراحل هذا الخلاف الدستوري البروسي وبشجبون موقف بسمارك . وعدا ذلك ، عندما يدرس الاجرار الألمان القضيتين المتنازعتين بين بروسيا والنمسا ، قضية الدوقيات وقضية الاصلاح الفدرالي ، لايحذون وجهة النظر البروسية ، ويرون أن الدوق اوغستانبورغ أهل تماماً لحكم الدوقيات ، وان نتيجة السياسة البسماركية إزالة اوغستانبورغ في ظروف غير مقبولة . وفي موضوع الاصلاح الفدرالي ، اقترح بسمارك اقامة برلمان ألماني تنتخبه الشعوب الألمانية بالتصويت العام ، ويبدو أن هذا الاقتراح كان « بلفاً » ، حتى ان الاحرار في ألمانيا الجنوبية وفي غيرها بادروا الى القول بان اقتراح بسمارك كان مخاطرة من جانبه ، لأن بسمارك كان في بروسيا يكافح الليبرالية بعنف لاثبت له ، ويقترح الآن اقامة برلمان منتخب بالتصويت العام في ألمانيا . فكيف يمكن الوثوق بصانع الرجعية في بروسيا ، ليحقق ، في نطق ألمانيا المستقبل ، نظاماً ليبرالياً ؟ ولقد أدلى بهذه الحجج ميكيل

أحد زعماء الحزب الليبرالي في هانوفر وزعماء الحركة الليبرالية في ملكة
فرانكفورت أيضاً .

منذ ١٨٥٩ ، كما نعلم ، وجدت المنظمة الكبرى ، وهي « الجمعية
القومية » التي انشئت للدعاية لفكرة الوحدة الألمانية ، فما هو موقف هذه
المنظمة قبيل حرب ١٩٦٦ ؟ في ١٤ حزيران ١٨٦٦ نشرت « منظمة الجمعية
القومية » منشوراً قالت فيه : « من اذن ، بيننا ، يستطيع يجد أن يعتقد
بأن بروسيا ، تحت هذا التوجيه ، توجيه بسمارك ، في الظروف الداخلية
التي توجد فيها مستضعفة بسبب الاستياء العميق لشعبها الخاص ،
وليس الشعب في داخل البلاد فحسب ، بل الشعب المسلح ، تستطيع أن
تخرج منتصرة من هذا النزاع الرهيب ؟ وليس في مصلحة حزب ، بل
في مصلحة بروسيا ونصرها ، نطلب كشروط مبدئية التخلي عن هذه
السياسة وعن الذي يجسدها » . والمقصود بالسياسة ، سياسة النزاع ضد
الليبرالية ، والذي يجسدها هو بسمارك . وصرحت رابطة « الجمعية القومية » ،
هيئة انصار الوحدة الألمانية ، في الوقت الذي بدأت فيه الحرب النمساوية -
البروسية ، بقولها : نصر بروسيا ؟ نعم اننا نرجوه ، إذا لم يكن بسمارك ،
وقبل كل شيء يجب أن ينصرف بسمارك !

لقد كان بسمارك يعلم بأن ليس له ما يرجوه من الاحرار ، ولهذا افترح
إقامة برلمان ألماني منتخب بالتصويت العام . لأن خصومه الليبراليين كانوا
كلهم بورجوازيين تقريباً ، وكان بسمارك يفكر بأنه يستطيع بالتصويت
العام أن يجد في الجماهير الشعبية نقطة استناد ضد البورجوازية الليبرالية .
وهذه هي السياسة التي فكر فيها عام ١٨٦٣ عندما جرت محادثات
سرية بينه وبين الرعييم الاشتراكي الألماني فرديناند لاسال . ولم يكن
هذه المحادثات من نتيجة لأن لاسال قتل في مبارزة بعد ذلك بقليل .

اذن لقد كان رأي الأحرار الألمان « غير مناويء » لبروسيا ولكنه كان « مناوئاً لبسارك » .

ومن جهة أخرى ، لم يكن هؤلاء الأحرار ليرجون انتصار النمسا مطلقاً . وفي الواقع ، ان هذا النصر يعني بالنسبة لألمانيا ، دخول الجيش النمساوي في الأراضي الألمانية . وكان هذا الجيش النمساوي يضم نسبة من ١٥٪ الى ٢٠٪ ألمان وأكثرية سلافيين : ان فكرة رؤية قسم من ألمانيا يحتله سلافيو النمسا كانت غير محتملة من أكثرية الألمان . وعدا ذلك ، ان النصر النمساوي يمكن أن يعني بالتأكيد عسر رد فعل ورجعية ربما لا يقل عن الرجعية التي يمكن أن تلتظر من بسارك نفسه . ولذا فان الرأي الألماني ، في أكثرية العظمى ، لا يمتنى النصر النمساوي .

ومن المنطق أن يقول هذا الرأي العام : ان هذه الحرب بين النمسا وبروسيا ، هذه الحرب بين دولتين المانيتين ستكون حرب « قتل الاخوة » . ولذا ينبغي تجنب هذا النزاع ، لاسيما وان الحرب النمساوية - البروسية يمكن أن تمثل بالنسبة لألمانيا خطراً خطيراً جداً ، لأن الدول الأجنبية ، وبخاصة فرنسا ، يمكن أن تقيّد منها للتدخل . واذا دامت الحرب النمساوية - البروسية طويلاً ، وكان جميع الناس يعتقدون بأنها ستدوم عدة أشهر ، تكون المخاطرة بتدخل فرنسا عظيمة . وهذا هو الحساب الذي أجراه نابليون الثالث : فاذا ترك هذه الحرب وشأنها فذلك لأنه فكر بأنها تدوم طويلاً ، وانه يستطيع أخيراً أن يتدخل بشكل نافع ومفيد .

وكان الرأي الألماني مجعاً في هذه النقطة : فلم يكن ليبرد التدخل الاجنبي في قضايا ألمانيا . حتى ان كثيراً من الألمان كانوا يفكرون ،

بأنه يجب عليهم ، إذا لم يستطيعوا منع الحرب النمساوية - البروسية ، أن يكونوا محايدين على الأقل . هكذا كان يفكر البافاريون والفرنسا مبرجوازيون والهانوفريون ، أولاً ، لأنه لم يكن لهم مصالح مباشرة في الحرب ، وبخاصة ، لأنه كان يوجد في ألمانيا قوى عسكرية لم تكن مشتوكة في الحرب النمساوية - البروسية وتستطيع ، عند مقتضى الحال ، أن تعارض التدخل الفرنسي .

موقف الحكومات . - لفهم موقف الحكومات يجب أولاً معرفة الوضع الحقوقي للقضية : ان الميثاق الاتحادي ، أي الميثاق الجرمانى لعام ١٨١٥ ، الذي أنشأ الكونفدراسيون ، بصرح في المادة الحادية عشرة ، بأنه يحظر على كل دولة ألمانية أن تهاجم دولة ألمانية أخرى . ولذا اذا هاجمت بروسيا النمسا ، فان بروسيا ترتكب خطأً وتخرق الميثاق . وفي حالة خلاف بين الدول الألمانية يجب أن يعرض الخلاف على الديباط ، وهذا الديباط يستطيع أن يسمي لجنة لمحاولة تهدئة الخلاف ، واذا لم تنجح هذه اللجنة ينبغي رفع القضية لمحكمة خاصة للتحكيم ، يسمى أعضاؤها من بين أبناء مختلف الدول الألمانية . وعلى هذه المحكمة التحكيمية أن تعطي حكمها . فاذا لم تحترم هذا الحكم احدى الدولتين المعنيتين ، فعلى الديباط عندئذ أن يقرر ضد هذه الدولة « التنفيذ الفدرالى » أي عليه أن يعطي الامر باستنفار جميع الدول الألمانية ضد هذه الدولة التي خرقت الميثاق . ان نصوص الميثاق الاتحادي تجعل ، حقوقياً ، الحفاظ على الحياد أمراً صعباً جداً . واذا صرح الديباط بأث دولة ما ، بروسيا مثلاً ، خرقت الميثاق الاتحادي فعلى جميع الدول الألمانية الاخرى ، مبدئياً ، أن تزحف للدفاع عن الميثاق الاتحادي .

لم تكن هذه النقطة الحقوقية أهم من غيرها ، بل القصد معرفة ما اذا

كانت الدول الألمانية « الوسطى » تعتبر أن من مصلحتها تعديل ألمانيا بشكل يضعها تحت تفوق بروسيا .

موقف الدول الألمانية . - لمعرفة هذا الموقف يجب أن نعرف موقف الدول الهامة منها :

موقف بافاريا . - كان موقف بافاريا هاماً جداً . فقد كانت دولة « متوسطة » هامة أكثر من غيرها . وكانت نفوسها في ذلك الحين أربعة ملايين ونصف نسمة . ونظراً لموقعها الجغرافي بين الأراضي النمساوية والأراضي البروسية ، كانت لها أهمية استراتيجية . وأخيراً كان الرأي في بافاريا يستطيع أن يؤثر على رأي الدول الأخرى في الجنوب . وفي بافاريا كان الوزير الموجه فون دو بفوردين ، ولم يكن شخصياً صديقاً للنمسا . وكان مستعداً لبقاء بافاريا في موقف مستقل « حيال الدول الكبرى » ، ويشك كثيراً في قيمة الجيش النمساوي ولذا كان يتعنى الحياذ . وعدا ذلك ، كانت مصلحة بافاريا في إبقاء الحالة كما كانت موجودة ، أي كونفدراسيون « براسين » مساوي وبروسي . لأن هذا الحل يترك للدول « الوسطى » ، « للدول الوسيطة » الكثير من الاستقلال ، ويمكنها دوماً أن تلعب على الصعوبات بين الدولتين الكبيرتين .

ولكن ملك بافاريا ، لويس الثاني ، الذي وصل الى العرش في ١٨٦٤ كان متهمياً لمساعدة النمسا ، ومعادياً جداً لاقتراح بسمارك الذي يقتضي إنشاء برلمان ألماني منتخب بالتصويت العام .

تقبلت الحكومة البافارية العروض من الجانبين : عرضت بروسيا بأن اذا صممت بافاريا على البقاء محايدة فان بروسيا تقدم لها قيادة جيوش ألمانيا الجنوبية في المستقبل في اليوم الذي يتم فيه اصلاح الكونفدراسيون

الجرماني ؛ وفي الوقت نفسه اثرت الحكومة البروسية على الرأي العام البافاري باعطاء منح ومكافآت لبعض الجرائد البافارية لتدعم وجهة النظر البروسية . أما الحكومة النمساوية فقد سعت لدى بلاط بافاريا ولدى اعضاء البرلمان البافاري ، وعرضت على بافاريا منظور التوسع الأرضي في الحالة التي تقرر فيها دعم النمسا ، وأخيراً ، في ١٤ أيار ١٨٦٦ ، قررت الحكومة البافارية أن تدفع عروض بروسيا ، وإذا كسرت بروسيا الميثاق الفيدرالي بالهجوم على النمسا ، فانها تقرر النفي ، ولكن في اليوم الذي ترتكب فيه بروسيا خطأ بشكل مكشوف .

موقف دوقية هس الكبرى . - وفي دوقية هس الكبرى ، كان الوزير الكبير دالفيغخ مصمماً على مساندة النمسا لأنه كان يرى بان النزاع بين بروسيا والنمسا لا يمكن اجتنابه ، وإذا كان هنالك ما يخاف منه على دولة هس ، فهو التفوق البروسي .

موقف مملكة ساكس . وكان لمملكة ساكس أيضاً أهمية استراتيجية كبرى جداً لأنها تدخل مباشرة بين الاراضي النمساوية في بوهيميا والاراضي البروسية ، فاذا ارادت بروسيا أن تهاجم النمسا ، فيمكنها أن تفعل ذلك ، بالدهاء ، من سيليزيا ، ولكن كان من فائدها أن تفعله باجتياز الاراضي الساكسونية . ولذا كانت الساكس في حالة خطرة بخاصة . وكان الرأي الساكسوني يرغب بجرارة في السلام ، وبالتالي ، بحياد ساكس . ولكن الملك جان ووزيره الأول بوست كانا يكرهان بسمارك وتقلقها المشاريع البروسية . وكانا يريان بأن مصير ساكس يصبح قلقاً ومضطرباً للغاية في حالة تفوق بروسي في المانيا . ولذا لم يرغباً بالحفاظ على الحياد . وجرت مفاوضات قاسية جداً بين الساكس والحركات القومية - ٣ (٥)

وبروسيا . وهددت بروسيا باقحام المرور من ساكس إذا لم تشأ ساكس ان تمنحها حق المرور لجيوشها . وهكذا إذا صرحت الساكس بانها محايدة فلن تكون مطمئنة من أن هذا الحياد يمكن ان يضمنها لأن الحكومة البروسية ، عندئذ ، لا تتردد بحرق حياد الساكس . وفي هذه الظروف قدر الموجهون الساكسونيون ان الشيء الوحيد الذي يجب أن يفعله هو أن يكونوا بجانب النمسا ، وان هذ هو الحل الأقل خطراً .

موقف بملكة هانوفر وهس الناختية (او هس-كاسل) . - وهذان البلدان عظيم الأهمية ، بسبب وضعها الجغرافي : وفي الواقع ، ان القسم الجنوبي من هانوفر ، منطقة غوتنغن ، يفصل قسمي الاراضي البروسية ، وكذلك الهس الناختية كانت أيضاً واقعة في « بحر » فولدا والفيثير ، أي بين قسمي الارض البروسية . وكان وضع هاتين الدولتين حرجاً ايضاً ، لأن الحكومة البروسية ، عند استنفار جيوشها ، كانت مضطرة ، لتمير جيوشها أن تجتاز أرض هانوفر وأرض هس - كاسل . وبسبب المعاهدات كان لها الحق في ذلك في زمن السلام : وفي هانوفر وهس - كاسل وجدت طرق تسمى « طرق المراحل » وكان للجيش البروسية عليها حق ارتفاق للذهاب من قسم لآخر من الأرض البروسية ؛ ولكن في حالة الحرب ، إذا اعلنت هانوفر او هس - الناختية انها محايدتان فمن غير الممكن مرور الجيوش البروسية عبر أراضيها . وقد تصور جورج الخامس ، ملك هانوفر ، في بادئ الأمر ، حل « الحياد » في مجلس عقده في ١٣ أيار ١٩٦٦ . ولكن كان من الطبيعي أن يكون هدفاً ايضاً لتوسلات الجانبين .

عرضت الحكومة النمساوية عليه ، بأن هانوفر إذا اسهمت في

في الحرب إلى جانب النمسا فان النمسا تقدم اليه هولشتاين التي لا تتمسك النمسا بها ولا تحرص عليها، لأنها لا تعلم ما تفعل بها ، ورغبت إلى هانوفر ايضاً أن تبدأ حالاً بتجنيد جيشها لمنع بروسيا من احتلال « طرق المراحل » .

وعرضت الحكومة البروسية على هانوفر أن تضمن أرضها وسيادتها ، شريطة أن تراعي « الحياد الكامل » . وكان بسمارك يريد بالحياد الكامل الحياد دون استنفار الذي يسمح لبروسيا أن تدخل جيوشها في هانوفر لاحتلال « طرق المراحل » .

تردد ملك هانوفر طويلاً . ورفض أن يعد بروسيا بالحياد الكامل ، وقال ان هذا الحياد يعاكس ميثاق الكونفدراسيون الجرمانى . ولم يعد النمسا بشيء أيضاً لأن هانوفر منعزلة وقد تخاطر باجتياح البروسيين لها ومهاجمتها من جميع الجهات قبل أن يكون للنمساويين من الوقت ما يجعلهم يأتون لنجدها . ولكن بسمارك ، اثناء هذه المفاوضات توصل إلى ان يطلب من الحكومة الهانوفرية حق المرور للجيش البروسية عبر أراضيها ، حتى عندما تعلن الحرب على النمسا . وطلب أيضاً من الحكومة الهانوفرية الحق لبروسيا في استعمال الخطوط الحديدية الهانوفرية لنقل جنودها . عندئذ رفض ملك هانوفر مصرحاً بأنه يدافع عن حقوق سيادته ، وليس له حق في أن يقوم بالتنازلات التي طلبتها بروسيا . وكان الرأي في البلاد قلقاً والاضطراب شديداً ، لأن الأحرار البافاريين - وبخاصة ميكل ، خصم بسمارك ، في ذلك الحين ، ولكنه كان معادياً للنصر النمساوي - كانوا يقدررون أن الموقف الوحيد الذي يجب اتخاذه هو لزوم الحياد .

اما هس الناضبية فقد تبنت موقفاً مماثلاً لموقف هانوفر : ورفضت أن تعد بروسيا بترك الجيوش البروسية تعبر أرضها ، وصرحت بأنها ستكثف مع القرار الذي يتخذه الديباط الجرمانى أى أنها ستستنفر إذا اعطى الديباط الجرمانى الأمر بالنفير .

وفي ١٤ أيار ١٨٦٦ عقد ممثلو الدول الوسطى اجتماعاً في بامبرغ واقترحت حكومة دوقية باد - الكبرى أن تتفاهم جميع الدول للحفاظ على الحياد . فاعتوض عليها بأن الحفاظ على الحياد يعادل التخلي عن دوقيتى شلزيغ وهو لشتاين إلى بروسيا ، والتخلي أيضاً عن الساكس إلى بروسيا ، إذا اجتاحت الجيوش البروسية الارض الساكسونية ، كما كان منتظراً ، وأرفض اجتماع بامبرغ دون أن يتخذ قراراً . وعندما تمت القطيعة ، في حزيران ، بين بروسيا والنمسا وطلبت النمسا من الديباط ومباطته ، انقسمت أصوات الدول الألمانية : صوتت للنمسا : بافاريا ، الساكس ، هانوفر ، فرتامبرغ ، دوقيات هس الثلاث : هس الناضبية ، هس دارمشتات ، هس ناسو . وأخيراً مدينة فرانكفورت الحرة . وصوتت الدول الأخرى لبروسيا باستثناء دوقية ساكس - ماينينغن المجاورة للاراضي البافارية التي صوتت ضد بروسيا . وبالأجمال ، ان الدول التي صوتت لبروسيا كانت بخاصة الدول التي وجدت مباشرة إلى جانب الأرض البروسية وتخاف منها . إلا أن هانوفر والساكس وهس الناضبية وحدها مع كونها مجاورة لبروسيا تجرأت وصوتت ضد بروسيا معتمده على دعم الجيش النمساوي .

وصرح بسمارك مباشرة . بذاكرة الى الديباط ، بأنه يعتبر الكونفدراسيون الجرمانى باطلاً . وفي الوقت نفسه صرح ، في مقال ،

في الجريدة شبه الرسمية : « الصحيفة الألمانية » ، بأن هذا التخريب للكونفدراسيون يجب أن يكون مقدمة « لتعمير » . وظلت بروسيا تحبذ الوحدة الألمانية ، وإذا « مزقت » ألمانيا فلتعيد خياطتها بشكل أفضل بعد ذلك . وقال بسمارك يجب أن نضع وحدة « ألمانيا الصغرى » أي وحدة جميع الأراضي الألمانية ، ما عدا النمسا ، التي يجب أن تطرد من الكونفدراسيون . وقد أجاب ملك بافاريا على ذلك ، في نداء القى به في ٢ تموز ، بأن خصوم بروسيا يكافحون « لحياة ألمانيا » ، لأنهم يريدون أن تظل الدول الألمانية ، بما فيها النمسا ، تشكل كلاً . وهكذا نرى مفهومين متعارضين : فمن جهة ، النظرية التي يمكن أن تسمى « النظرية المحافظة » ، النظرية التي تريد إبقاء حالة الأمور الموجودة على حالها ، أي اتحاد جميع الدول الألمانية بما فيها النمسا ، في جمع من الدول ، في كونفدراسيون ؛ والنظرية الثانية ، نظرية بسمارك التي تقول : ان الكونفدراسيون لا يمكنه أن يعمل ، وغير قابل للحياة . وما يجب عمله هو طرد النمسا . وعندما تطرد ، يجب بناء البلاد الألمانية من جديد وبتنظيم أكثر جدّاً ، تحت شكل « ألمانيا الصغرى » . ولنشر الى أن بسمارك لم يفعل هذا العمل وجميع الدول الألمانية الوسطى ضده ، ولأن جميع الدول ذات الأهمية : بافاريا ، فرتامبرغ ، هانوفر ، دوقية هسن ، ساكس ، تحزبت ضد بروسيا ، بل فعله أيضاً دون مساندة الرأي العام الذي كان ، في غالبيته العظمى ، معادياً لبسمارك ، ان لم يكن معادياً لبروسيا ، وعلى كل حال ، معادياً لحرب نمساوية - بروسية ، يعتبرها حرب اخوة يقتل فيها الأخ أخاه .

الفصل الرابع

أزمة ١٨٦٦

انقسام اتحاد المانيا الشمالية

لقد اضطر بسمارك لأسباب ترقبط خاصة ؛وقف فرنسا ان يطرح مشروع الوحدة الألمانية ، ويحدد أطاح بروسيا ، ويكتفي ، عوضاً عن تحقيق « المانيا الصغرى » ، أي الوحدة التي تضم جميع البلاد الألمانية عدا النمسا ، بتشكيل اتحاد المانيا الشمالية وترك دول المانيا الجنوبية مستقلة . ولمعرفة كيفية تحقيق هذه الوحدة الجزئية التي نصت عليها معاهدة براغ ، يجب ان نلاحظ حالة المانيا الشمالية في منتصف العام ١٨٦٦ ، بعد صالح براغ ، وكيفية اعداد دستور المانيا الشمالية .

١ - حالة المانيا الشمالية

قبل معالجة قضية تنظيم كونفدراسيون المانيا الشمالية كانت السياسة البروسية مضطرة لتدوية قضيتين أوليين : فعلى الصعيد الأول ، كان يجب إنهاء النزاع الدستوري البروسي الذي دام منذ ١٨٦١ ، وهذه النقطة أساسية اذا أرادت بروسيا أن تستميل رأي الأحرار ؛ وعلى الصعيد الثاني ، كان يجب تدوية قضية علاقات فرنسا مع الدول الالمانية التي يجب ان تؤلف كونفدراسيون الشمال نفي الدول الواقعة شمال خط نهر الماين .

تصفية النزاع الدستوري البروسي . - لم ينته النزاع الدستوري منذ ١٨٦١ وتفاقم عندما وصل بسمارك إلى رئاسة مجلس الوزراء في بروسيا ، في ايلول ١٨٦٢ . ومنذ ذلك الحين كانت الحكومة البروسية تعمل في ظروف غير قانونية : لأن البرلمان البروسي رفض أن يصوت على الموازنة وجبى بسمارك الضرائب دون أن يصوت البرلمان على قانون المالية .

وقد شعر بسمارك ، منذ النصر الذي أحرزه على النمسا ، بضرورة التخلي عن الموقف الذي اتخذته في كفاح الأحرار ، لأنه لم يشأ أن يلقى مقاومة الأحرار في الأراضي الجديدة التي تريد بروسيا أن تضمها إليها . وهذا العداء يمكن أن يزيد في صعوبة تمثل الدول المضمومة ، لأن المحافظين في هذه البلاد كانوا متعلقين بالسلالات الحاكمة ، وبالتالي معادين جداً لبروسيا . ، فإذا لم يستعمل بسمارك الأحرار إلى جانبه ، فمن الممكن أن يكون الناس كلهم ضده . ولم يشأ بسمارك أن يرث البرلمان القادم لكونفدراسيون المانيا الشمالية جميع الأفكار التي كونها البرلمان البروسي عنه . ولم يشأ أيضاً أن يعطي للعالم مشهد نزاع بين ممثلي الأمة والحكومة ، لأن الانعكاسات قد تكون خطيرة على مستقبل الوحدة الألمانية .

لذا دعا ، في ١٠ قوز ١٨٦٦ ، أي بعد ستة أيام على معركة سادوفا ، عدداً من الوجهاء الأحرار في مختلف الدول الألمانية ، وبخاصة بنفيسن وميكيل ، زعيمى « الجمعية القومية » (ناسيونال فراين) وأبدى لهما استعداداه للبحث عن تقارب مع الاحرار البروسيين .

وكان الأحرار البروسيون ، بدورهم غير مصممين ، كما كانوا حتى الآن ، على استمرار النزاع مع الحكومة ، ومنذ بداية حرب ١٨٦٦ ، كانت

بعضهم يميل الى التقارب مع بسمارك لأسباب تتعلق بالسياسة العامة ، باعتبار أن بسمارك يستطيع أن يكون محققاً للوحدة ، ولذا ينبغي الكف عن مكافحته . وازداد عدد هؤلاء المنشقين بعد نصر سادوفا ، وكما هي العادة ، يوجد دوماً في الجماهير أفاكس يميلون مع الغالب . غير أن آخرين غيرهم يتنازلون لاعتبارات انتهازية . ولقد أعطى النصر بسمارك شعبية كبرى ، فاذا استمر الاحرار في حركتهم ضده ، خاطروا بانصراف الناس عنهم وعدم فهمهم فلا يتبعهم الرأي العام ويخسرون شعبيتهم . وهذا ذلك ، حل البرلمان البروسي في ربيع ١٨٦٦ ، وجرت الانتخابات الجديدة أثناء حرب ١٨٦٦ ، بين الانتصارات الاولى البروسية ونصر سادوفا : وقد سجلت هذه الانتخابات تراجع الاحرار بشكل واضح وسقط عددهم من ٢٥٣ الى ١٤٨ بينما ارتفع عدد المحافظين من ٣٣ الى ١٤٢ . وهذه النتيجة ترجع الى أن الاحرار لم يترددوا ، في عز الحرب ضد النمسا ، أن يقوموا بحملة انتخابية على الغرض التالي : وهو عدم التصويت على الاعتمادات العسكرية مادام بسمارك في السلطة . وهذه الاستشارة الانتخابية كانت ، بالنسبة للاحرار ، انذاراً . وشعروا بأنهم ، اذا اضطروا لحل البرلمان البروسي الجديد ، فان الانتخابات ، في هذه المرة ، يمكن أن تدور وتنقلب نكبة عليهم . ولذا وجد بين الاحرار البروسيين اتجاه يجهد الهدوء .

والحادث له الذي مغزاه ومعناه هو أن بسمارك قرر القيام بالخطوة الاولى : فقد قال غداة سادوفا الى ولي عهد (كرونبرانس) بروسيا ، ابن غليوم الاول ، الذي كان معادياً للسياسة البسماركية ، بأنه يريد أن يظهر اين القناة ميالاً للمصالحة في سياسته الداخلية . وبعد ان درس

بسمارك القضية مع الوزراء البروسيين ، تبني فكرة « مشروع قانون السماح » وهذه العبارة مقتبسة عن الحقوق العامة الانكليزية ، ويراد بها التصويت اجمالاً على قانون يسمح بالاسفنج جميع التجاوزات التي ارتكبتها الحكومة البروسية منذ ١٨٦١ . وقد وجد أن الحكومة البروسية ، كانت تحكم ، في السنوات الاخيرة ، دون أن تكون عندها موازنة نظامية ، ولكن ، من جهة أخرى ، كان يطلب إلى البرلمان البروسي ان يوافق بعد فوات الأوان على هذا الشذوذ .

ولنلاحظ ان هذه العبارة « قانون السماح » تعني ان الحكومة تعترف بأنها تصرفت بشكل غير قانوني ، وبالتالي ، يبدو انها تتضمن ، بالنسبة للمستقبل ، بالألا تلجأ الحكومة البروسية الى طرق بمائلة . . ولذا لاقت هذه الفكرة معارضة بعض الوزراء البروسيين . فقد صرح وزير التجارة ووزير العدل بأن الحكومة اذا طلبت ، قانون السماح . فهذا يعني الاعتراف بأن سلوكها فيه ما يؤخذ عليه . وأمام هذه الحجة تردد ملك بروسيا الحريص جداً على سلطته ، كثيراً في قبول هذا الشكل من السلوك . ولكن بسمارك قاوم جيداً . وقد كتب من الاركان العامة البروسية رسالة الى زوجته قال فيها : « لقد توصلت الى حل مع أعدائي . بل مع أصدقائي ... » وبدأ بسمارك يتخلى عن سياسة المحافظين الخالص ورأى بأنه يجب أن « يضحى » ويقوم بالخطوة الاولى بغية المصالحة مع الاحرار . ورأى أيضاً بأنه في الحالة التي وجد فيها ، والجاه الذي خوله اياه هذا النصر ، يستطيع ان يسمح لنفسه بهذا العمل الذي قد يبدو من آخر غيره تراجعاً . وحصل أخيراً على موافقة الملك .

ناقش البرلمان البروسي « لاندتاغ بروسيا » ، الذي دخل دورته في ٥ آب

١٨٦٦ ، مشروع قانون السماح في ١٤ اب ١٨٦٦ : وكلف النقاش حاراً وحاداً ، لان بعض الاحرار أرادوا الحصول من الحكومة على ضمانات للمستقبل . وفي الحقيقة ان مشروع قانون السماح يبدو انه يقتضي من الحكومة ألا تجدد ، في المستقبل ، طرقاً مماثلة . واراد بعض الاحرار أن يقال ذلك صراحة ولم يكن بسمارك مستعداً لذلك ، ولم يشأ أن يدفع التراجع حتى هذا الحد ولكنه صرح بأنه يتمنى التهدئة لانه قال : ان المانيا بحاجة اليها في الآونة الحاضرة أكثر مما في السابق .

وصوت على « مشروع قانون السماح » في ٣ ايلول ١٨٦٦ ب ٢٣٠ صوتاً ضد ٦٤ . وهذا الحادث له أهميته لا في السياسة الداخلية البروسية فحسب ، بل في تاريخ الحركة القومية الالمانية . ففي ذلك الحين تم الشقاق في « الاحزاب القديمة » بين من ظلوا خصوماً لبسمارك وبين من قبلوا أن يتبعوا بسمارك لانه انتصر على النمسا وبدأ تحقيق الوحدة الالمانية .

حدث الانقسام في وسط المحافظين وفي وسط الاحرار . وبين المحافظين من ظل حتى الآن يدعم بسمارك ، ووجد عدد عظيم منهم ، وصرحوا بان الحكومة اخطأت في البحث عن المصالحة مع الاحرار وصوتوا ضد « مشروع قانون السماح » والمحافظون الآخرون ، على العكس ، تبعوا بسمارك . لذا انقسم حزب المحافظين الى قسمين : الجناح المناوئ لبسمارك ، الذي احتفظ باسم حزب المحافظين ، والجناح الآخر ، الجناح الذي تبع بسمارك وأخذ اسم « الاتحاد المحافظ الحر » . كذلك انقسم الاحرار وقبل أكثرهم التسوية مع بسمارك ، وأخذ هؤلاء بعد قليل من الزمن ؛ اسم « الحزب القومي الليبرالي » وأصبحوا نقطة استناد

هامة للحركة الوحدوية ؛ والآخرون ، على العكس ، (التقدميون ، صونوا ضد مشروع قانون السماح ، .

والحادثات العظيمة هو أن بسمارك ، ابتداء من ذلك الحين ، كانت تسانده أكثرية الأحرار في بروسيا ، على حين أنه منذ وصوله إلى السلطة كان في عداوة عنيفة معهم . وهذه المصالحة تعتبر حادثاً أساسياً بالنسبة لعمل الوحدة الألمانية .

وضع بروسيا حياض دول ألمانيا الشمالية الأخرى . - ان صالح براغ ، الذي أنهى حرب ١٨٦٦ ، أعطى لبروسيا الحق في أن تضم لصالحها بعض دول ألمانيا الشمالية ، وهذه الدول هي : أولاً دوقيتا هولشتاين وشليسفيغ ، ثم هانوفر وهس الناجية . ولهاتين الدولتين أهمية عظيمة لأن أراضيها تعترض بين قسمي المملكة البروسية ؛ وأخيراً هس ناسو ومدينة فرانكفورت الحرة ، اللتين كانتا كالسابقين حليفتي النمسا أثناء الحرب .

وتقرر الضم بقانون بروسي صدر في ٣٠ تشرين الثاني ١٨٦٦ . وبما يلفت النظر ان ملك بروسيا تردد طويلاً قبل أن يوقع هذا القانون ، وعلى الأقل فيما يتعلق بهانوفر وهس الناجية ، لأن غليوم الأول كان محافظاً دقيقاً جداً ومحترماً لحقوق السيادة وقد عز عليه أن يحرم العاهل الآخر من عرشه . ومع ذلك فقد تنازل أمام حاجج بسمارك ووقع القانون .

وعليه فان الوحدة الجغرافية للأرض البروسية ستتحقق . ولكن سكان هذه الأراضي المنضمة كانوا يختلفون جداً عن سكان بروسيا من وجهة نظر العقلية وبخاصة عن سكان بروسيا القديمة ، بروسيا

« اليونكرز » ، بروسيا كبار الملاكين ، أصحاب الأطيان . وكان لهذه البلاد المنضمة ثقاليدها وشعورها بفرديتها ، ولها عادات إدارية لاتتفق مطلقاً مع التعاملات الفظة التي عرفت بها الديوانية البروسية . ان سكان هانوفر وهس الناحية بخاصة ، حيث توجد طبقة بورجوازية وطبقة فلاحية بمائتين للطبقات الموجودة في البلاد الرينانية ، وحيث توجد ، من جهة أخرى ، طبقة نبيلة واكثيوس وفيين للسلاسل الحلية ، كانوا أقل استعداداً لقبول الضم . ولذا كان على بروسيا أن تتوقع أن « التمثل صعب » .

شلفينغ وهولشتاين . - وفي الدوقيتين : شلفينغ وهولشتاين ، حتى في القسم الألماني من هاتين الدوقيتين أي هولشتاين والقسم الجنوبي من شلفينغ ، يمكن القول إجمالاً أن ثلث السكان قبل بضم بروسيا دون احتجاج وبقي ثلث السكان موالين ، في أعماق قلوبهم ، إلى دوق اوغستنبورغ ، أي انهم كانوا يفضلون أن يصبحوا أعضاء دولة في الكونفدراسيون الجرمانى ، دولة مستقلة وذات سيادة ، عوضاً عن أن يصبحوا سكان إقليم بروسي بسيط . أما القسم الشمالي من شلفينغ المأهول بالدانمارك فيجب أن يجري فيه ، بموجب صلح براغ في ٢٣ آب ١٨٦٦ ، استفتاء يسمح للسكان بأن يقرروا ما إذا كانوا يريدون أولاً أن يكونوا مرتبطين بالدانمارك أو يفضلون أن يكونوا مرتبطين بكونفدراسيون ألمانيا الشمالية : ولم يجر هذا الاستفتاء . ولنا عودة على هذه النقطة .

فرنكفورت . - أما مدينة فرنكفورت الحرة فلا تحب البروسيين عدا عن أن هذه المدينة الحرة كانت ، حتى الآن ، مقراً للديباط ، وكانت في الكونفدراسيون الجرمانى لعام ١٨١٥ عاصمة ، فاذا ، ماضت الى بروسيا أصبحت مدينة اقليمية بروسية بسيطة . وكان بورجوازيو

فرنكفورت حساسين بهذا الانحطاط وأبدوا استيائهم بحرارة عالية جداً ،
بينما ظلت الجماهير الشعبية لامبالية .

هانوفر . - ولكن الحالة الصعبة كانت حالة هانوفر أكبر الدول
المنضمة . ففهيما قبل قسم من السكان الضم أو ، على الأقل ،
سلم به ، لأنه قدر أن يجد فيه فوائد مادية . وفي الأول من تشرين
الأول ١٨٦٦ صرح مجلس من وجهاء هانوفر بأنه يقبل الاندماج بروسيا
شريطة الحفاظ على النظام البلدي للمدن الهانوفرية . وكانت هذه
النظرية نظرية بنينغسن وميكيل ، أي نظرية زعيمى الأحرار الهانوفرين ،
وكلاهما مؤسسان « للجمعية القومية » . ولنلاحظ أننا نرى هنا
مثالاً ، يبرأ لتطور هؤلاء الأحرار : كان ميكيل وبنينغسن في العام ١٨٦٥ ،
أثناء اتفاق غاشتاي ، ينتقدان بشدة عظمة السياسة البسماركية ، أما
الآن فينحنيان أمام النصر البروسي ، وكانا مستعدين ، كواقعيين ، لتوجيه
بسمارك في سبيل تحقيق الوحدة الألمانية .

ولكن إذا قبل قسم من السكان الضم دون أن يحتج ، فإن قسماً
آخر احتج ، أما عن كرهه للبروسيين ، وأما أكثر من ذلك أيضاً ، عن
ولاء للسلالة الهانوفرية . لقد ألقى ملك هانوفر ، جورج الخامس ، باحتجاج
ضد ضم بروسيا ، وبعد هذا ، اضطر أن ينصرف ، وغادر البلاد الى
الخارج . وحتى بعد مغادرته وجدت ، في قلب الطبقة النبيلة ، وبين ضباط
الجيش الهانوفري ، مقاومة للضم . ومقاومة في قلب الفلاحين لسبب
بسيط جداً وهو أن الفلاحين يكرهون الخدمة العسكرية البروسية ، لأنه
لا يوجد في هانوفر خدمة عسكرية إجبارية . وتشكلت عصبه واراادت ان
تنشيء « جوقه هانوفرية » لتحاول مقاومة بروسيا . وفي تشرين الأول ،

تشرين الثاني ١٨٦٦ كان الاضطراب شديداً ، ووجدت ضجة في الشوارع الرئيسية في مدينة هانوفر ، وغالباً شتائم للجنود البروسيين . وهذا الحزب الهانوفري المقاوم لضم بروسيا أخذ اسم حزب « الفيلف » .

أعطت الحكومة البروسية الأمر بتعليق الموظفين الهانوفريين عن وظائفهم ، من يصرحون بأنهم معادون لبروسيا ، وأمرت أيضاً بإيقاف الضباط المحتجين وسجنهم في حصن ميندن . وفي ٢٠ تشرين الثاني ١٨٦٦ وجه ملك بروسيا انذاراً إلى الضباط الهانوفريين واعطاهم الخيار : إما الدخول كضباط في الجيش البروسي ، وأما إحالتهم على التقاعد . أما وقد نفي الملك جورج الخامس ، فقد أصبح الضباط في حل من يمين الولاء التي اقساموها له ، وبذلك أذعن عدد عظيم من هؤلاء الضباط الهانوفريين : وقبل ٤٢٥ منهم الدخول في الجيش البروسي ، واحيل الآخرون على التقاعد (المعاش) .

وابتداءً من ذلك الحين ، هذا الاضطراب . ولكن عشرات الألوف من الناس ، في هانوفر ، ظلوا في أعماق قلوبهم ، معادين لبروسيا . ومنذ ١٨٦٧ وجد في الريخشتاغ الألماني حتى ١٩٠٣ ، نواب هانوفريين محتجون (حزب الفيلف) ، ولم يكونوا كثيراً . وتنوع زعمائهم بين خمسة وعشرة ، وليس بالأكيد أن جميع الذين يصوتون للنواب الفيلف كانوا خصوماً للوحدة الألمانية . ومن المحتمل ، كما يحصل دوماً ، في مثل هذه الحالة ، ان المستائين ، لأسباب لاعلاقة لها بقضية الوحدة ، كانوا يصوتون للفيلف ببساطة لأن في ذلك واسطة لمكافحة الحكومة . ودام الاحتجاج خمساً وعشرين عاماً .

رأى بسمارك ، أمام هذه المعارضة ، بأن يضحى . وقد أيقن بأن

يجد أمامه صعوبات اذا أراد أن يفرض الإدارة البروسية بفظاظة على هذه الاراضي المنضمة . ولذا تدخل بشكل تحفظ فيه الإدارة البروسية في أطرها جميع الموظفين الهانوفرين الذين يقبلون خدمة بروسيا . ثم اتخذ عدة اجراءات في اللامركزية الادارية : فقد قبل بإنشاء مجالس اقليمية « في هانوفر ، وهنا ايضاً ، تأت السياسة البسماركية عن نظرات المحافظين البروسيين الذين كانوا يريدون أن يطبقوا ، حيال هانوفر ، طرقاً أكثر صرامة وحزمًا .

وبعد تحقيق هذا الضم أصبح سكان بروسيا خمسة وعشرين مليون نسمة . بينما كان كونفدراسيون المانيا الشمالية بكامله ثلاثين مليوناً فقط . وبالتالي ، لم يكن إلى جانب بروسيا ، في كونفدراسيون المانيا الشمالية ، الا دول صغيرة جداً ، باستثناء بملكة ساكس . وكانت هذه المملكة خصماً لبروسيا اثناء حرب ١٨٦٦ ، ولذا ، فرض بسمارك عليها طوعاً مصر هانوفر . ولكن ساكس كان يحميها نابوليون الثالث ، ولم يجرأ بسمارك أن يذهب إلى أبعد من ذلك : وقد نصت معاهدة ٢١ تشرين الأول ١٨٦٦ على أن تدخل الساكس في كونفدراسيون المانيا الشمالية وان تجبر على الدخول فيه . ولكنها دخلته على قدم مساواة واحدة مع الدول الأخرى أي مساوية لدول المانيا الشمالية التي كانت اثناء حرب ١٨٦٦ حليفة بروسيا .

٢ - تنظيم اتحاد المانيا الشمالية

نظم كونفدراسيون المانيا الشمالية ببطء : فقد دامت المناقشات خلال ستة أشهر ، من آخر تشرين الثاني ١٨٦٦ حتى شهر أيار ١٨٦٧

ودخل دستور الكونفدراسيون رسمياً في حيز التنفيذ في أول تموز ١٨٦٧، أي بعد عام على سادوثا .

وألغت معاهدة براغ الكونفدراسيون الجرمان في لعام ١٨١٥ ، أي أنها جعلت منه «صفحة بيضاء» . وقررت أن تبقى الدول الألمانية في الجنوب مستقلة وأن تدخل الدول الألمانية الواقعة في شمال خط الماين في « اتحاد المانيا الشمالية» . وكان يراد معرفة الشكل الذي سيعطى الى كونفدراسيون المانيا الشمالية ، ومن هنا نرى أهمية المشكلة بالنسبة لقضية الوحدة .

ومن الطبيعي أن يرجع رجال العصر إلى ما يسمى في اللغة الحقوقية « السابقات » . وقد وجدت سابقتان : فمن جهة ، الميثاق الاتحادي لعام ١٨١٥ الذي نظم وجود الدول الألمانية ، حسب الحطة العامة ، حتى عام ١٨٦٦ ؛ ومن جهة أخرى ، الدستور الألماني لعام ١٨٤٩ ، الدستور الذي صوت عليه المجلس القومي في فرنكفورت اثناء الحوادث الثورية في ١٨٤٨ ، ولكنه لم يطبق . ونسأل ما هو الفرق بين النظامين ؟

ان نظام ١٨١٥ يؤلف ، بين الدول الألمانية ، رابطة بسيطة: فقد حافظت النماني والثلثون دولة ألمانية على سيادتها واتحدت فيما بينها ببساطة بتحالف بغية حماية الأمن الخارجي والحفاظ على السلام الداخلي في هذه الدول . ولتأمين التلاحم بين الـ ٣٨ دولة الألمانية ، وجدت ، بموجب ميثاق ١٨١٥ ، هيئة عامة نسميها الديباط . وكان هذا الديباط مجلس مفوضين ، مجلس مندوبين عن الحكومات ليس لهم أي سلطة شخصية ، ويمثلون رأي حكومتهم فقط . وبالتالي لم يكن ، في نظام ١٨١٥ ، سلطة تنفيذية عامة للدول الألمانية . وعندما يطرح الديباط التصويت ، ليصبح « القرار » نافذاً

يجب أن تريد كل من هذه الدول الثاني والثلاثين ان تطبقه . وبالأجمال ، ان نظام ١٨١٥ لا يؤلف بين الدول الألمانية « اتحاد دول » ، بل نوعاً من « عصبة أمم » . ولا يوجد تشريع عام للدول الألمانية : فكل واحدة منها تعيش حسب قوانينها الخاصة . ولا يوجد جيش عام : وفي حالة حرب يؤلف جيش الكونفدراسيون بجمع الجنود ، من مختلف الدول ، ووضعهم إلى جانب بعضهم .

وعلى العكس ، ان النظام الذي وضع في الدستور الميت - الوليد لعام ١٨٤٩ كان يؤلف ، على الورق دولة اتحادية (فيدرالية) ، والمقصود بالدولة الفيدرالية هو أن تحافظ الدول الألمانية في نظام ١٨٤٩ على بعض الفردية ، ولكنها لا تحافظ على سيادتها التامة . لقد ظلت صاحبة سيادة في بعض القضايا التي لم تكن اهم من غيرها ، ولكنها ، بالنسبة للأخرى ، تفوض سيادتها إلى الحكومة الاتحادية . وتتألف هذه الحكومة الاتحادية ، من مجلس منتخب بالتصويت العام ، ومن سلطة تنفيذية تسلم إلى امبراطور ينتخبه المجلس . وكما رأينا ، ان نظام ١٨٤٩ لم يستطع السير والعمل ، لأن المجلس القومي قدم التاج الامبراطوري إلى ملك بروسيا ، فريدريك - غليوم الرابع ، ورفض الملك هذا التاج .

لم يشأ بسمارك الخيار تماماً بين هذين النظامين :

وضعت القضية لمعرفة ما اذا كانت لبسمارك دور هام في تهيئة نظام كونفدراسيون المانيا الشمالية : والواقع انه كان بعد حرب ١٨٦٦ منهكاً بالنعب العصبي الذي ناله من الحرب واضطر ان يذهب الراحة اكثر من شهرين في جزيرة روغن ، ولكنه ، بالرغم على هذه الراحة ، رسم قبل مغادرته أساس دستور المستقبل ، وأعطى الأفكار العامة ، ولم يتم

توضيح النص إلا بعد عودته إلى برلين . وفي الفترة الفاصلة بدأ سن الدستور وعرضت عليه مشاريع . ولكن بسمارك أخيراً ، في ذهابه ووصوله كان يراقب العمل بنفسه . ولا نزاع في أنه أراد أن يعطي إلى كونفدراسيون المانيا الشمالية الشكل الأصل الذي كان له .

وقد فضل بسمارك نظام الدولة الاتحادية على نظام كونفدراسيون الدول ، ولكنه لم يشأ القطيعة بشدة مع العادات القديمة . وأراد أن مشروعاً غير مركزي كثيراً . وكانت فكرته الخلفية أن يضع مشروعاً لا يغيظ كثيراً دول المانيا الجنوبية ، هذه الدول التي ظلت مستقلة ، ولكن بسمارك ، كما سنرى ، كان يأمل في أن يجذبها إليه في وقت قصير لاحق ويدخلها في الكونفدراسيون . ولذا احتفظ بسمارك ما أمكن ، بالمظهر الخارجي لنظامه ، هيئة كونفدراسيون دول ، ولكنه أدخل فيه بعض أحكام داخلية ظاهرة قليلاً ، بعض أحكام « مطاطة » أدت ، عملياً ، إلى جعل كونفدراسيون المانيا الشمالية دولة اتحادية .

ولم يشأ بسمارك في فكره ، أن يستعمل كلمة « امبراطورية » ، كما لم يشأ انشاء امبراطور الماني ، لأن في ذلك ما يؤكد تفوق بروسيا بوضوح . واكتفى بتأمين هذا التفوق بوسائل اقل ظهوراً .

مبادئ مشروع الدستور . - ان المبادئ التي استوحى منها مشروعه الذي وضع في ١٤ كانون الأول ١٨٦٦ ، وأتى متأخراً بسبب مرض بسمارك ، كانت كما يلي :

المبدأ الأول . - أن يعهد بالسلطة التشريعية الاتحادية إلى مجلسين : البندسرات والرايخشتاغ . والبندسرات ، والكلمة تعني « مجلس الكونفدراسيون ،

كان بالجملة ، الديباط القديم ، او على الأقل ، يشبهه كثيراً : لقد كان مجلس ممثلين للامراء المشاركين في كونفدراسيون المانيا الشمالية . وعلى العكس ، كان المجلس الآخر ، الرايخشتاغ ، مجلساً منتخبا يمثل السكان ، وينتخب بالتصويت العام ، لأن بسمارك كان يحذر البورجوازية الحرة ، ويفضل أن يعتمد ضدها على الجماهير الشعبية . ويمثل البندسرات في هذا النظام نعمة الدول ؛ وعلى العكس ، يمثل الرايخشتاغ المفكرة القومية ، فكرة الوحدة .

المبدأ الثاني. - أن يعهد بالسلطة التنفيذية الى رئيس الكونفدراسيون ويكون هذا الرئيس ملك بروسيا ، ولا يحمل لقب امبراطور ولا يكون مبدئياً إلا الأول بين أمثاله الامراء . ولكن هذا الرئيس خول سلطات هامة جداً : حق اعلان الحرب ، وابرام المعاهدات ، والقيادة العليا للقوى المسلحة ، واخيراً ، تقرير « التنفيذ الفيدرالي » ضد عضو مقاوم عنيد في الكونفدراسيون . ويساعد رئيس الكونفدراسيون مستشار (رئيس مجلس الوزراء) لا وزير امبراطورية . ويجب أن يكون المستشار المفوض الفيدرالي السامي الوحيد . وهذا المستشار يعطي أوامره في كل القضايا بواسطة وزراء مختلف الدول : فاذا كان القصد مثلاً قضايا مالية يعطي أوامره لوزير مالية بروسيا ، أو وزير مالية ساكس ... الخ .

المبدأ الثالث. - تنظم العلاقات بين السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية بشكل لا يستطيع فيه الرايخشتاغ أن يفرض ارادته على رئيس الكونفدراسيون ، ولذا فان هذا المستشار ، الذي يمثل الرئيس ، « غير مسؤول » أمام الرايخشتاغ ، أي ان الرايخشتاغ لا يستطيع قلبه واسقاطه .

وبالاجمال ، أمن هذا النظام تفوق بروسيا في الكونفدراسيون

وتفوق الساطة الملكية في النظام الفيدرالي . وعليه فان كونفدراسيون المانيا الشمالية ، في نظام بسمارك ، كان نظاماً أصيلاً . انه نظام دولة فيدرالية ولكن دولة فيدرالية يتصرف فيها أحد أعضائها ، وهو بروسيا ، بإرادة متفوقة .

لقد ناقش الامراء أولاً هذا المشروع الذي وضعه بسمارك . وطالت المناقشات . وفيما عدا بعض التنظيمات التفصيلية ، قبل الأمراء هذا المشروع ثم عرض على المجلس التأسيسي ، « الرايخشتاغ التأسيسي » الذي انتخب عن عمد لدراسة الدستور وحل بعد ذلك . ولا توجد في هذا الرايخشتاغ التأسيسي أكثرية واضحة ، ولكن بسمارك استطاع ان يعتمد على ائتلاف القوميين - الليبراليين والمحافظين الاحرار ، أي على الذين صوتوا ، في عام ١٨٦٦ ، على « مشروع قانون السماح » .

افتتحت المناقشة ، في الرايخشتاغ التأسيسي ، في ٩ آذار ١٨٦٧ . وتناول النقاش بخاصة ثلاث قضايا :

١ - ماهو اختصاص الساطة الاتحادية (الفيدرالية) بالنسبة للسلطات في حكومة كل دولة . ولقد سبق وقلنا انه يوجد في كل دولة اتحادية تقسيم للصلاحيات بين الحكومة الفيدرالية وحكومات الدول : وكان القصد معرفة النصيب الذي يعطى للحكومة الاتحادية والنصيب الذي يتوك لكل دولة . وقد طلب الرايخشتاغ التأسيسي توسيع سلطات الحكومة الاتحادية . وكان في هذه النقطة أوسع من بسمارك نفسه ، لأن القوميين الليبراليين ، الذين كانوا يمثلين للحياة الصناعية والتجارية ، كانوا يرغبون تقوية الوحدة من وجهة النظر الاقتصادية . ولذا طلبوا بأن يكون للحكومة الاتحادية اختصاصات تتعلق بالملاحة ، والخطوط الحديدية ، والتجارة ، وايضاً ، حق جباية الضرائب المباشرة .

٢ - والنقطة الثانية التي حام حولها النقاش هي المناقشة في « الهيئات الاتحادية » . وفي هذه النقطة ايضاً ، كان وضع اكثرية الرايخشتاغ التأسيسي يلفت النظر ، وذلك لأن القوميين - الليبراليين ، وهم بورجوازيون ، كانوا يخشون التصويت العام ، ولكن بسمارك قاوم جيداً ورفض التصويت الضريبي . وبهذه المناسبة القى خطاباً ظل شهيراً ، انتقد فيه بتهكم لاذع ، النظام الانتخابي البروسي ، نظام « الثلاث طبقات » الذي يفيد عن سعة الناس الاغنياء . ولكن اليس عجباً ان يرى بسمارك وهو يحول هذا النظام ، مع انه كاث نفسه « نتاج » وسط محافظ بروسي ! ولكن المبادي ولاتهمه في ذلك الحين ، لأن ما يريده هو ألا تكون البورجوازية الصناعية والتجارية قوية جداً في الحياة السياسية في الكونفدراسيون ، ولهذا السبب كان يريد التصويت العام .

٣ - والنقطة الثالثة كانت قضية سلطات الرايخشتاغ بالنسبة للحكومة الاتحادية . وكان قسم عظيم من الرايخشتاغ التأسيسي يرجو اقامة نظام برلماني ، أي نظام يكون فيه المستشار مسؤولاً أمام المجلسين . ولكن بسمارك عارض في ذلك بصراحة ، لأنه لا يريد أن يجد نفسه تابعاً للبرلمان .

وأخيراً اضطر بسمارك في سياق هذه المناقشات أن يقوم بعدد من التنازلات التفصيلية التي اضطرته الى توسيع مشروعه قليلاً في اتجاه أكثر ليبرالية . وقد قام بهذه التنازلات لأنه شعر ، بأنه اذا أراد أن ينتهي ، وينتهي بسرعة ، الا يكسر شيئاً . وشعر بأنه اذا كان « في برد » أو في نزاع مع الرايخشتاغ ، فان ذلك يكون سبباً في تأخير توطيد الوحدة الالمانية .

وصفوة القول ، ماهي الصفة المميزة لدستور كونفدراسيون المانيا

الشمالية الذي طبق حرفياً على الامبراطورية الألمانية عام ١٨٧١ ؟ كان كونفدراسيون المانيا الشمالية دولة اتحادية ، أي دولة تخضع فيها حكومات الدول الخاصة الى حكومة أعلى وهي الحكومة الاتحادية . وكانت في اختصاصات هذه الحكومة الاتحادية القضايا العائدة للقوى العسكرية والبحرية وتوجيه العلاقات الخارجية والاقتصاد والتجارة والنقل ، بما فيها البريد ، والنقد (العملة) ، والتنظيم المصرفي ، وشرطة الاجانب . واحتفظت الدول بالباقي أي بالتعليم العام ، والعبادات ، والاشغال العامة والعدل . اذاً كانت الاختصاصات الأهم من غيرها في أيدي الحكومة الاتحادية . أما « الهيئات » فكل دولة تحتفظ ، من أجل العلاقات الداخلية في نطاقها ، بالنظام الذي تريده ، كأن تحتفظ بمجلسها ووزارتها ونظامها الانتخابي .

السلطات الاتحادية - أما السلطات الاتحادية فهي البندسرات وهو مجلس مندوبي الدول ، ولكن كان لبروسيا في هذا المجلس ١٧ صوتاً من ٤٣ صوتاً في الكل . والرايخشتاغ يتألف من ٣٩٧ نائباً منتخباً بالتصويت العام ، وأخيراً ، رئيس الكونفدراسيون ، وهو ملك بروسيا ، الذي يملك الاختصاصات التي ذكرناها آنفاً وهي : قيادة القوى المسلحة ، وحق اعلان الحرب ، وابرام المعاهدات ، وحق تسمية الموظفين الاتحاديين ، وتقرير التنفيذ الفيدرالي .

كان هذا الدستور عمل تسوية ، عمل تنازلات متبادلة ، واذا كان بسمارك يرغب بجرارة ان ينتهي بسرعة ، فذلك لأنه لا يريد أن يبقى عند هكذا الحد . فهو يرى أن انشاء ونفدراسيون المانيا الشمالية ليس إلا بداية . وفي سياق مناقشات الدستور قام ميكيل ، نائب

هانوفر الليبرالي ، الذي شايع بسمارك الآن ، وأدخل ، بتعديل ، مادة
اضافية الى الدستور ، وتقول هذه المادة : « ان اتحاد دول الجنوب أو
واحدة منها بالكونفدراسيون يكون بناء على اقتراح الرئاسة الاتحادية
وفي الطرق المنصوص عليها في التشريع الاتحادي » . وعليه فان دستور
كونفدراسيون المانيا الشمالية يضع اذن اصولاً لادخال دول الجنوب ،
آجلاً ، في الكونفدراسيون . وقد احتسب بسمارك من أن ييدي
رأيه في تعديل ميكيل لثلا بلفت النظر . ولكننا نعلم تماماً رأيه : ففي
حزيران ١٨٦٧ قال الى أحد أصدقائه : « ان اتحاد المانيا الشمالية ليس الا
موقتماً وانتقالاً نحو وحدة المانيا كلها ، وسيلغ عما قليل هذا
الهدف الاسمي » .

الفصل الخامس

قضية المانيا الجنوبية

من ١٨٦٧ إلى ١٨٧١

لم تسمح أزمة ١٨٦٦ لبسمارك ان يحقق الوحدة الألمانية بشكل « ألمانيا الصغرى » . ولذا أراد ، بعد ١٨٦٦ ، ان يدخل ، في اتحاد المانيا الشمالية ، دول الجنوب : بافاريا ، فرتامبرغ ، دوقية باد الكبرى ، دوقية هس - دارمشتات الكبرى وتقع هذه الدوقية الأخيرة في قسم منها في جنوب نهر الماين وفي القسم الآخر في شماله . وكان سكان دول المانيا الجنوبية كلها ثمانية (٨) ملايين نسمة ، بينما كان اتحاد المانيا الشمالية ثلاثين (٣٠) مليون .

لقد قبل دستور اتحاد المانيا الشمالية في المادة ٧٩ احتمال اتحاد دول الجنوب ، ولكن كانت هنالك عقبة : وهي الوعد الذي قطعه بروسيا على نفسها ، بمعاهدة براغ ، في ٢٣ آب ١٨٦٦ ، باحترام « الاستقلال الدولي » للدول الألمانية الجنوبية . وتقول المادة ٤ من معاهدة براغ هذه : « يصرح جلالة امبراطور النمسا بأنه يقبل بأن تعقد الدول الألمانية الواقعة في جنوب هذا الخط ، خط الماين ، اتحاداً على أن تكون صلاته القومية مع كونفدراسيون المانيا الشمالية موضع تفاهم لاحق بين الجانبين ، وأن يكون له وجود دولي مستقل » . ان معاهدة براغ تنص اذن على « اتحاد » بين دول الجنوب ، اتحاد يؤمن لهذه الدول الحفاظ على استقلالها .

وفي الحقيقة ، ان هذا النص لم يكن واضحاً تماماً ولكنه يبعد دخول دول الجنوب في اتحاد المانيا الشمالية ، وإذا أخذت الحكومة البروسية على نفسها هذا التعهد ، في معاهدة براغ ، حيال النمسا ، فقد أخذته بناء على طلب واضح من فرنسا : لأن نابليون الثالث ، أثناء وساطته بين النمسا وبروسيا ، في ١٤ تموز ١٨٦٦ ، أشار إلى أن أساس سلام المستقبل الحفاظ على استقلال دول الجنوب .

لذا أراد بسمارك أن يزيل هذه العقبة . ولكنه لا يستطيع ذلك إلا في الحد الذي تقبل فيه دول الجنوب نفسها أن تكون مستعدة له . ولدراسة هذه القضية يجب أولاً أن نرى الجهود التي بذلها بسمارك ونجاحاته الاولى في ١٨٦٦ - ١٨٦٧ ، ومن ثم كيف تأكدت ، بعد عام ١٨٦٧ ، مقاومة الدول الألمانية الجنوبية ، وأخيراً ، كيف أن بسمارك استطاع ، بفضل حرب ١٨٧٠ - ١٨٧١ مع فرنسا ، أن يحقق الوحدة الألمانية بشكل « المانيا الصغرى » .

١ - جهود بروسيا

أدت السياسة البسماركية في ١٨٦٦ - ١٨٦٧ إلى نتيجتين هامتين جداً : من جهة ، ابرام معاهدات تحالف سرية بين اتحاد المانيا الشمالية ودول الجنوب الالمانية ؛ ومن جهة أخرى ، انشاء « برلمان جمركي » (تسولبارلمان) .

معاهدات التحالف السرية . - في الوقت الذي ابرمت فيه بروسيا مع النمسا ، في آخر تموز ١٨٦٦ ، مقدمات صلح نيكولسبرغ لم تبرم هذه المقدمات إلا مع النمسا وحدها فقط . أما الدول الألمانية

الأخرى ، ونريد بذلك الدول التي أعربت عن نياتها في صالح النمسا ، فلم يكن بينها وبين بروسيا إلا هدنة . ولذا يجب على دول الجنوب الألمانية هذه أن تطلب إلى بروسيا شروطها في الصلح . وتستطيع بروسيا أن تبالغ في طلبها بهذه المناسبة . ومع ذلك ، فقد كان بيد دول جنوب ألمانيا ضمان وهو : الوعد الذي قطعه اتحاد ألمانيا الشمالية على نفسه ألا يمتد الاتحاد إلى جنوب خط الماين .

وعندما تفاوض بسمارك مع دول الجنوب الألمانية بأمر الصلح ، لم يطلب من هذه الدول تنازلات أرضية ، واكتفى بأن يفرض عليها غرامة حربية . ولكنه أضاف ، سرّاً ، طلباً آخر وهو إبرام معاهدة تحالف . وللحصول على هذه النتيجة ، أفاد بسمارك أولاً من الحالة المعنوية التي وجدت فيها حكومات الجنوب الألمانية وقد اربكتها الحوادث التي جرت من قريب ، وكانت تعتمد ، حتى الآن ، على النمسا ، ولكن النمسا كانت في هزيمة كاملة ، ولذا كانت سلالات الجنوب قلقة جداً على المستقبل . واستخدم بسمارك عنصراً آخر : وهو الخوف من فرنسا : ففي تموز ١٨٦٦ ، عندما أعلن بسمارك ، في ألمانيا الشمالية ، عن عزمه على ضم بعض الأراضي ، وبخاصة مملكة هانوفر وهس النائية ، كان مضطراً إلى طلب موافقة نابليون الثالث . وقد أعطى نابليون الثالث هذه الموافقة ، وطلب ، بالمقابل ، تعويضات أرضية . وقدم طلب التعويضات أولاً في ٢٣ تموز ١٨٦٦ ، ووضعه في ٢٩ منه . وبالأجمال طلب نابليون الثالث لفرنسا أراضي البلسار (ستروني وساربروك) وطلب أيضاً لاندאו ، في بالاتينا البافارية ، وكذلك الأراضي الهسية الواقعة على الضفة اليسرى لنهر الراين .

لم يجنب بسمارك ، لأول وهلة ، مطالب فرنسا ، ولكنه رتب الأمور بشكل تسير فيه ببطء حتى إبرام الصلح مع النمسا . وبعد ذلك ، قامت بين فرنسا وبروسيا معركة دبلوماسية طويلة انتهت في عام ١٨٦٧ أثناء قضية اللوكسمبورغ . وأخيراً لم يحصل نابليون الثالث على أي تعويض أرضي . وهذا الأمر لا يدخل في موضوعنا ، ولكن الذي يهمنا هو أن نرى كيف انعكس هذا المطلب الفرنسي على قضية ألمانيا الجنوبية : لقد استخدم بسمارك طلب التعويضات الفرنسي ليفزع دول الجنوب ويربها بأنما إذا بقيت منعزلة ، فلها ما نخشاه من فرنسا ، وإن من مصلحتها المفهومة جيداً ، أن تحصل على حماية بروسيا لها . وإضافة ، إن هذه الحماية تفتقر وجود تحالف بين بروسيا ودول الجنوب .

فرتامبرغ . - كانت فرتامبرغ أول دولة قبلت بالتفاوض . فقد وقعت ، في ١٣ آب ١٨٦٦ معاهدة سلام مع بروسيا . وتنص هذه المعاهدة ، في موادها العامة ، على أن تدفع فرتامبرغ غرامة حربية إلى بروسيا ، وأن تقبل الدخول في الاتحاد الألماني . وعدا ذلك وجد اتفاق مبرم يقرر منذ الآن على أن يكون بين فرتامبرغ وبروسيا تحالف هجومي ودفاعي مع ضمانات متبادلة على أراضيها ، وفي حالة حرب ، يجب على فرتامبرغ أن تضع قواتها المسلحة تحت تصرف بروسيا ، وتحت قيادة ملك بروسيا .

دوقية باد الكبرى . - والدولة الثانية ، في الجنوب ، التي قبلت التعاقد كانت دوقية باد - الكبرى . لقد كان دوق باد الأكبر صهر الملك بروسيا غليوم الأول . وكان يخشى كثيراً جوار فرنسا . لأن بلاده متاخمة للالزاس ، ولذا أراد أن يدخل دوقية باد الكبرى في كونفدراسيون ألمانيا الشمالية : لأن في ذلك ، على ما يبدو ، خير ضمان له ضد فرنسا .

ولكن بسمارك لا يريد ذلك . لأن ادخال دوقية باد الكبرى في الكونفدراسيون يعني التخلص من الوعد الذي قطعته لفرنسا . وإذا كان على استعداد لمخالفة هذا الوعد ، فهو لا يريد أن يفعله إلا صراً . وأخيراً وقعت دوقية باد الكبرى مع بروسيا معاهدتين في ١٧ آب ١٨٦٦ : معاهدة عامة تقتصر ، كالمعاهدة التي أبرمتها فرتامبرغ ، على الكلام عن غرامة حربية ؛ ومعاهدة سرية تنص على تحالف دفاعي ومجموعي بين دوقية باد الكبرى وبروسيا .

بافاريا . - وفي بافاريا ، كانت القضية حرجة جداً لأن بافاريا كانت أهم دول ألمانيا الوسطى . وقد رأى بسمارك أن يقول للحكومة البافارية ان بروسيا تريد أن تأخذ أرضاً من بافاريا : وطلب تقريباً نصف بلاد فرانكونيا العليا ، ومنطقة بيروت وبامبرغ ، وكان ذلك منه لافزاع البافاريين ، وفجأة بدل نغمه : بين للحكومة البافارية اطماع نابوليون الثالث في بالاتينا البافارية ، أي القسم الواقع من بافاريا على ضفة نهر الراين اليسرى . فانحنت الحكومة البافارية ووقعت ، في ٢٢ آب ١٨٦٦ ، معاهدة على مثال المعاهدة المبرمة بين بروسيا وفرتامبرغ . ويجب أن نفكر بأن بافاريا لا تستطيع أن تبقى ، في أوربة ، دولة منعزلة ، فهي بحاجة إلى دعم دولة كبرى . ولا يمكن أن تجد هذا الدعم في النمسا ، أو أن تطلبه من فرنسا ، لأنه ، مامن أحد ، في بافاريا ، في ذلك الحين ، يفكر بتحالف فرنسي : ولذا تستطيع ، عند مقتضى الحال ، أن تجد عند بروسيا وحدها ، الحماية التي تريدها .

دوقية هس دارمشتات الكبرى . - كانت الحالة في هذه الدوقية خاصة لأن دوق هس الأكبر كان صهراً للقيصر ، زوج اخته ، وقد تدخل القيصر في القضية ليوصي ملك بروسيا بأن يكون معتدلاً حيال

هس - دار مشنات . واستعمل بسمارك الطريقة نفسها التي استعملها مع بافاريا : كشف لدوق هس الأكبر المشاريع التي ينويها نابليون الثالث على قسم من الأراضي الهسية الواقعة على ضفة نهر الماين اليسرى . وانتهى بأن حصل ، في ٣ ايلول ١٨٦٦ ، على توقيع معاهدة ، وبوجب هذه المعاهدة ، دخلت الهس العليا ، أي القسم الهسي الموجود في شمال خط الماين ، في اتحاد ألمانيا الشمالية ، ولم يستطع أحد أن يقول في ذلك شيئاً . ومن جهة أخرى ، قبل دوق هس الأكبر أن يعهد إلى ملك بروسيا بالقيادة العليا للجيش الهسية في حالة حرب ؛ وأخيراً تنازلت دوقية هس الكبرى للملك بروسيا عن أرض صغيرة جداً وهي مدينة وقصر هومبورغ .

ولم يعلم أحد ، في ذلك العصر ، خارج الحكومات المعنية ، بهذه التحالفات السرية . وإذا قرأنا التقارير التي وجهها سفير فرنسا في بروسيا بيسيدي للحكومة الفرنسية، في آب وفي ايلول ١٨٦٦ ، وقد نشرت هذه التقارير في مجموعة الاصول الدبلوماسية لحرب ١٨٧٠ ، وجدنا أن بيسيدي لا يأتي بأي تلميح لامكان تحالفات سرية ، حتى انه يصرح بأن دول الجنوب محظوظة جداً ، وانها أبرمت السلام مع بروسيا في شروط « معتدلة جداً » . ولذا ، يمكن أن يقبل بأن الحكومة الفرنسية في ذلك الحين لاتعلم شيئاً . وربما تكون قد تلقت بعض القرائن الغامضة ، بعد ذلك بقليل ، ابتداء من شهر تشرين الثاني ١٨٦٦ ، ولكن القرائن الدقيقة الاولى ، تلقتها في شباط ١٨٦٧ ، عندما عقد وزراء الحربية في دول ألمانيا الجنوبية مؤتمراً في شتوتغارت وقرروا وضع نظام عسكري قلدوا فيه نظام بروسيا . وان نسخ النظام العسكري، لدول الجنوب ، عن نظام الجيش البروسي ، يدل على أنه يوجد ، بين بروسيا وهذه الدول

شيء أكثر من الصداقة بقليل ، وعلى ما يبدو ، ابرام تحالف . وجاء اليقين في آخر آذار ١٨٦٧ . وكانت بروسيا وفرنسا ، في ذلك الحين ، في نزاع دبلوماسي بسبب قضية اللوكسمبورغ .

ولا نريد أن ندرس هنا هذه القضية . حسبنا ان نقول أن نابليون الثالث كان يبحث دوماً عن « تعويضات ، أرضية . وقد ظن بأنه يستطيع أن يجدها في دوقية اللوكسمبورغ الكبرى ، وكانت هذه البلاد تابعة الى ملك البلاد المنخفضة . وحاول بسمارك أن يدخل في روع نابليون الثالث بأن هذه القضية يمكن أن تتحقق ، وتركه يبرم اتفاقاً بين فرنسا وملك البلاد المنخفضة . ثم أخرج بسمارك نابليون الثالث واضطره إلى التراجع .

وفي غضون ذلك نشر بسمارك في « الجريدة الرسمية » لبروسيا ، معاهدات التحالف السرية التي أبرمت بين بروسيا ودول ألمانيا الجنوبية . ومن البديهي أن يكون هذا العمل ضربة قاسية جداً للسياسة الفرنسية . وقبل ذلك بأيام أكد وزير الدولة روهير في الهيئة التشريعية بأن السياسة الفرنسية ، في القضايا الألمانية ، ترمي الى الحفاظ على الأقسام الثلاثة ، أي على كونفدراسيون ألمانيا الشمالية ، النمسا ، وبين الاثنين كذلك دول الجنوب المستقلة . ولاشك في أن بسمارك ، بنشره معاهدات التحالف السرية ، كان يريد أن يضرب نابليون الثالث « ضربة مخزية ، ومع ذلك لم تحتج الدبلوماسية الفرنسية .

وهكذا ارتبطت دول ألمانيا الجنوبية ببروسيا بحلف عسكري . إنشاء البرلمان البرمكي (تسولبارلمان) . - لقد قطعت حرب ١٨٦٦ ، في الواقع ، الاتحاد البرمكي البروسي . وفي شهر آب

١٨٦٦ ، استعادت دول ألمانيا الجنوبية أماكنها في الاتحاد germاني . ولكن بسمارك أراد أن ينظم هذا الاتحاد germاني من جديد : فسخ معاهدة الاتحاد germاني ودعا دول ألمانيا الجنوبية إلى عقد مؤتمر في برلين لدراسة كيفية تجديد هذه المعاهدة . وتبنى بسمارك في هذا المؤتمر خطة التنظيم الجديد . فحتى الآن ، عندما يبرم الاتحاد germاني معاهدة تجارية فإن هذه المعاهدة لا تقبل إلا إذا صادقت عليها حكومات جميع الدول الألمانية الأعضاء في هذه التجميع . إلا أن بسمارك أراد منذ الآن أن ينظم « سلطة تشريعية » للاتحاد germاني أي « برلمان germاني » يتألف ، من جهة ، من نواب رايخشتاغ ككونفدراسيون ألمانيا الشمالية ، ومن جهة أخرى ، من الـ ٨٣ نائباً عن دول ألمانيا الجنوبية الذين ينتخبون بالتصويت العام على أن يصوت في هذا « البرلمان » بالأكثرية المطلقة : وبالتالي ، فإن المعاهدة التجارية ، والقانون germاني اللذين يوافق عليهما البرلمان germاني (تسولبارلمان) يدخلان آلياً في حيز التنفيذ دونما حاجة إلى قانون خاص يصوت عليه في كل دولة من الدول .

لقد كان من طبيعة هذا « البرلمان germاني » أن ينشئ وحدة قوية أكثر قوة وثباتاً بين الشمال والجنوب من وجهة النظر الاقتصادية ، وأن يقيم أيضاً تعارناً وثيقاً بين جميع الألمان . وهذه خطوة نحو الوحدة السياسية . وقد تبنت دول الجنوب الخطة البروسية ، في صيف ١٨٦٧ ، وهكذا فإن معاهدة الاتحاد germاني المبدلة على هذا النحو جددت في ٨ تموز ١٨٦٧ .

ولكن كان يجب أن تصدق برلمانات دول ألمانيا الجنوبية على هذه المعاهدة الجديدة للاتحاد germاني : ففي دوقية باد الكبرى أوصى الدوق الأكبر بجرارة بالتصديق وعبر ، للمرة الثانية وعلناً هذه المرة ، عن رغبته في أن

يرى دوقية باد تدخل في اتحاد المانيا الشمالية . ووافق المجلسان في الدوقية الكبرى على معاهدة الاتحاد الجرمني الجديدة بالإجماع تقريباً . وفي فورتامبرغ هاجم قسم من الرأي العام بشدة هذه المعاهدة . وكان يخشى من أن تصبح فورتامبرغ « تابعاً » لبروسيا . وفي بافاريا تشكلت معارضة ضد المعاهدة ، ولكن عندما خشي فقدان الارباح الناجمة عن الاتحاد الجرمني ، صادق مجلس النواب على المعاهدة في ٢٢ تشرين الأول ١٨٦٧ ، بأكثرية قوية جداً .

وفي الوقت الذي تم فيه تبادل التصديق ، في برلين ، في تشرين الثاني ١٨٦٧ ، على معاهدة الاتحاد الجرمني الجديدة ، صرحت الحكومة البروسية بانها لا تمنع تصديقها إلا بشرط واحد وهو ألا تطرح معاهدات التحالف مرة ثانية على بساط البحث . وهكذا ربطت السياسة البروسية قضية التحالف العسكري بقضية الرابطة الاقتصادية : وعلى الرابطة الاقتصادية أن تخدم في الحفاظ على الرابطة العسكرية التي اقيمت بين الدول الألمانية .

وكان بإمكان بسمارك أن يكون راضياً عن هاتين النتيجتين اللتين حصل عليهما دون انقطاع . وكان يأمل بدخول دول الجنوب بسرعة في اتحاد المانيا الشمالية . ولكن لما يشأ أن يستعجل كثيراً ، وكان يرى أن من الأفضل أن يصبر حتى يقتنع الالمان أنفسهم بالفوائد التي يمكن أن يجدها في الاشتراك باتحاد ألمانيا الشمالية . لم يشأ أن ينهي كل شيء ، وعلى الأقل ، كان يقول انه يريد ذلك « بقرار حر » من دول الجنوب دون أن يقوم بأي قسر أو إكراه . وان تشكيل الامبراطورية والوحدة المعنوية ، في رأيه ، يجب أن يذهباً معاً اذا أريد تحقيق أثر دائم .

وفي ٧ ايلول ١٨٦٧ ، صرحت الحكومة البروسية ، في بلاغ ، بأنها تبادر بالذهاب إلى الأمام في كل رغبة تبديها حكومات الجنوب « في كل ما يتعلق بتوسيع وتمتين العلاقات بين شمال ألمانيا وجنوبها . » وتترك إلى هذه الدول كل الحرية في اتخاذ أي قرار لأجراء هذا التقارب . وهكذا أكد بسمارك علناً ، في صك رسمي ، بأنه لا يجبر دول الجنوب على الدخول في اتحاد ألمانيا الشمالية .

٢ - مقاومة المان الجنوب

وضع الرأي العام في ألمانيا الجنوبية . - بعد هذا الفوز الذي أحرزه بسمارك في ١٨٦٧ ، لاقت السياسة البسماركية مقاومات في دول الجنوب . ولا بد لنا قبل كل شيء من أن نتعرف على حالة الرأي عند سكان الجنوب . ففي غداة حرب ١٨٦٦ ، ارتبك المان الجنوب بالحوادث وبالهزيمة النمساوية وأفلقتهم ، من جهة أخرى ، التعويضات الأرضية التي طلبتها فرنسا . ولذا قبلت ، دون غناء ، معاهدات التحالف السرية . ولكنها عندما اعتقدت أن بإمكانها الحفاظ على استقلالها فضلت هذا الحل بالطبع .

لقد قرر بسمارك ، في تموز ١٨٦٧ ، إنشاء برلمان جمركي ، واجريت الانتخابات لهذا البرلمان في آذار ١٨٦٧ وكانت فرصة للأحزاب السياسية ، في ألمانيا الجنوبية ، لتفصح عن رأيها مع أو ضد وحدة سياسية مع اتحاد ألمانيا الجنوبية .

في دوقية باد الكبرى صرح الرأي العام ، في مجموعه ، بأنه يجب أن الوحدة الألمانية ، أي دخول دول ألمانيا الجنوبية في كونفدراسيون ألمانيا الحركات القومية - ٣ (٧)

الشمالية . وفي دوقية هس الكبرى ، أو على الأقل ، فيما بقي منها ، لأن القسم الشمالي كان تابعاً لاتحاد المانيا الشمالية ، وجد اتجاه قوي جداً لصالح الوحدة الألمانية . وفي فورتامبرغ ، وجد حزب لصالح الوحدة ، وكان هذا الحزب يضم البورجوازية الصناعية والتجارية ، والرعاة البروتستانتين والضباط . ووجد أيضاً اتجاه معاد جداً لبروسيا وبضم العناصر الديمقراطية . وبالأجمال ، ان ثلاثة أرباع الناهخين تقريباً كانوا يعادون الوحدة الألمانية . وفي بافاريا وجدت كتلة يمكن أن نسميها الكتلة « القومية - الليبرالية » (بالمشابهة مع الحزب القومي - الليبرالي في اتحاد المانيا الشمالية) ، وكانت تحبذ الوحدة . وكانت نشيطة بخاصة في فرانكونيا . ولكن وجدت مقاومة قوية جداً من جانب الكاثوليكين . وكانت الدعاية البروسية تعمل كثيراً في بافاريا وقامت في مونيخ بنشر جريدة تسمى « صحيفة المانيا الجنوبية » ، يديرها بافاري ، وكانت الحكومة البروسية تدفع له أجره . ولدينا الدليل على ذلك بنشر الوثائق الدبلوماسية الألمانية . وفي الانتخابات كان ثلثا الناهخين معادين للوحدة الألمانية ، ومحبذين الحفاظ على استقلال دول الجنوب .

وبالأجمال ، في هذا البرلمان الجمركي الذي يجب أن يضم أكثر من ٨٠ نائباً من نواب المانيا الجنوبية ، وجد ٤٩ منهم منساقون لبروسيا . ونلاحظ أن هؤلاء المناوئين لبروسيا كانوا متفقين على الحفاظ على الاتحاد الجمركي لأنهم يرون بأن لا حياة اقتصادية ممكنة لدول الجنوب خارجاً عن الاتحاد الجمركي ، ولكنهم لا يريدون أن يذهبوا إلى ما وراء الصعيد الاقتصادي ولا يقبلون بفكرة الوحدة السياسية .

وأي حكومات دول المانيا الجنوبية . - في بافاريا ، لقد وصل

الملك لويس الثاني إلى العرش منذ قليل من الزمن وكان عمره في ١٨٦٧ ، واحداً وعشرين عاماً . كان رجلاً مثقفاً ، نبيل الطباع ، ولكنه خال من أي تجربة ، ويشعر بتفاهته ، كما يشعر بغطرسة ملكية كبيرة حتى يخضع إلى مجالس . كان لويس الثاني موسيقياً متحمساً ، ومعجباً كثيراً بموسيقى فاغنر ، وهتم بالموسيقى أكثر من اهتمامه بقضايا الدولة ، وقد احتفظ بعاطفة سامية جداً بكرامته كملك ، وكان متعلقاً جداً باستقلال بافاريا . وعدا ذلك ، كان هذا الملك غريب الأطوار والأفكار ، وزادت هذه الغرابات عنده في السنوات التالية ، ولوحظت عليه في ١٨٦٧ : ولنذكر مثلاً أنه لا يريد أن يخدم إلا بخدمة مقنعين لأنه صرح بأنه لا يجب أن يرى وجه الناس . ولم يكن للويس الثاني نفوذ مستمر في توجيه الأمور السياسية في دوله . ولكنه كان قادراً على المعارضة بقوة مقاومة عظيمة لبعض القرارات .

اتخذ لويس الثاني وزيره الأول ، ابتداءً من ٢٩ كانون الأول ١٨٦٦ ، الأمير كلوفيس هوهنلوهره ، ولم يكن هذا الأمير بافاري المولد ، ولكن كانت له مصالح في بافاريا ، لأنه كان يملك فيها أملاكاً كبيرة . وكان كاثوليكياً ، ولكنه كاثوليكي « ليبرالي » في قضية علاقات الكنيسة والدولة . وكان فكراً ناعماً ومستقلاً جداً . ولنشر إلى أن كلوفيس هوهنلوهره سيصبح بعد ثلاثين عاماً مستشاراً للامبراطورية الألمانية بعد بسمارك . وكان هوهنلوهره يرى أن دخول بافاريا في كونفدراسيون المانيا الشمالية سيتم حتماً يوماً ما ، ولكنه يريد أن يلحق هذا الدخول ببعض شروط ويحصل لبافاريا على درجة من الاستقلال الذاتي . ومع ذلك ، كان مضطراً أن يأخذ بعين الاعتبار حالة رأي الشعب البافاري . وكانت اكثريّة هذا الشعب ، الثلثان تقريباً ، في عواطفها مناوئة لبروسيا .

في فرتامبرغ ، كان الملك شارل قليل النفوذ ، وكان وزيره فادنبولر في اعماقه ، مناوئاً لبروسيا ، ولكن الوزراء الآخرين أدرکوا أن فرتامبرغ لا تستطيع أن تبقى طويلاً مستقلة ؛ وبخاصة كان في محيط الملك ، بعض ضباط ينصحونه بتنظيم الجيش الفرتامبرجوازي على نمط بروسيا . ولكن الحزب المناوئ لبروسيا يعتمد على الملكة اولغا وكانت أميرة روسية ، ابنة القيصر الكسندر الثاني ، وبالتالي ، اخت القيصر الحاكم . كانت اولغا متفوقة جداً على زوجها ، وترغب بصيانة استقلال التاج الفرتامبرجوازي . ولكن الحكومة الفرتامبرجوازية كانت تحذر كثيراً بافاريا ، لأنها تخشى أن ترى نفسها تابعة للحكومة البافارية ، ولذا كانت لا تتعلق ببروسيا ولا تتعلق ببافاريا أيضاً .

وفي دوقية هس الكبرى ، كان الدوق الاكبر مناوئاً لبروسيا وكان وزيره الأول دالويك . وقال ذات مرة ، ولكن هذا الحادث لم يبرهن عليه : « لا أنتظر الا شيئاً ، وهو وصول بنطونات حمراء » . لقد كان يرجو اذن وصول الجيش الفرنسي الى دوقية هس الكبرى . وكان مناصراً قديماً لفكرة « المانيا الكبرى » ، أي المانيا « مع ادخال النمسا » . وقد وقع معاهدة تحالف مع بروسيا ، ولكنه يأسف لذلك ، ويرجو أن يتحرر منها ذات يوم .

وفي دوقية باد الكبرى ، كان الدوق الأكبر صهر غليوم الأول ، ولكنه كان ، كما رأينا ، مناصراً متحمساً للوحدة الألمانية ، ولا يطلب الا ان أن يدخل دوقية باد الكبرى في كونفدراسيون المانيا الشالية حال قبول بسمارك .

وهكذا تعطي هذه اللوحة انطباع الشك وعدم اليقين . لقد كانت قوة الظروف تدفع دول الجنوب نحو الاتحاد مع كونفدراسيون المانيا

الشمالية وبخاصة على الصعيد الاقتصادي . ولكن ، من جهة أخرى ، كانت هذه الدول تخشى تفوق بروسيا السياسي ، وفي الاعماق ، ترغب الحفاظ ، اذا استطاعت ، على نظام مستقل او نصف مستقل .

ولقد فكر كلوفيس هوهنلوه ، وزير بافاريا الأول ، بجل « وسط » . وفي آذار ١٨٦٧ وضع مشروعا : وأراد بموجبه أن يقيم بين دول الجنوب كونفدراسيون على نمط الكونفدراسيون الجرمانى القديم لعام ١٨١٥ ، على أن يكون بالامكان اشتراك كونفدراسيون المانيا الشمالية في هذا الكونفدراسيون الجنوبي . ويتألف الكونفدراسيون الذي تصوره هوهنلوه من خمسة أعضاء : كونفدراسيون المانيا الشمالية ، بافاريا ، فرتامبرغ ، باد ، هس الجنوبية . ويقول هوهنلوه « وهكذا تتحقق الوحدة ، مع الحفاظ على حقوق سيادة دول الجنوب . غير أن بسمارك بعد أن اطلع على هذا المشروع ، صرح بأنه غير مقبول ، لأنه يسمح لدول الجنوب بالحفاظ على استقلال سياستها الخارجية ، ولأن قرارات هذا الكونفدراسيون يمكن أن تخضع لموافقة خمسة برلمانات : رايخشتاغ كونفدراسيون المانيا الشمالية وبرلمانات دول الجنوب الأربع .

ولذا ، فان فكرة الوحدة الالمانية لم تسجل أي تقدم . وعلى العكس ، في آخر ١٨٦٨ ، وفي ١٨٦٩ ، وفي بداية ١٨٧٠ يلاحظ تقهقر . وقد طبعت في المانيا ، قبل ١٩٣٩ بقليل ، مجموعة الوثائق الدبلوماسية التي تتعلق بسياسة بروسيا الخارجية في الدور المحصور بين ١٨٥٩ و ١٨٧٠ ، وفي هذه المجموعة ، نجد التقارير التي كان يتلقاها بسمارك من عماله الدبلوماسيين في المانيا الجنوبية وفيها نرى معلومات معبرة عن الحال .

وفي الاول من ايلول ١٨٦٨ ، صرح ممثل بروسيا ، في بافاريا ،

بأن « المعارضة التي يدبرها خصوم بروسيا تنتظم تدريجياً بقوة » . فقد وجد اتجاه معاكس في أوساط الشبيبة ، ولكنهم من رجال الجيل الأكبر سناً وكان دورهم موجهاً . وكان هؤلاء مناوئين لبروسيا صراحة . وفي ١٤ شباط ١٨٦٩ ، كتب ممثل بروسيا في مونيخ أيضاً : « منذ اللحظة القصيرة ، التي ظهرت فيها العاطفة القومية الألمانية في ربيع ١٨٦٧ ، لم يكن من هذه العاطفة إلا أن تناقصت تدريجياً ، ودون أزمة جديدة . ولا أرى وسيلة لابقاف هذا التطور . النعرة في بحر ، وسوء الظن القديم ، والحقد القديم ، ضد بروسيا ، يفوق غيره » . ولكن لنلاحظ هذا الحذر : « دون أزمة جديدة ، ولا أرى وسيلة » ، وهذا يعني أن ممثل بروسيا في مونيخ يرى انه اذا حدثت أزمة جديدة دولية ، فان رأي دول الجنوب يعود مجدداً للوحدة الالمانية . وكتب الوزير البروسي نفسه في مونيخ ، في كانون الاول ١٨٦٨ : « نرى ضدنا حزب البلاط والكاثوليكين والديمقراطيين ، وبالتالي كل العالم تقريباً » .

وفي انتخابات تشرين الثاني ١٨٦٩ ، حصل الحزب المناوئ لبروسيا ، الذي يسمى ، في بافاريا ، « الحزب الوطني » ، على أكتريية واضحة في مجلس النواب البافاري . وقدم هوهنلوهر استقالته ، لأن أكتريية المجلس كانت مؤلفة من كاثوليكين اكليركيين جداً ، بينما هو نفسه لم يكن اكليركياً . وقد احتجزه الملك ، ولكن الاكليركيين هاجموا الوزارة بمناسبة قضية التشريع المدرسي ، وحصلوا على تصويت عدم ثقة ضد هوهنلوهر . فقرر هذا عندئذ أن ينسحب وحل محله الكونت براى وكان مناوئاً لبروسيا .

في فوتمبرغ ، زادت الانتخابات في عام ١٨٦٩ عدد الديمقراطيين

وكان هؤلاء الديموقراطيون مناوئين لبروسيا . وفي كانون الثاني ١٨٧٠ ، حاولت هذه الاكثية في بارلمان فرتامبرغ تفويض القانون العسكري الذي سن عام ١٨٤٧ وكان نقليداً للقانون البروسي . وطلبت عريضة مغطاة بـ ١٥٠ . ٠٠٠ توقيع الى الحكومة الفرتامبرجوازية أن تقيم في فرتامبرغ ، مقام النظام العسكري البروسي ، النظام العسكري السويسري أي نظام المليشيا العسكرية ، وضحت الوزارة : وقبلت ان تخفض الاعتمادات العسكرية ، وبخاصة ، صرحت الى مجلس النواب بان فرتامبرغ تبقى حرة في تقدير « حالة الحلف » في معاهدة التحالف المبرمة مع بروسيا وهكذا عرضت فرتامبرغ من جديد قضية المعاهدات المبرمة على بساط البحث .

وفي هس - دارمشتات ، ظل الوزير دالويك يضع كل أماله في فرنسا . وقام باتصالات سرية ، ولا شك ، مع الجنرال الفرنسي دو كورو ، قائد الجيش في ستراسبورغ ، وادخل دو كورو في روعه الامل بتدخل فرنسا في جنوب المانيا . ودالويك هذا هو الذي اعرب ، في آذار ١٨٧٠ ، الى الارشيدوق النمساوي البهوت عن أماله في ان يراه يدخل جنوب المانيا مع جيش نمساوي ، في حالة حرب فرنسية - بروسية ، وأخيراً ، يوطد الوضع القديم لبنت آل هابسبورغ . وهكذا كان الوزير الأول في هس - دارمشتات يفكر أيضاً بتحالف نمساوي لم تكن النمسا نفسها لتفكر به مطلقاً .

وظلت حكومة باد وحدها في صالح بروسيا ، واستمر دوق باد الاكبر يعرب ، في كل مناسبة ، عن رغبته في الدخول في كونفدراسيون المانيا الشمالية .

ان الانطباع السائد ، في ربيع ١٨٧٠ ، وعبرت عنه جريدة بافاريا ،

هو « ان آلة بسمارك معطلة » ويراد بذلك ان الوحدة الالمانية لم تتقدم أبداً . وكان غليوم الأول متشائماً وقال : « هل ستم الوحدة ؟ ومتى ؟ » وبدأ يشك في ذلك بجد . أما بسمارك ، فقد اعتقد زمناً طويلاً أن تأتي دول الجنوب نفسها وتطلب ارتباطها بكونفدراسيون المانيا الشمالية ، ولكنه ادرك ، في ١٨٦٩ - ١٨٧٠ ، بأنه مخدوع ، وان الهدف الذي حلم به ، كان يتفقر عوضاً عن أن يتقدم . فهل كان مستعداً لاتباع النصيحة التي أسداها اليه بمثله في مونيخ بقوله : « دون أزمة جديدة » ، لا أرى الوسطة . . . » وكان منطقياً أن يقول بسمارك بينه وبين نفسه : اضم دول المانيا الجنوب ، أي اضم الرأي الالمانى حول بروسيا ، لا بد من أزمة خارجية تكون مناسبة ، ان حرباً مع فرنسا هي الوسطة الحسنة لانهاء الوحدة المعنوية لألمانيا . ويخيل أن بسمارك قد حفظ هذا الحكم ، ومع ذلك فليس لدينا ادلة مطلقة ، ولن توجد هذه الادلة أبداً ، لأنه من النادر أن يعهد رجل الدولة الى الورق بأفكار من هذا النوع .

٣ — تأسيس الإمبراطورية الألمانية

ان دراسة الحرب الفرنسية - البروسية والشروط التي تفجرت فيها ، لاتعطينا بالذات والمما نريد أن نكتفي هنا بتسجيل أهمية هذه الحرب في القضية التي نهتمنا وهي الحركة القومية الألمانية .

لقد أدت الحرب بين فرنسا وبروسيا بالطبع إلى تنفيذ معاهدات التحالف السرية المبرمة في شهر آب ١٨٦٦ بين اتحاد ألمانيا الشمالية ودول الجنوب : زحفت جيوش دول الجنوب تحت قيادة بروسيا ، وحملت مع الجيش البروسي على فرنسا . وقد قوت حرب ١٨٧٠ معنوياً الوحدة الألمانية . وكان منطقياً أن تخرج الوحدة منها . ولا أحد يشك في ذلك .

فمنذ الأشهر الأولى عبرت الصحافة الألمانية في الغالب عن هذه الأمنية وإذا لم توجد العقبة في الرأي العام ، ابتداء من ذلك الحين ، فقد ظلت موجودة من جانب السلالات .

وليس ضرورياً أن ندخل في كثير من التفاصيل في هذه الموضوع ، لأن ذلك ، في الحقيقة ، معجب ومسل أكثر ما هو هام ، ولأن القضايا كانت قضايا حب ذات وأفانية وقضايا أشخاص .

إن ما يهمنا بالذات هو أن نعرف كيف تغلب بسمارك على الصعوبات السلالية .

منذ النصر الألماني في سيدان واستسلام نابليون الثالث ، في ٢ ايلول ١٨٧٠ ، بدأت قضية « تعمير » ألمانيا توضع فعلاً : أراد بسمارك أن يفيد من الظروف لانتهاء الوحدة الألمانية بشكل « ألمانيا الصغرى » أي دون النمسا . ولكن بأي طرق ؟ لقد وجد في محيط بسمارك بعض أشخاص يقولون له : « إن بروسيا رأس الائتلاف الألماني المنتصر . فيكفي أن تقول لدول الجنوب : هاكم ماقررت ، امثلوا ! » . ولكن بسمارك لم يشأ استعمال هذا الأصول . لقد فضل أن يحصل من سلالات الجنوب على اقتراح الوحدة بنفسها . ولم يكن هذا دون عناء ، وبخاصة من جانب بافاريا . وقال بسمارك إلى الملك ، ولكن سراً ، بطريق عدة وسطاء ، بأنه ينتظر مبادأة من دول الجنوب : وأكد ذلك بقوله : « انني مستعد لاحترام حرية تقريرها ، ولكنني آمل بأن تقوم نفسها بمبادأة طلب الدخول في كونفدراسيون ألمانيا الشمالية » : إن دوق باد الأكبر ، الذي كان يطلب ذلك منذ ثلاثة أعوام ، طلبه حالاً . وقررت فورتامبرغ الدخول في ١٠ ايلول ١٨٧٠ . ولم يكن لدوقية هس الكبرى كبير أهمية في ذلك الحين لأنها كانت معزولة .

بقيت بافاريا : وقد أرسل بسمارك إلى مونسيخ ، في ٢٣ ايلول ١٨٧٠ ، مفاوضاً ، دلبورك ، واجرى محادثات مع أعضاء الحكومة البافارية . وصرحت الحكومة البافارية بأنها تقبل الدخول في كونفدراسيون ألمانيا الشمالية إذا قبل بسمارك أن يجعل لبافاريا وضعاً خاصاً ، لأن بافاريا طلبت أن تحتفظ بأن يكون لها حق في تمثيل دبلوماسي مستقل ذاتي ، وجيش ذاتي ؛ وعدا ذلك طالبت بثمانية أصوات في البندسرات ، أي مجلس الكونفدراسيون .

رأى بسمارك أن هذه المزاعم مفرطة ، ولكنه انتهى ، خلال المفاوضات التي تمت في فرساي ، الى أن جعل بافاريا تقرر ، وأعلم الملك لويس الثاني بأن الحكومة البافارية إذا لم تقبل بشروط أقل سعة مما كانت تطلب أولاً ، فان بروسيا تستطيع ضمها أن تتفق مع دول الجنوب الأخرى وتترك بافاريا منعزلة . وانتهت الحكومة البافارية بالتنازل ووقعت في ٢٣ تشرين الثاني ١٨٧٠ ، معاهدة قبلت فيها الدخول في كونفدراسيون ألمانيا الشمالية . وهذه المعاهدة تدع لها الحق في أن يكون لها جيش مستقل و تمثيل دبلوماسي مستقل ، شريطة أن ينفذ الممثلون الدبلوماسيون البافاريون في الخارج تعليمات الحكومة المركزية ، وبالتالي ، كان هذا التنازل لإرضاء شكلياً تركه بسمارك للبافاريين .

وأثار الشكل ، الذي أعطي لهذه الوحدة الألمانية ، قضية اللقب الامبراطوري . لقد اكتفى بسمارك ، في ١٨٦٧ ، بأن يعطي لملك بروسيا لقب رئيس الاتحاد ، أما الآن فقد رأى من الضروري أن يعطى لقب امبراطور ، لأن هذا اللقب له أهمية معنوية ويطبع تفوق ملك بروسيا على السادة الألمان الآخرين . وكانت هذه القضية معقدة أيضاً : فقد وضع ملك بافاريا صعوبات ضخمة قبل أن يقبل بأن يأخذ ملك بروسيا لقب امبراطور . وهنا أيضاً ، استعمل بسمارك كثيراً من

المهارة ، وقال إلى ملك بافاريا : « انظر إلى الحالة كما هي ؛ ان ملك بروسيا سيكون امبراطوراً ، شئت أو لم تشأ ، وبالتالي ، ان مايمكنك عمله بشكل أفضل ، لأن هذا ينقذ انايتك ، هو أن تقدم له بنفسك لقب امبراطور . وانتهى ملك بافاريا بأن سلم بهذه الحجة ، ولكن بعد تردد طويل . ووجه الملك لويس الثاني إلى ممثله في فرساي ، مشروعين في رسالتين موقعتين بتوقيعه : في إحداهما يرفض وفي الآخر يقبل ، وترك الممثل البافاري حراً في أن يسلم مايريد . ومن الطبيعي أن يختار ممثله أقل الخطرين ، وسلم الرسالة التي قدمت لغلوم الاول لقب امبراطور.

هكذا حلت القضية ، على ما يبدو ، ولكنها لم تحل تماماً ، لأنه كان يراد معرفة ماذا كان ملك بروسيا يأخذ لقب امبراطور المانيا او امبراطور الماني : وهذه القضية خطيرة ، لأن لقب امبراطور المانيا يتضمن ، في نظر الأمراء الالمان ، تفوقاً أعظم من لقب « امبراطور ألماني » . وقرر بسمارك لقب « امبراطور ألماني » . ولكن غليوم الأول كان مقتنعاً بأن اللقب « ملك بروسيا » أفضل من لقب امبراطور ، ولكنه أراد ، إذا كان لابد له من قبول اللقب الامبراطوري ، أن يكون « امبراطور المانيا » . وعندما وقع صك تأسيس امبراطورية المانيا ، في ١٨ كانون الثاني ١٨٧١ في قاعة المرايا في قصر فرساي ، لم يكن ليعلم بعد ، حتى الدقيقة الأخيرة ، ماذا كان ملك بروسيا سيأخذ لقب « امبراطور الماني » أو « امبراطور ألمانيا » . حتى ان دوق بادالاكبر ، الذي كان مكلفاً بالهتاف هوخ التقليدية لم يعلم بعد بأي لقب يجب أن ينادي . وكان يجب أن يتكلم بذلك ، في أركان القاعة إلى غليوم الأول ، وإلى بسمارك . وأخيراً ، باعتبار أن نظام الاحتفال قد نظم سلفاً ، اضطر الدوق الاكبر

ان يلفظ « يعيش » دون أن يستطيع التوفيق بين محدثيه . ولكن غليوم الاول كان مستاءاً جداً ، حتى انه ، عندما انتهى الاحتفال ، وخرج من القاعة ، بعد أن صافح الشخصيات الحاضرة ، لم يوافق بشارك صانع هذه الوحدة الالمانية ، وبدونه لم يأخذ لقب امبراطور . والواقع ان غليوم الأول أخذ لقب امبراطور ألماني ، لالقب امبراطور ألمانيا .

الفصل السادس

قضية الوحدة الألمانية

من ١٨٧١ إلى ١٩١٤

لقد فسحت قضية الوحدة الألمانية ، في الدور الواقع بين ١٨٧١ - ١٩١٤ ، مجالاً لنوعين من القضايا : قضايا من نوع داخلي ، أي قضايا تعود إلى بنية الدولة الاتحادية الألمانية ، وقضايا من نوع خارجي تعود إلى التوسع الممكن لهذه الدولة الألمانية .

١ - القضايا الداخلية

ان دستور اتحاد المانيا الشمالية ، كما وضع في ١٨٦٧ ، قد حوفظ عليه تماماً تقريباً في دستور الامبراطورية التي تأسست عام ١٨٧١ : والامبراطورية الألمانية ، حسب هذا الدستور ، دولة اتحادية . وقد وضعت لهذه الدولة دوماً قضية دقيقة : وهي قضية العلاقات بين حكومات كل من الدول الألمانية والحكومة الاتحادية . واخذت هذه القضية في الامبراطورية الألمانية ، مظهراً خاصاً ، لأن دولة بروسيا ، بين الدول الاعضاء في الامبراطورية ، كانت ، بنفوسها ، أهم بكثير من الدول الأخرى . وكانت قضية العلاقات بين بروسيا وحكومة الامبراطورية أو ، كما يقول الألمان ، بين بروسيا و « الرايخ » ، كما يلي : هل بروسيا ، التي تضم ثلثي سكان الامبراطورية ، وملكها في الوقت نفسه امبراطور الماني ، تستطيع

ان تفرض ارادتها على حكومة الامبراطورية أو ، على العكس ، ان حكومة الامبراطورية هي التي تفرض ارادتها على بروسيا .

ولاجتناب الخلاف والشقاق ، نص بسمارك على أن تتحد وظيفة مستشار الامبراطورية مع وظيفة رئيس مجلس بروسيا ، أي ان بسمارك كان في الوقت نفسه رئيساً لمجلس وزراء بروسيا ومستشاراً للامبراطورية الألمانية . ولكن من الممكن أن نعرف المحذور الذي يمكن أن يتضمنه هذا « الاتحاد الشخصي » بين رئاسة مجلس بروسيا ومستشارية الامبراطورية . فبسمارك ، باعتباره مستشاراً للامبراطورية ، كان مضطراً لأن يأخذ بعين الاعتبار رأي الريخشتاغ ، المجلس المنتخب بالتصويت العام ؛ وباعتباره رئيساً لمجلس وزراء بروسيا ، كان مضطراً أن يحسب حساباً لرأي لاندتاغ بروسيا المنتخب حسب نظام انتخابي - سننكلم عنه فيما بعد - يؤدي الى نتائج مختلفة جداً عن نتائج التصويت العام . ولذا فان الأكثرية في الريخشتاغ والأكثرية في لاندتاغ بروسيا ، كانتا مختلفتين دوماً . وكان بسمارك متجاذباً بين الريخشتاغ ولاندتاغ بروسيا .

وخلال مرتين قامت محاولة لفصل وظيفة المستشار ووظيفة رئيس مجلس وزراء بروسيا، وحاول بسمارك نفسه هذا الفصل خلال بضعة أشهر، في وقت كان فيه متعباً . ثم ان خلفه كابرقي حاول أيضاً هذا الفصل ، ولم تنجح هذه المحاولة . فاذا وجد رئيس المجلس وزراء بروسيا يختلف عن مستشار الامبراطورية، فان الاختلاف يكون بين رئيس مجلس وزراء بروسيا والمستشار، ولذا لزم الرجوع الى النظام الذي تصوره بسمارك في الأصل وهو : الاتحاد الشخصي بين رئاسة مجلس وزراء بروسيا ومستشارية الرايخ ، بالرغم من الأحداث التي يقتضيها ويحتملها .

وتبدو أهمية القضية في رؤية المحاولات التي قامت بين ١٨٧١ و ١٩١٤ لتقوية وحدة الدولة الألمانية من وجهة الميكانيكية الحكومية ، وبالتالي لتأمين تفوق الرايخ بقوة أكثر على الحكومة البروسية . وفي هذا الاعتبار تجب دراسة ثلاث نقاط : قضية وزراء الامبراطورية ، وقضية مالية الامبراطورية ، وقضية النظام الانتخابي البروسي . وهذه القضايا مختلفة ومتنوعة ، ولم يتفق المؤلفون الالمان عليها .

قضية وزراء الامبراطورية . - أثناء انشاء الدستور كانت وزير الامبراطورية الوحيد ، المستشار بسمارك . وكان إلى جانبه مكاتب (دواوين) تعالج القضايا العائدة لاختصاص الحكومة الاتحادية ، ولكن لمن يجب التوجه لتنفيذ الاوامر ؟ كان يتوجه إلى الوزراء في كل دولة من الدول . ومن جهة أخرى ، كان الوزراء البروسيون ، على العموم ، يثلون باسم المستشار أمام الريخشتاغ ، ويدافعون عن مشاريع القوانين . إلا أن هذا النظام بدل شيئاً فشيئاً : فقد أنشأ بسمارك وزارات امبراطورية تسمى رسمياً « مكاتب امبراطورية » : مكتب الشؤون الخارجية ، مكتب البحرية الامبراطورية ، المكتب الامبراطوري للخطوط الحديدية ، المكتب الامبراطوري للبريد والبرق ، والعدل ، والمالية . وعلى رأس هذه المكاتب وضع أمناء الدولة . ويرتبط أمناء الدولة هؤلاء بالمستشار مباشرة ويساعدونه . وبالتالي ، فقد أدى إنشاء المكاتب الامبراطورية ، أي الوزارات الامبراطورية ، في الواقع ، إلى تضيق اختصاصات الوزراء البروسيين ، وذلك لأن الوزراء البروسيين ظلوا حتى الآن يقومون بوظيفة وزراء امبراطورية في بعض الأحوال ، وهذا العمل يعتبر بلا منازع تقدماً في اتجاه الوحدة .

ومن جهة أخرى ، كان بسمارك يعين في الغالب أمناء الدولة ، أي

وزراء الامبراطورية ، كممثلين لبروسيا لدى البندسرات . وهذا العمل أيضاً كان وسيلة غير مباشرة لالحاق بروسيا بالرايخ . وكانت بروسيا تتصرف في البندسرات بـ ١٧ صوتاً على ٤٢ . وهذه الـ ١٧ صوتاً كانت تحت تصرف المستشار الذي كان الوقت نفسه رئيساً لمجلس الوزراء البروسي . ولم يكن بسمارك ، من أجل التعليقات التي يعطيها إلى هؤلاء المندوبين في البندسرات ، ليتخذ أبداً رأي مجلس الوزراء البروسي . ولذا فإن ممثلي بروسيا في البندسرات كانوا في الواقع ممثلي السلطة الاتحادية أكثر مما هم ممثلو الدولة البروسية .

وتساءل بسمارك ، بعض الوقت ، ما إذا كان هنالك مجال للذهاب الى أبعد من ذلك وإنشاء مجلس وزراء الرايخ . وحاول أن يعمل في هذا الاتجاه . ولكنه عدل بسرعة ، لأنه رأى بأنه إذا أنشأ مجلس وزراء الرايخ ، فمن الممكن أن يكون ذلك فرصة الوايخشتاغ ، بأن يطالب باقامة نظام برلماني لا يريد به بأي ثمن .

وظلت الحالة ملتبسة ، ومع ذلك ، يجب الاعتراف ، فيما يتعلق بالسياسة الداخلية ، بأن فكر بسمارك لم يكن مطمئناً وحازماً كما كان في السياسة الخارجية . ولذا ترك الى خلفائه ، في هذا الاعتبار ، حالة غير معروفة جيداً . وبعد سقوطه في ١٨٩٠ ثمة التنافس بين بروسيا وحكومة الامبراطورية ، لأن المستشارين لم يكن لهم نفس الجاه الشخصي الذي كان لبسمارك : فقد تفاقم الاختلاف بين الفكر البروسي وفكر ألمانيا الجديدة . وقد أضعف هذا الاختلاف سلطة المستشار ، لأن الوزارة البروسية كانت تدافع بشدة وحدة عن امتيازاتها حيال مستشارية الرايخ .

قضية مالية الرايخ - كانت الموارد ، التي تتصرف بها حكومة

الامبراطورية لدفع نفقات الحكومة الاتحادية ، تأتي من حصيلة الجمارك وحصيلة بعض ضرائب الاستهلاك ، مثل الضرائب على التبغ والبيرة والملح وضريبة الطابع ، وهذه الموارد لا تكفي لدفع النفقات . وكانت حكومة الامبراطورية تستجد بما كان يسمى « التكاليف التسجيلية » . ولبيان ذلك يكفي أن نقبل مثلاً أن الموازنة الاتحادية كانت في عجز ، في سنة من السنين ، بمائتي مليون مارك . ولذا كانت يجري توزيع هذه المائتي مليون مارك بين الدول الاعضاء في الامبراطورية بنسبة السكان في كل من هذه الدول ، وبعد ذلك تتكيف كل دولة كما تريد لدفع حصتها من هذا التكاليف في صناديق الامبراطورية . ولهذا النظام محذور : وهو أن حكومة الامبراطورية تجد نفسها ، لحد ما ، في حالة تبعية حيال الدول . ويستطيع مندوبو الدول ، في البندسمرات ان يبدو ملاحظات على رقم التكاليف الذي طلب منهم ، اذا بداهم أن هذا الرقم مبالغ فيه ، وهذه الملاحظات يمكن أن تؤدي الى مناقشات بين حكومة الامبراطورية وحكومة هذه الدولة أو تلك .

فكر بسمارك باصلاح مالية الرايخ لاعطاء الحكومة الاتحادية موارد خاصة مستقلة عن « التكاليف التسجيلية » التي تدفعها الدول ، ولهذا الغاية - ولكن في جزء فقط - قرر في ١٨٧٩ زيادة الرسوم الجمركية والزام المانيا بسياسة حماية جمركية . هذا ولما كانت حصيلة الرسوم الجمركية تدفع في صندوق حكومة الامبراطورية ، فالزيادة تجزئ حكومة الامبراطورية بموارد أكثر أهمية مما في السابق . ولكن البندسمرات لعب على بسمارك لعبة سيئة : فقد قبل بزيادة الرسوم الجمركية وصوت على تعديل يوزع بموجبه فائض الحصائل ، التي تتجاوز رقماً معيناً ، بين الدول .

الحركات القومية ٣ - (٨)

ولم يعط الاصلاح الجمركي موازنة الامبراطورية فائدة عظيمة ، لأن الدول أفادت من الوجهة الضريبية أكثر بكثير من الامبراطورية .

ثم استؤنفت المحاولة ، فيما بعد ، في ١٩٠٨ ، وقام بها في هذه المرة المستشار بولوف . فقد وضع مشروع اصلاح من شأنه تجهيز حكومة الامبراطورية بوارد جديدة تأتي عن ضريبة الارث . وقال بولوف ان هذا الحل عادل ، من الوجهة الاجتماعية ، وافضل من زيادة الضرائب غير المباشرة التي تفرض دون تمييز على جميع طبقات السكان . أما الضريبة على الارث ، على العكس ، فتصيب بخاصة الناس الأغنياء . ولكن عندما طرح هذا المشروع للنقاش ، في ٢٤ حزيران ١٩٠٨ ، أمام الرايخشتاغ ، صوت المحافظون « ضده » كما صوت « ضده » الوسط الكاثوليكي ، لأنه كان ، في ذلك الحين ، في خلاف مع بولوف وبأمل في اسقاطه . واجل المشروع بأقلية ضعيفة : ١٩٥ صوتاً ضد ١٨٧ صوتاً ولم يتم اصلاح المالية الاتحادية . وعلى اثر هذا الاخفاق قدم بولوف استقالته كمستشار . وهنا ايضاً ثم الوصول بالاجمال الى نتيجة سلبية .

الاصلاح الانتخابي البروسي . - لقد بينا المحاذير التي يبيدها « اختلاف الأكترية » بين الرايخشتاغ واللاندتاغ البروسي . كان الرايخشتاغ يساق بالتصويت العام ، بينما كان اللاندتاغ البروسي يساق حسب نظام معقد للغاية يسمى « نظام الطبقات » . ولمعرفة مجريات الأمور يكفي أن نأخذ دائرة انتخابية معينة : فعندما تجمع كل الضرائب التي تدفعها هذه الدائرة الانتخابية المعينة ، وتكون مثلاً ٩٠٠٠٠٠ مارك ، يقسم المجموع إلى ثلاث شطائر ، كل واحدة منها ٣٠٠٠٠٠ مارك ، ثم تؤخذ قائمة الناخبين وقد كتب إلى جانب اسم كل منهم رقم الضريبة التي يدفعها . ثم توضع

قائمة الناخبين الذين يدفعون ضرائب أكثر من غيرهم ، حتى مبلغ ٣٠٠٠٠٠ . وعندما نصل إلى هذا المجموع ، نتوقف . وهذا الفريق من الناخبين الذي ألف على هذا النحو يشكل الطبقة الاولى . ثم يؤلف بنفس الصورة ، حسب رقم الضريبة المدفوعة من كل واحد من المكلفين طبقة ثانية وثالثة من الناخبين . فاذا وجد ، في دائرة انتخابية معينة ، ناخب يدفع ١٠٠٠٠٠٠ مارك ضريبة ، وثلاثة يدفع كل منهم ٥٠٠٠٠ مارك وخمسة يدفع كل منهم ١٠٠٠٠ مارك ضريبة ، فان هؤلاء الثلاثة ناخبين الذين يدفعون جميعاً ٣٠٠٠٠٠ مارك ضريبة يؤلفون ، وحدهم ، « الطبقة الاولى » من الناخبين . و « الطبقة » الثانية يمكن أن تتألف من مائتي ناخب ، مثلاً . ثم ان جميع الذين لا يتبعون الطبقة الاولى والثانية ، يكونون في الثالثة وعددهم كثير بالطبع .

كانت كل طبقة تنتخب عدداً من الناخبين « من الدرجة الثانية » . « الطبقة » الاولى تنتخب ، مثلاً ، ثلاثة ناخبين من الدرجة الثانية ، و « الطبقة » الثانية ثلاثة ، والثالثة ثلاثة أيضاً . فاذا وجد في الطبقة الاولى ثمانية ناخبين ، فإن صوت كل واحد منهم له أهمية عظيمة ، ولكن ، في الطبقة الثانية ، حيث يكون الناخبون ٢٠٠ أو ٣٠٠ ، فانهم يمثلون قليلاً جداً . وفي الطبقة الثالثة ، حيث يكونون مثلاً ٣٠٠٠٠ ، فانهم يمثلون أقل من ذلك أيضاً ، لأنهم لا ينتخبون مع ذلك إلا ثلاثة ناخبين من الدرجة الثانية . وعندما ينتخب الناخبون من الدرجة الثانية النواب للاندتاغ البروسي ، فمن البديهي ، في هذا النظام ، أن يعتبر صوت الأغنياء أكثر بكثير من صوت الناس الذين يكون دخلهم متواضعاً ومحدوداً . وقد صرح بسمارك في ١٨٦٧ أن هذا النظام مضحك تماماً ولكن هذا المضحك لنا ووثاقم مع الزمن . ففي الأحياء الغنية ، في برلين ، حيث

يقيم كبار الصناعيين وكبار أصحاب المصارف كان عدده أفراد الطبقة الأولى صغيراً جداً ، من يملكون موارد ضخمة ويدفعون ضرائب ضخمة ، ونجد في الطبقة « الثالثة » اناساً يملكون ثروة محترمة ، ولكنهم يجدون أنفسهم في مكان بسيط لأن الطبقة الأولى والثانية « بمائتان » ، حتى اننا نجد أسماء بعض الوزراء مكتوبة في الطبقة الثالثة للناخبين ، لأنهم يكسبون من المال أقل بكثير مما يكسبه صناعي كبير أو صاحب مصرف ضخم .

وفيا يتعلق بنتائج هذا النظام ، وجد في ١٩٠٨ - ١٩٠٩ في الطبقة الأولى ٤٪ من الناخبين تقريباً ، وفي الثانية ١٣.٥٪ وفي الأخيرة ٨٢.٥٪ والنتيجة ، هي أنه لا يوجد تقريباً اشتراكيون في لاندتاغ بروسيا : ففي ١٩٠٨ وجد ٧ ؛ وفي ١٩٠٩ ، وجد ٣ ، بينما كان الاشتراكيون أكثر في الرايخشتاغ . ومن الطبيعي أن تطلب أحزاب اليسار ، في الرايخشتاغ ، حذف نظام « الطبقات » . وصرحت بأنه كان من اللازم أن يساق اللاندتاغ في بروسيا كما يساق الرايخشتاغ أي بالتصويت العام . وعلى العكس ، كانت أحزاب اليمين ، المحافظون ، راضية جداً عن هذا النظام الذي يؤمن لها في لاندتاغ بروسيا ، نفوذاً مسيطراً .

وضعت قضية اصلاح النظام الانتخابي البروسي بشكل حاد في الفترة الممتدة من ١٩٠٦ إلى ١٩١٠. وتحت تأثير الثورة الروسية لعام ١٩٠٥ نظم الحزب الاشتراكي ، في بروسيا ، وفي كثير من مدن ألمانيا ، مظاهرات كبرى لاصلاح النظام الانتخابي البروسي . حتى ان ملك بروسيا ، الامبراطور الألماني ، في خطاب العرش الذي وجهه إلى اللاندتاغ في تشرين الأول ١٩٠٨ ، رأى ضرورة اصلاح الانتخابي . وفي شباط ١٩١٠ قدمت الحكومة البروسية مشروع اصلاح . ولكن هذا المشروع كان يحافظ على نظام الطبقات ، وعدله اللاندتاغ آخذاً بعين الاعتبار بعض عناصر جديدة : فمن

ذلك أنه يمكن منح « ترقية » ، « طبقة » للناخبين الحائزين على ألقاب جامعية أو الذين مارسوا وظائف بلدية . ولكن لم يكن كل هذا ناجعاً : فإذا طبق هذا النظام الجديد فربما تضم الطبقة الأولى ٧٪ من الناخبين عوضاً عن أن تضم ٤٪ ؛ والطبقة الثانية تضم ١٧٪ عوضاً عن ١٣٪ ، ولا تتغير الحالة . وكان هذا النظام خجولاً جداً ولا يحقق مطلقاً المساواة في الهيئة الانتخابية . ولذا كوفح هذا المشروع كثيراً وسحبته الحكومة . وهنا أيضاً لم يعمل شيء .

وهكذا ظلت القضية الأساسية ، قضية العلاقات بين بروسيا والرايخشتاغ ، دون حل . وقبل حرب ١٩١٤ وجد في ألمانيا جدل شديد في هذا الموضوع ، وحاولت أحزاب اليسار أن تعرض على الراجشتاغ قضايا يبدو أنها كانت بصورة عادية من اختصاص اللاندتاغ البروسي : ففي ١٩٠٥ ، قام اضراب عظيم لعمال المناجم في حوض الرور ، وكان هذا الاضراب أعظم اضراب ألماني شهده الدور الذي يمينا . فقد وجدت مناجم الرور في الأرض البروسية . وكان يراد معرفة هل ستناقش القضية أمام اللاندتاغ البروسي أو أمام الراجشتاغ ؟ وقدم الاشتراكيون أمام الراجشتاغ استجاباً ، لأنهم كانوا يعلمون جيداً أن عرض القضية أمام اللاندتاغ لا يفيد في شيء ، لأن الاكثوية كانت فيه محافظة . وأخيراً ضغط الراجشتاغ على الحكومة البروسية لتتري عمال المناجم إرضاءً جزئياً . وكان في صالح أحزاب اليسار أن ينمو هذا الأسلوب . وعلى العكس ، قاومت العناصر المحافظة واراادت ان تتمسك بروسيا بالدور الذي رسمه الدستور لها في الامبراطورية وعارضوا جميع النزعات التي تهدف الى المركزية .

ومن الممكن القول ان النظام الدستوري الالماني ظل « ناقصاً » ولم

يتم . وتوجد فيه قضية عتيده ، وهي قضية معرفة ما اذا كانت حكومة الامبراطورية تستطيع أن تكره الحكومة البروسية على اتخاذ موقف معين ، أو أن الحكومة البروسية ستظل مستقلة . لقد رأى بعض المؤرخين أن هذه الحالة حرجة جداً ، حتى أنهم قالوا بأن هذا سبب من الأسباب التي من أجلها قامت ألمانيا بحرب ١٩١٤ . ويبدو في نظرنا أن هذا الرأي مبالغ فيه ، لأن الرأي العام الألماني لم تستره هذه القضية ، ولم تكن القضية الألمانية ، عام ١٩١٤ ، قضية داخلية ، بل كانت قضية خارجية .

٢ — القضايا الخارجية

لقد حقق بسمارك ، في ١٨٧١ ، الوحدة الألمانية بشكل ألمانيا الصغرى ، أي أن الامبراطورية الألمانية لم تشمل جميع الشعوب الناطقة بالألمانية . فقد وجدت شعوب ناطقة بالألمانية في البلاد البaltية نتيجة لاستعمار قديم قامت به الطرق الرهبانية التوتونية في العصر الوسيط . ووجدت جماعات ألمانية في هونغاريا في منطقة بحيرة بالاتون : وهم ألمان هاجروا إلى هذه المنطقة في القرن الثاني عشر . ووجدت أيضاً جماعات ناطقة بالألمانية في ترانسلفانيا . ولا نريد أن نتكلم عن الشعوب الناطقة بالألمانية في سويسرا .

ولكن وجود النوا الألمانية ، في البلاد البaltية و في هونغاريا الغربية أو في ترانسلفانيا ، لم يكن بالقضية التي يمكن أن يكون لها كثير من الأهمية العملية في ذلك العصر ، بينما وجدت قضية يمكن أن تكون لها أهمية مباشرة : وهي قضية المان النمسا الذين تركهم الحل البسمارك

خارجاً عن الامبراطورية الالمانية بعد أن كانوا تابعين من قبل للكونفدراسيون الجرمانى منذ عام ١٨١٥ .

قضية ألمان النمسا - . في ١٨٧٠ - ١٨٧١ كانت النمسا الأصلية ، لأن النمسا وهورنغاريا منذ ١٨٦٧ الفتا دولتين متحدتين فقط في عدد من القضايا المشتركة ، تضم مايقارب ١٩ مليون نسمة : وكانت الشعوب الناطقة بالألمانية تشكل جملة ٧ ملايين نسمة ، أي ٣٦٪ من رقم السكان ، بينما السلافون ، أي : التشيكيون وبولونيو غاليسيا ، وروتين غاليسيا والمنطقة المتاخمة لجبال الكربات وسلافو الجنوب ، يشكلون ٥٩٪ من السكان .

وكان الصعيد ، الذي توجد عليه الشعوب الناطقة بالألمانية بشكل جماهير كثيفة ، يتألف من النمسا - العليا والنمسا - الدنيا ، وستيريا ، وبلاد سالزبورغ ، والتيرول الشمالي ، ومنطقة انزبروك ، وأخيراً القسم الشمالي من كارانثيا . هذه هي « بالاجمال » المنطقة الألمانية من النمسا . ولم تكن المانية صرفاً ، لأنه كان فيها هنا وهناك « تسربات » عناصر سلافية : في فينا ، مثلاً يوجد ، في عام ١٨٧٠ ، أكثر من ٦٠.٠٠٠ تشيكي ، وكانت للعنصر الألماني تفوق عريض جداً في هذه المنطقة . وخارجاً عن هذا الصعيد ، يوجد أيضاً جماعة المانية ، ولكنها منفصلة عن الأخرى ، في المحيط الجبلي لبوهيميا وهم : « ألمان السوديت » . ويوجد ألمان في مورافيا ، وأخيراً في سيليزيا النمساوية ، وبخاصة منطقة تروباو ، حيث أتى الألمان وشكلوا ما يقارب ٤٥٪ من السكان . وفي المناطق الأخرى من النمسا ، على العكس ، لا يوجد ألمان : فلا نجدهم في غاليسيا أو في البوكوفين أو في كلارنيول أو في دالماسيا .

وفي الدولة النمساوية كان التفوق السيامي بيد الألمان ، بالرغم من أنهم يؤلفون ٣٦٪ من السكان فقط . فالموظفون ، وعلى كل حال الموظفون المتوسطون والأعلون تقريباً كانوا دوماً الماناً ، وكانت الألمانية لغة الادارة . وكانت « القوميات » غير الألمانية تنازع تفوق الألمان . ولا نريد أن ندخل هنا في تفصيلات السياسة الداخلية النمساوية ، ولكننا نريد أن ندل ببساطة على حادث مهم وهو : انه في حوالي ١٨٧٥ ، كان في الراجحسرات حزبان المانيان : حزب محافظ وحزب ليبرالي ، وسبعة أحزاب غير المانية : حزب تشيكي ، حزب بولوني ، حزب روتيني ، حزب سلوفيني ، حزب كرواتي ، حزب إيطالي ، وحزب روماني يمثل سكان البوكوفين ونرى في هذا ما نراه من تنافر واختلاط في الاعراق والسكان . ويظهر ذلك جلياً في البرلمان النمساوي . وهذه الحالة تدع مجالاً لصعوبات لا تنتهي . حتى ان تاريخ السياسة الداخلية للنمسا منذ ١٨٧١ كان مصنوعاً من مناقشات في قضايا اللغة التي يجب أن تستعمل في الادارة أو في التعليم ، أو أمام المحاكم . وكان الالمان طوراً يرفضون مطالب القوميات وطوراً يضطرون إلى إرضاء هذه المطالب جزئياً . وكانت القضية التي وضعت من وجهة نظر السياسة الألمانية هي الآتية : بما أن هؤلاء الالمان في النمسا يشعرون بأنهم في حالة عدم استقرار ، لأنهم كانوا أقلية بالنسبة إلى السلافيين ، أفلا يوجد مجال للتفكير بربط ألمان النمسا بالامبراطورية الألمانية ؟

لقد وضعت قضية « الانشلوس » على الصعيد النظري بين ١٨٧١ و ١٩١٤ . ولا بد لنا في هذه القضية من أن نرى وجهة النظر الألمانية من جهة ، ووجهة النظر النمساوية من جهة أخرى :

وجهة النظر الألمانية . - يجب أن نغيز بعناية وجهة نظر بسمارك

ووجهة النظر التي كانت ، بعد سقوط بسمارك ، وجهة نظر النصارى الجامعة
الجرمانية . ان هاتين الوجهتي نظر متعارضتان تعارضاً كاملاً .

لقد أوضح بسمارك رأيه في قضية ألمان النمسا ، في شهر حزيران
١٨٧٠ ، قبل انهاء الوحدة الألمانية ، بشكل « المانيا الصغرى » عندما قال
في حديث له مع سفير النمسا : « ليس لنا أي مصلحة في أن نرى تداعي
الملكية النمساوية - الهونغارية وأن نجد أنفسنا أمام هذه القضية غير
القابلة للحل » : ماذا نضع مكانها ؟ كان بسمارك ينظر إلى القضية بالشكل
التالي : إذا ضمت الامبراطورية الألمانية المان النمسا ، أي إذا حققت
الانشلوس ، أثارت مباشرة قضية تفتيت الامبراطورية النمساوية -
الهونغارية وانهارها ، ويرى بسمارك بأنه ليس في مصلحة المانيا اثاره هذا
الانهيار ، وبالتالي يفضل التخلي عن ربط المان النمسا بالامبراطورية الألمانية .

وعبر بسمارك عن وجهة النظر هذه في شهر آب ١٨٧١ في مقابلة له
مع امبراطور النمسا - هونغاريا ، فرانسوا - جوزيف ، في سالزبورغ
فقد قال له : ان المانيا لا تفكر ولن تفكر أبداً بالاستيلاء على البلاد
الألمانية في النمسا . وأخيراً ، في كانون الأول ١٨٧١ ، صرح من جديد
إلى سفير النمسا ، كارولي ، بأنه يرغب في الحفاظ على علاقات طيبة
مع امبراطورية النمسا - هونغاريا ولا يفكر بـ « الانشلوس » .

لقد كانت تصريحات بسمارك بالة اذن . ولكن يجب ملاحظة الاعمال
أيضاً ، ولقد كانت أعمال بسمارك واضحة : فمنذ ١٨٧٥ حقق سياسة
تسمى « وفاق الاباطرة الثلاثة » وادخل فيه معاً النمسا - هونغاريا وروسيا .
ولم تقدم هذه السياسة لأن الأزمة الشرقية من ١٨٧٧ - ١٧٧٨ وضعت
تعارضاً بين مصالح النمسا - هونغاريا ومصالح روسيا . واضطر بسمارك

أن يختار ، في ذلك الحين ، بين النمسا - هونغاريا وروسيا ، فاختار النمسا - هونغاريا . وفي ١٨٧٩ صرح : « ان تحالف المانيا والنمسا - هونغاريا سيكون أفضل ضمان للسلام في أوربة » . وبالفعل قام بسمارك ، في صيف ١٨٧٩ ، بمفاوضة مع وزير الشؤون الخارجية النمساوي - الهونغاري الكونت آندراسي . وهذه المفاوضات أدت ، بالرغم من معارضة الملك - الامبراطور غليوم الاول - فقد كان الامبراطور الألماني معادياً جداً ، في ذلك الحين ، لتحالف مع النمسا - هونغاريا ، ولكن بسمارك خالفه - إلى معاهدة حلف ٧ تشرين الأول ١٨٧٩ ، المبرمة بين النمسا - هونغاريا و المانيا والموجهة ضد روسيا ، وظل هذا التحالف أساساً لسياسة بسمارك الخارجية وخلفائه ، كما كان « نقطة ثابتة » للسياسة الأوربية حتى ١٩١٨ . ومن الواضح أن بسمارك ، بعقده هذا الحلف مع النمسا - هونغاريا ، وضمانه النمسا - هونغاريا ضد الأخطار الخارجية ، يكون قد تخلى « بالعمل نفسه » عن كل فكرة ربط المان النمسا بالامبراطورية الألمانية . وهذا يعني التخلي الرسمي عن كل نزعة للضم ، أي « الانشلاوس » .

وعدا ذلك ، يرى بسمارك ، وقد قال ذلك مراراً ، أن الامبراطورية الألمانية « مشبعة » ، حتى انها من وجهة النظر الأرضية - منتهية تماماً . وبرأيه ، أن لا مجال للبحث عن توسع جديد . وفي الواقع ، يجب الا نتصور أن بسمارك في هذا الدور ، كبسمارك السنوات السابقة : كان بسمارك السنوات السابقة حربياً ، ولكنه لم يكن بعد ١٨٧٠ ، ولا يحرص على المخاطرة بحرب يمكن أن تضع على بساط البحث كل ما حصل عليه من فوائد . ولذا كان نصيراً لسياسة الاستقرار . وقد قال دادوفيتز ، أحد أعوان بسمارك ، أحد أعوانه الحاصل الذي عملوا معه بعد ١٨٧٠ ، في ١٨٧٩ ،

إلى سفير النمسا : « ترى ، ان عظمة بسمارك هي أنه فهم أن المانيا لا يمكن أن يكون لها عدو اخطر من الجامعة الجرمانية . وكان لجم الجامعة الجرمانية جهد بسمارك الدائم ، وتوجيه أصحاب المذاهب ، وأنصار الجامعة الجرمانية العاملين ، أي الجنرالات المتعطشين للانتصارات والعسكريين المتجذلين المتباهين . ان بسمارك يرى أنه اذا افسد عمله شيء ، فذلك صياح هؤلاء المتعصبين الذين يطالبون بتوسيع الامبراطورية الالمانية باتساع نطاق اللغة الالمانية . ولقد كان موقف بسمارك ، على هذا الصعيد ، واضحاً تماماً : انه لا يريد أن ينهي الوحدة الألمانية بضم ألمان النمسا .

ولكن إلى جانب هذه الارادة البسماركية التي حافظ خلفاؤه في الحكم عليها بمجموعها ، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار ، من وجهة النظر الألمانية ، قرع جليجل آخر وهو حركة الجامعة الجرمانية .

حركة الجامعة الجرمانية . - يرجع تاريخ هذه الحركة إلى ١٨٩١ ، بعد أن سقط بسمارك في آذار ١٨٩٠ : ففي ٩ نيسان ١٨٩١ انشئت ، في برلين ، « عصبة أنصار الجامعة الجرمانية » . وكانت في الأصل منظمة تهتم خاصة بالتوسع الاستعماري . والدليل على ذلك أن أول رئيس لهذه العصبة كان الدكتور بيمتز وهو استعماري الماني معروف جداً . وكان له دور كبير في تشكيل افريقية الشرقية الألمانية . ولكن الجامعة الجرمانية مالبت أن غيوت صفتها ، وجعلت برنامجها دعم المشاريع الألمانية في الخارج « في جميع البلاد » وكما يقول البرنامج « حيث يوجد المان » . وطالبت بسياسة خارجية نشيطة ، قوية في اورية وفي خارج اوربه ، سياسة قوة .

ان ما يهمنا ، فيما يتعلق بموضوعنا من العصبة الجامعة الجرمانية ، هو

انها في الوقت الذي كانت تضم فيه اكبر عدد من المشتركين ، في ١٩٠١ ، كان عددهم ٢٢٠٨٠ . وفي ١٩١٣ لم يكن عندها اكثر من ١٧٧٠٠ مشترك . ولكن كان لهؤلاء المشتركين « وزنهم » لأن العصبة لم تكن لتضم أياً كان ، بل كانت تنتقي على العموم اناساً من أصحاب النفوذ . ثم بدل بـ يتز بسرعة . وكان يدير العصبة فعلاً ، من ١٨٩٤ الى ١٩٠٨ ، هاس وكان استاذاً للاحصاء في جامعة ليبزيغ ونائباً في الريخشتاغ وعضواً في الحزب « القومي الليبرالي » . وعندما توفي هاس ، في ١٩٠٨ حل محله في توجيه العصبة هينريك كلاس الذي كان زمناً طويلاً مساعدته . وما زال هينريك كلاس رئيساً بعد ١٩١٤ ، وظل كذلك اثناء حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ .

برنامج الجامعة الجرمانية . يصرح برنامج عصبة الجامعة الجرمانية بأن التوسع « مرحلة ضرورية لنمو كل هيئة تكبر » . وعلى الامبراطورية الألمانية ان تبحث عن توسع في المسكان ، وفي هذا ما يعاكس المذهب البسماركى ، وان تبحث عن هذا التوسع على أساس فكرة القومية . وقد اعطى هاس في « كتابه السياسة العالمية » التعريف التالي للقومية : « جمع اناس من أصل مشترك ، يتكلمون لغة واحدة ، وغموم السيامي والثقافي مشترك . وعندهم وعي بقرايتهم » .

ويصرح هاس : « يجب العمل على تواجد حدود الشرق وحدود الأمة » . ويقول : ان المانيا ليست بعد « دولة قومية » لانه يوجد خارجا عن حدود الرايخ جماعات من « قومية المانية » : المان النمسا ، المان هونغاريا ، المان البلاد الباطيكية . ويلحق بذلك السكان الناطقين بالألمانية في سويسرا . ثم انه يذهب شيئاً فشيئاً الى ابعد من ذلك ويصرح ، بعد كل شيء ، بأن الفلاماندين والهولانديين يتكلمون اللغة القريبة من الألمانية ، « الألمانية المنحطة » ، وبالتالي ، يجب أيضاً ربطهم بالجماعة الجرمانية .

ويتوصل الى هذا ويقول : « الامبراطورية الألمانية في عام ١٩٠٥ تضم مايقارب ستين مليون نسمة : وخارج الحدود الامبراطورية يوجد خمسة وعشرون مليون الماني . فاذا ارادت المانيا ان تصبح « دولة قومية » يجب ان تشمل الشعوب الناطقة بالألمانية ، . وبهذه المناسبة ، يصرح هاس بانها تستطيع ان تشمل « بعض الشعوب الصغيرة ، غير الألمانية ، غير القادرة على تشكيل « دولة مستقلة » كالشعب التشيكي . والفالونيين ، أي الشعوب الناطقة بالفرنسية في بلجيكا .

ومع ذلك يرى هاس ان بعض النتائج لايمكن ان تبُلغ مباشرة : وقال : في هذه الأونة لاداعي للمطالبة بالمان النمسا ، ولكن اذا أعطت النمسا امارات ضعف ، فمن الممكن ان يكون الأمر بشكل مغاير . وكذلك لاداعي للمطالبة بالمان البلاد الباطيكية ، ولكن ، اذا وجدت روسيا في حرب مع دول أخرى ، فان الوضع يمكن ان يتغير . وبالمقابل ، كان من رأيه ان تسوى بأسرع مايمكن قضية هولاندا و بايجيكا ، أي اجبار هذه البلاد على ان تشكل مع الامبراطورية الألمانية « اتحاداً فيدرالياً » . وادرك ان هذا يعني العمل على نقيض التقليد البسماركى . ولكنه كان يعلل بأن بسمارك مات في ١٨٩٨ ، ولاشئ يبرهن على انه لو عاش طويلا لما غير رأيه : وقال هاس : « ليس للوصية السياسية من قيمة الا للجيل الذي صنعت له » .

وعبر عن فكرة ربط المان النمسا صراحة آخرون من انصار الجامعة الجرمانية ، ولم يكونوا على رأس العصبة ، وعندهم حرية كلام اكثر من غيرهم : وهذه حال دايمر ، فقد ذكر في كتاب صدر في ١٩٠٥ واسمه « المانيا الجامعة الجرمانية » ، بانه يجب دمج الاقاليم الألمانية في النمسا في جسم الامبراطورية الألمانية . وهذه أيضاً حال رجل معروف كثيراً وهو

فريدريك نويمان ، فقد كتب في كتاب نشره عام ١٩٠٥ : « ان الحل « المانيا الصغرى » الذي حققه بسمارك للقضية الالمانية ، كان أفضل حل في الماضي ، ولكنه ليس حلاً لجميع القضايا الالمانية في المستقبل . »

ولاننسى مع ذلك انه لا يمكن ان يقبل بأن الحزب الجامع الجرمانى يعبر عن رأي اكثرية الألمان أو عن رأي الحكومات الألمانية : فقد كان الاشتراكيون والكاثوليك يكافحون حزب الجامعة الجرمانية باستمرار . ومن جهة أخرى ، اذا نظرنا عن كثب العلاقات بين عصبة الجامعة الجرمانية والحكومة الألمانية ، قبل ١٩١٤ ، رأينا ان العصبة والحكومة كانت في الغالب على خلاف ، مثلاً ، بمناسبة القضية المراكشية ، ولا يوجد الا نقطة واحدة كانتا فيها باستمرار على اتفاق : وهي السياسة التي يجب سلوكها في الامبراطورية العثمانية . اما في قضية المان النمسا ، فما من شك في ان الحكومة الالمانية اطرحت وجهات نظر انصار الجامعة الجرمانية .

وجهة النظر النمساوية - . لقد كان رجال الدولة الألمان لا يستطيعون بحق ان يتصوروا ربط المان النمسا بالامبراطورية الألمانية . ولكن وجد في النمسا أناس من هذا الرأي وهم رجال الكتلة التي تسمى « الحركة القومية الألمانية في النمسا » والتي صمت نفسها فيما بعد : « الحركة المناصرة للجامعة الجرمانية في النمسا » . وكان على رأسها رجل يسترعي النظر وهو جوج شونرو ، وكان نائباً في البرلمان النمساوي منذ ١٨٧٣ ، ويكاد يبلغ عمره في ذلك الحين الثلاثين عاماً . وكان شونرو يمتاز بصفات الخرض : فقد عرف كيف يوقظ الحركة ويجذب المشتركين . ولكن لم يكن عنده أي حس سياسي . ولنلاحظ انه لم يتعلق بتشكيل حزب اصلي

خاص . وكل ما يريده هو خلق حركة رأي يمكن ان تؤثر على الأحزاب السياسية الموجودة .

لقد وضع برنامج حركته القومية الالمانية بشكل غامض في العام ١٨٨٢ وحرره مؤرخ شاب مساوي أصبح فيما بعد معروفاً وهو فريد يونغ . وكان يقصد تقوية تلاحم القومية الألمانية في النمسا ، ولذا اراد ان يغير الدستور النمساوي ، وينتزع ، من الارض النمساوية ، غاليسيا ، والبوكرفين ، وكارنيول وهي مناطق لا يوجد فيها المان ، وان يعطي هذه المناطق نظاماً خاصاً ، وان ينظم دولة مساوية المانية قوية حقاً من المناطق التي تكون فيها اكثرية عظمى من الألمان ، وأن يوجه سياسة هذه الدولة « في اتجاه المصالح الألمانية » فقط ، وان يجعل من التحالف مع الامبراطورية الالمانية قاعدة دائمة للسياسة الخارجية ، قاعدة راسخة لا يمكن لأي حكومة ان تمسها .

وفي الواقع تمت الحركة نمواً بطيئاً : ففي انتخابات شباط ١٨٩١ ، احرز شونرر واصلدقائه سبعة عشر مقعداً في البرلمان ، ونجحوا في اوساط الشبيبة ، وبخاصة الطلاب ، بينما اصطدموا بمقاومة ضخمة من جانب المحافظين الالمان ، حتى ومن الأحرار الليبراليين ، ولكن المقاومة الهامة آتت من الكاثوليك .

تمت دعاية شونرر كثيراً حوالي ١٩٠٠ لأت المنازعات ، في ذلك التاريخ ، كانت عنيفة جداً في النمسا : وخامر الألمان انطباع بأنهم مهددون شيئاً فشيئاً بصعود « السلافيين » . ونظم شونرر ، في ذلك الحين ، حركة متممة واعطاها اسم « بعيداً عن روما » .

وكانت نظريته تتلخص في انه اذا لم يرغب المانيو النمسا ، عموماً ،

بارتباطهم بالامبراطورية الالمانية ، فذلك لأنهم كاثوليكيون . فاذا نجحنا في صيغتهم الى البروتستانتية ، جعلناهم يقبلون بسهولة فكرة الارتباط . ولذا اراد تنظيم حملة كبرى لهذا الغرض ، واصطدم هذا البرنامج بمقاومة قوية في اوساط الحزب الكاثوليكي . واذا اخذنا بقول شونرر نفسه وجدنا أن هذه الحركة ، في الواقع ، لم تقدم شيئاً عظيماً . فقد صرح بأنه حصل على ٣٢٠٠ صابىء حتى انه توصل ، في ١٩٠١ الى أنه يرجو علناً تفتيت الدولة النمساوية ، والتصريح بأن مايلزم هو تقويض امبراطورية النمسا ، وربط ألمان النمسا بالامبراطورية الالمانية . وقال بذلك في البرلمان ، في خطاب ١٨ نيسان ١٩٠١ ، وكرره ، في ١٨ آذار ١٩٠٢ ، منياً خطابه بتحيةة وجهها الى آل هوهنتسولرن . وصرح أحد أعوان شونرر أيضاً ، في ١٩٠٤ ، بأنه يرجو تفتيت النمسا - هونغاريا واتحاد ألمان النمسا بالامبراطورية الالمانية .

والنتيجة هي أن الحزب الجامع الجرمانى في النمسا ، حزب شونرر ، حصل ، في انتخابات ١٩٠١ ، على ٢١ مقعداً . وهذه هي نقطة الذروة ، ومن ثم كان السقوط سريعاً جداً ، لأن كتلة أنصار شونرر رفضت أن تتبعه عندما صرح بأنه يرجو تقويض الدولة النمساوية . وفي انتخابات ١٩٠٧ ارتد جماعة شونرر إلى ثلاثة نواب .

وبالاجمال ، ان فكرة الجامعة الجرمانية ، في الحدود التي طبقت فيها على ألمان النمسا ، لم تجد سماعة عريضة قبل عام ١٩١٤ ، ان في النمسا ، وان في ألمانيا . ولكن الذي فاز وحده إنما هو فكرة الاتحاد الاقتصادي ، وفكرة الاتحاد الجرمانى بين ألمانيا ، والنمسا ، وهونغاريا . وهذه الفكرة ، التي اطلقت قبل ١٩١٤ ، كادت أن تتحقق في ١٩١٨ ، ولكن هزيمة ألمانيا في ذلك التاريخ حالت دون تحقيقها .

الفصل السابع

الحركة القومية الايطالية

بعد ١٨٥٠

لدراسة الحركة القومية الايطالية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، يجدر بنا ، قبل كل شيء ، أن نعين مدى امتداد الشعوب الناطقة باللغة الايطالية .

تحتل هذه الشعوب الناطقة بالايطالية ، في ١٨٥٠ ، ايطاليا كلها : سهل البو وشبه الجزيرة ، وعدا ذلك تحتل أيضاً بعض جزر البحر المتوسط : صقلية وساردينيا ومالطة ، ومع بعض التحفظ كورسيكا . وكانت صقلية بلا منازع ناطقة باللغة الايطالية . وفي ساردينيا توجد لهجة في أساسها ايطالية ، ولكن مع خليط ظاهر من التعابير الاسبانية . وفي مالطة كانت اللغة الايطالية لغة المثقفين : لغة الاكليروس ، والمحاكم ، ولكن الشعب المالطي ، في مجموعه يتكلم المالطية ، أي لهجة تختلط فيها الايطالية بكثير من الكلمات العربية . وأخيراً في كورسيكا - ويجب ألا ننسى أن كورسيكا كانت خاضعة لسيطرة جنوة حتى التحاقها بفرنسا ، عام ١٧٦٨ - ظلت الايطالية ، حتى حوالي ١٨٣٠ ، لغة التعليم لأنه لا يوجد حتى ذلك الحين ، في كورسيكا ، إلا مؤسسات تعليم خاص . ومنذ قانون غيزو ، في ١٨٣٣ ، وطد تعليم الفرنسية بانتظام في كورسيكا ، ولذا كان استعمال الفرنسية نحو ١٨٥٠ قليل الانتشار نسبياً في الجزيرة . وخارجاً الحركات القومية ٣ - (٩)

عن الادارة لم تكن جماهير الشعب ، في كورسيكا ، لتتكلم الايطالية الأصلية ، بل كانت تتكلم لهجات : ففي القسم الشمالي من الجزيرة وجدت لهجة قريبة من التوسكانية ؛ وفي القسم الجنوبي ، لهجة قريبة من لهجة ساردينيا .

وخارجاً عن القوس التي تشكلها جبال الألب ، وبالتالي خارجاً عن حدود ايطاليا الأصلية ، وجد سكان ايطاليون في قسم من شبه جزيرة استريا ، وبخاصة في تريبستا القديمة ، واختلطوا بالشعوب الناطقة بالسلافية . وأخيراً توجد بزور ايطالية في بعض أقسام الشاطئ الدالماسي ، وهي بقية باقية من الاستعمار الذي مارسه البندقية في هذه المناطق في العصر الوسيط . ولكن هذه النوى الايطالية كانت جماعات صغيرة جداً في وسط الشعب السلافي .

ولنشر الى انه يوجد على السفح الجنوبي من جبال الألب منطقة صغيرة تطابق ، جغرافياً ، وادي الأدبيج الأعلى ، وهي المنطقة التي التي تسمى عادة « الترانثان » ، حيث يوجد في قسم منها ، شعوب ناطقة بالألمانية ، ولنا عودة عليها .

ولم يكن عند هذه الشعوب الناطقة بالايطالية أو اللهجات القريبة للايطالية ، خلال فترة طويلة من الزمن ، « عاطفة قومية ايطالية » نشيطة . وكان النظام السيامي في ايطاليا يمتاز بالتجزئة المفرطة ، وبالأجال ، كانت روح المنازعات والروح البلدية عند الايطاليين أكثر بما كان عندهم من روح قومي .

في غضون الثورة الفرنسية والامبراطورية بسطت خارطة ايطاليا

السياسية وحولت . وفي ١٨١٥ سويت هذه الحارطة بمعاهدات فينا ، دون الرجوع إلى الحالة التي كانت قبل أزمة الثورة والامبراطورية . وأخذت الدول الإيطالية حدوداً جديدة . ولم يتصور أحد ، في الأوساط الرسمية في ذلك الحين ، فكرة الوحدة . وكان مترونيخ يقول : « ان إيطاليا كتلة دول مستقلة جمعت تحت تعبير جغرافي واحد » .

كانت هذه الدول الإيطالية في النصف الأول من القرن التاسع عشر وظلت نفسها أيضاً في ١٨٥٠ كما يلي :

١ - مملكة ساردينيا واسمها الرسمي : « دول صاحب الجلالة ملك ساردينيا » ، وتضم على السفح الفرنسي لجلال الأب السافوا ، ولكن السافوا كانت ناطقة باللغة الفرنسية ، وكونتية نيس ، والبيمونت التي ضمت اليها جمهورية جنوة عام ١٨١٥ ؛ وأخيراً جزيرة ساردينيا . إن كل هذا يؤلف « مملكة البيمونت - ساردينيا » كما تسمى عادة ، ونفوسها اجمالاً أربعة ملايين ونصف نسمة تقريباً .

٢ - الدولة الحبرية ، وتوجد في وسط شبه الجزيرة وتحتوي اللاتيوم أي الاراضي المباشرة الممتدة حول روما ، وكامبانيا البحرية وأومبريا ، في منطقة الآبنين ، والمارش ، من جهة البحر الادرياتيكي ؛ وفي الشمال ، المنطقة التي تسمى رسمياً القصادات ببساطة ، لأن ادارة هذه المناطق مؤمنة بقاصدين رسوليين ، وفي الغالب يعطى إلى هذه المنطقة اسم « رومانيو » ، ولكن هذا الاسم ، رومانيو ، يطبق بخاصة على قسم من القصادات وعلى منطقة رافين . وكانت نفوس الدولة الحبرية حوالي مليونين ونصف نسمة .

٣ - مملكة الصقليتين وتضم الجزء الجنوبي كله من شبه الجزيرة ،

وجزيرة صقلية . ونفوس هذه المملكة حوالي سبعة ملايين ونصف نسمة .
وتعتبر أهم دولة من ناحية رقم السكان .

٤ - وبين دول الكنيسة ومملكة البيمونت - ساردينيا ، توجد
دوقيات ايطاليا الوسطى : دوقية توسكانا الكبرى ، وعاصمتها فلورنسا ،
ونفوسها ١,٣٥٠,٠٠٠ نسمة . وفي ١٨٤٧ ألحقت أماره لوقا ، التي ظلت
حتى الآن مستقلة ، بتوسكانا ، ودوقية بارما ، وعاصمتها بارما ، وتضم
أيضاً مدينة بليزانس ، ودوقية مودينا التي ضمت إليها ، في ١٨٢٨ ،
أماره ماسا وكراره . وكانت نفوس مودينا نحو ٣٠٠,٠٠٠ نسمة . ويضاف إلى
ذلك جمهورية القديس مارتين الصغيرة في منطقة التخوم بين توسكانا والدولة
الحبرية ، وهي دولة لأهمية لها .

٥ - وأخيراً أماره موناكو المشمولة في أراضي مملكة البيمونت -
ساردينيا .

لم تكن هذه الدول الايطالية لتشمل جميع السكان الناطقين باللغة
الايطالية ، لأن بعضهم كان يتكلم لهجة قريبة من الايطالية في كورسيكا
التي أصبحت فرنسية منذ ١٧٦٨ ، ومالطة التابعة لانكلترا رسمياً منذ ١٨١٥ ،
والتي كانت المنطقة الواقعة مباشرة شمال بحيرة ماجور (البحيرة الكبرى) ،
وبالرغم من أنها تقع على السفح الجنوبي لجبل الالب ويسكنها شعب ينطق
الايطالية ، كانت ملحقة بالكونفدواسيون الهلفيتي (السويسري) .
وفي ١٥١٢ ، أصبحت التسن أرضاً سويسرية عقب حادث يرتبط بحروب
ايطاليا . ومن جهة أخرى ، منطقة ميلانو والبندقية ، أي القسم الأعظم
من السهل الواقع بين نهر البر وجبال الألب ، وكانت تابعة الى امبراطورية
النمسا ، وتشكل في داخل الامبراطورية النمساوية نيابة - ملكية . أما

منطقة إيستريا ودالماسيا ، فقد كانت أراضي مساوية أيضاً ، ولكنها ادبجت في الادارة النمساوية العادية . وتمثل المنطقة « اللومباردية - البندقية » وحدها أربعة ملايين ونصف نسمة ، أي بقدر سكان مملكة اليمونت ساردينيا ، أو بما يعادلهم تقريباً . . وقد توطد نفوذ النمسا بقوة في القسم الشمالي من شبه الجزيرة ، لأنها كانت تملك ، عدا إيستريا ودالماسيا ، المنطقة اللومباردية - البندقية ، وتمارس نفوذها في توسكانا ، ودوقية مودينا ودوقية بارما اللتين كان على رأسهما اميران نمساويان ، وأخيراً أبرمت مملكة الصقليتين بعد ١٨١٥ معاهدة تحالف سرية مع امبراطورية النمسا . وهكذا كان النفوذ النمساوي مسيطراً في إيطاليا .

ولنشر في ١٨٤٩ ، بعد أن طردت الثورة البابا من دوله وتشكلت جمهورية روما ، الى ان الحكومة الفرنسية تدخلت لتقويض جمهورية روما ، ومنذ ذلك الحين بقيت في روما حامية فرنسية ، وكان النفوذ الفرنسي يمارس في الدولة الحبرية موازياً ومنافساً للنفوذ النمساوي . وترك النمساويون ، من جانبهم ، حاميات ، بعد ١٨٤٩ ، في القسم الشمالي من الدولة الحبرية ، في فراره وبولونيو .

بين ١٨٣٠ و ١٨٤٨ ، قامت حركة يقظة قومية في إيطاليا عرفت باسم « البعث » . ولكن هذا « البعث » وجد أنصاره بخاصة في الأوساط الفكرية وفي بعض الأوساط التجارية ولم يكن مطلقاً « حركة جماهير » . وفي ١٨٤٨ اشتبك الايطاليون في الحركة الثورية التي هزت أوروبا كلها . ولكن هذه الحركة أخفقت ثم استأنفت عملها بشكل جديد في العام ١٨٤٩ . وبعد ١٨٤٩ أخفقت الحركة الثورية تماماً أمام التدخل النمساوي : في معركة نوفارو ، في ٢٨ آذار ١٨٤٩ ، التي سحق فيها الجيش اليمونتي ، وأمام التدخل الفرنسي ضد جمهورية روما وأخذ جنود الجنرال

أودينو روما ، في ٣ تموز ١٨٤٩ . وهذه الحركة القومية ، في ١٨٤٨ - ١٨٤٩ ، كما في السنوات السابقة ، لم تكن ، في الحقيقة ، إلا عمل أقلية . والمؤرخون الايطاليون على اتفاق للاعتراف بأن جماهير الشعب الكبرى ظلت لا مبالية .

وغرضنا بعد هذا أن نبين نمو الحركة القومية الايطالية بعد ١٨٥٠ .

١ - حالة الدول الإيطالية بعد ١٨٥٠

إذا نظرنا إلى حالة هذه الدول الإيطالية وجدنا تبايناً بين النظام السيامي لمملكة بيمونت - ساردينيا والنظام السياسي في الدول الأخرى ، أو البلاد الإيطالية الأخرى .

البلاد اللومباردية - البندقية . - في عام ١٨٤٨ خسر النمساويون في بضعة أسابيع القسم الأعظم من هذه البلاد ، ولكنهم استردوا البلاد بعد ذلك بقيادة الماريسال راديتسكي الذي كان يوجه العمليات . وقد فرض راديتسكي على البلاد نظام قمع شديد جداً ، وكان هذا النظام قاسياً على المفكرين والنبلاء والاكليروس ، لأن هذه الأوساط بخاصة كانت خطيرة على راديتسكي . وعلى العكس ، كان هذا النظام النمساوي ، في مجموعه ، يراعي الفلاحين وبدواريهم .

في ١٨٥٠ ، وجدت في ميلانو منظمة سرية ثورية وظلت تمارس نشاطها رغم إخفاق الثورة . وكان رئيس هذه المنظمة آتيليو ليغوي ، وكان على صلة بلجنة المهاجرين الايطاليين التي يوجهها ماتزيني في لندن . وكانت هذه المنظمة السرية تضم في ميلانو كهاناً واغنياء . وصناعاً حرفيين ، ووجدت لها فروع في بادوا ومانتو . وكان رئيس المنظمة في هذه المدينة الأخيرة راهباً يدعى تازولي . وقد عقدت هذه

الكتل اجتماعاً ، في كانون الأول ١٨٥١ ، للقيام بمحاولة تنظيم حركة ثورية ، ولكن الشرطة النمساوية ، بفضل الرقابة التي تمارسها على المراسلات ، اكتشفت ، في كانون الثاني ١٨٥٢ ، هذه المؤامرات . وأوقفت الشرطة تازولي ووجدت عنده قوائم المشتركين . وقد حررت هذه القوائم باللغة المرمّمة ، وكان للجنة أمين شاب ، يخاف على نفسه وأعطى الشرطة مفتاح الرقم . وكانت الاعتقالات عديدة ورفعت الحكومة النمساوية بحق الموقوفين دعوى كبيرة في مانتو وحكمت بالاعدام على عدد كثير منهم . ولكن الذين اعدموا كانوا تسعة أشخاص ، وكان تازولي بين هؤلاء التسعة .

وعندما انتهت هذه الدعوى ، في ٦ شباط ١٨٥٣ ، حدث في ميلانو محاولة ثورة ، بالجماع من ماتزيني . وكما نعلم ، قضى ماتزيني شطراً من حياته في تنظيم محاولات ثورات ولم يشترك بها شخصياً الا مرة واحدة ، وكذلك لم يبرهن ماتزيني على كبير رباطة جأش ، وكان يعتمد ، في ذلك الحين ، على الجنود المجر الموجودين في الحامية النمساوية في ميلانو . ولكن هذا الأمل بسدا دون جدوى . وهاجم جماعة من الثوار قصر ميلانو ، وكان الاخفاق مباشراً وأدى إلى الحكم على بعضهم بالموت .

ملكة الصقليتين . - كان الملك فرديناند الثاني ، ويسمى « الملك القنبلة » لأنه أمر بضرب مدينة مسينا بالقنابل بقساوة في العام ١٨٤٠ للقضاء على الثورة التي قامت ضده في صقلية . ورفع الملك « بومبا » بعد ١٨٥٠ ، دعاوى سياسية عظيمة ضد أعضاء الجمعيات السرية التي قامت بحركات في ١٨٤٨ - ١٨٤٩ ، وبخاصة ضد ستمبريني ، الذي كان زعيم جمعية « وحدة ايطاليا » . ودامت هذه الدعوى أشهراً عديدة . ودارت على الحكومة بالاضطراب ، لأن المتهمين لم يشعروا بخرج في أن

يكشفوا أمام المحكمة الأكاذيب والفساد والرشوة في الأوساط الحكومية. ووجدت مئات الأحكام ، وحكم على ستمبريني وحده بالموت ولم ينفذ الحكم . ولكن نظام السجون السياسية في مملكة نابولي ، حيث ترسل هذه المئات من المحكومين ، كان قاسياً جداً . وأثار هذا القمع احتجاجات في أوربة بأجمعها . وأعطاهما غلادستون الليبرالي الانكليزي سناً خاصاً ، ولم يكن في ذلك الحين رئيساً للحكومة . ففي سياق رحلة إلى إيطاليا وجد وسيلة في ١٨٥١ ، لزيارة بعض السجون في مملكة الصقليتين . ووجه رسالة عامة إلى الوزير الانكليزي الأول ، ابردين ، وصرح فيها بأن النظام المفروض في هذه السجون كان « انتهاكاً للقوانين الالهية والبشرية » وان نظام « الملك بومبا » يطبق نظام التعذيب المعنوي والجسدي على أناس فاضلين وأذكياء » ، وإن النظام السيامي في مملكة الصقليتين يرتكب « اهانات عامة » حتى انه لا يوجد في هذه المملكة « أي احترام للقانون » ، وختم كلامه بقوله : « إن هذا النظام دنىء وغير نبيل » ، وإنكار الله قائم على نظام حكم ، وقال : « يجب وضع مملكة الصقليتين « خارج الأمم المتحضرة » .

ولما كان هذا القبح صادراً من غلادستون ، أي من رجل له سلطته العليا جداً المعنوية والسياسية في أوربة ، فقد ترك اصداءً كبيرة . وقد أخذت هذه الاحتجاجات بعين الاعتبار ، وفي تشرين الاول ١٨٥٦ قطعت الحكومة الفرنسية والحكومة الانكليزية العلاقات الدبلوماسية مع ملك الصقليتين بصفة مؤبد (عقوبة) للنظام السياسي الذي فرضه على رعاياه .

ومع هذا كان يراد معرفة ما إذا كان يوجد حقاً ، في مملكة

الصقليتين ، حركات قادرة على أن تززع النظام القائم . وقد وجدت فيها حركتان : الحركة الليبرالية ، والحركة الماتزينية .

الحركة الليبرالية . - كانت الحركة الليبرالية تفكر بدعوة الأمير مورا إلى عرش نابولي ، وكان مورا ابن عم نابوليون الثالث وابن مورا ، صهر نابوليون الأول وملك نابولي في النظام النابوليوني ، وقد ثلّ عرشه في عام ١٨١٤ . ونظم الحزب الموراتي ، كما يقال آنذاك ، تنظيمًا قويًا ونشطًا في تشرين الأول ١٨٥٦ . ولكن ، لنشر إلى أنه اذا انتصر هذا الحزب الموراتي ، فلن يكون واسطة لتحقيق الوحدة الإيطالية ، بل ، بالعكس ، لتأسيس « دولة موراتية » في جنوب إيطاليا ، دولة يحميها نابوليون الثالث ، وتمنع تحقيق الوحدة . ولهذا السبب كان كافور معادياً لهذه الحركة الموراتية . ولحسن حظ كافور كان الانكليز يفكرون تفكيره ، لأن قضية جنوبي إيطاليا ، بالنسبة لهم ، قضية متوسطة ، أي قضية تتعلق بسياسة البحر المتوسط ، ولا يريدون في إيطاليا الجنوبية وفي صقلية دولة تابعة لفرنسا .

الحركة الماتزينية . وكان يوجه هذه الحركة بالتيهفينا ، وقد حاول القيام بثورة فاخفقت . وكانت تدعم هذه الحركة لجنة المهاجرين الموجودة في مالطة وزعيمها نيقولا فابريتزي ، صديق ماتزيني : وكانت هذه اللجنة تقوم بدعاية سرية ، وتحاول نقل الأسلحة ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً .

الدولة الحبرية . - لقد رأينا في العام ١٨٤٩ ان جيوش الجنرال اودينو اخذت روما ووطدت سلطة البابا السياسية على دولته ولم يدخل البابا روما الا في نيسان ١٨٥٠ ، وقد دخلها تحت حماية الحامية الفرنسية . لقد بعث الامير لويس - نابوليون إلى مساعد معسكره ادغار في

برسالة ينصح فيها الحكومة الحبرية ويقول بأنه يجب ، قبل كل شيء ، إعلان العفو العام لكل من اشترك في الثورة ، ويجب « عصرنة » الادارة ، أي استعمال العلمانيين وحدهم في الادارة الحبرية التي ظلت حتى الآن بين أيدي الكرادلة ، وأخيراً تشكيل حكومة ليبرالية . ولكن البابا لم يأخذ بعين الاعتبار هذه النصائح الفرنسية ، بل انه صرح بأن الحركة الثورية لعام ١٨٤٩ كانت من صنع الأجانب ، وأن شعوب الدولة الحبرية لا ترغب مطلقاً باصلاحات واسعة . وفي ١٨ ايلول ١٨٤٩ وعد البابا بتحقيق اصلاحات ضيقة جداً : فقد وعد بتأسيس مجالس اقليمية وبلدية في الدول الحبرية ، وبأن يكون ، على رأس الدولة ، مجلس دولة ، ويكلف باعداد مشاريع القوانين ، لا بالتصويت عليها ، وأخيراً ، بإمكان وصول العلمانيين إلى الوظائف الادارية .

هذا كل ما وعد به البابا بيوس التاسع . ولكن نظام الواقع لم يحترم حتى هذه الوعود . وفي الحقيقة ، ان الوظائف العليا في الادارة ظلت محتجزة للكنسيين ، كما كانت الحل قبل ١٨٤٧ ؛ حتى ان البابا الذي أنشأ مجلس الدولة ، لم يستشره أبداً . وأخيراً ، إذا أعلن بيوس التاسع العفو العام ، فقد استثنى منه جميع الذين كان لهم دور في مجلس الجمهورية الرومانية أو الذين قاموا بالاحتفالات الدينية في جيش هذه الجمهورية ، وكان عددهم ٧٢٠٠ شخص ، ولذا لم يفيدوا من هذا الاجراء .. وكان هذا النظام قاسياً بلا منازع . وقامت المعارضة ضده في أوساط البورجوازية الليبرالية في القصادات وفي المارش ، وكانت رومانيو ، منذ ١٨١٥ ، مركز الاتجاهات الثورية . ومن البورجوازية الليبرالية ، امتدت أفكار المعارضة إلى بعض أوساط العمال .

الدوقيات . - في توسكانا ، كان الدوق الأكبر ليوبولد الثاني رجلاً

هادئاً ، ومن البديهي أنه رفع دعاوى سياسية كسائر السادة الابطاليين في ذلك العصر ، ولكنه لم يذهب إلى بعيد في الضرب على يد المحرضين . وفي دوقية بارما ، وفي دوقية مودينا كان السادة معتدلين نسبياً وظل الشعب هادئاً ، وفي اماره ماسا - كواره التي تؤلف جزءاً من دوقية مودينا ، كان عمال مقاطع الرخام ماتزينيين وشكلوا مركزاً ثورياً .

وهكذا وجدت ، في جميع هذه الدول ، بالرغم من توطيد نظام الضغط والارهاق والقمع ، بعض مراكز معارضة ثورية ، وكانت بخاصة مراكز ماتزينية ، وبالتالي مراكز جمهورية وحدوية ، ولكن لم يكن لهذه المراكز كبير اشعاع .

بملكة اليمونت - ساردينيا . - كان البيت السافوي ، الذي يحكم هذه المملكة ، حكيماً يحسن التصرف ، بالرغم من إخفاق الثورة ، فقد حافظ على النظام الدستوري والبرلماني ، لأن النظام ، الذي منحه شارل البير في آذار ١٨٤٨ ، ظل محافظاً عليه بعد ١٨٥٠ وأصبح ، فيما بعد ، دستور المملكة الايطالية . وكان يراد أن يعطى لهذا النظام الدستوري والبرلماني قاعدة ثابتة ومستقرة ، وتم ذلك بفضل الزعيم كافور .

كافور . - دخل كافور الحكومة ، في تشرين الأول ١٨٥٠ ، وزيراً للزراعة والتجارة ، ثم أصبح ، في ٤ تشرين الثاني ١٨٥٢ ، رئيساً لمجلس الوزراء ، وتوصل إلى تشكيل أكثرية حكومية بعقد ائتلاف بين حزبه الخاص ، حزب الوسط اليميني ، وحزب اليسار المعتدل الذي كان زعيمه قاتازي . وهذا التحالف بين الوسط اليميني واليسار المعتدل الذي يسمى « كونوبيو » كان أهم عمل في حياته السياسية . وهكذا وجد في مجلس النواب في تورينو ، حزب ليبرالي كبير . وكانت غاية كافور

« أن يربي البلاد على الحرية ، وأن يري أن المملكة الساردية قادرة على أحياء نظمها الليبرالية ، وإن هذه النظم الليبرالية يمكن أن تعطي عملياً نتائج طيبة .

ولا نريد أن نصر هنا على عمل كافور في السياسة الداخلية . حسبنا أن نقول انه قام بجهود كبير في تنظيم الجيش ، والتنظيم الاقتصادي والأشغال العامة وغيرها . وإن مانريد أن نعيه ونقطع به هو الاتجاه الذي أراد أن يعطيه ، على الصعيد السياسي ، لنظام البيمونت - ساردينيا : سياسته الدينية . - لقد وقف كافور « مناوئاً للكنيسة » وكان رد الفعل الرجعي في الدول الايطالية ، وفي روما ، وفي غيرها مطبوعاً باتجاه « الكليروي » . فاراد كافور أن يعدله بما يقابله ، ورغب في توكيد المعارضة الموجودة بين نظام الحرية ، مثل نظام البيمونت - ساردينيا ، وأنظمة السطة التي توجد في الدول الايطالية الأخرى . وهذا هو مفتاح سياسة كافور في القضية الدينية .

المبدأ الأول . - كان كافور يريد أن تكون الدولة كاملة السيادة ، ولذلك ينبغي ألا تدع للكنيسة ممارسة وظائف التعليم ، ووظائف الأحوال المدنية وغيرها . ولذا استصدر قانون الزواج المدني والقانون الذي ألغى فيه امتيازات الاكليروس في القضاء .

المبدأ الثاني . - والمبدأ الثاني هو انه يجب على الدولة مراقبة الكنيسة ، وعلى الأقل ، مادامت الكنيسة لاتتفق مع النظم الليبرالية ، ولذا صدر قانون شرطة العبادات ، وقانون ثان ، عام ١٨٥٤ ، يعاقب كل كاهن يهاجم نظم دولة البيمونت - ساردينيا اثناء ممارسة وظائفه .

المبدأ الثالث . - والمبدأ الثالث يقوم على ان كافور اراد ان

يمنع ، و اموال الوقف ، لأن امتلاك هذه الأموال بخول الاكليروس ، في رأيه ، كثيراً من النفوذ ، ولهذا السبب استصدر قانون نيسان ١٨٥٥ والغى بوجبه جميع الجمعيات الرهبانية ، عدا الجمعيات التعليمية وجمعيات الاحسان ، وصادر اموالها ليخصصها لأعمال الاحسان العلمانية ، او ليستخدمها في زياده مرثبات الاكليروس الأدنى .

وفي الوقت الذي كان كافور يطبق هذه السياسة المناوئة للاكليروس وضع نفسه حامياً للأحرار في كل اجزاء ايطاليا : ففي ١٨٥١ ، استقبل في تورينو احراراً كانوا مضطرين الى الهجرة الى دول ايطالية أخرى ، مثل غاريزي ، زعيم الحركة الجمهورية في توسكانا ؛ وتومازيو ، رفيق مانين في البندقية ؛ وهاميا في وهو وزير سابق للبابا بيوس التاسع ، ولكنه اختلف معه منذ حوادث ١٨٤٩ . وقد اعطاهم كافور مرثبات من الدولة الساردية تساعد على العيش ، عندما صادرت اموالهم النمسا وحكومات الدول الايطالية الأخرى . ومن جهة أخرى ، انشأ لبعضهم كرامى جامعة في جامعة تورينو : فمن ذلك ان مانتشيني ، وكان منفياً نابولياً ، تسلم ، في في جامعة تورينو كرمي الحقوق الدولية ، وخصص درسه الأول ، في عام ١٨٥١ ، لدراسة نظرية « القومية » لتكون له فرصة للكلام عن الوحدة الايطالية .

ولم يتردد كافور ، بخاصة ، عام ١٨٥٦ ، في ان يغتنم الفرصة ويكشف أمام العالم النظم السياسية الايطالية . واتخذ هذا الموقف بمناسبة انعقاد مؤتمر باريس ١٨٥٦ بعد حرب القرم . وكانت اليمونت - ساردينيا حليفة فرنسا وانكلترا في هذه الحرب ضد روسيا . وقد عقد كافور هذا الحلف ليدل على ان للدولة الساردية جيشاً يساعد على تبوء مقعدها في مؤتمر السلام . وفي مؤتمر باريس ١٨٥٦ قدم لممثلي الدول الكبرى مذكرة

يري فيها الحالة البائسة التي وجدت فيها الدولة الحبرية وملكة الصقليتين . وقبل رئيس وفد فرنسا ، والوسكي ، ورئيس الوفد الانكليزي ، كلازندون ، ان يدعى كافور . ولكن ممثل النمسا ، بوول ، عارض صراحة . وصرح بأن ليس للمؤتمر الحق في مناقشة هذه القضايا الايطالية ، لأنه انعقد فقط لتسوية السلام بين فرنسا وانكلترا وروسيا . ولذا اقتصر الكونغرس على التصويت على صيغة غامضة جداً يوحي بها حكومات الدول الايطالية باتخاذ « اجراءات رحيمة » . وبعد فهل كانت هذه المحاولة كضربة السيف في الماء ، أي جهداً ضائعاً دون نتيجة ؟ ليست تماماً ، لأن كافور تلقى عرائض اعتراف بالجميل من جميع انحاء ايطاليا . لقد وضع نفسه حامياً للايطاليين ، ورفع صوته باسم ايطاليا . وهكذا أصبحت البيمونت - ساردينيا ، يوماً فيوماً ، مركزاً تتجه اليه تطلعات كل من كانوا يرجون تجديداً في ايطاليا .

٢ — بقطة الفكرة القومية

لقد استخدم كافور هذا الوضع الخاص للدولة الساردية لجعل من هذه الدولة نقطة تجمع وتشيع لكل من كانوا يتطلعون لاحياء الحركة القومية ، وحاول ان يجمع الأفسكار في ايطاليا حول المملكة الساردية . وقد نتساءل لأي هدف ، ولأي فائدة كان يرمي ؟ يبدو ان فكر كافور لم يأخذ مباشرة أي شكل واضح دقيق . لقد حاول ان يتلمس بادىء بدء ، قبل الوصول الى بناء برنامج معين .

لقد كان كافور ، في بداية ١٨٥٦ ، يفكر ، قبل كل شيء ، على ما يبدو ، في مصالح أمرة آل سافوا ، أي السلالة الحاكمة في البيمونت -

- ساردينيا ، اكثر بما كان يفكر في مصالح الايطاليين عموماً. ولدينا ثلاثة وقائع تؤكد هذا الانطباع :

١ - في شباط ١٨٥٦ ، كان كافور يفكر بترتيب يؤمن لبيمونت - ساردينيا امكان ضم دوقية بارما : وذلك بنقل دوق بارما الى مودينا ، وطرده دوق مودينا. وقد بلغ هذه الفكرة نابوليون الثالث ، ولكنه لم ينجح .

٢ - ومن جهة ثانية ، نعلم من وثائق عديدة ان كافور في آذار ١٨٥٦ كان يفكر بتنظيم « حزب بيمونتي » في صقلية يقوم بثورة ويعلن استقلال الجزيرة ومن بعد يلحق صقلية بالمملكة البيموننتية الساردية. وقد قال : انها فكرة جريئة ولكنها ليست غير معقولة .

٣ - ولدينا ، من العصر نفسه ، رسالة موجهة الى ريتازي ، تلقت النظر ، لأن كافور يصرح فيها بأن مانين ، زعيم جمهورية البندقية ، في ١٨٤٨ - ١٨٤٩ ، « طوبائي » : « ان هذا رجل يريد وحدة ايطاليا وأضعاث احلام أخرى » .

يبدو اذن ان كافور ، في ١٨٥٦ ، كان يشك بإمكان تحقيق الوحدة الايطالية .

وبعد ١٨٥٦ تطورت افكاره بسرعة : فقد اتجه نحو فكرة الوحدة الايطالية ، وبالطبع على ان تكون المملكة الساردية بزعامة بيت آل سافوا ، على رأس ايطاليا المستقبل . والدليل على هذا التطور هو انشاء « الجمعية القومية » .

الجمعية القومية . - ان فكرة انشاء رابطة لتنمية العاطفة القومية في جميع اجزاء ايطاليا ليست جديدة. فقد تصورهما مانين قبل ١٨٤٨ والصقلي لافاريننا ، احد زعماء ثورة صقلية ضد « الملك بومبا » ، في ١٨٤٧ - ١٨٤٨ . وقد

هاجر منذ ذلك الحين وعاش في تورينو . لقد جاء لافارينا ، في ايلول ١٨٥٦ ، وعرض هذه الفكرة على كافور . وكان لافارينا ، في ذلك الحين ، يشك ويتساءل ما اذا كان بالامكان الوثوق بكافور كل الثقة . وكانت بين لافارينا ومانين بخاصة مراسلات نشيطة لتنظيم « الجمعية القومية » . ولنشر الى ان هذه المبادرة كانت سابقة « للجمعية القومية » الألمانية .

مبادئ الجمعية القومية الايطالية . - ان اول مبدأ لهذه الجمعية هو ان نوضع جانباً ، في هذه الآونة ، كل مناقشة في السياسة الداخلية ، وبالتالي ايضاً ، كل مناقشة في الأشكال السياسية القادمة .

والمبدأ الثاني هو القيام بدعاية لصالح فكرة الاستقلال والوحدة وتنمية هذه الدعاية في الأوساط الشعبية التي لم تكن حتى الآن اوساطاً نشيطة في الحركة القومية .

والمبدأ الثالث هو الاعتماد على البيت السافوي ، اي على السلالة الساردية ، هذا البيت السافوي الوفي للقضية الايطالية . وكان موجّهو « الجمعية القومية » يرون بأن مؤازرة السلالة الساردية ضرورية لها . ونشر برنامج « الجمعية القومية » حسب هذه الأسس التي ائبنا على ذكرها ، في الأول من ايلول ١٨٥٧ . ونظمت « الجمعية » مباشرة تجمعات في كل اجزاء ايطاليا ، وكان ذلك سهلاً في اليمونت - ساردينيا ، لأن القانون ينص على امكان تشكيل جمعيات سياسية . ولذا كان للجمعية القومية فيها تنظيم عام . فقد كان رئيسها المكينز بالافيتشيني اللومباردي الأصل ، ونائب رئيسها غاريبالدي ؛ وأمينها منشيء الجمعية ، لافارينا . ولكن « الجمعية القومية » لم تستطع ان تتشكل علناً في البلاد الأخرى : فقد اضطرت ان تنتظم سراً . وكان للجمعية فروع مربية في لومبارديا - البندقية ، وفي توسكانا ، وفي دوقيتي بارما ومودينا ، حيث كانت البورجوازية

نشيطة جداً في هذا الاتجاه ، وفي رومانيو ، أي في القسم الشمالي من الدولة الحبرية . ولكن النجاح كان في مملكة الصقليتين اقل وضوحاً بما في غيرها . وبفضل لافارينا ، الصقلي الأصل ، استطاعت الجمعية القومية في صقلية ان يكون لها فروع ولكنها قليلة من العدد .

وكان عمل هذه الجمعية نافذاً ، لأنها ضمت جموعاً كانت ، حتى ذلك الحين ، متفرقة ومبعثرة ، وحببت بالبيت السافوي اناساً لم يفكروا بالوحدة تحت توجيه ملك ساردينيا ، وما كانت هذه « الجمعية القومية » لتعمل شيئاً دون الرجوع سرّاً الى كافور . ولكن كافور لم يشأ ان يشارك ويزج فيها اسمه علناً . ولدينا منه رسالة مميزة مكتوبة في ١٨٥٧ الى لافارينا ، وفيها يقول : « انني واثق من ان ايطاليا ستشكل دولة واحدة ، وان روما ستكون عاصمة لها ، ولكنني اجمل ماذا كانت مستعدة الى هذا التحويل العظيم ، لانني لاعلم مناطق ايطاليا الأخرى انني وزير ملك ساردينيا ، ولا استطيع ان اقول او اعمل شيئاً يمكن ان يشرك السلالة قبل الأوان . شكلوا الجمعية القومية اذا بدا الايطاليون ناضجين للوحدة ، واني لأمل بالآلة تجعلكم الفرصة تنتظرون طويلاً » . ولكنه اضاف في هذه الرسالة نفسها بأن اصدقاءه السياسيين « لا يؤمنون بعد بنجاح المشروع » . وبالتالي ، يجب الاتقجم الأمور اثلاً يفسد المستقبل : « لوسئلت عن « الجمعية القومية » لأنكرت كل علاقة بينها وبينى : وسانكرها كالقديس بطرس واقول : لا اعرفها » .

فمن المؤكد اذن ان كافور شجع انشاء « الجمعية القومية » وكان على صلات وثيقة بلافارينا أمين سر الجمعية ، ولكنه لم يشأ ان يعترف رسمياً بهذه الرابطة لأنه لم يكن بعد واثقاً من الرأي الايطالي . ولكن ، الحركات القومية-٣ (١٠)

هذا يبرهن جيداً على انه كان في ١٨٥٧ يرجو الوحدة . ولم يقل بأنها وهم
أو أضعات أحلام .

جذبت هذه الجمعية القومية الى « البيت السافوي » ، أي الى سياسة
كافور وهي الوحدة تحت ادارة السلالة الساردية ، مشايعات هامة ، وضمت
الى هذه السلالة مشايعة بعض الجمهوريين ، وبخاصة مانين ، الرئيس
السابق للجمهورية البندقية ، الذي انسحب الى باريس بعد ١٨٥٩ وكأنت
يتمتع بجاه كبير . لقد شك مانين في البدء بكافور واعتبره ، « متبجح » ،
فجاء كافور لرؤيته في باريس ، ليكسب وده ونجح ، حتى ان مانين
صرح : « ينبغي قبل كل شيء ، صنع ايطاليا ، هذه هي القضية الأساسية ، وأقول
الى البيت السافوي : اصنع ايطاليا ، وأنا معك ، وإلا فلا ، وأنا الجمهوري
انصب أول راية التوحيد : ايطاليا مع الملك الساردي ، . وهكذا يتخلى
مانين عن أفكاره الجمهورية لأنه يرى بأن الوحدة قابلة للتحقيق بسهولة
تحت إدارة البيت السافوي .

والمشايعة الأخرى التي أثارت ضجة كبرى كانت مشايعة غاريبالدي .
فقد هاجر هذا بعد حوادث ١٨٤٨ - ١٨٤٩ إلى امريكا ، ثم عاد إلى إيطاليا
حيث يتمتع بجاه بطل قومي . كان جمهورياً ولاشك ، ولكنه تحدث
مع كافور في تموز ١٨٥٦ واعترف بأنه كان من الواجب التعارن مع الملكية
الساردية .

وبالمقابل ، رفض زعيم الحركة الجمهوري ، ماتزيني ، بعناد ، الانضمام
إلى كافور ، وظل يعارضه معارضة شديدة ، وأكثر من ذلك ،
حاول ، مرات عديدة ، القيام بثورات ، حتى في اليمونت - ساردينيا
أو في جوارها . وكان لاجئاً في لندن ، كما رأينا ، ولكن كانت له في

جنوة جريدة «إيطاليا الشعب» وقد منع كافور هذه الجريدة من الصدور، وعندئذ دبر ماتزيني ، في حزيران ١٨٥٦ ، مؤامرة ، وأراد ثورة في جنوة ، وأخرى في ليفورنة ، ومثلها في أماره ماسا - كرايه ، وأراد ثورة في كالابر . وكما هي العادة كانت حركة ماتزيني واسعة للغاية ، ولكن لم تكن منظمة أبداً . وقد عرف كافور المؤامرة ، لأن المؤامرات الماتزينية لا تختبئ جيداً وتتخذ احتياطاتها ، ولكنه لم يضطرب . وفي الواقع ، قام بمحاولة : وذلك أن سفينة غادرت ميناء جنوة متجهة صوب ساردينيا وكان على متنها متآمرون ماتزينيون بين الركاب ، وقد استولى هؤلاء المتآمرون على السفينة ووجهوها نحو نابولي ، وأرسوا بالقرب من المدينة على هتافات : « تحي الجمهورية ، تحي إيطاليا » . ولكنهم تبعثروا مباشرة وقتل أحدهم . وفي الوقت نفسه ، جاء ماتزيني سراً إلى جنوة وأعد فيها ثورة . ولكن الحكومة الساردية علمت بذلك من الشرطة الفرنسية ، واتخذت إجراءاتها ، وفي ليل ٢٩ - ٣٠ حزيران ١٨٥٧ ، قبض على الشوار ، إلا ماتزيني ، فقد وجد وسيلة للهرب . ولم يكتم كافور غضبه ، وسمى ماتزيني متآمراً مفضوحاً ، ومجنوناً فظيماً يجب القبض عليه . وكتب : « إنني أحسن صنعا بإعدام ماتزيني بالرصاص إذا تم ذلك ! » . وكان يخشى من أن تسبب الحركة الماتزينية له تعقيدات مع الدول الأجنبية .

هذه هي حال الحركة القومية الإيطالية في العام ١٨٥٨ . وقد أصبح لكافور الآن بواسطة « الجمعية القومية » نقطة استناد تساعد على جس نبض الرأي العام .

كان الدور ١٨٥٩ - ١٨٦١ دوراً حاسماً في تاريخ الحركة القومية

الايطالية ، وهو الدور الذي تشكلت فيه مملكة إيطاليا تحت ادارة البيت السافوي .

في ١٨٥٩ تم عقد تحالف بين فرنسا والبيمونت - ساردينيا ، وبعد هذه المعاهدة قامت حرب بين هاتين الدولتين من جهة ، والنمسا من جهة أخرى ، وأدت هذه الحرب إلى مقدمات الصلح في فيلافوانكا التي وقعت في ١١ تموز ١٨٥٩ ، وبهجها تنازلت النمسا لفرنسا التي تنازلت بدورها لايطاليا ، عن لومبارديا .

وغداة مقدمات صاح فيلافرانكا ظهرت الحركة القومية الايطالية في دوقيات ايطاليا الوسطى : توسكانا ، بارما ، مودينا ، وفي القسم الشمالي من الدولة الجبرية : رومانيو ، وأدت في الواقع في آخر ١٨٥٩ ، حقوقاً في آذار ١٨٦٠ ، إلى ضم هذه الدوقيات ورومانيو إلى البيمونت - ساردينيا .

وأخيراً في عام ١٨٦٠ كان للمملكة الصقليتين وباقي الدولة الجبرية نفس المصير باستثناء روما ورفعة أرضية صغيرة حول روما .

وليس غرضنا في هذا البحث دراسة التاريخ الدبلوماسي للوحدة الايطالية ، بل أن مانريده هو أن نحاول إظهار الخطوط الكبرى للحركة القومية الايطالية في هذا الدور ، وبيان الظروف التي تمت فيها الحركة القومية ، وبالتالي دراسة المراحل الكبرى لهذه الحركة ، وأخيراً صعوبات الذوبان بين مختلف الشعوب الايطالية .

ظروف نمو الحركة القومية . - لقد شجع كافور ، في ١٨٥٧ ، تشكيل « الجمعية القومية » . لقد شجعها سرّاً ، ولكنه لم يشأ أن يلتزم معها إلى الأعماق ، لأنه لم يكن مطمئناً من نضج الايطاليين للوحدة ،

ولم يشأ أن يفتحهم شيئاً . ويجب ألا ننسى ان كافر لإنسان واقعي يتكيف مع الظروف ، ولم يكن مقيداً بأي سياسة أو مذهب أو نظام أو فكرة مسبقة ، لقد كان رجلاً فطناً ذكياً حذراً يأخذ بعين الاعتبار حقائق عصره . انه حيسوب ، بالرغم من أنه في نواحي أخرى ، مولع وموله ، ولكنه يعرف كيف يلجم حماسه الخاص واندفاعه . ولم يكن رجلاً يتعلق بشالية سياسية عظيمة ، ولكنه كان دبلوماسياً عظيماً ، وفعالاً عظيماً .

قرر كافر العمل في ١٨٥٨ ، واحاطت به الظروف التالية :

اولاً ، من وجهة نظر السياسة الخارجية ، كان كافر متاكداً بالبداية ، بأنه سيصطدم بمقاومة النمسا ، فقد أرادت النمسا بالطبع أن تحتفظ بالمنطقة اللومباردية - البندقية ، وان تحافظ على النفوذ الذي كان لها على جزء من الدول الايطالية . وللقضاء على مقاومة النمسا ، رأى كافر أن من الضروري للبيمونت - ساردينيا الحصول على مساعدة دولة أجنبية . ففي ١٨٤٨ ، عندما قامت البيمونت - ساردينيا بالمحاولة الأولى ضد النمسا ، طبق شارل - البير سياسة : « تصنع نفسها » وأراد بذلك أن تعمل البيمونت - ساردينيا « بنفسها » وأن تعمل وحدها . وقد آلت هذه السياسة إلى اخفاق تام . وأخذ كافر بعين الاعتبار تجربة ١٨٤٨ وعرف أن البيمونت - ساردينيا لا يمكن أن تنجح الا إذا اعتمدت على دولة أجنبية . وهذا الحل يقتضي مجازفة ، لأنه من النادر جداً ، في السياسة الدولية ، أن يعطى شيء في سبيل لشيء : ان الدولة التي تدعم دولة أخرى تطلب دوماً أو تقريباً دوماً تعويضاً ، وقد قرر كافر الذهاب إلى هذا . ولكن بمن يطلب هذا العون ؟ لا يوجد

إلا دولتان يمكن التوجه إليهما : فرنسا وانكلترا . ولكن عون فرنسا يمكن أن يكون حاسماً ، لأن انكلترا ، مثلك اسطولاً بحرياً ، ولا مثلك جيشاً ، ولقهر النمسا ، لا بد من وجود جيش .

موقف فرنسا . - في فرنسا ، كان نابليون الثالث يعطف على القضية الإيطالية : فقد شارك ، في شبابه ، بالثورة التي قامت ، في ١٨٣١ ، في الدولة الحبرية ، واطلق النار . ومن جهة السياسة العامة ، كان يرغب في تعديل معاهدات ١٨١٥ وتوطيد النفوذ الفرنسي في إيطاليا ويأمل أن تكون تابعة لفرنسا . ولكن نابليون الثالث ، من ناحية أخرى ، كان مكبوحاً « بالقضية الرومانية » : ففي ١٨٤٩ قرضت الحملة الفرنسية التي يقودها الجنرال اودينو الجمهورية الرومانية ووطدت سلطة البابا ، ومنذ هذا التاريخ بقيت في روما حامية فرنسية لحمايته . ومن الواضح ، عند تحقيق الوحدة الإيطالية ، أن توضع قضية روما على بساط البحث . وستكون روما بالضرورة تابعة قليلاً أو كثيراً إلى هذه الدولة الجديدة ، وعاصمة لها . وقد اضطر نابليون الثالث إلى التفكير بأن هذه « القضية الرومانية » من طبيعتها أن تجلب إليه صعوبات ضخمة في السياسة الداخلية الفرنسية ، لأن إلغاء السلطة الزمنية للبابا يمكن أن يثير احتجاجات الكاثوليكين الفرنسيين . وهذا ما يوضح لنا موقف الامبراطور .

في الأصل ، كان نابليون الثالث ، مع رغبته بحذف النفوذ النمساوي من إيطاليا وإبداله بالنفوذ الفرنسي ، لا يريد تحقيق الوحدة الإيطالية لصالح البيت السافوي ، بل كان يتصور فقط تشكيل كونفدراسيون بين الدول الإيطالية . ودليلنا على ذلك البرنامج الذي وضع في بلومبيير في تموز ١٨٥٨ بين كافور ونابليون الثالث ، وأيضاً الكلام الذي قاله نابليون

الثالث ، في تموز ١٨٥٩ إلى الايطالي بيمبوني : « لأريد الوحدة بل الاستقلال فقط » .

لماذا لا يريد نابوليون الثالث تشكيل « مملكة » من نموذج وحدوي ؟ أولاً ، لأنه يرى بأن الوحدة غير قابلة للتحقيق بعد ، ولأن العاطفة القومية تبدو له مشكوكاً بها ، ويعلم بأنه يوجد في ايطاليا تقاليد بلدية قوية للغاية وبالتالي روح نعروية انفصالية قوية جداً . وكان يخشى ، إذا شجع الوحدة ، من الصعوبات الداخلية في فرنسا ، بسبب القضية الرومانية ، ويخشى أيضاً اللوم الذي يمكن أن يوجهه إليه الرأي الفرنسي اذا ما ساعدت فرنسا على تشكيل أمة كبرى إلى جانبها . لأن ايطاليا هذه يمكن أن تكون ، في المستقبل ، خطراً على فرنسا .

وإذا كان نابوليون الثالث لا يرجو ، في الأصل ، الوحدة الايطالية فقد تركها وشأنها ، وفي بعض الاحيان ، شجعها . وانتهى شيئاً فشيئاً إلى قبول هذا الحل للوحدوي ، لأنه كان مسوقاً بالحوادث وبكافور . ولذا يجب ألا نرى في نابوليون الثالث ، كما قيل ، نصيراً قاطعاً ، مطلقاً للوحدة الايطالية : لقد كانت فكرته كثيرة التنوع والألوان .

موقف انكلترا . - أما انكلترا ، فقد كان لها ، في القضية الايطالية ، مصلحة مباشرة ، باعتبارها دولة متوسطة ، ومن البديهي ، إذا تمت الوحدة ، ان يرى تشكل دولة جديدة في البحر المتوسط ، ربما تصبح ، فيما بعد ، دولة كبرى . وانكلترا ، الدولة المتوسطة ، يمكن أن تخشى هذه الاحتمال . ومن جهة أخرى ، لم يكن لبريطانيا العظمى مصلحة في أن تستعيز في ايطاليا عن النفوذ النمساوي بالنفوذ الفرنسي ، لأن النمسا لم تكن دولة بحرية ، وبالتالي ، فان نفوذها في ايطاليا لا يضابق

انكلترا . أما إذا سيطرت فرنسا ، الدولة البحرية ، على إيطاليا ، فيمكن أن تصبح أكثر خطراً على المصالح الانكليزية .

ومن ناحية أخرى ، يجب ان نحاول أن نرى القضية من وجوها المختلفة : فقد كانت الحكومة الانكليزية توجو بجرارة الحفاظ على السلام ، لأن هذا السلام كان ملائماً للتجارة البريطانية ، وبالتالي ، كانت ترغب في تجنب نزاع أوربي كبير ، يمكن أن تخطر وتنتجر إليه .

أما الرأي العام ، فكان محبذاً ، على العموم ، للقضية الإيطالية ، بتقاليد ليبرالية ، وأيضاً ، لأن ماتزيني المهاجر ، كان يعيش في لندن ، حيث كانت له علاقات وبعض النفوذ .

وهذه المسلمات العامة توضح التناقضات والشكوك التي تلاحظ في موقف انكلترا .

في ١٨٥٩ ، وفي أثناء الحرب الفرنسية - الساردية ضد النمسا ، حاولت انكلترا أن تمنع هذا الحل لأنها كانت تخشى من أن يكون مقدمة لحرب عامة . وعندما رأت أنها لا تستطيع منع الحوادث من السير في مجراها ، ظلت محايدة ، ومحاولة توضيح الخلاف وتحديدده . وفي النصف الثاني من ١٨٥٩ ، بعد مقدمات صالح فيلافرانكا ، كان رئيس الحكومة الانكليزية بالمرستون ، ووزير الشؤون الخارجية جون رسل وفي عهدهما ، وضعت الحكومة الانكليزية المبدأ : « إيطاليا للايطاليين » وإيضاح ذلك بسيط جداً : فقد كانت انكلترا تخشى النفوذ الفرنسي ، وان القول « إيطاليا للايطاليين » يعني نصح الايطاليين بالا يساموا أمرهم إلى فرنسا وحدها . ولكن الحكومة الانكليزية ، في ذلك الحين ، لاترغب في الوحدة الإيطالية . وكان بالمرستون يفكر فقط بانشاء مملكة

« إيطاليا العليا » التي تضم سهل البو ، وربما جزءاً من إيطاليا الوسطى وهذه الفكرة هي الفكرة التي كانت عنده في ١٨٤٨ . فقد كان يرى بأن أن تكون مملكة إيطاليا هذه « ترتيباً طيباً » من وجهة النظر الانكليزية لأنها ستكون زبوناً للتجارة الانكليزية . ولكنه لا يرغب مطلقاً أن تتحد إيطاليا الجنوبية مع إيطاليا الشمالية .

ومن جهة أخرى ، كان بالمرستون ورسيل مستاءين للغاية ، عندما تنازلت البيمونت - ساردينيا ، في سنة ١٨٦٠ ، عن نيس والسافوا تعويضاً لفرنسا عن مساعدتها . فقد احتج بالمرستون احتجاجاً عنيفاً جداً ، حتى أنه تكلم عن امكان حرب . ولكن انكلترا في الواقع ، لم تصر ، لأنها رأت نفسها وحيدة في رأيها ، ولم تدعمها أي دولة كبرى في هذا الموضوع .

وأخيراً ، في ١٨٦٠ ، عندما وضعت الحوادث قضية إيطاليا الجنوبية ، خلصت الحكومة الانكليزية إلى قبول الوحدة ، وقبلت بذلك دون حماسة ، ولكن مع الاقتناع بأن تخدم المصالح الانكليزية ، وبأقل سوء ممكن . ولنتتبع ، في رسائل جون رسل الحجج التي دفعت الحكومة الانكليزية إلى اتخاذ قرارها : فاذا ظلت إيطاليا الجنوبية مستقلة ، خافت انكلترا من تنصيب أمير ، من عائلة نابوليون الثالث ، على عرش مملكة الصقليتين ، وهذا الاحتمال كانت تحشاه بخاصة ، وتفضل أن ترى إيطاليا الجنوبية منضحة الى البيمونت - ساردينيا من أن تراها تقع بين يدي أمير فرنسي . وعدا ذلك ، يرى جون رسل أن إيطاليا المتحدة يمكن يوماً ما أن « توازن فرنسا » في البحر المتوسط . وظلت هذه الفكرة صحيحة لمدة نصف قرن . وهذا كثير بالنسبة لفكرة سياسية ، لأن إيطاليا حتى ١٩٣٥ ، ظلت تسير « في ظلم » بريطانيا العظمى ، ولم

تجراً على الابتعاد عن هذا الخط العام الذي رسمته السياسة البريطانية ، وذلك لأن الشواطئ الإيطالية كانت تحت رحمة مدافع الاسطول الانكليزي .

ولكن الحكومة الانكليزية ، بتشجيعها الوحدة الإيطالية ، أو ، على الأقل ، بقبولها ، في ١٨٦٠ ، وضعت شرطاً صريحاً ، وهو ألا يتخلى كافور عن أي أراضي لفرنسا بعد أن بدأ لانكلترا ان التنازل عن نيس والسافوا أكثر من كاف .

وهكذا نرى أن السياسة الانكليزية كانت تتكيف باستمرار مع الظروف .

ظروف السياسة الداخلية . - كان كافور يشك ، كما قلنا ، بنضج الرأي الإيطالي ، ويعلم جيداً أن جمهور الشعب الإيطالي كان سلبياً ، ولا يرجو شيئاً عظيماً على الصعيد السياسي ، ولا يرغب بالوحدة ؛ ويعلم أيضاً بأن عليه أن يحسب حساباً للمقاومات في الأوساط التي لها رأي ، أي الأوساط « النشيطة » .

كانت المقاومة الاولى ، مقاومة الماتزينيين ، الذين قاموا بعنف على سياسة كافور ولا موه في البحث عن دعم فرنسا . وقال الماتزينيون ان هذا الدعم خطر على القضية الإيطالية ، لأن فرنسا ستطلب بالبداهة « تعويضات » ، ولا يمكن أن يعطي النتيجة التي يجرها كافور ، لأن نابوليون الثالث ، في رأيهم ، لا يريد التخلي أبداً عن البابا ، ولا يريد مطلقاً انشاء دولة منافسة في المتوسط . ومن جهة أخرى ، ظل الماتزينيون مقتنعين بتفوق النظام الجمهوري ، وبالتالي ، لا يريدون قبول الوحدة تحت البيت السافوي .

وهناك مقاومة أخرى، وهي مقاومة الاكليركيين . فنذ وطدت سلطة البابا الزمنية، عام ١٨٥٠، لم يعد بالامكان التفكير ببابا « ليبرالي » ، وبالتالي أصبح التوفيق غير ممكن بين وجود دولة الكرسي الأقدس والاتجاه نحو الوحدة الإيطالية . وقبل ١٨٤٨ ، كانت في ايطاليا حركة تسمى الحركة «الغيلفية الحديثة» وتنزع إلى تحقيق الوحدة تحت ادارة البابا . وكان الناطق بهذه النظرية الأب جيورتي ، في كتاب شهير نشره عام ١٨٤٣ واسمه « تفوق ايطاليا » . ثم نشر جيورتي في العام ١٨٥١ مؤلفاً جديداً « بعث ايطاليا » ، وصرح فيه بأن الحل « الغيلفي الحديث » أصبح الآن غير ممكن ، حتى ان جيورتي حبذ زوال سلطة البابا الزمنية .

ولذا قاومت الكنيسة الكاثوليكية الحركة القومية الإيطالية ، وكانت مستعدة لهذه المقاومة ، بقدر ما كان لكافور نفسه من سياسة مناوئة للكنيسة في الدولة البيموننتية - الساردية . والواقع، في الانتخابات الساردية ، في شهر تشرين الثاني ١٨٥٧ ، ان الاكليركيين بذلوا جهداً كبيراً ضد كافور بناءً على كلمة الأمر التي أعطاها الكرسي الأقدس ، وحصل الحزب الاكليركي على مقاعد في المجلس التشريعي ، ولكنها غير كافية لزعزعة وضع كافور . وظلت العداوة مستحكمة .

وجد كافور في وضع صعب ، ولكنه استطاع خلاله أن « يجر » ويكون ملاحاً بحذافة ودقة عظيمتين ، باستخدامه تارة فرنسا ، وتارة انكلترا وانتهازه الفرص المواتية .

المراحل الكبرى للحركة القومية . - وبعد هذا نستطيع أن نتساءل لأي حد ساعد الرأي العام دبلوماسية كافور وساندها؟ ليس لدينا في هذا الاعتبار الاقران عامة جداً .

المرحلة الاولى : ضم لومبارديا الى الليمونت - ساردينيا . - انتزعت الجيوش الفرنسية لومبارديا من النمسا بمساعدة جيش الليمونت - ساردينيا وقد بذل الجيش الفرنسي في ماجنتا وسولفيرينو جهداً عسكرياً ضخماً بلا منازع . ولكن العاطفة القومية لم تلعب ، في خلاص لومبارديا ، إلا دوراً ثانوياً . ومن الواضح أن أكثرية سكان لومبارديا يتمنون الخلاص من السيطرة النمساوية ، ولكن ليس للتعبير عن الأمانى تأثير حاسم على الحوادث ، ان التأثير الحاسم كان تأثير الجيش الفرنسي .

كانت الخطة التي رسمها كانور ونابوليون الثالث في بلومبيير عام ١٨٥٨ كما يلي : لقد صرح نابوليون الثالث بأن يحجر ايطاليا الشمالية كلها حتى ايسونزو ، أي حتى النهر الشاطئي الواقع على الحدود الغربية من شبه جزيرة ايستريا . وعندئذ تنظم ايطاليا من جديد كما يلي :

١ - يضم الجزء الشمالي كله وجزء من ايطاليا الوسطى إلى الليمونت - ساردينيا .

٢ - تنشأ « مملكة ايطاليا الوسطى » وتضم اليها توسكانا والمارش واومبريا ، أي أجزاء الدولة الحبرية .

٣ - تضم دولة الكرسي الأقدس روما ورفعة أرض صغيرة حولها .

٤ - مملكة الصقليتين .

وعلى هذا ترد ايطاليا إلى أربع دول فقط . وقد نص مشروع بلومبيير على تشكيل كونفدراسيون من هذه الدول الأربع ، على أن يكون الحبر الأعظم رئيساً له .

وبعد الانتصارات التي احرزت على النمسا : ماجنتا في ٤ حزيران ، وسولفيرينو في ٢٤ حزيران ١٨٥٩ ، وقع نابوليون الثالث ، فجأة ، في

٨ تموز ، هدنة مع النمسا ، دون أن يشاور كافور ، وفي ١١ تموز ، مقدمات صلح فيلافرانكا . وبموجب مقدمات السلام هذه يجب على النمسا أن تتنازل عن لومبارديا لفرنسا التي تتنازل بدورها عن هذه المنطقة للبيمونت - ساردينيا . ومن جهة أخرى ، يجب أن يرجع دوق توسكانا الأكبر ودوق مودينا إلى عرشهما بعد أن طردا من دولتيهما أثناء الحرب . وعلى هذا نرى أن نابوليون الثالث لم ينفذ برنامج بلومبيير . لقد نفذ منه جزءاً فقط ، الثلث تقريباً ، وهوما يتعلق بلومبارديا . ومن العلوم ، في هذه الظروف ، الا يطلب الامبراطور تعويضات ، لأث التعويضات الموعود بها ، أي نيس والسافوا ، لا تعطى له ، بموجب الاتفاقيات التي اجريت قبل الحرب ، الا إذا بلغ سكان البيمونت - ساردينيا أحد عشر مليون نسمة . وبما أن ضم اللومبارديا إلى البيمونت - ساردينيا لم يعط هذا الرقم من السكان ، فان نابوليون الثالث ليس له ما يطالب به .

لماذا اتخذ نابوليون الثالث هذا القرار المفاجيء ، ولماذا تخلى عن تنفيذ الخطة الاولى ؟ قبل كل شيء ، بسبب موقف بروسيا ، لأن بروسيا ، في آخر حزيران ، استنفرت ست قطعات من جيشها وحشدتها على الراين . ومن الممكن اذن أن يتسائل ما إذا كانت ستتدخل لصالح النمسا . وعندما احتج كافور ، مع بعض العنف ، ضد مقدمات صلح فيلافرانكا ، اجابه نابوليون الثالث ، ببساطة ، بأنه في حالة لا تمكنه من تحمل « حرب مزدوجة » على نهر الراين وعلى نهر الآديج ، وأضاف : « في حياتي ينبغي الاكتفاء بما يمكن الحصول عليه » ، فثارت ثائرة كافور وقدم استقالته بعد أن صرح أن نابوليون الثالث « سود وجهه وسربله بالعار » .

المرحلة الثانية : قضية ايطاليا الوسطى . - بدأت الحركة القومية

في دول إيطاليا الوسطى ، أثناء حرب ١٨٥٩ . وهذه حوادثها بسرعة :

في توسكانا ، رفض الدوق الأكبر ، ليوبولد ، وكان أميراً مساوياً ، مساندة البيمونت - ساردينيا ضد النمسا . ولما هددته المظاهرات في الشوارع ، فر في ٢٧ نيسان ١٨٥٩ . وشكلت حكومة مؤقتة ، يرأسها ويكازولي . وعلى قدر اطلاعنا ، كان الرأي ، في توسكانا ، في ذلك الحين ، أبعد عن أن يكون جمعاً : فقد وجد مناصرون نشيطون جداً لضم توسكانا إلى البيمونت - ساردينيا ، ولكن وجد أيضاً ماترينيون يرغبون بجمهورية ايطالية ، وبالتالي ، لا يريدون الانضمام إلى البيمونت - ساردينيا . وأخيراً ، وجد مناصرون للحفاظ على استقلال توسكانا : وذلك اما إن يؤتى بقريب إلى الدوق الأكبر ويقرض عليه نظام دستوري ، واما أن يبحث في الخارج عن سلالة جديدة . وهناك آخرون يفكرون باستدعاء ابن عم نابوليون الثالث ، الأمير نابوليون - جيروم .

أرسلت الحكومة الساردية إلى فلورنسا مفوضاً فوق العادة ، بونكومباني . وكانت مهمته بالطبع أن يعد انضمام توسكانا إلى البيمونت - ساردينيا . ولكن نابوليون الثالث ، من جهته ، أرسل إلى توسكانا فرقة فرنسية ، ووضع على رأسها ابن عمه الأمير نابوليون . وفي الواقع ، ان الأمير نابوليون الذي نعرف رسائله ، في ذلك الحين ، لم يظهر أى نوع من الحماسة لأن يكون دوق توسكانا الأكبر ، ولم يرغب مطلقاً بالانضمام إلى البيمونت - ساردينيا ، وكان يرى بأنه يجب البحث عن مرشح آخر .

ومع ذلك ، وبعد معركة ماجنتا ، أي عندما أصبحت الهزيمة النمساوية مؤكدة على وجه التقريب ، أصبح الرأي العام في توسكانا يجذ أكثر من السابق الانضمام إلى البيمونت - ساردينيا .

وفي دوقية بارما وفي دوقية مودينا ، جرت الاحداث بنفس الشكل تقريباً : في ٩ حزيران في بارما ، وفي ١١ حزيران ، في مودينا ، أي بين ماجنتا وسولفيرينو ، فر السادة ، وتشكلت حكومات مؤقتة نادت بضم الدوقيتين إلى البيمونت - ساردينيا . وأخيراً ، في حزيران ، قامت ثورة في الجزء الشمالي من الدولة الجبرية ، أي في رومانيو في الوقت الذي انطوت فيه الجيوش النمساوية ، التي كانت تحتل حتى آنذاك بولونيو ، في الشمال ، بسبب الحالة العسكرية . وفر الكاردينال ، القاصد الرسولي الذي كان يحكم هذه البلاد باسم الكرسي الأقدس ، وتشكلت حكومة مؤقتة وعرضت على ملك البيمونت - ساردينيا فيكتور ايا نوبل أن يأخذ على عاتقه توجيه الجيش .

ولكن مقدمات صلح فيلافرانكا الغت ، في الواقع ، هذه النتائج ، لأن المقدمات حرمت بأن يعود كل من دوق توسكانا الأكبر ومودينا إلى دولته ، ولم تكن قضية بارما موضع بحث .

وبعد مقدمات فيلافرانكا تابعت الحكومة الساردية نفس السياسة في دوقيات إيطاليا الوسطى . وقدم كافور استقالته ، وكان راتزيني رئيساً لمجلس الوزراء في البيمونت - ساردينيا ، ولكن كافور كان في الواقع يوجه كل شيء : لقد ظل في الكواليس ، حتى انسه استقبل في داره الريفية ، حيث انسحب ظاهراً ، سفراء أجنب . وكان كافور مصحماً ، حتى انه قال إلى أمين سر نابليون الثالث الخاص ، على ان يمنع تنفيذ مقدمات الصلح . وشجع الحركة القومية في الدوقيات : وأعطى الأمر بالثورة بشكل يظهر فيه ارادة السكان بأعمال عامة .

وفي توسكانا جمع ريكازولي مجلساً تأسيسياً وصوت ، في ٢٠ آب ١٨٥٩ ، على ضم توسكانا إلى البيمونت - ساردينيا .

وفي دوقتي مودينا وبارما أصبح فاريني البيموني دكتاتوراً ،
وجمع مجلساً تأسيسياً ، وفي ٢١ آب ، صوت هذا المجلس على الانضمام
إلى البيمونت - ساردينيا .

وأخيراً ، في رومانيو ، لم يبق المفوض الذي سمته الحكومة
الساردية في مكانه ، بل إن الكولونيل شيبيرياني ، قام بإجلاء من كافور ،
ببادة جمع مجلس تأسيسي ، وصوت هذا المجلس أيضاً ، على الانضمام إلى
البيمونت - ساردينيا . وبين هذه « الدول » الأربع : توسكانا ،
مودينا ، بارما ، رومانيو ، تشكلت عصبة لتنظيم جيش مشترك وأعطيت
قيادته إلى غاربيالدي .

أما نابوليون الثالث ، فبعد تردد طويل ، قبل الأمر الواقع ، وسلم
بالا يرى تنفيذ مقدمات فيلافرنكا ، وقبل بضم الدوقيات إلى البيمونت -
ساردينيا . وظهر هذا الانقلاب ، في كانون الأول ١٨٥٩ ، بنشر كراس
شهير يسمى : « البابا والمؤتمر » ، ويراد بذلك مؤتمر الصلح الذي يجب
عقده في زوريخ للتصديق على مقدمات الصلح ، والذي ، في الواقع ، لم
ينعقد أبداً . وكان مؤلف هذا الكراس لاغريونيير . وقد كتبه بإجلاء
من نابوليون الثالث . ولكن منذ أن أعطت هذه الانضمامات الأرضية
إلى البيمونت - ساردينيا أكثر من أحد عشر مليوناً ، أصبح للأمبراطور
الحق بالمطالبة بالتعويضات التي وعد بها أثناء مقابلة بلومبيير ، ولم يقم كافور
صعوبات بالتنازل لفرنسا عن نيس والسافوا .

وكرس الحل باستفتاءات ، في بارما ، ومودينا ، ورومانيو ، ووجد
٤٢٦٠٠٠ مع الضم ، مقابل ٧٢٦ ضده . وفي توسكانا أعطى الاستفتاء
٣٦٦٠٠٠ صوت مع الضم و ١٤٣٠٠ ضده ، في بداية آذار ١٨٦٠ .
وكذلك أجريت استفتاءات في السافوا وفي كونتية نيس : ففي السافوا

وجد ١٣٠.٠٠٠ صوت مع الضم إلى فرنسا و ٢٣٥ ضد و ٥٠٠٠ امتناع؛ وفي نيس ، ٢٥٧٠٠ « نعم » للانضمام إلى فرنسا و ٢٦٠ « لا » . وتمت هذه الاستفتاءات في نيس والسافوا في نيسان ١٨٦٠ .

وهكذا تمت التسوية على أساس مبدأ « حرية الشعوب في تقرير مصيرها » . ولكن الاستفتاء كما نعلم يعطي نتائج كثيفة ولا يكون دليلاً أكيداً على أن جميع الناخبين الذين أعطوا أصواتهم كانوا أنصاراً مصممين على وضع وأنهم أعربوا عن رأيهم لصالحه .

المرحلة الثالثة : قضية الصقليتين . - اتجهت الحركة القومية حالاً نحو مملكة الصقليتين . فقد توفي الملك فرديناند « الملك بومبا » في ١٨٥٩ . وخلفه ابنه فرانسوا الثاني ، ولكن طرق حكومة المملكة لم تختلف .

لقد وضعت القضية الصقلية في بادئ الأمر . فقد ثارت صقلية على ملك الصقليتين عام ١٨٤٨ ، وسلكت الحكومة فيها سياسة قمع قاسية للغاية ، وكان من الطبيعي أن تكون الظروف الاقتصادية والاجتماعية سيئة جداً في صقلية . وظهرت المعارضة ضد الملكية النابولية على اثر حوادث جرت في ايطاليا الشمالية . ووجد في هذه المعارضة ثلاث جماعات :

١ - أعضاء « الجمعية القومية » ، وكانوا أنصار الوحدة تحت سيادة البيت السافوي ، أي الانضمام إلى البيمونت - ساردينيا .

٢ - الماترينيون . وقد كان الماتريني في البلاد مثل وهو فرانشيسكو كريسبي الذي أصبح فيما بعد أعظم رجال السياسة الايطالية ، بين ١٨٨٥ و ١٨٩٥ .

الحركات القومية ٣ - (١١)

٣ - الموراتيون ، وكانوا يرجون اعطاء عرش الصقليتين إلى ابن مورا صهر نابوليون الأول ، كما أسلفنا . وهذا الاتجاه الموراتي يمكن ، على ما يبدو ، أن يكون مدعوماً من قبل نابوليون الثالث ، ولكن الواقع لم يكن كذلك .

نشبت الحركة الثورية في ٤ نيسان ١٨٦٠ بتحريض الماتزينيين ، ولم يكن كافور يرغب بها في ذلك التاريخ . وكادت هذه الحركة أن تخفق لان حكومة الصقليتين كان عندها جيوش محلية ، وعملت هذه الجيوش بقوة . وعندئذ القى زعماء الحركة ، وبخاصة كريسي ، نداء يطلبون فيه النجدة من الشعوب الإيطالية الأخرى . وعلى اثر هذا النداء نظم غاريبالدي « حملة الألوف » الشهيرة . وقد حشدت هذه الألوف في جنوة ومنها ومنها أبحرت على سفينتين نحو صقلية .

طريقة كافور . - ويبدو أن كافور لم يكن ليريد تشجيع غاريبالدي ، لأنه يخشى من أن يضع نفسه في وضع صعب حيال فرنسا . ولكنه من طرف خفي ، لم يدعه يعمل فحسب ، بل انه شجع هذه المغامرة . وكان هذا الوضع اخرج وقت في حياته السياسية ، وقد قال ذلك فيما بعد . وكانت الطرق التي استعملها بسيطة : فعندما علم أن غاريبالدي سينطلق في فجر الغد ، من ميناء جنوة ، أعطى أوامر دقيقة ومشددة بأن يراقب الميناء ، وارسلت الشرطة إلى الجزء الغربي ، بينما كان غاريبالدي يريد الاقلاع من الجزء الشرقي . وعندما أصبحت سفينتا غاريبالدي في البحر ، أعطى كافور أمره رسمياً إلى سفن الحرب السارديّة بالقبض على السفينتين ، ولكنه ، في السر ، أوعز إلى القادة أن يدعوا سفينتي غاريبالدي تتران بأمان .

وباختصار ، رسا غاريبالدي في صقلية ، ولم تكن الجيوش النابولية كثيرة العدد في الجزيرة ، ولذا استطاع غاريبالدي أن يحررها بسهولة .

وفي منتصف آب ١٨٦٠ لم يكتف غاريبالدي بهذه النتيجة ، بل عبر مضيق مسينا وبدأ ، صاعداً نحو الشمال ، بحملة هدفها أخذ بونالي . وأوشكت هذه القضية الجديدة أن تثير تعقيدات دولية ، لأن نابليون الثالث ، كان يريد معارضتها ، ولكن انكساراً منعه ، وانتهى الاسطول الفرنسي بتترك غاريبالدي يعبر مضيق مسينا .

والمهم هنا هو وجهة نظر كافور . فعندما علم أن غاريبالدي نزل شبه الجزيرة اضطرب وفاق وتساءل ما إذا كان غاريبالدي خرج من يده وأخذ يعمل لحساب الماتزينيين ، وفي هذا الاحتمال خطر على البيت السافوي . وقد علم من بعض الوثائق ان كافور حاول ، في بداية آب ، أن يثير في نابولي ما أسماه « الثورة الطيبة » أي ثورة غير مائزنية ، وأوصى الرسول الساردي في نابولي أن يتصل بسرعة بكبار الموظفين النابوليين ، وأوصى بخاصة بـ « العناية » بزعم الشرطة المعروف بفساده إذ بمساعدة هذا الزعيم يمكن القيام بالثورة الطيبة قبل وصول غاريبالدي والماتزينيين . ولكن القضية أخفقت ، لأن كبار الموظفين النابوليين خافوا من المخاطرة . غير أنه من الممكن القيام بسهولة بحركة ارتداد عندما يطمأن بعدم الحديعة ، ولذا فضل كبار الموظفين النابوليين الانتظار للقيام بالانقلاب عندما تكون النتيجة أكيدة .

لم ينجح كافور اذن في عملياته ، ولذا غير خطته مباشرة : أرسل اسطولاً بقيادة الاميرال بيرسانو إلى شواطئه بمملكة نابولي وأعطاه أمراً رسمياً بمساعدة غاريبالدي ما أمكن في زحفه نحو الشمال . ولكنه في الوقت

نفسه أوعز الى الاميرال الأمر بالقبض إذا أمكن على الحصون قبل ان يحتلها الغاريبالديون . وهكذا قام سباق بين الغاريبالدين والكافوريين . وربع غاريبالدي السباق . فقد وصل في ٧ ايلول إلى نابولي . ولم يدافع الجيش النابولي عن نفسه . وهذا دليل على أن النظام كان غير شعبي . وعندما وصل غاريبالدي إلى نابولي نشر إعلاناً وأظهر فيه بعنف خلافه مع كافور ، وكانت هذه اللحظة لحظة حرجة جداً بالنسبة لكافور .

المرحلة الرابعة : قضية الدولة الحبرية . - وعندما وصل غاريبالدي إلى نابولي ، لم يكن مستعداً للوقوف فيها ، فقد هب الماترينيون بالحال حملة على دولة الكرسي الأقدس . وبينما كانت غاريبالدي على الحدود الجنوبية للدولة ، في الشمال ، في رومانيو ، كانت حركة أخرى في حيز الاعداد : فقد كان ماتريني يدعى نيقوتيرا يعد فريقاً من ألفي رجل وأراد به الدخول في المارش واومبريا ، وهنا أيضاً كانت الحالة حرجية : فاذا تم زحف الغاريبالدين والماترينيين فماذا يحدث : يجب ألا ننسى أن كان في الدولة الحبرية جيشان : جيش الكرسي الأقدس وجيش الحامية الفرنسية في روما . وقد نظم جيش الكرسي الأقدس . وكانت البابا يعرف على أي شيء يحرص رأي السكان ، وأن ليس له مايعتمد عليه كثيراً على القوة العسكرية لرعاياه ، ولذا استنجد « بمتطوعين حبريين » وقد أتى الكثير منهم من فرنسا . وكان على رأس هؤلاء المتطوعين الجنرال لاموريسيير . ومن الوجهة السياسية كان هذا الانتخاب موضع نزاع ، لأن لاموريسيير ، وهو جنرال فرنسي يمتاز في الجزائر ، كان ضد الانقلاب الذي قام به نابوليون الثالث في ٢ كانون الأول ، ولذا كان خصماً له . ومن جهة أخرى ، كانت في روما حامية فرنسية يقودها الجنرال دوغويون .

فاذا دخل الغاريبالديون والماتزينيون امشكوا مع جيش لاموريسيير ولم يكن لهذا العمل مخدور من الوجة السياسية العامة ، ولكن إذا تجرأوا على دخول روما نفسها ، فان الحامية الفرنسية ، التي تحرسها ولا تحرس غيرها ، تدافع عن نفسها ، وعندئذ يحدث صدام بين الايطاليين والحامية الفرنسية ، ونتيجة هذا الصدام على الأقل قطيعة دبلوماسية بين فرنسا والايطاليين . وعلى كل حال ، لا يمكن الاعتماد على مساندة نابوليون الثالث ، لأن النمسا يمكن أن تفيد من هذا الوضع لمعاودة الحرب ضد الايطاليين . ولم يتردد كافور في القول بأن الحملة الغاريبالدية - الماتزينية إذا وقعت فسيخاطر بـ « نوافرو ثانية » وهي الواقعة التي هزم فيها السارديون في عام ١٨٤٩ ضد النمسا .

لهذا السبب أراد كافور أن يسبق غاريبالدي ويدخل في الدولة الحبرية جيوشاً ساردية ويعطيها الأمر بقتال لاموريسيير ، دوت الحملة الفرنسية في روما . ولما علمت انكالترا بهذه النية ، لم تعترض ولم يكن لديها أي سبب للاعتراض : فهي دولة بروتستانتية ولا مبالية بمصير دول البابا . ولكن ماذا يقول نابوليون الثالث ؟ ذهب الجنرال جيمالديني للقاء الامبراطور وكان في شامبيوري وأعلمه بنوايا كافور ، واذا أخذنا بقصة جيمالديني رأينا أن نابوليون الثالث أجاب : « اعملوا ، ولكن اعملوا بسرعة » . وحسب القصص الفرنسية : لم يجب نابوليون بشيء مطلقاً . ولكن أخيراً ، عندما اطلع على الحطة ولم يبد اعتراضاً ، اعتبر كافور هذا كافياً . وباختصار أدخل كافور جيوشه ، من الشمال ، في الدولة الحبرية ، ووصلت الجيوش الساردية بسرعة حتى حوالي روما ، وقاتلت جيش لاموريسيير ، في ١٨ ايلول ١٨٦٠ ، في واقعة كاستلفيداردو ، ولكنها احترمت مدينة روما حيث كانت الحامية الفرنسية .

وكانت نتيجة هذه الحملة اتفاق ٢ تشرين الأول ١٨٦٠ ، وبموجبه يتخلى البابا عن دوله إلا مدينة روما ورقعة أرض صغيرة حولها .

وهنا أيضاً كرست الأمور الواقعة بطريقة الاستفتاءات : ففي صقلية اعطى الاستفتاء أكثرية عظمى للانضمام إلى الليمونت - ساردينيا ، ووجد ٦٠٠ «لا» فقط . وفي مملكة نابولي وجد ١٠٠٠٠ «لا» ، وفي المارش واومبريا أي في أجزاء الدولة الحبرية التي ضمت وجد ١٥٨٠٠ «لا» ، وفي شباط ١٨٦١ ، تأسست مملكة إيطاليا قبل أربعة أشهر من وفاة كافور .

٣ — صعوبات الزويان

تباين الشمال والجنوب . — لقد تصور الرجال ، الذين دعموا الفكرة الحدودية ، أن إنشاء الدولة الإيطالية أمر سهل . وفي الواقع ، ان هؤلاء الرجال يعرفون إيطاليا قليلاً : إنهم يعرفون إيطاليا الشمالية ولا يعرفون إيطاليا الجنوبية ، لأنه يجب ألا ننسى ، والإيطاليون يعترفون بذلك ، أن كثيراً من الأقاليم دخلت « سلبياً » في الدولة الإيطالية الجديدة ، بالرغم من المظاهر التي أعطتها أرقام الاستفتاءات . لقد كانت أكثرية السكان العظمى ، في أعماقها ، غير مبالية تقريباً . ولكن الأخطر من ذلك هو أن « اطر » المجتمع لم تكن دوماً محبذة للحل الحدودي الظاهر : ففي إيطاليا الجنوبية ، في مملكة الصقليتين القديمة ، كان كبار الملاكين ، وإيطاليا الجنوبية هي بلد كبار الملاكين ، يناصرون جميعاً تقريباً السلالة التي سقطت ، وكذلك كانت حال الاكايروس . وعدا ذلك ، بادر غاريبالدي ، أثناء مروره في مملكة نابولي ، إلى تسمية الموظفين ، ولكن هؤلاء كانوا في الغالب مغامرين ، ولا يبحثون إلا عن ملء جيوبهم ، ولذا لم يكن ممكناً في هذه الإدارة بناء أي أساس يعتمد عليه .

ومن جهة أخرى ، في لومبارديا وفي توسكانا أيضاً ، بلدي التقاليد القديمة ، بلدي الحياة البلدية القوية ، كانت رغبة السكان الحفاظ على إدارة مستقلة : ويرون أن الموظفين البيمونتيين ضيقو الفكر ، ومتعجرفون ، ويتمنهم بأنهم يريدون أن يحتجزوا لأنفسهم الوظائف المفيدة في الإدارة .

لقد كانت الصعوبة الأولى اذن ، معنوية ، أما الثانية فاقتصادية واجتماعية : لقد كانت الظروف الاقتصادية مختلفة جداً بين الشمال والجنوب في شبه الجزيرة . فبينما كانت الزراعة الايطالية ، في وادي نهر البو في حالة مزدهرة ، كانت أملاك الدوقيات الكبرى في ايطاليا الجنوبية سيئة الزراعة والفلاحة ، ولانقوم فيها أعمال التجفيف وأعمال التحريج وغيرها . وكانت الصناعة في ايطاليا الجنوبية غير موجودة تقريباً . وأخيراً كانت وسائل النقل والطرق والخطوط الحديدية تنقصها ثغماً الا قليلاً . ولم يكن الاسطول التجاري في نابولي مجهزاً ومعداً لدعم التنافس مع الدول المتوسطة الاخرى . وبالتالي تباين بين البيعونت - ساردينيا التي سلكت سياسة اقتصادية نشيطة جداً ، وبملكة الصقليتين ، البلد المتخلف ، حيث كانت الأكثرية العظمى للسكان فلاحين بائسين . وقال كافور نفسه : « إن تحقيق الانسجام بين الشمال والجنوب أصعب من النزاع ضد النمسا أو القتال مع روما » .

موقف الحكومة . - لمواجهة هذه الصعوبات نصح بعضهم كافور أن يوطد دكتاتورية مؤقتة . فلم يشأ كافور ذلك . فقد رأى وجوب البقاء والاخلاص للنظام الدستوري . ولكنه قبل ، من جانبه ، إصلاحاً إدارياً يعمر الإدارة الايطالية على أساس لامركزية واسعة : أراد أن ينشئ مجالس اقليمية ذات اختصاصات في بعض القضايا : الأشغال العامة ، التعليم ، وغيرها ، بشكل يترك فيه درجة من الاستقلال الذاتي الإداري

لمختلف أجزاء المملكة . ولم يقبل مجلس النواب الايطالي هذا المشروع ، لأنه رأى بأن هذه المجالس الاقليمية يمكن أن تكون ملجأ لعواطف ذات نعة خاصة ، ولذا فإن خلفاء كافور ، بعد وفاته ، قسموا الدول الايطالية إلى ٥٩ إقليمياً ، وأقاموا على رأسها محافظين . وهذا يعني أنهم أقرروا نظام المركزية . ومن جهة أخرى ، طبقوا ، على ايطاليا كلها ، القوانين التي كانت موجودة من قبل في اليموننت - ساردينيا ، وهذا ما أثار احتجاجات عدد من النواب اللومبارديين والتوسكانيين المعادين للهيمنة اليموننتية .

ولم توجد احتجاجات فقط ، بل وجدت أيضاً اضطرابات جديدة جداً في ايطاليا الجنوبية :

في البازيليكا ، وجد تشكّل عصابات أشقياء .. وكان هؤلاء فلاحين يشكون الجوع ، وحاولوا أن يفيدوا من القضية بطرق خارجة عن القانون ، ثم دخل هؤلاء الأشقياء في اطر خصوم الوحدة الايطالية . وساعدت الطبقة النبيلة والاكليروس ، أحياناً ، الأشقياء ، واضطرت الحكومة الايطالية أن ترسل إلى البازيليكا حملة عسكرية حقيقية وكان الضرب على أيدي هؤلاء الأشقياء « وحشياً » .

وفي صقلية ، وجدت حركة تمرد عندما أرادت الحكومة الساردية أن تطبق الخدمة العسكرية الاجبارية : ولم يسبق للصقليين أن قاموا بالخدمة العسكرية في الماضي ولم تعجبهم الخدمة العسكرية في الجيش الايطالي . ولذا لزم إرسال حملة إليهم يقودها الجنرال غوفونه وأعلن هذا الأحكام العرفية وضرب على أيدي المتمردين بقوة قاسية .

وبالاجمال ، إذ لاحظنا في ١٨٦٢ ، المراسلة المتبادلة بين رجال الدولة

الايطاليين في ذلك العصر مع الملك ، رأينا أن رجال الدولة كانوا يخافون على المستقبل . وقد صرح ويكازولي ، الذي كان خلفاً لكافور بعض الوقت ، بأن من السهل القضاء على هذه الاضطرابات لو لم يكن تحتها أيدي أعداء النظام ، وبخاصة ، لو لم يستطع هؤلاء الخصوم أن يجدوا دوماً ملجأ في الدولة الحزبية ، أي في الرقعة الصغيرة التي حافظ عليها البابا حول روما نفسها .

وهكذا ، لم تنته الوحدة من وجهة النظر الأرضية ، لأن قضية البندقية لم تحل في العام ١٨٥٩ ، ولأن قضية روما ظلت مفتوحة .

الفصل الثامن

الحركة القومية الإيطالية

من ١٨٦١ الى ١٨٦٦

تشكلت مملكة إيطاليا ، فعلاً ، في آخر ١٨٦٠ ، رسمياً في بداية ١٨٦١ ، وظلت قضيتان دون حل : من جهة ، قضية الأراضي الإيطالية التابعة للنمسا ، أي البندقية وتروانتان ، وجزء من إستريا وبعض نقاط من الشاطئ الدالماسي ؛ ومن جهة أخرى ، قضية روما . وتقلصت رقعة الدولة الحبروية للغاية ، ولكن مدينة روما واراضاً صغيرة حولها بقيتا مستقلتين .

إن النجاح الجديد ، الذي حققته الحركة القومية الإيطالية ، في ١٨٦٦ ، كان في ضم البندقية التي لم يجردها نابليون الثالث في العام ١٨٥٩ . وقد أحرزت الحركة القومية الإيطالية هذا النجاح بفضل أزمة دولية وهي الحرب النمساوية - البروسية التي تكلمنا عنها ، ولكن العاطفة القومية الإيطالية لم ترض كل الرضى ، لأن مملكة إيطاليا بعد أن انتزعت من النمسا في العام ١٨٦٦ البندقية ، كانت تتطلع إلى ضم التروانتان .

وفي دراستنا لهذه القضية ، يجب أن نلاحظ ظروف السياسة الإيطالية قبيل هذه الأزمة ، ثم ندرس الحطة الإيطالية ، وأخيراً اخفاق هذه الحطة جزئياً .

١ - ظروف السياسة الإيطالية

لقد اصطدم تشكيل مملكة إيطاليا ، كما رأينا ، ببعض الصعوبات التي ترجع إلى أن وحدة الشعب المعنوية لم تكن مؤمنة في كل مكان . وهذه وجهة نظر يجدر عدم نسيانها . ولكن يجب ألا ننسى أيضاً أن الدولة الإيطالية منذ أن فقدت كافور ، في حزيران ١٨٦١ ، كان نظامها ضعيفاً . وذلك يرجع لعدة أسباب :

أ) تفتت الأحزاب . - ان نقص تنظيم هذه الأحزاب السياسية ، ونقص تجربة النواب ، الذين كانوا ينتخبون عموماً من قبل الجماعات المحلية ، ويساقون (يجمعون) بصعوبة ، لأنه لم يكن لهم تعويض برلماني ، ولأن المرشح للنيابة كان عليه أن يترك مشاغله الشخصية ليأخذ مكانه في المجلس . وكانت النتيجة عدم استقرار الوزارات ، فبين موت كافور ، في حزيران ١٨٦١ ، وبداية ١٨٦٦ ، تشكلت في مملكة إيطاليا ست وزارات ؛ ومن ثم تغيير الأشخاص بخاسة ، لأن جميع الوزارات متلونة بالأفكار الكافورية أي باللون الليبرالي المعتدل .

ب) الازمة المالية . - كانت مملكة إيطاليا مضطرة لتخصيص نفقات عظيمة نسبياً للأشغال العامة ، والتعليم العام ، ولتنظيم الجيش ، حتى انها في العام ١٨٦٣ انفقت ١٢٥٠ مليون ليراً ، على حين ان الدول الإيطالية منفردة في العام ١٨٥٩ ، لم تنفق إجمالاً ، إلا ٦٢٥ مليون . وتضاعفت النفقات بسبب الوحدة ، وكانت النتيجة العجز . وبلغ هذا العجز ٣٥٠ مليون لير ، ولم يتوصل إلى سده ، وتقاقم مع الزمن .

وقد أثار عجز الحكومة الإيطالية الانتقادات من كل مكان واصطدمت
الوزارات المتعاقبة بمعارضتين : معارضة اليمين ومعارضة اليسار .

معارضة اليمين . - كانت معارضة اليمين معارضة الاكليركيين :
ولم تكن لهم قوة كبيرة في البرلمان أو لم يكن لهم شيء تقريباً ، لأن
الكاثوليكين الإيطاليين ، منذ ذلك الحين ، تبنوا ، في الانتخابات ،
طريقة الامتناع . وإذا لم يكن لهم الا قليل من النواب الذين يمثلون الحزب
« الاكليركي » في البرلمان ، فان هذا الحزب له قوته في البلاد ،
وبخاصة له اطره النشطة في الجهاز الكنسي : من اكليروس نظامي
واكليروس عصري ، وكانت الأديرة ، بخاصة ، مراكز معارضة للنظام
الجديد . ولذا تقدمت الحكومة الإيطالية ، في ١٨٦٤ ، بشروع قانون ،
وأصبح قانوناً في تموز ١٨٦٦ رهدفه حل الجمعيات الرهبانية ومصادرة
أموالها . ولنشر إلى أن نصف الجمعيات الرهبانية ، في اليموننت -
ساردينيا قد حل بموجب قانون ١٨٥٥ ، ولكن هذا القانون ، في
الاراضي الجديدة المنضمة إلى اليموننت - ساردينيا لم يطبق بعد : وكانت
الأديرة عديدة جداً في صقلية ، وتوسكانا ، ولومبارديا . وبقي ، عند
التصويت على القانون ، ٢٤٠٠ دير مع ٤٧٠٠٠ راهب .

ولا شك في أن حل الجمعيات الرهبانية ومصادرة أموالها كانت لهما
منافع مالية ، وقد قررت الحكومة ذلك لأسباب سياسية .

لقد منح القانون مرتباً صغيراً ، ٦٠٠٠ لير ، في السنة ، للرهبان
ليساعدهم على سد رمق الحياة ، وقررت ، عدا ذلك ، أن تباع أموال
الجمعيات الرهبانية ، وكانت أراضيه بخاصة ، بشكل قطع صغيرة ،
لتساعد على تشكيل ملكيات صغيرة ريفية . وبالجملة ، مر في إيطاليا ،
في ذلك الحين ، شيء مماثل لما مر في فرنسا أثناء الثورة الفرنسية ، عند

بيع « الأموال القومية » . وبالطبع ، لم يكن من مصادرة أموال الجمعيات إلا زيادة معارضة اليمين .

معارضة اليسار . - وكانت معارضة اليسار هذه معارضة الماترينيين . فقد استأنفت الدعاية الماترينية عملها بكثير من النشاط عام ١٨٦٥ ، وفي الانتخابات البرلمانية في تشرين ١٨٦٥ ، غلبت معارضة اليسار مرشحي الحكومة العديدين ، أي الأحرار المعتدلين . والحادث الذي هاج الرأي العام والحكومة أكثر من غيره ، كان انتخاب ماتريني . فقد انتخب نائباً عن مدينة مستينا . ووضع هذا الانتخاب « قضية ماترينية » : فقد صرحت الحكومة الإيطالية أن ماتريني غير قابل للانتخاب ، لأنه قام بمحاولات ثورة ، في ١٨٥٧ ، في جنوة ، وعقب هذه المحاولة ، حكم عليه بالموت غيابياً . وقالت الحكومة ان ماتريني محكوم عليه بالموت ، ولذا لا يمكن أن ينتخب . وقامت ، في هذا الموضوع ، مناقشات كبرى في مجلس النواب الإيطالي ، أثناء عرض صحة انتخاب ماتريني : فقام بعض النواب ، وبخاصة كريسي الماتريني ، وقالوا بأن الانتخاب نظامي حسب الأصول ؛ واث الحكم بالاعدام على ماتريني ، في ١٨٥٧ ، لا يمكن أن يكون له مفعول ، كما يقول كريسي ، أولاً لأن الحكومة الساردية في العام ١٨٥٩ ، صوتت على قانون العفو العام ويجب أن يطبق قانون العفو العام على ماتريني ، كسائر الناس ؛ وعدا ذلك ، لأن البيمونت - ساردينيا منذ هذا الحكم بالاعدام في العام ١٨٥٧ لا توجد كدولة : فقد امتصت في المجموعة الجديدة التي افتتها بملكة إيطاليا . واعتباراً من الآونة التي لم يوجد فيها ملك ساردينيا ، بل ملك إيطاليا ، لا يكون للحكم الذي حكم به على ماتريني باسم ملك ساردينيا ، قيمة أبداً . ثم أضاف كريسي حججاً عاطفية : فقد ذكر بالدور الذي لعبه ماتريني

في غمؤ الفكرة الوحوية في ايطاليا . كما ذكر بأن ماتزيني « قد ربي ،
الايطاليين على احترام الواجب واحترام التضحية » خلال جيل كامل .

فرد عليه وزير الداخلية بقوله ان قبول صحة الانتخاب ، إذا قرر ،
يعادل الموافقة على المبدأ الجمهوري ، وهذا مالا تقبله الحكومة . وفي
الواقع اعطى المجلس الحق للحكومة ، وطعن في انتخاب ماتزيني بـ ١٩١
صوتاً ضد ١٠٧ . وأعيد انتخاب ماتزيني للمرة الثانية ، وطعن من جديد
في انتخابه . ولم ينقطع الخلاف بين الماتزينيين والحكومة الايطالية .

وبالتالي ، ضعف الوضع الداخلي في ايطاليا . ورأى كثير من أعداء
الحكومة الايطالية ، في ١٨٦٥ ، أن الوحدة لن تدوم . وكان امير
سر دولة الكرسي الأقدس المتحزب يعتقد بإمكان حدوث حركة انفصالية
نابولية ، ويرى بأن الوحدة الايطالية ستنتحل ومن الممكن العودة إلى
فكرة « الكونفدراسيون الايطالي » تحت رئاسة البابا ، أي ، إلى فكرة
نابوليون الثالث في ١٨٥٨ ، وهذا هو رأي الوزير النمساوي هوبنر أيضاً .

وفي ايطاليا ، كان الملك فيكتور ايمانويل ، الذي أصبح دوره نشيطاً
منذ وفاة كافور ، لأنه كان في حياة كافور ، بحياً بقوة شخصية وزيره ،
ولأن رؤساء مجلس الوزراء كانوا رجالاً من المستوى الثاني ، يرى بأنه
من المرغوب فيه اعطاء محول للصعوبات الداخلية بفوز خارجي : وهذا
الاسلوب كلاسيكي اتباعي ، وقد استعملته حكومات عديدة في ظروف
مختلفة ، ولكن ما هو الفوز الخارجي الذي يجب البحث عنه ؟ هل يجب
البدء بمحاولة حل « قضية روما » أو البدء بمحاولة حل قضية الاراضي
الايطالية التابعة للنمسا ؟ قرر الملك فيكتور ايمانويل نفسه الأخذ بالحل
الثاني ، لماذا ؟ أولاً لأن هذا العمل يجب أن يكون مخصصاً لطرد

الاجانب عن الأرض الإيطالية ، ومن الممكن أن يكون شعبياً ، حتى عند الاكبركيين ، بينما يصطدم امتصاص روما بمعارضة جزء من الرأي العام ؛ وفي قضية الاراضي الإيطالية التابعة للنمسا ، لا تجازف إيطاليا إلا بصعوبات مع النمسا ، على حين أنه إذا ، اختارت « القضية الرومانية » تخاطر أيضاً بصعوبات مع فرنسا ، لأنه ما زالت توجد في روما حامية فرنسية . وقد قدر فيكتور ايتا نوبل جيداً بأنه يجب على ملكة إيطاليا ، معها كلف الامر ، ألا تكون في خلاف مع نابوليون الثالث .

ومنذ أن قرر الملك أن يكون إلى جانب هذا الحل ، وهو تحرير الاراضي الإيطالية التي بقيت خاضعة للنمسا ، كان من الواضح أنه لا يمكن أن يأمل أن ينجح بغير السلاح ، أو ، على الأقل ، بظروف استثنائية جداً .

وإذا لاحظنا القوى المسلحة في إيطاليا ، في ذلك الحين ، وجدنا أن اللوحة غير مضيئة جداً . ولا شك في أن الحكومة قامت بمجهود ضخم في تنظيم الجيش . فقد رأت أن هذا الجيش يمكن أن يبلغ ، في زمن السلام ٢٠٠٠٠٠ نسمة ، ولكن الصعوبات المالية اضطررتها إلى تخفيض اعتمادات الموازنة : ولم يكن بالامكان انشاء أطر كافية لتجنيد ٢٠٠٠٠٠ رجل عملياً في زمن السلام . أما اسطول الحرب ، فبسبب التغييرات الوزارية الدائمة ، لا يوجد أي وحدة مفهوم في السياسة البحرية التي يجب اتباعها . ومع ذلك توصل الايطاليون إلى انشاء اسطول حربي : فقد انشأوا بين ١٨٦١ و ١٨٦٥ اثني عشرة « سفينة خط » . ولم يكن لهذا الاسطول قواعد بحرية منظمة في البحر الادرياتيكي . وكان الجهاز ضعيفاً جداً ، لأنه كان يعتمد ، في آن واحد ، على ضباط تابعين للبحرية الملكية الساردية القديمة ، وعلى ضباط بحرية نابوليين . وكان السارديون

والنابوليون لا يتفاهمون . ونضيف إلى ذلك أنه احتفظ بالنابولين في الاسطول لأنهم تخلوا عن ملك الصقليتين فقط . ولكن الحكومة الإيطالية ، بعد أن أعطتهم هذا « التعويض » باعتبارهم تخلوا عن الملك ، تهرأت منهم ، لأنها اعتبرت أن من ينسون بينهم مرة يمكنهم أن ينسوها مرة ثانية . وهكذا نرى أن الحالة الفكرية كانت سيئة صراحة . وأخيراً كان القائد الأعلى للاسطول ، الأميرال برسانو رجلاً متعطرساً وضعيفاً تماماً .

ونظراً لضعف الوسائل العسكرية والبحرية لم تستطع إيطاليا أن تفكر مطلقاً في ١٨٦٦ ، كما فكرت عام ١٨٥٩ ، بأن تحارب النمسا وحدها . ولذا لا بد لها من حلف ومن الاعتماد على سند خارجي . وقد واتتها الفرصة عندما اقترب النزاع النمساوي - البروسي .

٢ - خطة الحكومة الإيطالية

التحالف مع بروسيا . - لقد ظهر معنا أن الحكومة الإيطالية لا تستطيع وحدها أن تقوم بحرب جديدة ضد النمسا . لذا كان من المنطق أن تفكر بالبحث عن حلف مع بروسيا ، لأن بروسيا بخاصة ، منذ وصول بسمارك إلى السلطة ، كانت في صعوبات دائمة مع النمسا . وكان يتنبأ بخلاف نمساوي - بروسي . ولكن كان ينبغي على إيطاليا أن توفق بين التحالف مع بروسيا والحفاظ على الصداقة الفرنسية . ولم يشأ الملك فيكتور ايمانويل بأي ثمن أن يفسد علاقاته مع فرنسا . وكان يفكر بأنه ، إذا ، أفسد علاقاته مع فرنسا ، جازف بمجازفة خطيرة جداً : لأن فرنسا يمكن أن تعقد حلفاً مع النمسا ، وعندئذ لا تستطيع إيطاليا أن تعمل شيئاً أمام قوى فرنسا والنمسا مجتمعة ، ولو مع نجدة بروسيا .

ولقد رأينا ما جرى بين النمسا وبروسيا . ولعلنا نذكر أن الخلاف العتيق منذ ١٨٦٣ قد تفاقم في ١٨٦٥ ، وفي بدء ١٨٦٦ . واستطاعت الدبلوماسية الإيطالية أن تجد في ذلك ظروفاً ملائمة : فمنذ آخر ١٨٦٢ طلب بسمارك من الحكومة الإيطالية ، بواسطة رسول سري ، أن تعلمه عن موقف إيطاليا في حالة حرب بمساوية - بروسية . فأجابت الحكومة الإيطالية مؤكدة على أنها في هذه الحالة تدخل في حرب ضد النمسا . وهكذا تم الاتفاق بسهولة على المبدأ .

ولكن ، بالرغم من قبول مبدأ التعاون بسهولة ، فإن التحالف لا يبدو ، بادئ بدء ، سهل الإبرام : من جهة ، لأن بسمارك يلاقي مقاومات في محيط الملك غليوم الأول ، الذي ظل طويلاً ، معادياً للحرب ضد النمسا . إلا أن هذه العقبة زالت بعد مجلس التاج البروسي في ٢٨ شباط ١٨٦٦ : ففي هذا المجلس اتخذ القرار بالبحث عن التحالف الإيطالي . ومن جهة ثانية ، ترددت الحكومة الإيطالية ، هي أيضاً ، فقد كان رئيس مجلس الوزراء الإيطالي ، في ١٨٦٥ وبداية ١٨٦٦ ، لامارمورا يتساءل ما إذا كانت هناك وسيلة للحصول على البندقية دون حوب ، وشاد ترتيباً يقتضي ، أن يقدم للنمسا ، مقابل التنازل عن البندقية لإيطاليا ، تعويضاً في الإمارات الدانوبية وذلك بأن تعطى البغدان والأفلاق ، بدلاً عن البندقية . وسبر لامارمورا غور فينتا بهمتين : احدهما في ١٨٦٥ ، والأخرى في بداية ١٨٦٦ ، ولكنه اصطدم برفض . وتساءل رئيس مجلس الوزراء الإيطالي أيضاً : ماذا تقول فرنسا التي لا يريد أن يقع معها في خلاف ؟ فظمن في الأول من ايلول ١٨٦٥ ، لأن نابليون الثالث ، بعد أن أعلمه السفير الإيطالي في باريس ، فيغورا ، الحركات القومية- ٣ (١٢)

بالأمر أجاب بأنه يجب على إيطاليا في حالة قطيعة بين النمسا وبروسيا ، ان تهتبل الفرصة ، ، والا د تثبط هممة بروسيا ، بأي حال من الأحوال . وفي الحقيقة ، قال نيغرا ، سفير إيطاليا في باريس ، ان نابوليون الثالث يرغب في هذه الحرب النمساوية - البروسية ، لأنه يعتقد بأن هذه الحرب ستكون حرباً طويلة ويمكن أن تتيح له فرصة التدخل الدبلوماسي . وفي بداية ١٨٦٦ ، لاشيء يعارض المفاوضة مطلقاً . وعندما علم لامارمورا بأنه لا يستطيع الحصول على البندقية دون حرب ، لم يبق أمامه إلا شيء واحد لعمله وهو البحث عن التحالف البروسي . ومن جهة أخرى ، قرر مجلس التاج البروسي ، في ٢٨ شباط ، البحث عن التحالف الإيطالي . وبدأت القضية آتخذ بسيطة للغاية .

في آذار ١٨٦٦ ، أرسلت الحكومة الإيطالية إلى برلين الجنرال غوفونه ، وكلفته بمهمة التفاوض بحلف مع بروسيا . وقد نشرت تقارير غوفونه إلى حكومته . وتدل هذه التقارير على أنه كان من الصعب التفاهم بين الجانبين : فقد أرادت الحكومة الإيطالية أن تتعهد بروسيا بحرب مباشرة ، أو على الأقل ، بحرب في تاريخ ثابت . وقدردت بانها إذا أبرمت الحلف مع بروسيا دون تحديد تاريخ الحرب ، فان الحكومة البروسية ، في هذه الفترة ، تبادر إلى اعلام النمسا بهذا الحلف وتندبر الحكومة النمساوية . بالضياح ، ولكنها لا تستطيع أن تقوم بالحرب إذا تنازلت النمسا لها عن الدوقيات . وقد أجرت الحكومة البروسية بالضبط هذه المحاكمة نفسها في موضوع الإيطاليين . فقد قدرت أن الإيطاليين ، بعد ابرام الحلف ، يتجهون نحو النمساويين ويقولون لهم : أرأيتم ، اننا حلفاء بروسيا ، ولكن تنازلوا عن البندقية ، نتخل عن الحلف البروسي .

كانت سوء الظن متبادلاً . وللاخروج من الورطة قررت الحكومة الإيطالية أن تتجه نحو نابليون الثالث : أرسلت الى باريس ، في آخر آذار ١٨٦٦ ، الكونت آيسيه . وجرت في ٢٩ و ٣٠ آذار ١٨٦٦ بينه وبين نابليون الثالث محادثات ، ولا نعرف قصة هذه المحادثات الا من الوثائق الإيطالية ، لأن نابليون الثالث لم يترك كلمة في هذا الموضوع ؛ ومن المحتمل أنه لم يشأ أن يبقى منها أثر في المحفوظات الدبلوماسية الفرنسية . والجمهوري في هذه المحادثات هو : أن نابليون الثالث نصح ايطاليا بابرام الحلف مع بروسيا د لعمل مشترك ومتواجد ، ووعد ايطاليا بانه ، في الحالة التي تنكث بروسيا بتعهداتها ، وتقوم بصلح منفرد مع النمسا ، فانه ، أي نابليون الثالث ، لن يترك النمسا تسحق ايطاليا .

وهذا هام جداً بالنسبة للايطاليين ، فقد رأينا أنهم يخشون ، قبل كل شيء ، من أن تخلى بروسيا عنهم . وقد كان انطباع الإيطاليين ، أثناء حرب ١٨٥٩ ، أن نابليون الثالث لا يتمسك بتعهداته ، وانه تخلى عنهم د في منتصف الطريق ، وتساءلوا ما إذا كان الأمر كذلك مع بروسيا . لقد قبل نابليون الثالث أن يعطي ايطاليا ضماناً وطمناً بان بروسيا إذا تخلت عنها ، فانه نفسه لن يترك النمسا تسحقها . وفي هذه الشروط تستطيع ايطاليا أن تبرم اتفاقاً مع بروسيا . وهكذا وقعت بين بروسيا وايطاليا معاهدة ٨ نيسان ١٨٦٦ .

تنص هذه المعاهدة د على أن بروسيا ، إذا اضطرت أن تشكو السلاح ضد النمسا ، فان الحكومة الإيطالية تعلن هي أيضاً الحرب على النمسا ، في الحال التي تبادر فيها بروسيا بالعمل .

ولا يوجد تقابل في هذه المعاهدة : لأن بروسيا هي التي تقرر وحدها وقت الحرب . ومن البديهي ، أن الإيطاليين لم يتمكنوا من قبول هذا البند إلا لأنهم حصلوا على الضمان من نابوليون الثالث . ومن جهة أخرى ، لم تقبل المعاهدة إلا لثلاثة أشهر بعد التوقيع . وإذا لم تعلن بروسيا الحرب على النمسا في هذه المهلة ، ينحل الحلف . وهذا القسم الثاني من المعاهدة ، كان بالاجمال ، تنازلاً لوجهة النظر الإيطالية : فقد كان الإيطاليون يرغبون بحرب مباشرة ، أو ، على كل حال ، سريعة ، لأن بروسيا وعدتهم بأن الحرب ستقع في الثلاثة أشهر القادمة . وأخيراً ، وعد الحليفان بعدم اجراء هدنة منفردة ، على الأقل ، وهذا هام جداً ، حتى تحصل إيطاليا على البندقية وتحصل بروسيا على أراضي معادلة .

والجدير بالملاحظة أن المعاهدة الإيطالية - البروسية في ٨ نيسان ١٨٦٦ ، لا تعد إيطاليا بمنطقة الترانتيان ، وفي كل مكان ، طالب الإيطاليون بسمارك بصراحة ، أثناء المفاوضات ، بأن المعاهدة يجب ألا تعطيهم البندقية فقط ، بل الترانتيان أيضاً . فرفض بسمارك ، وأجاب بأن الترانتيان تابعة إلى الكونفدراسيون الألماني ، وأن البندقية ليست جزءاً منه ؛ وأنه ، بالتالي ، إذا قبل المزاем الإيطالية على الترانتيان ، قد يخطر بالاساءة إلى الدول الألمانية الأخرى ، وقال بأنه بحاجة إلى هذه الدول الألمانية ، وعلى الأقل ، يأمل بمساعدتها ، لحرب مع النمسا . ولكن بسمارك اضاف بأن من الممكن جيداً أن تثار قضية الترانتيان عند بدء الحروب . وترك للإيطاليين أملاً للمستقبل ، ولكنه لم يأخذ على نفسه عهداً إلا فيما يتعلق بالبندقية .

واكن هل يعطي ابرام هذه المعاهدة لإيطاليا جميع الضمانات التي تروجها ؟

الصعوبات من جانب بروسيا . - لقد لاقت إيطاليا بالحال صعوبات من جانب بروسيا : ففي الاول من شهر أيار ، أي بعد ثلاثة أسابيع على توقيع المعاهدة ، كانت الحكومة الإيطالية قلقة ، لأنها رأت حركات الجيوش النمساوية في البندقية . فقد علمت الحكومة النمساوية بالحلف الإيطالي - البروسي . ولذا رأت أن تتقدم وتهاجم الحزم الأضعف أي إيطاليا .

جاء الجنرال غوفونه إلى بسمارك وكلمه بذلك ، وطالب منه ماذا يحدث إذا قام النمساويون بمبادهة الحرب وهاجروا إيطاليا . فأجاب بسمارك بأن معاهدة الحلف في ٨ نيسان ١٨٦٦ لم تنص على هذه الحالة ، لأنها نصت فقط على حالة حرب بين بروسيا والنمسا : وتعهدت إيطاليا أن تسهم بهذه الحرب ، ولم تقل المعاهدة أبداً أن بروسيا تتعهد بأن تشارك في حرب بين إيطاليا والنمسا . اعترض الجنرال غوفونه بوجود معاهدة حلف ، وبالتالي ، يجب أن يكون الالتزام متبادلاً : فأجاب بسمارك بأنه يأسف ، وإن النص لا يقول بذلك ، عدا عن أن الملك غليوم الأول لم يقبل أبداً بتوقيع معاهدة حلف تعطي لإيطاليا هذا الوعد ، لأنه يخشى من أن تجر إيطاليا بروسيا الى الحرب ، في تاريخ لا يحسن اختياره ، ومع ذلك ، وبعد أن افزع بسمارك محدثه ، هدأه في آخر المحادثة ، وقال له : لقد تم التفاهم ، ليس بيننا أي تعهد ، ولكن بالرغم من ذلك ، إذا هاجمكم النمسا ، أمل أن يكون بإمكانني دفع الملك غليوم الأول إلى التقرير بأن تمنحكم بروسيا مساندتها : وقال : وسأعمل منها قضية حكومة ، أي سأقدم استقالتي والملك لا يتنازل . وأخيراً ، وفي الغد ، وبعد أن شاور بسمارك الملك ، صرح إلى غوفونه :

لقد اتفقت على أن النمسا إذا هاجمت إيطاليا ، فإن بروسيا تزحف مع إيطاليا .

وبالرغم من كل شيء ، لم يكن لامارمورا راضياً : فقد طلب أخذ تأكيد مكتوب ؛ ولكن بسمارك رفض وصرح بأن بروسيا ليست ملزمة إلا بنص المعاهدة الموقعة ، وأما في الباقي ، فتستطيع أن تقوم بتعهد معنوي ، دون أن تأخذ على نفسها تعهداً كتابياً . ولذا ظل الايطاليون يشكون بأقوال بسمارك .

ويضاف إلى ذلك وجود خلاف آخر ، في آخر أيار ١٨٦٦ ، بين الحكومة الإيطالية والحكومة البروسية : فقد كان بسمارك يرى ، في حال انفجار الحرب ، بأنه ينبغي محاولة إثارة الجحش في هونغاريا ضد النمسا : فإذا وجدت « في ظهر » الجيش النمساوي ثورة مجرية لضيقته للغاية . ولكن الحكومة الإيطالية لم تشأ ذلك لأنها ترى أن هذا المشروع لا يمكن تحقيقه . ولاحظ لامارمورا أنه إذا أراد الجحش أن يثوروا ، فباستطاعتهم أن يفعلوا ذلك ، ولا أحد يمنعهم ، لأنه في اليوم الذي يستنفر فيه الجيش النمساوي في بوهيميا وفي البندقية ، لا تكون جيوش في هونغاريا . وهذه أيضاً نقطة عدم اتفاق بين إيطاليا وبروسيا .

الصعوبات من جانب فرنسا . - ومن جهة أخرى ، وجدت صعوبات من جانب فرنسا . لقد أدى نابليون خدمة كبرى لإيطاليا ، في ٣٠ آذار ١٨٦٦ ، بأعطائها ضماناً ، في الشروط التي أتينا على ذكرها . ولكن الحكومة النمساوية حاولت ، في أول أيار وحزيران ١٨٦٦ ، أن تفصل فرنسا عن إيطاليا : فقد عرضت على الحكومة الفرنسية أن تتنازل لها عن البندقية ، ومن ثم يتنازل نابليون الثالث عنها إلى إيطاليا ، شريطة أن تتخلى إيطاليا عن الحلف البروسي . واعلم نابليون الثالث الحكومة

الايطالية بهذا العرض في ٤ أيار : وفي أثناء ذلك حدث اضطراب في فلورنسا ، وتساءل بعض السياسيين في الأوساط الرسمية ما إذا كان يحسن قبول هذا العرض ، لأن فيه أقل مخاطرة ممكنة . ولكن آخرون أبدوا بأن الحلف ابرم حديثاً مع بروسيا ولا يمكن العودة على الكلام المعطى . وأخيراً أجابت الحكومة الايطالية نابوليون الثالث بأنها تستطيع أن تتخلى عن الحلف البرومي .

عندئذ اقترح نابوليون الثالث على الايطاليين اسلوباً للعمل : قال لهم : ان معاهدتكم مع بروسيا غير مقبولة إلا ثلاثة أشهر ، تدبروا الأمر بشكل تطول فيه الأمور . وفي ختام الأشهر الثلاثة تستعيدون حريبتكم . ولكن الحكومة الايطالية لم تكن مستعدة لاكثر من ذلك . ومع ذلك صرحت بأن تبقى محايدة إذا اخذت البندقية مباشرة من أيدي النمسا ، لا من أيدي نابوليون الثالث . هل كانت القضية قضية أنانية وحب ذات ؟ لا . لأن الايطاليين كانوا يخشون من أن يضع نابوليون الثالث ، في آخر لحظة ، شروطاً ، وبطلب هذا التعهد أو ذاك في « القضية الرومانية » . ولم يعمل شيء بين فرنسا وايطاليا في هذا الموضوع .

والنتيجة ، هي أن حكومة نابوليون الثالث قبلت أن تعقد ، في ١٢ حزيران ١٨٦٦ ، أي قبل بداية الحرب ببضعة أيام اتفاقاً سرياً مع النمسا : وبوجب هذا الاتفاق ، تعهد فرنسا للنمسا بمحايدتها أثناء الحرب النمساوية - البروسية . وإذا انتصرت النمسا فيجب على أي حال التخلي عن البندقية إلى فرنسا لتعيدها إلى ايطاليا ، وبالمقابل يمكن للنمسا أن تتوسع في ألمانيا، بعد التفاهم مع الحكومة الفرنسية . وأخيراً تقول هذه المعاهدة نفسها يجب على النمسا ، حتى في حالة النصر ، ألا تغير

« الوضع الراهن ، في ايطاليا ، إلا بالاتفاق مع فرنسا ، أي الا تقوض
مملكة ايطاليا ، إلا إذا قبلت فرنسا .

المعنى الصحيح للمعاهدة . - إذا أخذنا ببعض الوثائق النمساوية ،
نجد أن نابوليون الثالث ، في ذلك الحين ، كان شديداً على الايطاليين :
ان سفير النمسا في باريس ، ريشارد مترینيخ ، بن مترینيخ الكبير ،
وقد نشرت له ذكريات هامة للغاية ، يقص ، في تقرير ٦ حزيران
١٨٦٦ ، حديثاً جرى له مع نابوليون الثالث : قال له الامبراطور :
« نعم ، لقد أخطأنا وتركنا الثورة تنتصر في ايطاليا ، أي تركنا الايطاليين
يصنعون الوحدة ، وأضاف نابوليون الثالث : « إذا هاجمت ايطاليا النمسا
لا أطلب أفضل من أن تضرب النمسا ايطاليا وعقب هذه الهزيمة لأعارض
التغييرات التي يمكن أن تقوض الوحدة الايطالية ، على شرط واحد ، وهو
أن تبقى اللومبارديا والبندقية ايطاليتين ، . وهذا يعني أن نابوليون
الثالث يقبل ، في ذلك الحين ، بحل من شأنه أن يضع على بساط البحث
من جديد الوحدة الايطالية المتحققة في آخر ١٨٦٠ ، ويمكن أن يعيد
ايطاليا إلى شكل اتحاد دول .

ومن الواضح ، أن الايطاليين لم يعلموا المعاهدة السرية المؤرخة في
١٢ حزيران ١٨٦٦ ، ولكن كانت لديهم بعض قرائن : فقد لفت انتباههم
حديث لسفير النمسا في برلين ، في اليوم الذي قطعت فيه العلاقات
الدبلوماسية ؛ فقد قال هذا السفير النمساوي إلى زميله الايطالي في برلين :
« لن نكون اعداءً دوماً ، وإذا ضربنا بروسيا ، كما نأمل ، فيمكنكم
أن تثقوا بأننا سنتفق معكم على التنازل عن البندقية ، . وهكذا نرى ،
في اليوم الذي بدأت فيه الحرب ، أن الدبلوماسي النمساوي يقول إلى
الدبلوماسي الايطالي : إذا غلبنا بروسيا ، وبالتالي غلبناكم ، باعتباركم

حلفاء بروسيا ، فسنترك لكم بالرغم من ذلك البندقية . لقد حذرت الحكومة الإيطالية ، وفكرت بأن شيئاً يوجد تحت هذا التصريح . ومن البديهي أن تعطي الحكومة النمساوية هذا الوعد لفرنسا ، ولكن ماذا وعدتها فرنسا بالمقابل ؟ وظلت إيطاليا قلقة .

ومنذ ذلك الحين وضعت القضية التالية : لماذا فضلت الحكومة الإيطالية أن تحارب وكان بإمكانها ، في ٤ أيار ١٨٦٦ ، الحصول على البندقية دون حرب بعد أن وعدت النمسا بالتخلي عنها إذا بقيت إيطاليا محايدة ؟

لدينا ثلاثة أسباب :

١ - إن الرأي الإيطالي كان مندفعاً للحرب ، وإن فيكتور إيمانويل يرى في الحرب محولاً للصعوبات الداخلية .

٢ - إن الحكومة الإيطالية تخشى من أنها إذا قبلت البندقية من يدي نابليون الثالث ، أن يطالب بتعويض ، وبتعهدات بالنسبة إلى « القضية الرومانية » .

٣ - إن إيطاليا كانت تأمل ، إذا حاربت ، ألا تحل قضية البندقية فحسب ، وإنما قضية الترانثان أيضاً . ولانتمنى أن بسمارك جعلها تأمل بذلك . إن الفرق الأساسي بين الحلين : الحل الودي والحرب هو أن إيطاليا : في حالة حرب يمكن أن تحصل على الترانثان ، بينما دوت حرب ، لا تحصل إلا على البندقية .

٣ - التراضي الجزئي للمخططة الإيطالية

في ١٤ حزيران ١٨٦٦ جرى في فرنكفورت تصويت الديباط الذي أعلنت فيه بعض الدول الألمانية أنها بجانب النمسا ، والأخرى بجانب

بروسيا ، وبالتالي ، تمت القطيعة بين النمسا وبروسيا . وفي ليل ١٥ - ١٦ حزيران ، بدأت الجيوش البروسية الحرب : وبوجب معاهدة ٨ نيسان ١٨٦٦ يجب على ايطاليا أن تدخل الحرب مباشرة . وقد فعلت ذلك .

العمليات العسكرية . - لقد جندت ايطاليا عدداً من الاحتياطيين ونوصلت إلى تجنيد ٢٢٠٠٠٠ رجل يضاف لهم ما يقارب ٤٠٠٠٠ متطوع غاريبالدي . وكانت الحكومة الايطالية تريد نصراً سريعاً . وبالرغم من نصائح نابليون الثالث الذي ماقىء يقول : « حاربوا ببطء ! دعوا بروسيا تقوم بالجهد العسكري ! » كانت الحكومة الايطالية تقول ، إذا أردنا أن نحصل على ما نأمل أي على البندقية والترانثان فيجب علينا أن نفتتحها . ولذا كانت مقررّة على تسيير العمليات بكل نشاط ممكن ، ووضعت خطة حربية تقسم جيوشها إلى جيشين : الجيش الاول ويجب أن يتجمع في جنوب بحيرة غارد ، أمام الحصون النمساوية في منطقة الشكل الرابعي أي في : فيرونه ، بشييرا ، مانتو ، لانيغو ، والجيش الثاني ، يجب أن يحتشد في شمال بولونيو ويحتاز البو في منطقة فراره . وهكذا يستطيع الجيشان أن ينضما إلى بعضها بعد فتح منطقة الشكل الرابعي .

لم يوافق البروسيون على هذه الخطة : فقد نصح بسمارك الحكومة الايطالية أن تقوم بالهجوم الأساسي في اتجاه الترانتان ، لأنه ، كما صرح ، إذا وصلت الجيوش الايطالية حتى شعب برينير ، فسيكون ذلك خطراً على الجيش النمساوي . ولكن لامارمورا ، الذي كان رئيساً لمجلس الوزراء ، والذي أصبح قائداً أعلى للجيش ، بعد أن قدم استقالته كرئيس لمجلس الوزراء ، قال لا يملك المرء إلا ما يقبض عليه . إذن ما هو الأهم ؟

البندقية أولاً ، فهو إذئ يريد فتح البندقية ، ولا يبالي بخط
بروسيا الاستراتيجية .

وانقسم الجيش الايطالي إلى قسمين منفصلين عن بعضها كثيراً ،
وتحرك في ٢٣ حزيران . ولم يكن لدى القيادة النمساوية إلا ٨٠٠٠٠
رجل في البندقية ، بينما كانت للايطاليين ٢٦٠٠٠٠ ، لذا أرادت
أن تفيد من انقسام الجيش الايطالي إلى قسمين : وقررت أن تهاجم
الجيش الأهم ، وهو الجيش الذي كان يقوده لامارمورا ، قبل أن يكون
للجيش الثاني ، الجيش الذي كان جنوب نهر البو ، متسع من الوقت يمكنه
من عبور النهر . ولقد نجحت هذه الخطة النمساوية بتمامها . ويجب أن نذكر
أن مرت بعض أمور فائقة للعادة : فمن ذلك أن القيادة الإيطالية جهلت
تماماً حركة الجيوش النمساوية ، بالرغم من وجود موظفيها القائمين على
عملهم ، وبالرغم من وجود شعب ايطالي ، في البندقية ، يمكن أن يعطيها
معلومات . فقد وجد ان موظفاً مدنياً كبيراً علم من ايطاليي البندقية
بحركة الجيش النمساوي ، فاكتفى أن يخبر القيادة العليا بذلك في
رسالة . وبالطبع استغرقت الرسالة يومين للوصول . وفي أثناء ذلك توصل
الجيش النمساوي إلى الدخول في العمليات .

وفي الواقع ، في ٢٤ حزيران ، أن الجيش الايطالي ، الذي كان
يزحف نحو منطقة الشكل الرباعي ، هوجم فجأة على جانبه الأيسر ،
من قبل الجيش النمساوي . وكان ذلك مفاجأة تامة :لقى الملك فيكتور
ايمانويل في المعركة كل ما كان عنده من احتياطين . ولكن جيوشه
كانت منهكة وبحاجة إلى نجدة . ووجدت فرقتان ، في فيلانركا ،
فاستجبد بها الجنرال غوفونه قائد الجيوش التي كانت تعاني صعوبة . ولكن

الجنرالين الذين يقودان هاتين الفرقتين لم يأخذا الأوامر من القائد الاعلى ، فلم يتحركا . ف ضرب غوفونه واضطر إلى القتال متراجعا . وهذه هي معركة كوستوزا .

وهذه الهزيمة الايطالية ترجع اساساً إلى أنه لم يكن يوجد خطة عمل : لم يكن عند قادة الفرق أوامر واضحة دقيقة . وكانت الجهود غير متلاحمة ، ولم يكن عند الجيوش المنحركة أمر بالتحرك في ساعة محددة . بل كان الأمر « بالزحف قبل الساعة الرابعة صباحاً » . ولم يكن للاركان العامة الايطالية ، حيث وجد الملك ، مقر ثابت . وعندما يحتاج اليه وترسل اليه الرسل ، لا يعلم أين هو . ويضاف إلى ذلك ان الملك ، وكان شخصياً شجاعاً ، ولا مارمورا ، الذي لم يكن أقل منه ، عوضاً عن أن يبقيا في الأركان العامة ، كانا يذهبان إلى ميدان القتال ، وهنا ، عوضاً عن أن يعطيا أوامر عامة ، كانا يعطيان أوامر تفصيلية متناقضة غالباً . وباختصار كسر الايطاليون بالرغم من تفوقهم العددي غير المنازع . وكان لدى القائد الايطالي انطباع بهزيمة تامة ، على حين أن هذه الهزيمة لم تكن غير قابلة للشفاء . وفي الواقع ، خسر النمساويون من القتلى والجرحى اكثر من الايطاليين ، وفي خلال خمسة عشر يوماً ، ظل الجيش الايطالي مجمداً تماماً ، بعد أن انسحب حتى نهر الاوليو .

وفي أثناء ذلك ، باغتت معركة سادوفا : فقد سحق الجيش البروسي الجيش النمساوي بكامله في بوهيميا ، وانزعم الجيش النمساوي مدحوراً نحو فينا ، واضطرت القيادة النمساوية أن تسحب جيوشها من البندقية ، على عجل لتنقلهم إلى فينا وتحاول الدفاع عن العاصمة ضد الجيش البروسي . وبقيت بعض الحاميات ، مع قطعة جيش نمساوي في الترانثان

وتم الجلاء عن البندقية دون قتال تماماً . وعندئذ استطاع الايطاليون أن يعاودوا العمليات بنشاط : ودخل الجيش الايطالي البندقية ، حتى انه أرسل ، هذه المرة ، جيوشاً لتدخل ايستريا والترانتان ، ولكن الجيوش النمساوية في الترانتان دافعت عن نفسها .

العمليات البحرية . - وفي الوقت نفسه ، في ١٦ تموز ، تلقى الاسطول الايطالي أمراً بهجمة الاسطول النمساوي . وكانت في ذلك نكبة له : فقد هزم الايطاليون شر هزيمة ، في ٢٠ منه في ليسا بسبب سوء حالة رجال الاسطول ، فقد كان ثلثاهم دون تدريب ؛ وبسبب سوء تسليح السفن ؛ وبخاصة ، بسبب سوء التفاهم بين الزعماء ، على حين ان الاسطول النمساوي الذي كان يقود الاميرال تيغيتوف ، كان موجهاً بصرامة . وخسر الاسطول الايطالي بعض وحداته وانسحب بالرغم من أنه ظل ، حتى بعد الحسائر التي تكبدها ، أكثر عدداً من اسطول الخصم .

الخيبة الدبلوماسية . - وبالرغم من هزيمة ليسا البحرية ، كان بإمكان الايطاليين أن يأملوا بظفر سهل على اليابسة ، لعدم وجود شيء أمامهم . ولكن الحبيات الدبلوماسية أضيفت إلى الحبيات العسكرية والبحرية التي أصيبوا بها .

في ٤ تموز ، غداة سادوفا ، قدم نابوليون الثالث للمتجارين وساطته ، فأجابت الحكومة الايطالية نابوليون الثالث بوضع شرطين على عرض الوساطة :

- ١ - أن تحصل إيطاليا على البندقية والترانتان ..
- ٢ - الا يطالب نابوليون الثالث إيطاليا بأي تعهد في موضوع « القضية الرومانية » .

فزاد ذلك في ضغط نابوليون الثالث ، حتى انه هدد الحكومة الإيطالية بحلف فرنسي - نمساوي إذا لم تتنازل . ولكن الحكومة الإيطالية قاومت جيداً .

وبالاجمال ، لم تشأ إيطاليا أن تتنازل لأنها كانت تأمل بفائدة أكبر : فقد كانت تفكر ، من يوم لآخر ، بفتح الترانتيان ، لاسيما وان جيوشها قد دخلتها من قبل .

وفجأة ، شعرت الحكومة الإيطالية بقلق من جهة بسمارك : فقد علمت ، في حوالي ٢٠ تموز ، ان بسمارك كان يتفاوض مع نابوليون الثالث . وقلقت كثيراً ، حتى انها أرسلت على عجل الجنرال غوفونه ليحاول استيضاح نوايا بسمارك . وفي ٢١ تموز ، علم غوفونه ان بسمارك ، دون مشاورة إيطاليا ، قبل بابرام هدنة خمسة أيام . وفي ٢٦ تموز وقع بسمارك ، دون أن يأخذ بعين الاعتبار المطالبات الإيطالية ، هدنة نيكولسبورغ ، وتخلي عن حليفته . وكانت الجيوش الإيطالية ، في ذلك الحين ، في الترانتيان ، وتحتل قسماً منها . فما العمل ؟ رأى لامارمورا وجرب توقيع الهدنة ، إذا وقعتا بروسيا ، ويجب التخلي عن الترانتيان ، لأن الجيش الإيطالي كان في حالة تحول دون متابعة الحرب وحده . ولكن الملك أراد الاستفتاء في القسم الذي كانت تحتله الجيوش الإيطالية . وبينما كان الملك ولامارمورا يتناقشان ، أرسلت القيادة النمساوية إلى الإيطاليين نوعاً من « انذار » . وبادر النمساويون ، على عجل بعد أن وقعت الهدنة مع بروسيا ، إلى ارسال الجيوش الى الجبهة الإيطالية . وصرحوا بأنه يتوجب على الجيش الإيطالي أن يحلو عن الترانتيان . كانت الحالة محزنة : وبعد خلاف عنيف بين الرجال السياسيين ، اضطرت الحكومة الإيطالية أن تدعن ، بعد أن املت بجواب مسلام من فرنسا

فرفضت ، ومن بروسيا التي صرحت بأن هذا لايهمها . وفي ١٢ اب ١٨٦٦ ، وقع الايطاليون هدنة كورمونز التي تمت بمعاهدة السلام في ٣ تشرين الأول ١٨٦٦ . وقد تنازات هذه المعاهدة لفرنسا عن البندقية على أن تسلمها فرنسا إلى ايطاليا ، ولكنها نصت على أن تبقى الترانثان اقليماً متساوياً .

وهكذا ظلت النمسا تملك ، على السفح الجنوبي لجبال الألب ، حصناً عظيماً تستطيع منه أن تقوم بالهجوم على ايطاليا . وكان هذا الوضع خطراً ، وارتاب به الايطاليون على الدوام ، ولكنهم فهموه في عام ١٩١٧ أكثر من أي وقت مضى ، أثناء هزيمتهم في كابوريتو ، لأن النمساويين إذا استطاعوا أن يفرضوا هذه الهزيمة على الايطاليين في ١٩١٧ ، فذلك بالضبط لأنهم يملكون حصن الترانثان حيث يستطيعون أن يقيموا فيه حشوداً من الجيوش .

وهكذا نرى أن الحكومة الايطالية لم تحصل على كل ما أرادت . ولا شك في أنها حصلت على الكثير ، لأن الايطاليين لم يستطيعوا أن يرسموا على « لوحهم » الا انهمازماً في البر والبحر : في كوستنوزا وليس ، وبالرغم من ذلك ، كسبوا البندقية . ولكن يجب أن نفكر في حالة الرأي الايطالي : فبالرغم من الرضى ، الذي يجب أن يشعر به بشكل مشروع ، بسبب كسب البندقية ، كان خائباً بسبب الانكسارات العسكرية والبحرية ، وخائباً لأنه لم يستطع الحصول على الترانثان .

لقد أرادت الحكومة الايطالية الحرب ، وكانت بإمكانها أن تحصل على البندقية دون حرب ، وما ذلك الا لأنها كانت تأمل أن تحصل بالحرب على البندقية وعلى الترانثان ، وكان هذا الأمل غائباً .

الفصل التاسع

الحركة القومية الايطالية

القضية الرومانية

كانت قضية روما عقبة كأداء في سبيل الوحدة الايطالية وكانت قضية أساسية : ففي آخر ١٨٦٠ فقد البابا تقريباً جميع أراضي دولته ، ولكنه احتفظ بمدينة روما وبرقعة صغيرة حولها . وكانت من الصعب تصور وجود إيطاليا المتحدة دون أن تكون روما عاصمة لها . وقالت الحكومة الايطالية منذ ١٨٦٠ : « ان روما أعظم وأجدر عنصر في تاريخها وفي حياتها السياسية والمعنوية » .

ولا شك في أن الرأي العام الايطالي بجموعه كان يرغب في أن تكون روما عاصمة المملكة الايطالية : ولم تكن الاوساط الكاثوليكية أكثر تشدداً من غيرها في هذه الرغبة . وكان يتوسل إلى الحكومة الايطالية أن تعمل ، لاسيما وان أحزاب اليسار ، وبخاصة المائزينيين ، كانوا يقومون بحملة شديدة في هذا الاتجاه . وإذا لم ترض الحكومة الرأي العام فقد استطاعت أن تشجع دعاية المائزينيين ، رغم أنها كانت تخشاهم .

ومن جهة أخرى ، ان وجود الدولة الحبرية ، وان كانت صغيرة جداً ، كان يضائق سياسة الحكومة الايطالية ، لأن البابا ، وان ظل سيداً زمنياً ، كان باستطاعته ، في هذا الظرف أو ذاك ، أن يجهد نقاط استناد لدى دولة أجنبية .

هذه هي الأسباب التي من أجلها منطقياً كانت الدولة الإيطالية ترجو زوال سلطة البابا الزمنية . ولكن القضية كانت صعبة الحل ، لأن البابا ظل متعنّثاً ، ولم يشأ أن يقبل حلاً توفيقياً للمصالحة . وكان للقضية أيضاً مظهر سياسة خارجية ، ولم تكن قضية تحتاج إلى نسوية بين الإيطاليين ، لأنه يوجد في روما حامية فرنسية منذ ١٨٤٩ . ولم تجرأ الحكومة الإيطالية على استعمال القوة ضد الدولة الحبرية ، وكانت تخشى أن تخاطر فتصطدم بالحامية الفرنسية ، وبالتالي ، بنابوليون الثالث . والحكومة الفرنسية ، من جانبها ، وإن كانت تناصر حل المصالحة ، لأن القضية الرومانية أوقعها في ورطة ، لم تجرأ أن تفرض على البابا هذا الحل ؛ ولم تجرأ ، لأسباب سياسة داخلية فرنسية ، لأن نابوليون الثالث كان بحاجة لأصوات الكاثوليك في الانتخابات .

وفي حل القضية الرومانية يجب تمييز مرحلتين :

دامت المرحلة الأولى من ١٨٥١ إلى ١٨٧١ ، ولم تشأ الحكومة الإيطالية فيها استعمال القوة .

وقد حاول هذا الحل غاريبالدي مرتين خارجاً عنها ، واخفق في كل منهما :

وفي المرحلة الثانية ، في ١٨٧٠ ، استطاعت الحكومة الإيطالية ، بفضل الحرب الفرنسية - الألمانية ، أن تحل بنفسها القضية الرومانية .

١ - المرحلة الأولى : حل غاريبالدي

حاول غاريبالدي ، في هذه المرحلة ، أن يحل « القضية الرومانية » خارجاً عن الحكومة الإيطالية .

دوافع غاريبالدي - . إذا تصفحنا مراسلات غاريبالدي وبياناته نجد أفكارها بدائية ، جداً ، لأنه كان ، على الصعيد الفكري ، رجلاً بسيطاً . فهو يرى أن تنهي إيطاليا وحدتها ، والا تتوقف لاعتبارات دبلوماسية أو انتهازية ، وأن « تأخذ روما » . وعدا ذلك ، كان معادياً لنابوليون الثالث لأسباب كثيرة : أولاً ، لأنه يحفظ ذكرى حملة روما عام ١٨٤٩ ، وكانت في تلك الفترة مائزينا ، وبالتالي ، متحزباً للجمهورية الرومانية التي قوضها التدخل الفرنسي ، وكان في الأصل جمهورياً وشجب انقلاب نابوليون الثالث في فرنسا ، انقلاب ٢ كانون الأول ١٨٥١ . وأخيراً ، كان غاريبالدي نيسياً ، أي من مدينة نيس ، ولا يغفر لنابوليون الثالث عمله في ضم هذه المدينة إلى فرنسا .

ولكن كان هناك دافع آخر لعمل غاريبالدي : وهو أن غاريبالدي ما فتىء ، في مراسلاته ، وفي بياناته ، وبخاصة ابتداءً من ١٨٦٠ ، يكشف عن ما يسميه « ظلم الكهان » ولذا يجب القيام على هذا الظلم ، والكشف عن « تأثير الاكبروس السيء » المعادي ، كما يقول ، للوحدة المعنوية الأمة الإيطالية . ولم يكن خصماً للسلطة الزمنية ، أو مناوئاً للكاتوليكية فحسب ، بل توصل إلى التبشير بنفسه والتبشير بأسلوب غامض ورمزي : فقد بشر بانجيل جديد نسخه تقريباً عن جان - جاك روسو ، في التبشير على مذهب إيمان النائب الرسولي السافوي وكان المعجبون يقولون عنه : « أنه يتكلم كإله » واخترع « تعميداً » علمانياً للأطفال ، وأنشأ عوضاً عن « صدقة القديس بطرس » ، « صدقة الحرية » . وكان يجمع الصدقات ليشتري بها أسلحة تساعد فيما بعد على القيام بحملة عسكرية على روما .

ولكن يجب ألا يذهب عن البال أنه كان لغاريبالدي شعبية شخصية

واسعة ، وهذه الشعبية لا ترجع إلى أفكاره بل إلى سلوكه وأسلوبه ، وإلى ندائه المباشر الذي يوجهه للشعب ، وأيضاً إلى شجاعته البعيدة عن المنفعة . ولذا يمكن أن نتساءل ، حتى أن نابوليون الثالث نفسه سأل نفسه هذا السؤال عام ١٨٦١ ، ما إذا كان غاريبالدي أقوى من الحكومة الإيطالية ، وما إذا كان بإمكانه أن يتوصل إلى أخذ روما بالرغم من الحكومة الإيطالية .

لقد قام غاريبالدي بمحاولتين : أحدهما في ١٨٦٢ ، وانتهت باخفاق اسبرومونته ؛ والأخرى في ١٨٦٧ وانتهت بكفاح مائتانا . وبعد هذا يجدر بنا أن نرى الظروف التي قام فيها بمحاولتيه والنتائج التي حصل عليها .

محاولة غاريبالدي الأولى (١٨٦٢) . - في آخر ١٨٦٠ حاول كافور أن يتفاوض مع البابا : فقد أرسل إلى روما عامله بافتاليوني . واقترح كافور مبدأ وهو : أن يتخلى البابا عن كل الأراضي التي ما زال يتسككها على أن يحتفظ بحقوق السيادة في ممارسة سلطته الروحية . واعترف كافور للبابا بحق ارسال السقراء واستقبالهم ، واقترح إبرام كونكوردات ، بين الحكومة الإيطالية والحرر الأعظم ، يمكن أن تؤمن للكنيسة حريات واسعة من وجهة نظر التعليم والتبشير وتسمية الأساقفة .

قدم هذا المشروع للبابا ، ودرس ، وجرت مفاوضات سرية ، في كانون الثاني ١٨٦٠ . ولكن في ١٤ شباط ، صرح أمين سر الكرسي الأقدس الكاردينال افتونيللي بأنه يرفض التسوية ، وفي ١٧ شباط ، صدرت مذكرة رسمية في « جريدة روما » تصرح بأنه لا يوجد ولم يوجد مطلقاً مفاوضة بين الكرسي الأقدس والحكومة الإيطالية .

وأمام رفض البابا ، انجهدت الحكومة الإيطالية بالحال نحو الحكومة الفرنسية . وكان نابوليون الثالث ، في الحقيقة ، يرغب بسحب الحماية

الفرنسية من روما ، ولكنه ، من جهة أخرى ، لم يجزأ على أن يتروك سلطة البابا الزمنية في دمار ، لأنه كان بحاجة إلى أصوات الكاثوليك ، في الانتخابات ، في فرنسا . وفي هذا ما يوضح لنا الأجوبة التي أعطتها الحكومة الفرنسية : فعن السؤال الأول ، الذي سأله كافور ، في ٢٤ كانون الأول ١٨٦٠ ، أجاب نابوليون الثالث بأن مشروع الحكومة الإيطالية لا يأخذ ، بعين الاعتبار ، حقوق الكرسي الأقدس ، ولذا ينبغي أن يحتفظ البابا بدولته « مهما كانت صغيرة » . وفي الحقيقة ، ان نابوليون الثالث ربما كان يرى طوعاً أن يحتفظ البابا بارض ضيقة في الفاتيكان شريطة الإبقاء على مبدأ السيادة الزمنية ، ثم تغيرت وجهة نظر نابوليون الثالث ، ورغب بأن يسحب الحماية الفرنسية من روما ، ولكنه لا يستطيع أن يقاوم متراجعا أمام الإيطاليين . ولذا اقترح هذا الحل : وهو أن تجلو الحماية الفرنسية شريطة : أن تعد الحكومة الإيطالية بالألا تهاجم روما والا تترك « المتطوعين الإيطاليين » ، مثل غاريبالدي ، يهاجمون المدينة .

وربما قبل كافور بهذا الحل ، لأنه يرى أن الأسامي كان في اطلاق الحماية الفرنسية من روما: فإذا ما ذهبت أصبحت الحكومة الحبرية عاجزة عن منع الحوادث ، وبسرعة قليلة أو كثيرة تزول السلطة الزمنية . ولكن كافور مات قبل أن ينتهي الى شيء في هذه المفاوضة . وفي فترة الاضطراب التي تلت وفاة رجل الدولة الإيطالي ، اسقط الامبراطور المفاوضات . ويبدو ، في ذلك الحين ، انه استثمر مرض بيوس التاسع : وكان نابوليون الثالث يعتمد على وفاة البابا ، وفكر بأن البابا القادم سيكون أقل عنثاً ، ورأى من صالحة أن ينتظر ، ولكن بيوس التاسع لم يمت . ولما لم تؤد هذه المفاوضة إلى شيء ، فكر غاريبالدي باستعمال القوة

حل القضية الرومانية : ففي ربيع ١٨٦٢ قام بحملة خطب في مختلف أجزاء إيطاليا ، وبخاصة في تورينو وميلانو ، ورأى في جولته الحماسة في كل مكان . ففكر عندئذ أن يعاود ، حاجاً ، مراحل حملته الشهيرة في ١٨٦٠ ، « حملة الألوف » . وعندما وصل إلى جنوب نابولي ، أعلن عن عزمه على دخول الدولة الحربية ، وألقى بكلمة الأمر : « روما أو الموت ! » ، ومع هذا لم يزحف إلى روما حالاً . عاد إلى صقلية حيث نظم جيشاً من المتطوعين . ولكن الحكومة الإيطالية اعلمت بأنها تعاكس كل هجوم يقوم به الغاريبالديون على روما . ومن الممكن جداً أن غاريبالدي لم يأخذ هذا التهديد مأخذ الجسد لأنه تذكر ماضى عام ١٨٦٠ عندما غادر جنوة مع « حملة الألوف » ، وقالت الحكومة الساردية ، في حينه ، ان غاريبالدي يخالف القانون وانها ستحاول ايقاف الحملة . ولكن كافور ، في الحقيقة ، كما رأينا ، ترك سفن غاريبالدي تمر دون أن يعترضها . ولذا كان غاريبالدي أميل ولاشك إلى التفكير بأن نفس الأمر سيكون في هذه المرة أيضاً . وفي ٢٤ آب ١٨٦٢ قال في خطاب له في صقلية : « انني انخي أمام الملك ، ولكنني عدو وزارة ليس فيها من الإيطالية إلا الاسم ، وتبحث بخاصة على تأمين رضى الامبراطور نابوليون الثالث . لقد عازمت أما على دخول روما غالباً واما على السقوط تحت أسوار روما » .

وبالرغم من أوامر الحكومة الإيطالية ، غادر غاريبالدي صقلية ، وعبر مضيق مسينا ، في آخر آب ١٨٦٢ . وكان معه ٣٠٠٠ متطوع . ودخل كالابرو. وهنا توقف بضعة أيام بالقرب من نقطة نزوله في أسبروموته . وفي ٢٩ آب خرجت جيوش الحكومة الإيطالية فجأة وأحاطت بالجرفه الغاريبالدية . وجرى بين الطرفين اطلاق النار خلال فترة قصيرة .

وجرح غاريبالدي في ساقه . واستسلمت الجوقة حالاً . وأسر غاريبالدي ثم نقل إلى جنوة محاطاً بالاعتبار ، وبعد شهرين عفي عنه وعاد إلى جزيرته الصخرية الصغيرة كابريرا بالقرب من شاطئ ساردينيا . وبعد ذلك ، قام برحلة إلى انكلترا ، وأثارت هذه الرحلة حماساً فائقاً : يزعم أن ٥٠٠٠٠٠ شخص كانوا ينتهيه عند وصوله إلى لندن . ولا شك في أن غاريبالدي ، في ذلك الحين ، كان بحق حامل لواء المطالب الإيطالية .

وصفة القول ، لم تؤد هذه المحاولة الأولى إلى شيء .

محاولة غاريبالدي الثانية (١٨٦٧) . - تغيرت الحالة منذ ١٨٦٢ ، على أثر المفاوضات التي تمت بين الحكومة الفرنسية والحكومة الإيطالية على أسس اقتراحات كافور القديمة . فقد استأنف رئيس مجلس الوزراء الإيطالي ، منغتي ، في بداية ١٨٦٤ ، سياسة كافور ، وفي المفاوضات التي أجراها مع وزير الدولة الفرنسي روهو ، استطاع أن يعرف أن نابليون الثالث يرغب درماً بكل تسوية . وتمت هذه المفاوضة على أساس مشروع كافور ١٨٦١ . ومن غير المفيد أن ندخل في التفاصيل ، لأنها لا تهمنا . حسبنا أن نقول ان منغتي ، بعد صعوبات طويلة ، انتهى مع فرنسا إلى إبرام اتفاق ١٥ ايلول ١٨٦٤ الذي يسمى عادة بكل بساطة « اتفاق ايلول » .

اتفاق ايلول . - ينص هذا الاتفاق على أن « تعد إيطاليا بالأنا تهاجم أراضي الكرسي الأقدس ، وأن تمنع كل هجوم آت من الخارج » أي آت من نقطة أخرى في إيطاليا أو من أرض واقعة خارج إيطاليا . ومن جهة أخرى ، تم التناهم على أن تسحب فرنسا جيوشها من روما بالقدر الذي ينظم فيه البابا جيشه ، وفي أبعد حد في سنتين . وهكذا

ترك البابا مهلة سنتين لتنظيم جيش يساعد على الدفاع عن نفسه بنفسه .
البروتوكول السري . - ويضم إلى اتفاق ايلول بروتوكول سري :
فقد اتفق على ألا ينفذ الاتفاق إلا « عندما يقرر صاحب الجلالة ملك إيطاليا نقل عاصمته ، التي كانت حتى ذلك التاريخ تورينو ، إلى مدينة إيطالية أخرى » ، ومن المفهوم أن هذه المدينة لن تكون غير روما ، وأن يتم نقل العاصمة في الستة أشهر القادمة . وفي الواقع ، اختارت الحكومة الإيطالية فلورنسا . ولعلنا ندرك الأهمية المعنوية لهذا العمل . فإذا غيرت العاصمة وتم الاستقرار في غير روما فهذا يعني التخلي عن روما .

ما هو المعنى الدقيق لهذا الاتفاق ؟ لقد اختلف التفسير الإيطالي عن التفسير الفرنسي : إن التقرير ، الذي رفعه منغيتي إلى ملك إيطاليا ، بعد توقيع الاتفاق ، يقول ، بالاجمال ، ان إيطاليا لا تتخلى عن تطلعاتها القومية ، وانها وعدت نابليون الثالث بالأحقاق هذه التطلعات ، فيما يتعلق بروما ، إلا « بالقوى المعنوية » ، وأضاف منغيتي ان هذه القوى المعنوية يمكن أن تعمل عندما لا يكون البابا محمياً بجيش أجنبي . ومن هنا نفهم إلى أي شيء ينزع تقرير منغيتي . فهو يصرح : لنعتمد على ثورة في روما ، وعندئذ لا يلعب اتفاق ايلول دوره ، لأن الحكومة الإيطالية تعهدت بحماية روما فقط ضد « هجوم آت من الخارج » . وإذا قلبت الحكومة الحبرية بثورة ، مصدرها في دولة الكرسي الأقدس نفسه ، فإن نابليون الثالث لا يستطيع أن يعمل شيئاً .

وللاحظ أن هذا المنظور للثورة في روما لم يكن مطلقاً فكرة « في الهواء » : لأن البابا نفسه كان يتوقع الثورة في اليوم الذي تغادر فيه الجيوش الفرنسية . وقد قال ذلك ، في ١١ تموز ١٨٦٥ ، إلى العامل الدبلوماسي الفرنسي في روما : « إن الثورة لا تلبث ان تنفجر بعد

ذهابكم ، ولذا ينبغي أن تعودوا » . والحق يقال ، لا شيء ، في اتفاق
ايلول ، يجبر الجيوش الفرنسية على العودة إذا انهارت السلطة الزمنية
اثر ثورة في دولة الكرسي الأقدس . وعلى العكس ، إذا كان القصد
هجوماً آتياً من الخارج ، فان اتفاق ايلول ينكسر ، ويكون لنابوليون
الثالث كامل الحق في أن يقول : « انني أعيد حاميتي إلى روما » .

التفسير الفرنسي . - بعد توقيع اتفاق ايلول ، احتجت الحكومة
الفرنسية على التفسير الايطالي ، وصرحت بأن ايطاليا لا تستطيع أن
تتملك روما اثر ثورة ، حتى ولو كانت عفوية . وهكذا كانت الدولتان
الموقعتان على اتفاق ايلول في خلاف على المعنى الذي يجب اعطاؤه
إلى هذا الاتفاق .

وكان غاريبالدي ، دون شك ، معارضاً بشدة لاتفاق ايلول . فقد
صرح منذ توقيع الاتفاق « بأنه يستمزي تماماً بالمعاهدات مع بونابرت » .
وفي تشرين الثاني ١٨٦٤ ، كتب ، في رسالة وجهها إلى انكليزي : « اتفاق
واحد الابرام مع بونابرت : ليظهر البلاد من حضوره ، لا في سنتين ،
بل في ساعتين » . وفي آب ١٨٦٥ كتب غاريبالدي إلى نائب ايطالي :
« لا وجود لاباطاليا مادام البابا في روما : وهل يمكن أن يعيش حيوان
بغير قلب ؟ » وأضاف : ان اتفاق ايلول « فضيحة » و « خيانة » .

وبالرغم من هذه العبارات الحماسية ، فقد توث غاريبالدي في العمل ،
لأنه وجد ، في ١٨٦٦ ، عملاً آخر لنشاطه . ففي هذه السنة وضعت قضية
البندقية ، وقد رأينا ، خلال حرب ١٨٦٦ ، أن غاريبالدي أسهم في
العمليات على رأس جوقة من المتطوعين . ومن جهة أخرى ، لا يستطيع
بالبداهة أن يعمل شيئاً إلا عندما ينفذ اتفاق ايلول : ان هذا الاتفاق الموقع
في ١٥ ايلول ١٨٦٤ ينص على ذهاب الجيوش الفرنسية عند ابعد حد في

مهمة عامين . وهذا ما حدث : فقد أجلت الجيوش الفرنسية عن روما في الحلد الأخير ، في ايلول ١٨٦٦ ، ففي هذا الحين يستطيع غاريبالدي أن يفكر من جديد بالعمل .

وإذا حاول غاريبالدي أن يأخذ روما فعلى أي دعم ، وماهي العقبات التي يجب أن يحسب حسابها؟ . أما الدعم فيمكن أن يجده في قسم من الرأي العام : لأن اتفاق ايلول لم يكن شعبياً في ايطاليا . فقد احتج الماتريزيون بخاصة بعنف على هذا الاتفاق . ووجد في اليسار الماتريزي ، لا الماتريزي ، حركة رأي ترغب بانهاء الوحدة ، وبالتالي ، تسوية القضية الرومانية دون الانتظار أكثر من ذلك . وكانت حركة الرأي هذه تضايق الحكومة الايطالية بلا منازع . وفي كانون الأول ١٨٦٦ ، ألقى ماتريزي ببناء ، إلى سكان روما ، قال فيه : « يجب أن تعملوا » . وحاول أن يحرضهم على حركة ثورة ضد البابا .

لقد كان مع غاريبالدي قسم من الرأي العام . ولكن العنصر غير الملائم كان بالبداهة الحكومة الفرنسية : فقد أعلم نابوليون الثالث بأنه لايقبل التفسير الايطالي ، وبالتالي ، لن يترك السلطة الزمنية تنهار ، حتى ولو اثر ثورة في دولة الكرسي الأقدس . وبين ١٨٦٤ و ١٨٦٦ نالت التأثيرات على الامبراطور وأيدته في وجهة النظر هذه : كان للامبراطورة أوجيني دور أهم من السابق . فقد كانت تمثل النزعة الكاثوليكية ، وكانت هذه نزعة وزير الدولة روفر . واتخذ نابوليون الثالث بالتدريج موقفاً متصبلاً في القضية الرومانية : فقد بين بوضوح ، وقد قال ذلك إلى ملك ايطاليا ، في تشرين الثاني ١٨٦٦ ، أي في الوقت الذي أجلت فيه الجيوش الفرنسية عن روما ، بأنه لايتردد في أن يقوم « بمهمة جديدة » على روما إذا طرد البابا بحركة ثورية ، حتى ولو لم يكن الهجوم آتياً من الخارج ،

ويرى بأن « شرفه يلزمه » أن يدافع عن السلطة الزمنية . لماذا شرفه ؟ يجب ألا ننسى أن فرنسا ، في ذلك الحين ، كانت تشعر بمرارة في المكسيك ، وقد تخلى نابليون الثالث ، في هذه القضية المكسيكية عن الامبراطور ماكسميليان الذي وضعه نفسه على عرش المكسيك . ولذا إذا تخلى في هذه المرة عن البابا ، بعد أن تخلى عن ماكسميليان ، فإنه يعطي انطباعاً بأنه غير قادر عن الدفاع عن سياسته الخاصة . وكان بحاجة ، بغية الانتخابات العامة القادمة ، إلى أن يجيب على لومه بالضعف الذي كان يوجه إليه . ولهذا أعد ، لكل طارئ ، جيش حملة في تولون .

وحارت الحكومة الإيطالية بفضاعة بين الماتزينيين واليسار الماتزيني من جهة ، وإرادة نابليون الثالث ، من جهة أخرى . وكان رئيس مجلس الوزراء ، منذ ١٨٦٦ ، راتازي وكان رجلاً « يسارياً » ، وبالتالي يميل شخصياً إلى الرغبة بحل سريع للقضية الرومانية ويرجو ذلك لاسيما وأن ثورة قامت في صقلية ، في آخر ١٨٦٦ ، بتحريض من العناصر الكليركية ، خصوم الحكومة الإيطالية وكانت هذه العناصر الكليركية مدعومة بوجود دولة الكرسي الأقدس . ومن جهة أخرى ، فكر راتازي بالا بصطدم جبهة بالحكومة الفرنسية . ثم رأى أن هجوماً من غاريبالدي على روما يمكن أن يكون له محذور خطير : فإذا حاول غاريبالدي أن يوطد في روما « جمهورية رومانية » باقفاق مع الماتزينيين فإن الحالة تصبح خطيرة بشكل فريد على سلالة آل سافوا .

هكذا كانت ظروف آخر العام ١٨٦٦ . ورأى غاريبالدي ، في بداية ١٨٦٧ ، بأن الوقت حان لاستئناف العمل الذي خاب فيه للمرة الاولى . وهياً خفية حملة ثانية ، بالرغم من أن أصدقائه لم يكونوا متحمسين جداً . وعلمت الحكومة الإيطالية بذلك وأوقفت غاريبالدي وهو عند أحد

اصدقائه ثم أبحرت به بالقوة إلى جزيرة كابريرا ، إلى ملكه الشخصي ، ووضع تحت المراقبة . وفي هذه المرة كانت المراقبة حقيقية : فقد أرسلت الحكومة الإيطالية تسعة سفن حربية للتحرك أمام كابريرا .

ولكن صهر غاريبالدي استطاع أن يشتري من ليفورنة زورق صيد ويقطع ليلاً بغاريبالدي ويذهب به إلى ساردينيا . واستطاع غاريبالدي من هناك أن يذهب إلى فلورنسا . وعندئذ استعمل راتازي الأسلوب الذي استعمله كافور عام ١٨٦٠ ، فقد أعلن علاناً بأنه أعطى الأمر بتوقيف غاريبالدي ، وأوصى الشرطة سرّاً بالالتصام . وهكذا استطاع غاريبالدي أن يلحق بانصاره وأن يشكل فرقة من ٧٠٠٠ رجل ، على الحدود الشمالية من دولة الكرسي الأقدس الصغيرة . وكان يأمل بثورة في روما ، وعندما تقوم هذه الثورة يدخل المدينة لنجدة أصدقائه . ولما لم تحدث الثورة في روما قرر غاريبالدي ، في ٢٥ تشرين الأول ١٨٦٧ ، أن يعبر حدود الدولة الحبرية : احتل قرية صغيرة التقى فيها ببضعة سويسريين في خدمة الكرسي الأقدس لم يدافعوا عن أنفسهم .

وعندما انتهكت حرمة حدود دولة الكرسي الأقدس أعلن نابوليون الثالث التدخل العسكري ، ولما كانت الجيوش الفرنسية في تولون مستعدة للاقلاع فقد استطاعت الوصول في زمن قصير : وفي ٢٩ تشرين الأول نزل جيش الحملة الفرنسية بقيادة الجنرال فايي ، وعدده ٢٢٠٠٠ رجل ، في سيفيتا - فيكشيا . وأدرك غاريبالدي أنه لا يستطيع النضال ، فلم يحاول أخذ روما ، وسعى أن ينسحب نحو الشرق ودخل منطقة الآبروز وفكر بان الجيش الفرنسي لا يتدخل . ولكن الغاريبالديين في ذلك الحين لم يكونوا ٧٠٠٠ رجل ، بل ٤٥٠٠ ، لأن بعض المتطوعين لدى سماعهم نجحوا وصول جيش الحملة الفرنسي عادوا إلى بيوتهم . والتقى الغاريبالديون

الزاحفون إلى الشرق بجيش يتألف من ٦٥٠٠ رجل من جيوش حبرية وطليلة فرنسية ، وقامت بين هذا الجيش والغاريبالدين موقعة في مانتانا ، على بعد خمس وعشرين كيلو متراً شمال شرقي روما .

ولم تكن هذه الواقعة معركة كبرى لأن غاريبالدي لا يملك إلا مدفعين . ومع ذلك فقد أبدى الغاريبالديون مقاومة شديدة . ولكن النجيدات الفرنسية وضت في منتصف بعد الظهر وغلب غاريبالدي على أمره ، وخرج عن طوره ، وأراد أن يجمع جنوده ليلقي بهم في هجوم بالحرب ولكن لم يتبعه أحد . وعندئذ أراد غاريبالدي أن يلقي بنفسه وحيداً إلى الأمام ليموت ، ولكن صهره كان إلى جانبه فوقفه قائلاً له ببساطة : « تذكر بأنه لأشياء أدعى إلى السخيرة أكثر من زعيم لا تتبعه جنوده » .

وسببت واقعة مانتانا بعض الحسائر : فقد وجد ١٥٠ قتيلًا و ٢٠٠ جريح بين الغاريبالدين ، وأمر منهم ألف رجل . وبينما كان غاريبالدي يقاتل متراجعاً بعد مانتانا أوقف بناء على أمر الحكومة الإيطالية واحتجز ثلاثة أسابيع ثم أطلق سراحه ، بعد أن وعد بان يرجع إلى جزيرته كبريرا والا يتحرك في هذه الآونة ، وظل فيها عامين ولم يخرج منها .

وهنا نتساءل ما إذا كانت جيش الحملة الفرنسي الذي عاد إلى روما سيغادرها أو لا . وبعد كل شيء لم تكن للحكومة الإيطالية يد في حملة غاريبالدي ، وفي حال تنفيذ اتفاق ابلول يجب على الجيوش الفرنسية أن تغادر روما ، ولكنها لم تغادرها . وعندما استجوب وزير الدولة الفرنسي ، رومر ، في الهيئة التشريعية ، أجاب : « لن تستولي إيطاليا أبداً على روما » لأن هذا يعني انتهاك حرمة شرف فرنسا وعواطف كاثوليكيي العالم اجمع ، . ولم يكن نابليون الثالث مقتنعاً بذلك كثيراً . وبعد هذه الجلسة قال إلى وزيره : في السياسة ، يجب ألا

يقال « أبدأ » ، ولكنه لم يجيبه . وباختصار ، ان اتفاق ايلول الغي في الواقع ، وعادت الحال إلى ما كانت عليه عام ١٨٦٠ وأفلست جميع المحاولات لحل هذه القضية الرومانية .

٢ — المرحلة الثانية : حل الحكومة الإيطالية

في ١٨٧٠ ، أفادت الحكومة الإيطالية من الازمة الفرنسية - الألمانية لحل « القضية الرومانية » بالقوة .

قامت في البدء بمحاولة لحل « القضية الرومانية » بالطريق الدبلوماسية فأخفق هذا الحل ، وعندئذ ، توصلت الحكومة الإيطالية إلى حل القوة وهو فتح روما في ايلول ١٨٧٠ .

محاولة الحل الدبلوماسي . - منذ أن وضعت قضية التهديد بحرب بين فرنسا وبروسيا عادت القضية الرومانية إلى حاضرها على الصعيد الدبلوماسي . وابتداءً من ١٨٦٧ ، حاول نابليون الثالث ، في سياسته العامة ، أن يحصل على حلف النمسا - هونغاريا . وفي هذه المحاولة استطاع الامبراطور أن يقتنع بأن النمسا - هونغاريا ترغب كثيراً في الحصول ، في هذه الحالة ، على اشتراك إيطاليا في هذا الحلف . ولم تشأ النمسا - هونغاريا أن تلتزم بشيء مع فرنسا إذا كانت تخاطر بهجوم الجيوش الإيطالية عليها « في الظهر » في يوم أو آخر . وهكذا ارتسم ، في ١٨٦٩ ، مشروع حلف بين النمسا - هونغاريا وإيطاليا وفرنسا . وهذه المشاريع لا تهمنا هنا إلا بالقدر الذي تؤثر فيه على القضية الرومانية ، وعندما أعد مشروع حلف « الثلاثة » ، في أيار - حزيران ١٨٦٩ ، وضعت الحكومة الإيطالية فيه شرطاً : فقد طلبت أن يعود نابليون الثالث إلى اتفاق ايلول ، أي أن يسحب جيوشه من روما ، وكان

بديهيًا أن الجيوش الفرنسية ، إذا ذهبت في هذه المرة ، لن يكون لها الحق في دخول روما مرة ثانية .

وإذا قبل نابليون الثالث هذا الشرط ، فهذا يعادل ولا شك قبول دخول الإيطاليين روما بسرعة قليلة أو كثيرة ، وربما كان من الممكن الإبطاء بالحل خلال بضع سنين ، ولكن لا مجال للأوهام في النتيجة . وفي الوقت الذي جرت فيه الانتخابات (١٨٦٩) لم يشأ الامبراطور أن يتبنى حلًا يمكن أن يؤدي إلى قطيعة بين الكاثوليك الفرنسيين وبينه . ولهذا السبب لم تؤد المفاوضات بالتحالف إلى شيء . وكل ما فعله ملك إيطاليا وامبراطور الفرنسيين هو تبادل رسائل شخصية تواعدا فيها بتبادل الدعم في حال حرب ، ولكن دون اعطاء أي إيضاح . فمن ذلك أن رسالة فيكتور ايمانويل الثالث المؤرخة في ايلول ١٨٦٩ تقول : « لا يمكنني إلا أن أشارك بفكرة الحلف الثلاثي بين فرنسا والنمسا وإيطاليا ، الذي يمكن أن يشكل عقبة قوية ضد المزايع غير العادلة ويسهم ، على هذا النحو ، في استقرار السلام القائم على أسس أقوى وأصلب . انني أرغب بأن تبرم بسرعة المعاهدة التي ستكرس الحلف ، ولكنني لا أستطيع ذلك إلا عندما ينفذ من جديد اتفاق ١٥ ايلول ١٨٦٤ ، المتعلق بدولة الكرسي الأقدس ، من كلا الجانبين ، تنفيذًا تاماً وكاملاً . واني لأتمنى تلك اللحظة التي يمكن فيها أن تكون اتفاقاتنا قطعية » . وكانت القضية الرومانية تثقل سياسة نابليون الثالث العامة ، لأنه لا يستطيع الوصول إلى إبرام اتفاق مع إيطاليا ما لم تحرر هذه القضية .

وظلت الأمور على حالها حتى القطيعة بين فرنسا وبروسيا . ففي ذلك الحين ، عندما قامت حرب ١٨٧٠ ، أدرك نابليون الثالث بأنه سيضطر إلى جمع قواه كلها ، وأنه لا يستطيع أن يترك في روما جيوشاً فرنسية

غير مفيدة ومستعملة . وربما كان يريد من الحكومة الإيطالية الحصول على ضمانات في موضوع القضية الرومانية : ولهذا السبب قام بالمفاوضة مع هذه الحكومة . ودارت المفاوضة حول موضوع مفاوضة ١٨٦٩ وهو حلف بين فرنسا وإيطاليا ، ولكن يجب في الوقت نفسه اعطاء حل متواجد للقضية الرومانية .

وفي ٢٥ تموز كانت الحرب قد بدأت منذ بضعة أيام بين فرنسا وبروسيا . وأجاب فيكتور ايما نوبل بأن كل شيء سيكون سهلاً إذا أخذت إيطاليا من فرنسا تأميناً ، ولو شفوياً ، بأن الجيوش الإيطالية يمكن أن تحتل « بعض نقاط استراتيجية » في دولة الكرسي الأقدس ، في الحالة التي تكون فيها روما مهددة من « عصابات ثورية » أو حالات أخرى مشابهة . إذن كان أسلوب الحكومة الإيطالية أن تضع نفسها الآن حامياً للكرسي الأقدس . ولكن الحكومة الفرنسية رفضت هذا الشرط ، حتى ان ايميل اوليفيه ، رئيس مجلس الوزراء الفرنسي ، كان يتباهى بهذا الرفض . واستمرت المفاوضات ، مع ذلك ، ولكن دون أن تؤدي إلى شيء . ولا نريد أن ندخل في التفاصيل ، لأن هذا يهم سياسة نابليون الثالث العامة أكثر من تاريخ الحركة القومية الإيطالية ، ولكننا نشير إلى أن نابليون الثالث كان في متز ، ليقوم بتوجيه العمليات العسكرية ضد بروسيا ، عندما جاء اليه السفير الإيطالي للقيام بجهد أخير . ولكن القضية ظلت على حالها دوماً : وهي أن إيطاليا تقبل بإبرام حلف شريطة أن تجلو الجيوش الفرنسية مباشرة عن الدول الخربة « في شروط مطابقة لتمنيات ومصالح إيطاليا » . ورفض نابليون الثالث مرة أخرى . وفي ٣ آب ١٨٧٠ مساءً ، كتب إلى الامبراطورة : « بالرغم من

جهود نابليون ، ويريد بذلك ابن عمه الأمير نابليون - جيروم ، لن أتنازل عن روما .

وهكذا لم يتم التحالف الفرنسي - الايطالي . وفي ٧ آب ، بعد الهزيمة الفرنسية في فورباخ وفروشفيليه أرسلت الحكومة الايطالية بوقية إلى سفيرها في باريس : « علقوا المفاوضات حتى وصول أنباء أكثر حسماً عن مسرح الحرب » . ونتساءل لماذا عارض نابليون الثالث بهذه المقاومة ؟ لقد كان القصد قضية مبدأ . والواقع ، ان الجيوش الفرنسية غادرت روما في ٤ آب ١٨٧٠ ، لأن فرنسا كانت بحاجة اليها على مسرح العمليات في فرنسا . ولكن قضية المبدأ هذه كانت قضية سياسة داخلية فرنسية ، لأنه كان باستطاعة الامبراطور ، أن يترك روما تحتل ، عند الزوم ، إذا اضطرته ظروف الحرب أن يسحب جيوشه ، ولكنه لم يشأ أن يعطي مسبقاً موافقته للحكومة الايطالية .

وعندما رأى نابليون الثالث ، في ٢٠ آب ١٨٧٠ ، أنه ضرب في المعارك الاولى حول متز ، اسف ، بالطبع ، على تعنته الأول وارسل إلى فلورنسا ، العاصمة الايطالية، ابن عمه الأمير نابليون - جيروم ليطالب نجدة مسلحة من ايطاليا ، فلم يجب الايطاليون ، لاسيما وان خبر معركة سودان قد وصل والأمير نابليون - جيروم ما زال في فلورنسا .

فهل يجب أن نستنتج أن لو كان نابليون الثالث أقل عناداً ، لابرز التحالف مع ايطاليا فعلاً في آخر تموز ١٨٧٠ ؟ لقد اعتقد بعض المؤرخين بذلك ، ولكن ، في الحقيقة ، لا شيء يبرهن على أن ايطاليا كانت مصممة على الذهاب حتى ابرام معاهدة .

حل القوة . - لقد أصبحت الحكومة الايطالية الآن مطلقة اليدين ،

لا لأنه لا يوجد جيوش فرنسية في روما فحسب ، بل لأن هزيمة سودان كان من نتائجها زوال الحكم الامبراطوري في فرنسا ، فما كاد خبر الهزيمة الفرنسية في سودان يعلم إلا وقام في الرأي الايطالي اضطراب شديد جداً : لقد صرح ممثلو اليسار إلى الحكومة ، في ٣ ايلول ١٨٧٠ بأنه لا مبرر للتردد ، وأنه يجب احتلال روما مباشرة . وفي ٤ ايلول أعلنت الحكومة الايطالية الحكومة الفرنسية الموقفة ، حكومة الدفاع الوطني ، بأن ايطاليا تستعيد حريتها في العمل ، فيما يتعلق بروما ، فلم يعترض وزير الشؤون الخارجية الفرنسي ، جول فافور . وفي ٧ ايلول وجه وزير الشؤون الخارجية الايطالي ، فيسكونتي فينوستا إلى الحكومات الأجنبية بلاغاً يعلمها فيه أن الحكومة الايطالية استقرت في روما لأن من واجبها حفظ النظام في شبه الجزيرة ، « وعدم ترك مصير زعيم الكنيسة عرضة لحادث ما » . وهكذا قررت الحكومة الايطالية احتلال روما لتحول دون وقوع البابا ضحية « حادث » سياسي .

موقف الدول . — أعلنت الحكومة النمساوية البابا بأنها لن تتحرك لأنها لا تريد أن « نقول قولاً لا يتبع بأي مؤيد » . وباختصار ، كانت النمسا عاجزة عن العمل ، وأضافت ان احتلال الحكومة الايطالية لروما كان « مناسباً » لأن الثورات الغاريبالدبة أوشكت أن تحدث . ومن جهة أخرى ، أوصت الحكومة النمساوية الحكومة الايطالية بحزم أن تتجنب اراقة الدم ، وبخاصة ، ألا تدع البابا يغادر روما ، لأن البابا إذا نقل عاصمة الكاثوليكية إلى مكان آخر ، فإن هذا النقل يمكن أن تكون له انعكاسات معنوية كبرى في البلاد الكاثوليكية . ولذا يجب الاحتفاظ ، حيال البابا ، بمجد ادنى من الاحترام والمداراة . ولنلاحظ الحركات القومية ٣ - (١٤)

أيضاً أن الحكومة الإيطالية قد شاورت حكومات غير كاثوليكية ، مثل الحكومة البروسية ، فأعطتها آراء بمائلة .

وهكذا كان الطريق حراً أمام إيطاليا . وأرادت الحكومة الإيطالية « أن تقيم الدليل على روح المصالحة » قبل احتلال روما ، فعرضت على البابا اتفاقاً : ففي ٨ ايلول ، جاء السفير سان مارتينو برسالة من فيكتور ايمانويل الى البابا ، رسالة مهذبة جداً بصرح فيها الملك بأن من واجبه الحفاظ على راحة وطمأنينة الكرسي الأقدس ، وان احتلال الجيوش لروما ، إنما هو عمل حيلة « عمل حفاظ » ، وانه مستعد أن يترك للكرسي الأقدس كرسيّاً جيداً ومستقلاً عن كل سيادة بشرية . وشاور البابا الكرادلة : وإذا أخذنا بالقدر الذي وصل اليه من معلومات ، أشار كاردينالان ، في مجمع الكرادلة ، بالمقاومة المطلقة . وأشار كاردينالان بالتفاهم مع الحكومة الإيطالية ، وفضل الآخرون ، الأكثرية العظمى ، عدم الاعراب عن رأي . عندئذ ، أعطى البابا تعليماته إلى وزير الحربية ، الجنرال كانزولو . وهذه التعليمات معناها : « يجب المقاومة حتى أول طلقة مدفع » . ثم بدلت التعليمات ، وتلقى الجنرال كانزولو الأمر بالمقاومة « حتى تفتح ثغرة في سور روما » . وأراد البابا أن يجعل الناس يلاحظون أن في الأمر عنفاً ، ولكن لا أكثر .

وصلت الجيوش الإيطالية أمام روما وعددها ٥٠٠٠٠٠ ايطالي تحت قيادة الجنرال كادورنا : وكان الجيش الحبري نظرياً ٨٧٠٠ رجل ، وكان بينهم سويسريون لا يحرسون على القتال ، وسكان من الدولة الرومانية لا يحرسون مثلهم أيضاً ، ولذا لم يكن بإمكان البابا أن يعتمد إلا على الجنود الحبريين الذين انخرطوا في الجيش للدفاع عن الساطة الزمنية وعسدهم ١٨٠٠ رجل .

وفي ٢٠ ايلول ١٨٧٠ أعطى كادورنا الأمر بالهجوم وجعل هدفه أحد أبواب روما ، لابودتانيا ، وفتح المدفع الثغرة ، وفي الساعة الخامسة صباحاً ، حمل الايطاليون بالحراب . وقاوم الجنود الجبريون وحدهم . واستسلمت روما . وسقط من الجود الجبريين ستة قتلى واربع وخمسون جريحاً . وسقط للايطاليين ٥٠ قتيلاً و ٦٣ جريحاً .

ثم جرى استفتاء في روما فأعطى أكثرية قوية جداً لصالح ربط مدينة روما بمملكة ايطاليا . وصرحت الاوساط الكاثوليكية المنعنة ، فيما بعد ، بأن الاستفتاء لفق تلفيقاً ، ومن الممكن ، في الواقع ، وجود ضغوط محلية ، ولكن لا يبدو أن الشعب الروماني كان متحمساً ، وعلى أي حال لم يبد أي غيرة لدعم حكومة البابا .

ثم عرضت الحكومة الايطالية على البابا « قانون الضمانات » الذي يسمح له بالاحتفاظ بوضع خاص ، فرفض ، وصرح بأنه يعتبر نفسه سجيناً في الفاتيكان . وفي الأول من تشرين الثاني ١٨٧٠ قرر البابا الحكم بالحرمان على كل من أسهم في قلب السلطة الزمنية .

أما بنود « قانون الضمانات » فتتص على أن يحتفظ الكرسي الأقدس بانتفاعه من القصور الحبرية للفاتيكان ولاتران وكاستل - غاندولفو ، ولا يحق لأي سلطة ايطالية أن تدخل هذه القصور . وان شخص البابا مقدس ومصون لا ينتهك . وللبابا الحق في استقبال السفراء الأجانب والمراسلة بحرية مع أساقفة العالم أجمع . والحق بدخل سنوي قدره ٣,٢٢٥,٠٠٠ لير معفاة من كل ضريبة . ولكن البابا رفض قانون الضمانات ، وصرح بأنه لا يقبل بضمانات من الحكومة الايطالية مهما كانت فيحواها .

وباختصار ، فضل البابا أن يحافظ على موقف الاحتجاج ، لأنه كان يفكر بتسوية للمستقبل : فقد كان يرى أن حل ١٨٧٠ غير قطعي ، وربما يستطيع ، ذات يوم ، الوصول إلى استرداد أرضه وكامل سيادته . ولهذا رأى ألا يعترف رسمياً بكل ما حدث عام ١٨٧٠ ، لأن قبول قانون الضمانات يعني الاعتراف بالأمر الواقع .

وفي آخر الأمر كان الحل ، في ١٩٢٩ ، باتفاقات لاتران ، بين الحكومة الفاشية والكرسي الأقدس ، التي ردت للبابا أرضاً صغيرة حقاً ، ولكنها أرض وهو فيها ذو سيادة .

الفصل العاشر

الحركة القومية الإيطالية

الاسترداد الإيطالية

لقد حصلت إيطاليا في العام ١٨٦٦ على منطقة البندقية ، ولكنها لم تحصل على التيرول الجنوبي . ولم تتغير الحدود الإيطالية بعد ١٨٦٦ ، بل ظلت كما هي حتى عام ١٩١٤ . وبقي عدد عظيم من شعوب اللغة الإيطالية والعواطف الإيطالية يعيش خارج حدود إيطاليا ، في أراضي النمسا - هونغاريا .

إن هذه الأراضي الإيطالية في النمسا - هونغاريا هي التالية :

١ - التيرول الجنوبي ، وهو ، جغرافياً ، الوادي الأعلى لنهر الأديج على السفح الجنوبي لجبال الألب . ويحد التيرول الجنوبي من الشمال شعب برينير . ولكن التيرول الجنوبي لم يكن كله مأهولاً بالإيطاليين : لأن القسم الشمالي منه مأهول بالألمان ؛ وحوالي ١٩٠٠ يقدر عدد الألمان فيه نحو ٢٥٠.٠٠٠ الماني . والقسم الجنوبي مع مدينة ترانت مأهول بالإيطاليين : فقد وجد فيه ، حوالي ١٩٠٠ ايضاً ، نحو ٣٨٥.٠٠٠ ايطالي . وعدا هذا العنصر الألماني والعنصر الإيطالي وجد ويوجد دوماً ، في التيرول الجنوبي ، شعب يسمى شعب « اللادين » ، وعدده قليل ، ويبلغ ٣٥.٠٠٠ نسمة ، ويتكلم لهجة متحدرة مباشرة من اللاتينية العامية . والحد الفاصل اللغوي بين العنصر الإيطالي والعنصر الألماني في التيرول الجنوبي يمر ،

في هذا العصر الذي يهمناء من مدينة سالورنو على الأديج وتقع سالورنو بين ترانت والمدينة الألمانية التي يسميها الألمان بوتزن والايطاليون بولزافو . وهكذا نرى الجزء « الايطالي » من التيرول الجنوبي كان ، من وجهة نظر المساحة ، أصغر بكثير من « الجزء » الألماني ، ولكنه أكثر سكاناً ، وذلك لأن الجزء الألماني هو الجزء الجبلي . وعندما نقول الجزء « الايطالي » والجزء « الألماني » ، إنما نبحت من وجهة نظر الاستيطان ومن وجهة نظر القومية ، لأن مجموع هذه الاراضي كان تابعاً للنمسا في العام ١٨٦٦ .

لقد كان الخط اللغوي الفاصل الذي أثبتنا على ذكره واضحاً . ومع ذلك ، وجدت في جنوب هذا الخط ، جزيرتان صغيرتان ألمانيتان : نفوس الأولى ١٧٠٠ نسمة والثانية ٢٠٠ ، وهما مهملتان من الناحية العملية . ولا ننسى أن القومية الايطالية تحتل الجزء الجنوبي من التيرول الجنوبي فقط . وهذه المنطقة التي قصبتها ترانت هي التي تسمى منطقة الترانانت .

٢ - توجد شعوب ايطالية في منطقة البندقية الجولينية ، وفي شبه جزيرة ايستريا . ومجموع هذه المنطقة البندقية - الجولينية وايستريا ، في حوالي ١٩٠٠ ، كانت نفوسه ٨٠٠.٠٠٠ نسمة . وتحتوي المنطقة على مدينتين : احدهما هامة وهي تريستا ؛ والثانية متوسطة الاهمية وهي غوريتزيا ، وما عدا ذلك مدن صغيرة . وهنا أيضاً يوجد خليط من السكان : وحسب الاحصاءات النمساوية يقدر في ١٩٠٠ أن ٥٧٪ من سكان هذه المنطقة كانت مؤلفة من سلافيين ، بعضهم سلوفينيون والآخرين كرواتيون . و ٤٧٪ منهم مؤلفة من ايطاليين ، ويسيطر الايطاليون بوضوح بالغ في مدينة تريستا ، حيث يؤلفون قرابة $\frac{2}{3}$

السكان . ولكن السلافيين كانت لهم الأكثرية في الأرياف . ولنشر إلى الأهمية التي تتمتع بها تريستا ، فقد كانت نفوسها نحو ١٥٠.٠٠٠ نسمة ، وهي ميناء كبير ، ونشط جداً ، ووراءه داخل عظيم ، لأنه كان منفذاً لقسم من النمسا ، وحتى بعض أراضي الامبراطورية الألمانية لعلاقتها مع البحر المتوسط . وفي تريستا توجد بنوك كبرى ، وشركات تأمين كبرى ، أي ان الدور الاقتصادي لهذه المدينة كان عظيماً .

٣ - وأخيراً يوجد أيضاً عناصر ايطالية في دالماسيا ، وفي المنطقة الصغيرة التي تسمى كوارنيرو على تخوم دالماسيا وايستريا . وليست دالماسيا سوى شريط شاطئ على امتداد ٣٠٠ كم طولاً و ٧٠ كم عرضاً . وهي منطقة مأهولة بالسلافيين : يوجد فيها كرواتيون كاثوليك و صرب ارثوذكس ، وهم أقل عدداً من الكرواتيين ، ولكن يوجد سكان ايطاليون في المدن أي في المواني . وليس هذا إلا إثناً للاستعمار البندقي الذي كان سائداً في هذه المناطق في آخر العصر الوسيط . وفي هذه المدن الدالماسية وجد و يوجد دوماً أوابد ايطالية ومن جهة أخرى ، كانت اللغة الايطالية اللغة المستعملة في التجارة وفيها ثلاث مدنهم الايطاليين لأن لهم فيها نواة سكان ايطاليين هامة . وهي : زارا ، سبالاتو التي يسميها اليوغوسلافيون سبلميت ، وفيومه . وكانت زارا حوالي ١٩٠٠ مدينة مؤلفة من ١٦.٠٠٠ نسمة ، وسبالاتو ٢٤.٠٠٠ وفيومه ٥٠.٠٠٠ . ولنشر، مع ذلك ، إلى أن عدد الايطاليين في دالماسيا كان يميل إلى التناقص ، لا من الوجهة المطلقة ، بل من الوجهة النسبية . ونريد بذلك أن نصيب الايطاليين في الاستيطان بالنسبة إلى السلافيين كان في تناقص ، لأن تزايد السكان السلافيين كان أسرع من تزايد السكان الايطاليين . وعلى أي حال ، كان نصيب الايطاليين ضعيفاً ، ولا يتجاوز

على وجه التخمين ٨ ٪ أو ٩ ٪ من كامل سكان المنطقة . ويزعم
اليوغوسلافيون بأنها لا تتجاوز ٣ ٪ .

ولو حاولنا أن نقدر ما يمثل ، من الوجهة العددية ، هؤلاء السكان
الايطاليون المقيمون في الارض النمساوية - الهونغارية ، لما أمكننا
الاعتماد على الرقم باطمئنان كبير لأن العناصر التي تحت تصرفنا تافهة .
فقد كانت الاحصاءات النمساوية مؤسسة على اللغة التي يتكلم بها لا على
لغة الأم ، لأن الاحصاء ، عند التعداد قام على تصريح السكان باللغة
التي يتكلمونها . وقد وجد ايطاليون يستطيعون في بعض الحالات أن
يصرحوا بأنهم يتكلمون الألمانية ، وفي الواقع يتكلمون اللغتين ، ولكنهم
لا يصرحون إلا بواحدة أثناء الاحصاء . ففي هذه الحالة يحسبون ألماناً .
ولكن كان ، بالمقابل ، سلافيون يتكلمون الايطالية ويصرحون بأنهم
يتكلمون الايطالية عند الاحصاء . وبالتالي فان معطيات الاحصاء لا يمكن
أن تقدم نتائج مؤكدة بصورة مطلقة . ولهذا نوقشت طويلاً قيمة هذه
الاحصاءات النمساوية ، وبالطبع ، اعتمد عليها السلافيون والايطاليون
في السنوات بين ١٩١٥ و ١٩١٨ بخاسة .

ورغم ذلك يمكن القيام بتقدير تقريبي : ففي ١٩٠٠ يمكن أن يقدر
أنه يوجد في الترانسان ٣٨٥٠٠٠ ايطالي ؛ وفي ايستريا ومنطقة البندقية
الجولينية حوالي ٣٤٠٠٠٠ ؛ وفي دالماسيا وفي كورانيرو ، أي في
فيومه ، ٣٨٠٠٠ وهكذا نصل إلى مجموع ٧٦٣٠٠٠ . وكان الايطاليون
في دعايتهم يصرحون غالباً بوجود « مليون » ايطالي رعايا النمسا -
هونغاريا . وكان هذا الرقم مبالغاً فيه على وجه التأكيد . وربما وجد
٨٠٠٠٠٠ نسمة فقط . والرقم الذي تسمح باعطائه الاحصائيات ليس إلا

تقريبياً . ولتثبيت الأفكار ، يجب أن نقارن رقم هؤلاء السكان الذين لغتهم الإيطالية الحاضعين للسيطرة النمساوية - الهونغارية والرقم الكلي لسكان إيطاليا : فقد كانت نفوس إيطاليا في ١٨٧٠ نحو ٢٦٨٠٠٠٠٠ نسمة وفي ١٩١١ كانت ٣٤٢٠٠٠٠٠ . وهذه النسبة ضعيفة نسبياً بالنسبة إلى كامل سكان المملكة .

وفسح وجود الإيطاليين ، في الأرض النمساوية - الهونغارية ، مجالاً لصعوبات لا تنقطع . وهذه هي قضية « الاستردادية » الإيطالية . ويراد بها إنهاء الوحدة الإيطالية بربط السكان الناطقين باللغة الإيطالية الموجودين في الأرض النمساوية - الهونغارية بإيطاليا . ولنلاحظ ، في الدور الذي يهمننا حتى ١٩١٤ ، أن كان من النادر جداً أن يرى استردادون إيطاليون يتكلمون عن شيء آخر غير إيطالي النمسا - هونغاريا . ومع ذلك وجد إيطاليون ينطقون باللغة الإيطالية في مالطة ، ثم ان الإيطاليين اثاروا فيما بعد قضية كورسيكا . ويوجد سكان ينطقون اللغة الإيطالية في سويسرا في كانتون التسن . ولكن الدعاية الاستردادية لم تتكلم عنهم أبداً أو تقريباً أبداً : لأن الاستردادية الإيطالية كانت متجهة ، في ذلك الحين ، ضد النمسا - هونغاريا فقط .

ولم تكن هذه المظاهرات الاستردادية من عمل الحكومة الإيطالية ، التي ظلت ، خلال الدور الذي يعيننا ، تعتبرها غير مناسبة ، ولكنها كانت من عمل جزء من الرأي العام .

إن ما يهمننا من كل ذلك هو أن نرى ثم هذه الحركة الاستردادية في « الاراضي الاستردادية » وفي مملكة إيطاليا معاً ، وبيان الانعكاسات السياسية التي نجمت عنها .

يمكننا أن نميز في هذا التطور ثلاث مراحل : الاولى من ١٨٦٦ إلى ١٨٨٢ أي حتى إبرام معاهدة الحلف الثلاثي ؛ الثانية من ١٨٨٢ إلى ١٨٩٦ ؛ الثالثة من ١٨٩٦ إلى ١٩١٤ .

١ — المرحلة الاولى : ١٨٦٦ — ١٨٨٢

يمكن القول ان المظاهرات الاستردادية بدأت منذ ١٨٦٦ . فعندما جاء ملك ايطاليا ، فيكتور ايمانويل ، لزيارة سكان منطقة البندقية ، في الوقت الذي ربطت فيه البندقية بملكة ايطاليا ، استقبل في عدة مدن، بمظاهرات تلوم الحكومة الايطالية لأنها لم تحقق « الاهداف القومية » تماماً ، ولأنها تركت شعوباً ايطالية خاضعة للنمسا - هونغاريا وما كانت الحكومة الايطالية لتطلب أفضل من خلاصهم في ١٨٦٦ ، وعلى الأقل ، في الترانتيان ولكنها لم تستطع . وعلى أي حال ، وجد الملك في اودين أمام نواب من ايستريا ، أي ايطاليين خاضعين للسيطرة النمساوية في ايستريا . وقامت مظاهرات مهاجرين من الاراضي الاستردادية في فيرونه وفي بسانو . وبالطبع ، احتجت الحكومة النمساوية في الحال ، وطلبت ايضاحات إلى الحكومة الايطالية فأنكرت هذه المظاهرات . ولكن قسماً من الصحافة الايطالية شجع ، بالعكس ، المظاهرات .

وفي ذلك الحين كان يؤمل في ايطاليا بأن القضية لم تسو نهائياً . وفي ١٨٦٨ - ١٨٦٩ أذاع نابوليون الثالث فكرة حلف بين النمسا - هونغاريا وايطاليا وفرنسا . ولم يؤد مشروع هذا التحالف، الذي تكلمنا عنه بمناسبة « قضية روما » ، إلى شيء . ولكن الحكومة الايطالية ، في ذلك الحين ، كانت تأمل أملاً مبهماً ، وربما فكرت أن بالامكان ، خلال مقارضات الحلف مع النمسا - هونغاريا ، أن تطرح من جديد

قضية الترانتيان الأصلية ، أي قضية القسم الجنوبي من التيرول الجنوبي .
وفي الواقع ، لم تؤد مفاوضات الحلف إلى شيء وظل أمل الحكومة
الاطالية دون جدوى .

وكانت الحالة هادئة نسبياً في الدور الواقع بين ١٨٧٠ و ١٨٧٥ .
ولكن ، في ١٨٧٦ ، قامت حوادث جديدة : فقد جاء سكان من الترانتيان
ومن تريستا إلى ميلانو لحضور الاعياد التي تحتفل بمرور سبعائة سنة على
معركة لانيانو ، في ١١٧٦ ؛ وفي الوقت نفسه ، علمت الحكومة
النمساوية - الهونغارية بأنه يوجد في ايطاليا خارطة جنارية للاستعمال
المدمر فيا الترانتيان ضمن الاراضي الايطالية . وكانت هذه
الخارطة معلقة في مطعم محطة القطار في فلورنسا ، ولاحظها دبلوماسيون
اطاليون واحتجت الحكومة النمساوية ، ولم تكتف بالاحتجاج ، بل اتخذت
اجراءات بوليسية في الترانتيان : حلت كثيراً من الجمعيات الرياضية ،
وجمعيات المعونة المتبادلة ، لأنها كانت تعتقد في أن هذه الجمعيات ، في
الواقع ، كانت تمهيداً لنشاط سياسي . حتى انها أوقفت محرري جريدة
« الترانتيان » واتهمتهم بجريرة الاعتداء على سلامة الدولة واضطرت الجريدة
إلى الاحتجاب .

وكان طبعياً أن يحتج قسم من الصحافة الايطالية على هذه الاجراءات
البوليسية . حتى ان غاربيالدي اشترك بهذه الحملة : فقد ألقى غاربيالدي ،
في ١٢ تشرين الأول ١٨٧٦ ، بياناً هاجم فيه سياسة النمسا - هونغاريا
ومع ذلك لم يصل إلى نصح سكان الترانتيان بالثورة المسلحة على السيطرة
النمساوية - الهونغارية . فقد كان يعلم جيداً ، في العام ١٨٦٦ ، ان الحكومة
الاطالية لا تستطيع أن تحرر الترانتيان ، وتستطيع أقل من ذلك في

(١٨٧٦) . وفي مجلس النواب الايطالي ، قام نائب من أحزاب اليسار اسم ماركورا ، وكالت ، في ١٨٦٦ ، متطوعاً غاريبالدياً ، وبالتالي ، أسهم في غزو الترانتيان بالجيش الايطالية ، هذا الغزو الذي لم يدم إلا بضعة أيام ، واستجوب الحكومة بهذا الشأن . وعدا ذلك ، أذاعت بعض الجرائد الفكرة بأن النمسا - هونغاريا ، اثر الحوادث البلقانية وازمة القضية الشرقية عام ١٨٧٦ ، تفكر بتحقيق توسع في البلقان ، وربما تمكنت من منح « تعويض أرضي » إلى ايطاليا . وقالت الجرائد الايطالية إن هذا التوسع يمكن أن يكون فرصة لمطالبة النمسا - هونغاريا بالتعويض . ومن البديهي أن يكون هذا التعويض الأرضي منطقة الترانتيان . ولكن الوزير النمساوي - الهونغاري للشؤون الخارجية ، آندرامي ، صرح علناً ، في ١٧ تشرين الأول ١٨٧٦ ، بأنه يجب على ايطاليا ألا تعتمد على شيء من هذا ، وان النمسا - هونغاريا غير عازمة على اعطائها أي تعويض .

وفي ١٨٧٨ عاد الاضطراب إلى ايطاليا ، في الوقت الذي انعقد فيه مؤتمر برلين ، وكانت فرصة هذه المظاهرات الجديدة حادثاً تفصيلياً ، وهو أن الشرطة النمساوية حرمت السفر إلى البندقية على فريق من شباب تريستا . وعندئذ قامت الاحتجاجات في البندقية ، وكسر زجاج نوافذ القنصلية النمساوية - الهونغارية . وكان هذا كافياً لتنفجر مباشرة ، في كل ايطاليا تقريباً ، حملة عنيفة جداً ضد النمسا - هونغاريا : حملة صحافة أسهمت فيها ، في ذلك الحين ، جميع الجرائد تقريباً ، ومظاهرات في كثير من المدن الايطالية : في نابولي ، بافيا ، روما ، رافينه ، وصرخ : لتسقط النمسا ! ولتحي ترانت وتريستا ! ، وفي هذا الحين أيضاً انشئت

« رابطة إيطاليا الاستردادية » . وقد أعلنت انظمة هذه الرابطة ونشرت في الجريدة الرسمية الإيطالية . وتقول هذه الأنظمة بوضوح بان غاية التجمع هي المطالبة بالاراضي الإيطالية الخاضعة لسيطرة أجنبية وبخاصة الاراضي الخاضعة إلى سيطرة النمسا - هونغاريا .

احتجت الحكومة النمساوية - الهونغارية ، فاعتذرت اليها الحكومة الإيطالية ، وصرحت بأن منع هذه المظاهرات كان خارجاً عن سلطتها ، لأن القانون الإيطالي يعترف بحرية الصحافة وحرية الجمعيات ، وكل ما استطاعت الحكومة أن تفعله هو المحافظة على النظام العام ، إذا وجدت اضطرابات . ولكنها لم تستطع بممارسة عمل وقائي ، وبخاصة ، لم تستطع أن تمنع حملة الصحافة ولا تشكل الجمعيات التي تعترف بهدفها وهو تخلص الإيطاليين من النمسا - هونغاريا . ومع هذا فقد علمت الحكومة النمساوية ، في غضون ذلك ، ان الاستردادين كانت يدعمهم سرّاً بعض أعضاء الحكومة الإيطالية ، ورأت أن هذه الحكومة الإيطالية عاجزة عن قمع الاضطراب ، واتخذت اجراءات عسكرية في منطقة الحدود ، ودامت حشود الجيوش النمساوية خلال بضعة أسابيع ، وجرى التساؤل ، بعض الوقت ، ما إذا كان من الممكن قياسا حرب جديدة بين إيطاليا والنمسا .

وجهة النظر النمساوية - الهونغارية . - لقد عرض وجهة النظر هذه « آندراسي » وزير الشؤون الخارجية النمساوي - الهونغاري ، في برقية وجهها ، في ٢١ أيار ١٨٧٤ ، إلى السفير النمساوي - الهونغاري في روما . فقد قال : « إن احترام الحدود » كما ثبتت في ١٨٦٦ كانت شرطاً لازماً للحفاظ على العلاقات الطيبة بين النمسا - هونغاريا وإيطاليا ،

وان عرض هذه القضية على بساط البحث من شأنه أن « يعطي سلفاً
عذراً لحق الأقوى » . فهو يؤكد بوضوح بأنه ، إذا ألح ايطاليا ،
فستكون القضية قضية قوة . وأضاف آندراسي : وليس بالامكان تصور
تسوية ودية : وبالفعل ، إذا قبلت النمسا - هونغاريا أن ترضي ايطاليا
وقبلت بتعديل الحدود النمساوية - الايطالية على أساس حق القوميات ،
« على أساس تحديد اثنوغرافي » - وكان حرياً أن تقول « على أساس
تحديد لغوي » ، وهذا هو الأصح - فماذا يحصل ؟ تنتشر مباشرة حركة
تشعث في كل القوميات الأخرى الموجودة في الامبراطورية النمساوية -
الهونغارية وبالقرب من حدود هذه الامبراطورية . ومن البديهي أن
يفكر صرب هونغاريا وروتين غاليسيا بالانفصال عن النمسا - هونغاريا
ويرتبطوا بدولة أخرى . ويختتم اندراسي كلامه بقوله : فإذا ارتكبت النمسا -
هونغاريا خطأً وارضت ايطاليا ، لشجعت ، عندها ، الحركات الاستردادية
الأخرى . وهذا يعني تعريض سلامة الملكية لخطر خطير .

هكذا كان آندراسي يحاكم الأمور . ولكن ما الذي سيحصل في
اوربة إذا طبق مبدأ القوميات ؟ وما ستكون النتائج في العلاقات بين
النمسا - هونغاريا والمانيا ؟ اننا نعرفها : ربط الماني النمسا بالمانيا .
وما هي النتائج على العلاقات بين المانيا وروسيا ؟ وفي الامبراطورية
العثمانية أيضاً ؟ لقد صرح آندراسي : اعادة بناء خارطة اوربة على أساس
مبدأ القوميات . إن هذا غير قابل للتطبيق لأنه يوجد في كل مكان
مناطق يختلط فيها السكان ، وبالتالي ، إن كل محاولة في هذا الاتجاه
تؤدي إلى نزاع الكل ضد الكل ، واختتم آندراسي تصريحه بقوله :
يجب أن تفهم الحكومة الايطالية بأن من مصلحتها إيقاف الاضطرابات
الاستردادية ، ومساعدة الحكومة النمساوية - الهونغارية على الكشف عن

مسببي ومحركي الدعاية الاستردادية ، والحفاظ على تفاهم طيب مع النمسا - هونغاريا ، وهذا أهم بالنسبة لها من أن تحاول تملك الاراضي « الاستردادية » .

٢ — المرحلة الثانية : ١٨٨٢ - ١٨٩٦

إن الحادث الجديد الذي غير شروط القضية تماماً هو ابرام معاهدة الحلف الثلاثي ، في ٢٠ أيار ١٨٨٢ . فقد قررت الحكومة الايطالية أن تصبح حليف الامبراطورية الألمانية ، وفي الوقت نفسه ، حليف النمسا - هونغاريا . وقد فضلت ، في الحقيقة ، أن تكون حليف المانيا فقط ، ولكن بسمارك رفض وصرح إلى الايطاليين بأنهم إذا أرادوا حلفاً فينبغي عليهم أن يوقعوه مع المانيا والنمسا - هونغاريا ، باعتبار أن ألمانيا والنمسا - هونغاريا كانتا مرتبطتين من قبل ، منذ ١٨٧٩ ، بمعاهدة تحالف .

ولم تقرر الحكومة الايطالية أن تبرم هذا الحلف الثلاثي بداعي التعاطف مع النمسا - هونغاريا : بل لأنها كانت تشعر بأنها ضعيفة ، وبحاجة إلى نقطة استناد . وقد جربت كم كافها هذا الضعف . وفي ذلك الحين ، أي في ١٨٨١ ، وطدت فرنسا حمايتها على تونس ، رغم انق الايطاليين الذين كانوا عاجزين تماماً عن منعها . ومن حوادث تونس استخلصت الحكومة الايطالية بأنه ينبغي أن يكون لايطاليا حلفاء . ولذا ابرمت الحلف الثلاثي . ولكن يجب أن نعلم بأنه يتوجب عليها ، بعد أن أصبحت حليفاً للنمسا - هونغاريا ، أن تتخلى رسمياً عن الاستردادية . هذا ما قاله بسمارك . وقال أيضاً : « ان ايطاليا والنمسا - هونغاريا لا يمكن أن تكونا إلا حلفتين أو عدوتين » . وأراد أن تصبحا

حايفتين لئلا تكونا عدوتين . وما دام الحلف الثلاثي فيجب منطقياً على الحكومة الإيطالية أن تحاول كبح الحركة الاستودادية .

موقف الرأي العام . - يجدر بنا أولاً ، أن ننظر ما جرى في الأراضي الاستودادية : فقد كان اعلان الحلف الثلاثي على هؤلاء الإيطاليين ، في النمسا - هونغاريا ، ضربة قاسية جداً ، وشعروا بأن الحكومة الإيطالية تخلت عنهم . فمن ذلك أن شاباً من تريستا اسمه غليوم اوبردان ، وكان طالباً في جامعة روما ، حاول ، في ١٧ ايلول ١٨٨٢ ، أن يقتل امبراطور النمسا ، فرانسوا - جوزيف . وكان يشعر بأن اغتيال فرانسوا - جوزيف يمكن أن « يقتل الحلف الثلاثي » في الوقت الذي تشكل فيه . وقد اوقف اوبردان ، وحكم عليه بالموت ، وكان لتنفيذ الحكم صدى واسع في ايطاليا .

واستمر الاحتجاج في الأراضي الاستودادية . ونشرت جرائد استودادية في ترانت ، وتريستا ، وروفيريتو . وبالطبع ، وجدت هذه الجرائد في حالة صعبة للغاية ، لأن قانون العقوبات النمساوي لعام ١٨٥٢ نص على عقوبات خاصة لجرائم « الشغب على الراحة العامة » ، ووسعت جريدة هذا الجرم إذا كان موجهاً إلى هجوم على شخص الامبراطور ، وعلى شكل الحكم وعلى ادارة الدولة وإذا نصح الشعب « بمقاومة القوانين » . ومن الواضح أن أي جريدة استودادية ، حتى ولو كانت حذرة في لغتها ، توسع أغراضاً تقع تحت هذا القانون . ولذا كانت حياة الجرائد الاستودادية في الأراضي النمساوية - الهونغارية قلقة وغير مستقرة . ومن بينها جريدة اسمها « الاستقلال » ، وكانت تصدر في تريستا ، حكمت بـ ٤١٣ حكماً مختلفة المدة ، وجريدة أخرى كانت تصدر في روفيريتو ، فقد اوقف رئيس تحريرها في ١٨٨٣ وحكم عليه بالسجن .

ولكن إذا لم تستطع الصحافة الاستردادية أن تعيش إلا قليلاً في الأرض النمساوية - الهونغارية ، فقد وجد منها في الأرض الإيطالية : في فيرونه ، وجدت جريدة تسمى « آوينا » أي « العرين » ، وكانت تستقبل مراسلات من تريستا وتوات وتنتشر مقالات عن الحركة الاستردادية . ولكن هذه الجريدة كانت بالطبع ممنوعة في الأراضي النمساوية - الهونغارية ابتداءً من ١٨٨٢ .

وحاول الاسترداديون ، في الأراضي النمساوية - الهونغارية أيضاً ، تنظيم دعايتهم على الصعيد الثقافي ، وأنشأوا ، في ١٨٨٥ ، جمعية تسمى « أنصار الوطن » ، وكان هدفها الدفاع عن اللغة والفكر الإيطاليين في الأراضي الإيطالية في النمسا - هونغاريا . وكان مؤسسو هذه الجمعية يعلنون بأن العنصر الألماني، في شمال التيرول الجنوبي بخاصة ، يقوم بدعاية مدرسية : فقد وجدت منظمة تدعى : « الاتحاد المدرسي » وتتمى باستمرار عدد المدارس الألمانية . وقد صرح العنصر الإيطالي : ونحن أيضاً لما الحق في تنمية عدد المدارس الإيطالية . وكانت هذه الجمعية التي يتزعمها برثولميني تمارس نشاطها علناً ، ولم يكن هذا النشاط مخالفاً للقوانين النمساوية ، باعتبار أن غايتها كانت مدرسية صرفاً ولم تعترض الحكومة النمساوية اذن على انشاء الجمعية . وكان مقرها في روفرييتو ، وأنشأت لها ستين فرعاً محلياً في جميع الأجزاء الإيطالية في الأراضي النمساوية - الهونغارية . وقد ألفت « جمعية أنصار الوطن » بفكرة الحصول على تريستا وإنشاء جامعة إيطالية ، وهذا ما لا تريد الحكومة النمساوية - الهونغارية ان تسمع الكلام عنه . وأنشأت أيضاً مكاتب جواله لتنتشر الأدب الإيطالي بين الشعب الإيطالي كله .

ولكن الادارة النمساوية - الهونغارية ، التي كانت تراقب ، بالطبع ، عن كنب هذا النشاط ، رأت أن لبعض ظاهرات الجمعية طابعاً سياسياً . وفي ١٧ تموز ١٨٩٠ حلت « جمعية انصار الوطن » ، ثم اعيد انشاؤها بعد بضعة أشهر تحت اسم آخر « العصبة القومية » . وقد نظم اعضاء هذه الجمعية في ١٨٩٦ ، في ترانت ، مظاهرة وطنية كبرى بمناسبة قدسيتين آبددة دائتي .

وفي ايطاليا نفسها ، تمت الحركة الاستردادية كثيراً في هذا الدور ، ونريد بذلك أن عدد المنظمات التي تمتم بذلك ازداد كثيراً . ولتقتصر على أهم هذه المنظمات : ففي ميلانو اسست في عام ١٨٨٤ « رابطة الالب الجولينية » التي انشاها استرداديون تربستانيون هاجروا إلى ايطاليا . وقد لقت هذه الرابطة نداءً : « لتحي ايطاليا المتحدة ! والموت للنمسا » . ثم انشئت في البندقية ، في ١٨٨٤ ايضاً ، « رابطة غليوم اوبردان الجمهورية » لتخليد ذكرى الطالب الشاب الذي اراد اغتيال فرانسوا - جوزيف . ثم انشئت في ميلانو ، في ١٨٨٥ ، « حلقة غارibaldi لاجل ايطاليا الاستردادية » ثم اتحدت هذه المنظمات الثلاث في ١٨٨٥ وشكلت : « العصبة الشعبية لاطاليا المتحدة » وكان رئيسها النائب مافي . ومن جهة أخرى ، وجد جمع ثوري يدعى « ايطاليا الجديدة » ، وكان في الوقت نفسه جمعاً استردادياً ، وكانت له فروع واسعة جداً في كل ايطاليا . وأخيراً ، تأسست ، في ميلانو ، جمعية تسمى « حزمة الديموقراطية » ، وكانت لها جمعيات فرعية في روما . وبالإجمال ، كانت أفكار هذه التجمعات « تقدمية » . ووجدت الحركة الاستردادية اكبر عدد من المشايخين في ذلك العصر ، بين الجمهوريين الايطاليين . وكان الدافع لهؤلاء الجمهوريين ولاشك وطنياً . ولكن ، في الوقت نفسه ، كان يخفي فكرة سياسية ،

لا سيما وأن الحكومة الإيطالية شاركت في الحلف الثلاثي وبالتالي حكمت على نفسها بالتخلي عن الأراضي الاستردادية ، ولذا حاول الجمهوريون أن يعرفوا عمل الحكومة ويلغموا سلطتها في البلاد، وكان من صالحهم أن يدعموا النظرية المعارضة أي النظرية الاستردادية .

ومع هذا فقد وجدت منظمات أخرى تجذب العناصر المعتدلة . وأهم هذه المنظمات كانت « منظمة دائتي الغيميري » التي انشئت عام ١٨٨٩ تحت رئاسة بوني . وكان هدفها : الدفاع عن « الإيطالية » وبخاصة بين إيطالي النمسا . وبعد ذلك بقليل انشئت « لجنة ترانت وتريستا » واسمها يدل عليها .

ولنشر إلى أن الحركات الاستردادية ، في ذلك الحين ، لم يكن لها إلا صدى ضعيف في الجماهير الإيطالية ، وصدى ضعيف في الطبقات الموجهة . وقد كتب مؤرخ إيطالي بأن الطبقات الموجهة باللغة الإيطالية كانت « واقعة سطحية » ولا تهتم بترانت ولا بتريستا ، كما لا تهتم بالحصول على مكاسب استعمارية . حقاً لقد كانت الجمعيات الاستردادية ثور كثيراً وتقوم بكثير من الضجة والصخب ، ولكن يجب ألا يظن أن أكثرية الرأي العام قد اعتنقت آراءها ودانت ببرامج عملها .

موقف الحكومة الإيطالية . - لقد سببت الاستردادية للحكومة الإيطالية كل أنواع المتاعب ، لأنها كانت تتمسك بالحلف الثلاثي ، ولتظل حليفة النمسا - هونغاريا كان عليها بالطبع أن تنكر الاستردادية ، ولكن احتجاجات الاستردادين كانت تزعجها باستمرار ، وإذا لم يضايقها جماعة الترانتيان وإيستريا مباشرة فإن المنظمات الاستردادية في إيطاليا ، مع حملات الصحافة التي توجهها ضد الحكومة ، كانت مصدراً للصعوبات .

وعندما حكم غليوم اوبردان بالاعدام ، اوقفت الحكومة ، في ايطاليا ، شركاءه : وطلبت الحكومة النمساوية - الهونغارية تسليمهم فرفضت ايطاليا ، لأنه لا يمكن أن تقبل بتسليم مسيبي الاغتيال السياسي . ولكن الحكومة الايطالية ، من جهة أخرى ، صرحت بأنها مستعدة « لقمع الاستردادية » ، لاسيما وأن الحركة الاستردادية كانت في جزء عظيم منها حركة جمهورية . وعلى أي حال ، شجب رئيس مجلس الوزراء مانتسيني في مجلس النواب ، في ١٣ آذار ١٨٨٣ ، الاستردادية بصراحة ، وفي ١٨٨٦ صرح رئيس الحكومة من جديد ، في مجلس النواب ، بأن الوحدة الايطالية « انتهت » ، وبالتالي تخلى عن الايطاليين الموجودين خارج حدود المملكة . وعندما عاد الاضطراب الاستردادي نحو ١٨٨٦ - ١٨٨٩ ، كان رئيس مجلس الوزراء ، في ذلك الحين ، كريسي ، وكان من « أنصار الحلف الثلاثي » ، وقد أكد في ١٨٨٩ للنمسا - هونغاريا بأن ايطاليا لا تفكر بكسب ترانت وتريستا . وفي حزيران ١٨٨٩ ، صرح في خطاب له ، في مجلس النواب ، بتصريحات من هذا النوع ، وأخيراً حل « لجنة ترانت وتريستا » .

وفي ١٨٩٠ حدثت حادثة مبرز : وهو أن وزير المالية الايطالي دودا كان في وليمة في اودين ، ووجد في حالة مربكة ، لأن الخطباء ، في آخر الوليمة ، خطبوا خطباً استردادية ، فطلب كريسي استقالة وزير المالية ، لأنه لم يغادر الوليمة لدى سماعه هذه الخطب . وقام نائب باستجواب في مجلس النواب . فصرح كريسي بأنه لا يريد أن يشك في اخلاص الحكومة الايطالية في تنفيذ تعهداتها الدولية ، أي في الحفاظ على الحلف الثلاثي . فأجاب دودا مصرحاً بأن سياسة كريسي تؤدي بايطاليا إلى « الحزى » ، ولكن هذا لم يمنع كريسي من الحصول على التصويت بالثقة بأكثرية

عظمى . اذن كانت الاكثية العظمى في البرلمان تنكر الاستردادية ، في ذلك الحين . وقد أوضح كريسبي ، في خطاب له في فلورنسا ، في ٨ تشرين الأول ١٨٩٠ بأن الاستردادية في نظره اخطر الأخطاء . لأنها ، اذا ظفرت ، وضعت ايطاليا في نزاع مع النمسا - هونغاريا ومع فرنسا ، من أجل كورسيكا ، وقال كريسبي : « ستكون الحرب ، وستكون عزلاً من السلاح » ، فاذا أردنا أن نسلك سياسة استردادية وجب علينا أن نبدأ بتسلح كثيف : وان الناس الذين يطالبون بربط الأراضي الاستردادية هم الديمقراطيون ، رجال أحزاب اليسار ، وهم ، في الوقت نفسه ، اعداء التسليح . ان موقفهم غير منطقي ، فاذا أرادوا أن نسترد هذه الاراضي فليقبلوا بتسلح كثيف ، ولكن ماداموا لا يقبلون بذلك ، فإن السياسة الاستردادية غباء وحمافة . هذا هو رأي كريسبي . ولكن هذا لا يمنع من أن الاستردادية ظلت بالنسبة للحلف الثلاثي خيرة انحلال لأن الحوادث كانت تتكرر باستمرار .

٣ - المرحلة الثالثة : ١٨٩٦ - ١٩١٤

وفي هذه المرحلة وجدت الشعوب الاستردادية في حالة اخرج مما في السابق ، لا لأن الحكومة النمساوية كانت أقسى عليها ، بل لأن العنصر الايطالي في النمسا - هونغاريا يرى نفسه شيئاً فشيئاً مهدداً بدفع السلافيين والألمان .

في ايستريا وفي دالماسيا . - كان الفلاحون السلافيون ، بسبب النمو الديموغرافي السريع ، يتجهون نحو المدن لاجتاد عمل لهم . حتى ان التفوق العددي ، الذي كان للايطاليين في زارا وسبالاتو وفيومو ، يمكن أن يفسد بين حين وآخر : لقد كان السلافيون يتوسعون ، ويحتلون جميع الأعمال

الصغيرة ، حتى انهم بدأوا يصلون الى المهن الحرة . وكان لدى هؤلاء السلافيين فكر « مقاتل » موجه ضد الايطاليين بخاصة ، لاسيما وان هؤلاء السلافيين كان لهم دور هام بين العمال ، على حين ان العناصر الايطالية في المدن الدالماسية كانت عناصر بورجوازية ، ولذا اضيف الشعور الطبقي بالجملة ، الى التباين الاجتماعي . وكانت الحكومة النمساوية تشجع العنصر السلافي ضد العنصر الايطالي لأن الايطاليين كانوا يضابقونها في هذه المناطق ويسببون لها المتاعب .

في الترانتيان . - كانت الحالة تتطور على حساب العنصر الايطالي . لأن ازدياد عدد الألمان ، في أعلى وادي نهر الأدبيج ، وبخاصة منذ فتح الطريق الحديدي المار من شعب برينير ، كان يسهل العلاقات بين البلاد الألمانية والسفح الجنوبي لجبال الألب ، وكانت منظمات الدعاية الألمانية ، وبخاصة المدرسية ، تنمو بسرعة . ويتم جهد الجرمنية في أعلى وادي الأدبيج ، أولاً على حساب الشعوب الناطقة « باللاتينية » التي ليس لها وعي قومي ايطالي واضح . وعدا ذلك ، يرى أن الالمان يتقدمون شيئاً فشيئاً على منطقة الحد اللغوي ، في منطقة سولادنو ، ويستقرون في منطقة ترانت ويشترون أثاثاً وفنادق سياحية . وفي القسم الجنوبي من الترانتيان ، في الطرف الأقصى من بحيرة غارد ، كانت مدينة ديفا مركزاً سياحياً ، ثم أصبحت ، في الواقع ، مدينة المانية . وكان الايطاليون في الترانتيان يرون ان مستقبلهم سيء جداً ، لاسيما وان العنصر الجرمني يبذل جهداً في ايستريا وفي البندقية الجرلمانية : ففي تريستا كان عدد الألمان حتى الآن تافهاً ، ولكنه أخذ يزداد باستمرار .

والنتيجة ، هي أن العاطفة الايطالية ظهرت بشدة في الأراضي

الاستردادية ، للنضال ضد هذا الاجتياح والغزو : ففي تريستا ، نرى أن البورجوازية الناطقة بالاطالية ، التي لم تكن حتى الآن لتتربص بالانتحاق بايطاليا ، باعتبارها تحب الاستقلال الذاتي ، بدأت تصبح استردادية لأنها شعرت بأنها مهددة بالعنصر الألماني وبالعنصر السلافي : ففي ترانت وفي منطقة الترانتيان الأصلية أصبح الحرفيون استرداديين متحمسين ، وكذلك الاكليروس والكاثوليك ، لأنهم يخشون التسلل البروتستانتي الألماني . وأخيراً ساهمت الجماعات الاشتراكية بزعامة قيصر باتيستي في الحركة القومية الايطالية . ووقف النمساويون باتيستي في ١٩١٦ وحكموا عليه بالموت . في فيوميه - وأخيراً حاول العنصر الايطالي في فيوميه أن يقاوم التسلل السلافي والنفوذ المجري أيضاً . وفي ١٩٠٤ أنشئت في فيوميه رابطة تدعى « فيوميه الفتاة » وكانت استردادية صراحة .

وقعت حوادث في هذه الاراضي الاستردادية ، وبخاصة في ١٩١٢ - ١٩١٣ ، وكان أخطرها في تريستا ، حيث اتخذ الحاكم النمساوي الأمير هوهنلوه ، قرارات تمنع استخدام الرعايا الايطاليين في المصالح البلدية في تريستا . وكان في هذه المدينة نحو ٤٠٠٠٠ ايطالي ، جاءوا من ايطاليا ولم يكونوا رعايا نمساوية - هونغارية . وكانوا يقبلون في الوظائف البلدية : وقد أعطى حاكم تريستا الأمر بطردهم وتسريحهم ، وهذا ما سبب استياءً عظيماً في ايطاليا . وفي الوقت نفسه طالب الطلاب الايطاليون بانشاء جامعة ايطالية في تريستا ، فاحتج الطلاب الألمان في الجامعات النمساوية الأخرى بعنف ، حتى انه وقعت منازعات دامية في جامعة غراتز بين الطلاب الايطاليين والطلاب الألمان .

ومن جهة أخرى ، ثما ، في هذا الدور ، التحريض الاستردادي في ايطاليا ، وكان على صلة بحركة أفكار جديدة في القومية الايطالية ،

ويمكن القول أن أب القومية الإيطالية دانونزيو . فقد أراد أن يعطي لاطاليا « أخلاقاً جديدة » ، و « مثلاً أعلى جديداً » ، وبخاصة أن يعطي الايطاليين ، مفهوماً رجولياً للحياة . ولكن الزعيم الجديد للحركة كان انريكو كوراديني ، وكان رجل آداب ، بدأ بكتابة قصة ومسرحية ، وابتداءً من ١٨٩٧ تقريباً ، انجذب نحو النشاط السياسي ، ونشر في ١٩٠٣ ، مجلة صغيرة تدعى « المملكة » ، ومن ثم أسس كتلة نشرت في ١٩١١ مجلة تسمى « الفكرة القومية » . وفي تقريره الذي كتبه الى « المؤتمر القومي » في عام ١٩١٠ ، أعطى كوراديني لحرته هدفاً مزدوجاً : من جهة ، إنشاء مستعمرات لاطاليا ؛ ومن جهة أخرى دعم الاستراداديين . وفي ١٩٠٣ ، أكد السفير الألماني في روما ، في تقاريره ، ان الجيل الايطالي الجديد كان استرادادياً ، وبخاصة المفكرون ، والاسانذة ، والطلاب . وكان يرى أيضاً أن ملك ايطاليا ، فيكتور ايمانويل ، على عكس أبيه ، كان في أعماقه استرادادياً .

ومع هذا ، وبالرغم من الارادة المصممة على « الدفاع عن الايطالية » ، لانجد وحدة نظر في ايطاليا . لقد كان الرأي الايطالي في قضية الترانثان . مجمعاً حقاً ، ويرى أن الترانثان أرض ايطالية ، ومن المؤمل ان امكن ذلك ، أن تربط بايطاليا ، ولكن هذا لايعني أن أكثرية الايطاليين كانوا يرجون استرداد الترانثان بالقوة . أما في قضية دالماسيا وفيوميه ، على العكس ، كان الرأي الايطالي لامبالياً تقريباً . وأما بشأن تريستا ، ففي الأمر شك عظيم : وكان الذين يتكلمون عن ربط تريستا بايطاليا يتساءلون ما إذا كان هذا قابلاً للتحقيق ، لأن ميناء تريستا بحاجة إلى داخل ، فاذا انفصل عنه ، زال ازدهاره الاقتصادي . وبالرغم من أن الحكومة الإيطالية كانت ترغب كل الرغبة في الحفاظ

على الحلف الثلاثي ، فقد كانت تلعب ، في تلك الآونة ، على حبلين : لأنها وقعت في ١٩٠٣ اتفاقاً سرّياً مع فرنسا . ولذا احتجت ، في ١٩١٣ ، على قرارات هوهنلوه بشأن الايطاليين ، فلم تجب الحكومة النمساوية - المونغارية على هذا الاحتجاج ، حتى ان الانطباع في ، ١٩١٣ ، كان يدل على ان الحلف الثلاثي كان مهدداً . ولم تحافظ الحكومة الايطالية على الموقف الذي اتخذته كريسبي ، كما لم تنتكر للاستردادية .



وعندما دخلت النمسا - هونغاريا الحرب في ١٩١٤ ، أعلنت ايطاليا حيادها ، بالرغم من وجود الحلف الثلاثي ، وتذّرت بأن المادة السابعة من الحلف الثلاثي لا تسمح للنمسا بزيادة اراضيها في البلقان ، اللهم إلا إذا قدم لايطاليا تعويض . وفي شتاء ١٩١٤ - ١٩١٥ تفاوضت ايطاليا مع النمسا - هونغاريا لتحاول الحصول على هذا التعويض ، وتريد بذلك الترانتيان أولاً ، وربما تريستا ، ولكن الايطاليين كانوا يلحون بخاصة على الترانتيان . ولم نشأ النمسا - هونغاريا أن تسمع بذلك : وعندئذ صممت الحكومة الايطالية أن تتجه وجهة أخرى ، وأبرمت ، في نيسان ١٩١٥ ، اتفاقاً مع فرنسا وانكلترا وروسيا ، ثم ، في أيار ١٩١٥ ، دخلت الحرب ضد النمسا - هونغاريا ، وهذه الحرب ساعدتها على تحقيق تطلعاتها القومية في البحر الادرياتيكي . واعطتها فرنسا وروسيا وانكلترا وعداً بأن يكون لها قسم كبير من الدالماسيا وايستريا والترانتيان . ولكن ، في ١٩١٨ ، عند النصر ، بدأت الصعوبات ، لأن السلافين احتجوا بعنف على المزايم الايطالية في البحر الادرياتيكي . وكاث الرئيس ولسون ، نصير مبدأ القوميات ، يرى بأن الايطاليين يطلبون كثيراً ، لأنهم كانوا يطالبون

بأكثر من الأراضي المأهولة بالاطاليين. وأخيراً ، ساعدت معاهدات ١٩١٩ والاتفاقات المتتمة ، في ١٩٢٠ و ١٩٢٤ ، إيطاليا على الحصول على التيرول الجنوبي كله حتى برينير ، وبالتالي ، دخل فيه القسم الذي يسكنه الالمان . وساعدتها على الحصول على ايستريا كلها ، وعلى نقطتين على الشاطئ الدالماتي وشاطئ كوارنيرو ، وهما زارا وفيوميه . وبوجب معاهدة رابالو ١٩٢٠ تقرر أن تكون فيوميه دولة حرة ، ولكنها آلت إلى إيطاليا أخيراً في العام ١٩٢٤ .

وهكذا حققت المعاهدات ، التي أنهت الحرب العالمية الاولى ، التطلعات القومية الايطالية نحو الشمال والشمال الشرقي ، وأعطت إيطاليا أراضي مأهولة بقوميات غير ايطالية ، فطغت ، من وجهة نظر القوميات ، على الصعيد السلافي .

الفصل الحادي عشر

قضية إيرلنده

فتح الانكليز ايرلنده في القرن السادس عشر ، في عهد الملك هنري الثامن من آل تيودور ، وأخذ هذا الملك لقب ملك ايرلنده في العام ١٥٤٢ . وخضعت ايرلنده عقب هذا الفتح لما يسميه الانكليز نظام « التاصيل » ، لأن الملكية الانكليزية أقامت في ايرلنده معمرين انكليزاً وصادرت لصالح هؤلاء المعمرين جزءاً عظيماً من الأراضي الايرلندية . ثم لما هذا الغرس ، وبخاصة ابتداءً من ١٥٥٥ ، وتم بنشاط في القسم الشمالي - الشرقي من ايرلنده ، أي في اقليم اولستر . وقد أقام الانكليز في هذه المنطقة ، بخاصة . وفي الوقت الذي كان المعمرون الانكليز يستقرون في ايرلنده كانت الكنيسة الانغليكانية تتوطد فيها أيضاً .

ولاشك في أن ايرلنده حاولت أن تقاوم ، في القرن السابع عشر بخاصة ، وقامت بعدة ثورات قمعت في ١٦٤٩ بحملة كرومويل . وفي القرن الثامن عشر ، خضعت ايرلنده لانكلترا حقاً ولم تتحرك ، وعاشت في نظام اقصى قانون للعقوبات .

وبفضل الثورة الاميركية ، أي استقلال المستعمرات الانكليزية في امريكا ، والمضايقات التي لاقها انكلترا في ذلك الحين ، حصلت ايرلنده في العام ١٧٨٢ على ترخيص يسمح بأن يكون لها برلمان خاص بها . وفي عهد الثورة الفرنسية حاول الايرلنديون القيام بثورة ضد انكلترا ، في

أيار ١٧٩٨ وتمعت هذه الثورة . وفي ١٨٠٠ طلبت الملكية الانكليزية التصويت على « صك الاتحاد » ، وبوجه اتحدت ايرلنده ببريطانيا العظمى من الوجهة التشريعية ، وبالتالي ، فقدت ايرلنده برلمانها الخاص . وكان هذا العمل من انكلترا مؤيداً (عقوبة) لمحاولة الثورة الايرلندية في ١٧٩٨ . وعادت ايرلنده في عام ١٨٠٠ تابعة لبريطانيا العظمى . وقيم في ايرلنده نائب - ملك يحمل لقب « اللورد القائمقام العام » وكان يقيم في « قصر » دبلن .

ولانريد أن نصر على هذه المقدمة ، لأن كل مانريد قوله هو أنه وجد في ايرلنده ، في القرن التاسع عشر ، ويوجد اليوم فيها أيضاً ، « أمتان » : من جهة أكثرية الشعب وتتألف من الايرلنديين الكاثوليك ، وكلهم تقريباً فلاحون ؛ ومن جهة أخرى ، أقلية مؤلفة من الانكليز أو الایکوسيين وهي أقلية فاتحين .

ولم تنقطع احتجاجات البروتستانتين على السيطرة الانكليزية خلال القرن التاسع عشر . غير أن مايم دراستنا في هذا الكتاب هو معالجة الحوادث ابتداءً من ١٨٥٠ ، أي أن نبين كيف نما الاحتجاج الايرلندي منذ منتصف القرن التاسع عشر تحت تأثير العوامل الاقتصادية والدينية ، لأن في ذلك حادثاً من الحوادث الهامة في السياسة الداخلية الانكليزية . فقد كان للقضية الايرلندية رد فعل مستمر على سياسة بريطانيا العظمى ، فضلاً عن أنها كانت عنصراً هاماً من الوجهة الدولية . لأن وجود ايرلنده المحتجة في جانب بريطانيا العظمى ، وبأكثرية سكانها العظمى التي تظهر عواطف مناوئة للانكليز ، كان بالنسبة لانكلترا سبب ضعف ، حتى ان القضية الايرلندية ، في بعض الأحيان ، وبخاصة في ١٨٨٧ وفي ١٩١٣ وفي بداية ١٩١٤ ، كانت تضابق العمل الخارجي للحكومة البريطانية .

ولذا يجب أولاً أن نتساءل عن الأسباب التي أثارت، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، احتجاج الإيرلنديين ضد السيطرة الانكليزية؛ وان نأخذ بعين الاعتبار حالة البلاد الدينية والاقتصادية والاجتماعية، وأخيراً الحالة السياسية.

١ - الحالة الدينية

كانت الأكتريّة العظمى لسكان إيرلنده، نحو الأربعة أخماس، كاثوليكية. ولم تكن العناصر البروتستانتية بشكل كتل وجامع هامة الا في اقليم اولستر، أي في القسم الشمالي - الشرقي من إيرلنده. ويجب الا نعتقد أيضاً ان اقليم اولستر كله كان كاثوليكياً. فقد كان الكاثوليك يشكلون فيه ٤٠٪ من السكان. وكان اقليم اولستر نفسه مقسماً إلى تسع كونتيات؛ وعلى هذه الكونتيات التسع وجد ثلاث كونتيات، وهي الكونتيات الواقعة على التخوم الجنوبية والغربية، مأهولة بالكاثوليك بخاصة، والثلاث الأخرى، أي الواقعة على الشاطئ، تجاه انكلترا وايركوسيا، في منطقة بلفاست وفي منطقة لندندري، كانت مأهولة بالبروتستانت خاصة. والكونتيات الثلاث الأخيرة، كونتيات وسط وجنوب اولستر كان سكانها خليطاً كاثوليكاً وبروتستانتياً، وهي كونتيات تيرون وارماغ وفوماناغ.

وخارجاً عن الاولستر، وجد بروتستانتيون مبثرون في باقي إيرلنده ولكن عددهم قليل. وهم موظفون، وملاكون كبار، وعملاء، ووكلاء كبار الملاكين. وعملياً، خارجاً عن اولستر، يمكن أن نقدر بأن شعب إيرلنده كله تقريباً يتألف من إيرلنديين كاثوليكين.

حالة البروتستانت - يجب أن نميز ، بين البروتستانت الايرلنديين ، فريقين : من جهة ، الانجليكان ، وكانوا نحو ٥٠٠.٠٠٠ نسمة ؛ ومن جهة أخرى . « المنشقون » غير المتكيفين ، وكانوا يشابعون كنائس مستقلة عن الدولة وعددهم نحو ٦٠٠.٠٠٠ نسمة . وبالتالي ، ليس في الوسط البروتستانتي ما يدل على وحدة . ومع ذلك ، وبالرغم من العدد القليل لأشياعه ، ويبلغ عددهم ٥٠٠.٠٠٠ ، وكلهم تقريباً في اقليم اولستر ، فقد كان للكنيسة الانغليكانية في ايرلنده نظام خاص ، كما للكنيسة الانغليكانية في انكلترا . ويقول الانكليز ان هذه الكنيسة « موطدة » أي انها كنيسة تملك امتيازات خاصة . وكانت هذه الكنيسة الانغليكانية في ايرلنده ، كالكنيسة الانغليكانية في انكلترا ، خاضعة بشكل وثيق للتاج الملكي ، أي انها كانت لخدمة عاملاً حكومياً . ومن جهة أخرى ، كانت قوتها عصرية أكثر منها روحية . والواقع هو أن هذه الكنيسة كانت غنية جداً . فقد أخذت كل الأموال التي صدرت ، في القرن السادس عشر ، أثناء الفتح الانكليزي ، من الكنيسة الكاثوليكية . وكان عندها املاك كبرى ، وأقامت عليها فلاحين ايرلنديين بصفة منتفعين . وهؤلاء المنتفعون يدفعون الأجارات . وتجي في كل سنة ضريبة العشر « الديم » أي أن لها الحق في نصيب من نتاج المحاصيل . وكان هذا العشر يدفع في الأصل من قبل جميع الفلاحين بل ومن الكاثوليك أيضاً . ولكن العشر بدل في ١٨٣٣ إلى ضريبة مالية يدفعها المالكون لا المستأجرون ، ولكن الملاكين عوضوها برفع الأجار . وفي ١٨٦٨ كان الدخل السنوي ، للكنيسة الانغليكانية في ايرلنده ، نحو ٦١٤.٠٠٠ جنيه استرليني ، منها ٢٠٥.٠٠٠ ناشئة عن الاجارات والباقي ناشئ عن الأعشار .

والشيء المتناقض في حالة الكنيسة الانغليكانية في ايرلنده هو انه لم يكن

لها اتباع الا في قسم صغير جداً من البلاد ، بالرغم من وجود كنائس انغليكانية في ايرلنده كلها : وبين هذه الكنائس الانغليكانية وجد منها ٢٠٠ كنيسة ليس لها أي مؤمن . وكانت الكنيسة الانغليكانية تقيم عليها راعياً ، من حيث المبدأ ، ولكن لا يوجد أحد في العبادة . ووجد ، من جهة أخرى ، ١٠٧ كنائس حاول الراعي فيها أن يضم مائتي أو ثلاثمائة عائلة بروتستانتية .

حالة الكاثوليك . - لقد ظل الشعب الكاثوليكي في ايرلنده زمناً طويلاً محروماً من حقوقه السياسية ، ولم يصل إلى الوظائف العامة حتى عام ١٨٢٩ . ففي هذه الآونة صوت البرلمان الانكليزي على « قانون تحرير » الكاثوليك الذي طبق على الكاثوليك الايرلنديين كالكاثوليك الانكليز . ومنذ هذا التاريخ استطاع الكاثوليكي الايرلندي ان يكون ناخباً وأن يصبح موظفاً .

لقد كان الكاثوليك الايرلنديون يتظاهمون من أنهم مجبرون على اعالة الكنيسة الانغليكانية على نفقتهم ، مع أن هذه الكنيسة ليس لها مؤمنون في القسم الأعظم من البلاد . ولندكر ان الكنيسة الانغليكانية كانت نجبي ضريبة العشر . وكان هذا الرسم يقع حتماً على المكلف الذي يتساءل لماذا يدفع اعاسة الاكليروس الانغليكاني وليس للكنيسة الانغليكانية . ومؤمنون في أكثر النواحي .

ولكن الكاثوليك كانوا يتظاهمون بخاصة من الحالة التي وضع فيها الاكليروس الكاثوليكي : فقد فقد هذا الاكليروس ، بعد الفتح الانكليزي ، جميع أبنية العبادة بعد أن صودرت لصالح الكنيسة الانغليكانية . ولذا اضطر الكاثوليك الايرلنديون أن يعمرؤا على نفقتهم كنائس جديدة ، وقد بنوا أكثر من ٢٤٠٠ كنيسة . وكان الاكليروس الايرلندي يأخذ ثقافته الدينية

في القارة ، لأنه لم يكن في إيرلنده مدارس اكليركية ، ويتلقى تعليمه الديني في لوفن ، في بلجيكا ، وفي باريس ، وفي سالامانكا في اسبانيا . الا أن مدرسة كاثوليكية اكليركية انشئت حديثاً بالقرب من دبلن ، وهي مدرسة ماينوت : وكان الاكليروس الكاثوليكي الايرلندي يضم الاكليروس العصري ، لأنه وجد ما يقارب ١١٠٠ كنيسة كاثوليكية ، مع خوارنة ومن يقوم مقامهم . ووجد اساقفة ايرلنديون ، وكانوا كثيراً وعددهم ثلاث وعشرون . يضاف إلى ذلك الاكليروس النظامي ، وكان يضم بخاصة نظم التعليم : الدومنيكان ، الاغستينيين ، وأخوة القديس - باتريك . ولا يتقاضى هذا الاكليروس الكاثوليكي ، في إيرلنده ، أي مساعدة من الدولة ، ويعيش فقط من التكاليف التي يدفعها طواغية المؤمنون التابعون للكنائس .

وفي المناطق التي يتساكن فيها الكاثوليك والبروتستانت ، كما في قسم عظيم من الاولستر ، حيث يوجد ٤٠٪ من الكاثوليك في مجموع الاقليم ، كان الانفصال المعنوي تاماً بين عنصري السكان البروتستانت والكاثوليك . فلا يوجد بينهما زواج مختلط ولا علاقات اجتماعية ولا استقبالات ، وليس بينهما إلا علاقات أعمال .

لماذا هذا الكره المتبادل ؟ يجب أن نفكر أن البروتستانت كانوا مشيخين ، أي تابعين للكنيسة البريسبيتيرية ، وكان هؤلاء يكرهون الاكليروس الكاثوليكي ، ومتشدين في ايمانهم . وكانت كلمة الامر فيما بينهم ، كما في عصر الاصلاح الديني ، لتسقط « البابية » ويريدون بذلك الكنيسة الكاثوليكية وسلطة البابا . وكانت تغذيهم بهذه الأفكار منظمة « الجمعية الاورانجية » . ولم تكن هذه الجمعية كثيرة العدد ، ولكنها نشيطة ،

ولها حجيرات تسمى « الواج » في اقليم اولستر كله . وكانت هؤلاء البروتستانتيون متعلقين عن تصميم بفكرة الهيمنة البروتستانتية .

ومن جهة أخرى ، كانت روح العداوة تغذي الكاثوليك حيال البروتستانت بواسطة الاكليروس : فقد كان الاكليروس الايرلندي قومياً ، وله دور سياسي ويجرّص على استقلاله حيال الدولة : ففي ١٨٠٨ وضعت خطة كونكوردات يمكن أن تسمح للكنيسة الايرلندية بالحصول على مساعدات من الدولة ، ولكنها تعطي الى الحكومة حق الاشراف على رسم الاساقفة ، فرفضها الاكليروس الكاثوليكي . ومع ذلك فقد بذل الكاردينال رئيس أساقفة دبلن ، المونسنيور كولن ، في العام ١٨٦٠ ، جهداً لتعديل النشاط السياسي عند اكليروسه . وكان هذا الاكليروس يحتفظ بنفوذ معنوي عظيم . ففي الصعوبات التي كانت تنشأ بين المالكين والمستأجرين ، وكانت كثيرة في الحياة الايرلندية ، كان للخوري كلمته التي يقولها في فصل الخصام .

وكان الحوري الايرلندي يمارس هذا النفوذ ، لأن عاطفة الشعب الدينية كانت حية وشديدة ، وقد ازدادت « باضطهاد » الانكليز ؛ ولأن الكاهن ظل زمناً طويلاً قائداً وحيداً ، وحامياً وحيداً في أوقات الحن . وأخيراً كان الكاهن ، عادة ، في أكثر القرى الايرلندية ، الفرد المثقف الوحيد ثقافة كافية .

٢ — الحالة الاقتصادية والاجتماعية

كان الاقتصاد الايرلندي قبل كل شيء اقتصاداً زراعياً . لأن أكثر من ثلثي السكان كانوا يعيشون من الزراعة فقط. ولا يوجد صناعات إلا في الحركات القومية ٣ - (١٦)

مدينتين : بلفاست ودبلن ، وبخاصة صناعة النسيج . وإذا لم يتوصل إلى انشاء صناعات أخرى في إيرلنده فذلك لأن فيها قليل من الفحم ، ومن الصعب على الصناعة الايرلندية ان تناضل ضد المنافسة الانكليزية .

ولهذا السبب كان الازدهار في هذا البلد متعلقاً بالأرض وبالحياة الزراعية فقط . ولهذه الحياة الزراعية شكلان : تربية الحيوانات والزراعة . وحسب احصاءات العصر ، في ١٨٧٢ ، وجد في ايرلنده ٦٨٠٠٠ مالك اطيان . وكان هؤلاء المالكون على نوعين مختلفين : من جهة كبار المالكين وعددهم نحو ١٤٠٠٠ ويسمون « اللاندلوردات » ، ويملكون وحدهم ٩٧٪ من سطح البلاد . وكان الواحد منهم يملك أملاكاً واسعة تبلغ مساحة أصغرها أربعون هكتاراً ، ولكن بعضهم كان يملك عشرة آلاف ، ثلاثين ألفاً ، وحتى أربعين ألف هكتار . ومن جهة أخرى ، ان ٣٪ الباقية من سطح الأرض كانت موزعة بين ٥٤٠٠٠ ملك صغير . وكان الواحد منهم يملك هكتاراً واحداً أو نصف هكتار ، حتى ان منهم ٣٦٠٠٠ مالك كان يملك أقل من نصف هكتار .

كان كبار الملاكين ، « اللاندلوردات » ، يؤجرون أراضيهم إلى « مستأجرين » . وكان على بعض الأملاك عدة مئات من المستأجرين ، وأحياناً في الأملاك الكبرى ، عدة ألوف .

وكانت الاكثوية العظمى من اللاندلوردات انكليزاً ، وقد استقروا بعد الفتح ، وكانوا في أكثر الأحيان ، لا يحرصون على الإقامة في ايرلنده ، ويقضون معظم وقتهم في انكلترا ، لأن الحياة الاجتماعية الانكليزية تجذبهم إليها ، على حين أن الحياة الايرلندية لا تعجبهم ولا تسرهم . وكان أولادهم يذهبون للدراسة في الجامعات والكليات الانكليزية . ولذا كان

الاندلوردات يغيبون عن أراضيهم ويتركون ادارة املاكهم إلى وكيل أو عدة وكلاء ، وكان هؤلاء على العموم انكليزاً أيضاً .

وبين ١٨٤٦ و ١٨٥٢ حدث تغير هام في الحياة الاقتصادية في ايرلنده : ففي ١٨٤٦ تضررت الزراعة الايرلندية بسبب مرض البطاطا ، وكان لهذه الزراعة أهمية كبرى في الحياة الزراعية الايرلندية . وأدى مرض البطاطا إلى مجاعة حقيقية ، مجاعة خطيرة جداً ، حتى ان قسماً من الشعب الايرلندي لم يرموداً غير الهجرة : وذهب الايرلنديون بثبات الألوف إلى الولايات المتحدة في ذلك العصر . وبعد هذه الهجرة الجماعية انخفضت أسعار المنتجات الزراعية في ايرلنده ، ورأى كبار الملاكين أن الحنطة تباع بسعر سيء . ولذا قرروا أن يحولوا مستغلاتهم ، وأن يتركوا الفلاحة ويتبنوا « الرعي » . وهذه العودة من الفلاحة إلى الرعي تعتبر حادثاً هاماً للغاية : ففي ١٨٥١ كان سطح الرعي يتجاوز كثيراً سطح الفلاحة . وبحسب الانكليزون مساحة الأراضي بـ « الاربنت » ، والاربنت يعادل تقريباً نصف هكتار : إذن ، في ١٨٥١ ، كان يوجد ٨٧٠٠٠٠٠٠ آربنت أراضي رعي مقابل ٤٦٠٠٠٠٠ آربنت أراضي فلاحة . وازداد هذا التطور فيما بعد : ففي ١٨٨٥ وجد أكثر من عشرة ملايين آربنت رعي ، و ٢٩٠٠٠٠٠٠ آربنت فلاحة فقط .

نتائج التحويل . - أما نتائج هذا التحويل فكانت أولاً زيادة الحيوانات بالطبع . فقد ازداد عدد البقر والضأن زيادة عظيمة . ولكن الذي يهناهم الناس . فماذا جرى بهم ؟ ان تحويل الفلاحة إلى رعي كان من نتيجة نقص اليد العاملة الضرورية للاستغلال . فقد وجد في كل عام عدد من الفلاحين والمستأجرين ممن فقدوا الاراضي التي يزرعونها ، لأن الملاك الكبير قرر ألا يفلح أراضيهم وأن يحولها إلى مراعي وبالتالي ، لم يعد

بحاجة إلى مستأجرين عديدين . وكانت النتيجة أن الفلاح ، الذي طرده الملاك ، حاول أن يجد أرضاً أخرى في مكان آخر ، ولكنه لم يتمكن من إيجادها الا بالحصول على جزء من أرض يزرعها آخر .

وهكذا كان للأزمة الاقتصادية نتائج اجتماعية عظيمة الأهمية .

النتائج الاجتماعية . - لقد حصل في الغالب أن المستأجرين لم يستطيعوا ان يدفعوا أجارهم : بسبب سقوط أسعار الحاصلات الزراعية . وفي هذه الحالة كان يحق للملاك الكبير ، اللاندلورد ، ان يطرد المستأجر عند انتهاء الاجار ، اذا فضل ، باعتباره ، مالكاً كبيراً ، أن يحول اراضيه إلى مراعي عوضاً عن أن يتركها للفلاحة . ويقال عندئذ ان المستأجر « مطرود » . وقد كان الطرد عظيماً بين ١٨٤٩ و ١٨٥٢ حتى ان المؤلف الانكليزي ثو في كتاب له عن « القضية الايرلندية » كتب أنه طرد بين ١٨٤٩ و ١٨٥٢ نحو ٥٨٤٠٠ مستأجر . وإذا عدت النساء والأطفال وجد أن ما يمثل أكثر من ٣٠٠.٠٠٠ امرأة كن مضطرات لمخادرة البيت الذي كن يسكنه ، لأنهن مستأجرات ، ودون مأوى وليس لهن ما يسد رمق الفؤاد . وإذا أخذنا بما قاله مؤلف انكليزي آخر يدعى هاموند الذي نشر مؤلفاً عظيماً عن « غلادستون وقضية ايرلنده » وجدنا عدد المطرودات أضعف بقليل أي ٢٠٠.٠٠٠ شخص . ولكن القصد ، بلا منازع ، حسب رأي الانكليز أنفسهم ، هو أن هذا الحادث كان غالباً جدياً .

ما هو مصير هؤلاء الفلاحين المطرودين ؟ كانوا يعيشون عيشة بائسة في قرى أخرى ، أو أنهم يهاجرون إلى الولايات المتحدة . وإذا لم يجدوا أرضاً للفلاحة ، ولم ينجحوا في الحصول على « قطعة » أرض ، لا يجدون

أمامهم إلا شيئاً واحداً وهو الذهاب وتسجيل اسمهم في « دارة العمل » . ولكن الادارة الانكايزية كانت ترفض مساعدة كل من كان يملك في السابق حقلاً متوسط الأبعاد ، ولذا كان يرى فلاحون من كانت حالهم موسرة قد أصبحوا يعيشون عيشة بائسة فظيعة جداً بعد أن طردوا .

ترك هذا الطرد في قلوب الايرلنديين مرارة شديدة . فضلاً عن أن المالك الكبير في ايرلنده كان يؤجر الأرض « عارية » ، وإذا بقي المستأجر عليها عدة سنوات كان يقوم بتحسين أرضه ، ولكنه إذا طرد كان يفقد ثمار أتعابه وتحسيناته التي أجراها لأنها تبقى للمالك . وإذا بنى عليها مخزنًا أو غرس أشجاراً ، كان كل ذلك مكسباً للمالك .

وفي ختام تحويل الفلاحة إلى مرعى في غرب ايرلنده بخاصة نجدنا أمام الحالة التالية : من جهة ، املاك واسعة خالية تقريباً ، لأنها أصبحت مراعي مع بعض الدور المبعثرة لحراس الحيوانات ؛ ومن جهة أخرى ، في مكان آخر ، اكداس بشرية في الأراضي الجاهزة للزراعة والفلاحة . وهذا ما كان يسميه الانكايز « المناطق المحترقة » حيث كان الفلاحون يعيشون في أكواخ حقيرة ويتغذون بالبطاطا خاصة . ولنذكر على سبيل المثال : منطقة كونيية مايو في غرب ايرلنده حيث نجد ٦٠٠٠٠ هكتار مراعي و ٦٠٠٠ هكتار مزروعة فقط ، على حين أنه كان يوجد في هذه المنطقة ٤٠٠ عائلة فلاحة ، أي ان جميع عائلات الفلاحين تقريباً كانت تعيش في هذه المنطقة على أرض مساحتها أقل من هكتار .

ونظراً لهذا البؤس ، حاول الفلاح الايرلندي أن يكسب حياته في غيرها . ولهذا السبب انساحت بدءاً من ١٨٤٦ موجة هجرة عظيمة ، واستمرت حتى عام ١٩٠٠ ، واتجهت بخاصة نحو الولايات المتحدة . وكانت النتيجة نقصاً سريعاً في سكان ايرلنده : ففي ١٨٤١ كان سكان ايرلنده

٨١٧٥٠٠٠ نسمة ؛ وفي ١٨٥١ ، لم يكن فيها أكثر من ٦٥٥٠٠٠ ؛ وفي ١٨٧١ وجد ٥٤٠٠٠٠٠ ؛ وفي ١٩٠٠ لم يكن السكان أكثر من ٤٥ ملايين (أربعة ملايين ونصف) . ونقص عدد سكان أيرلنده بقدر النصف في نصف قرن . ومن الطبيعي أن تكون هذه الهجرة قد تناولت بخاصة العناصر الفتية : فقد كانت سن ثلاثة أرباع المهاجرين أقل من خمس وثلاثين عاماً .

ولعلنا ندرك في هذه الحالة أن الأيرلنديين الذين يغادرون وطنهم ما كانوا ليغادروه فوحي القلب ، ولذا كان يملكهم الغيظ والغضب على الانكليز ، كبار المالكين . حتى ان هذا الغضب ، الذي يملك الفلاحين المطرودين ، كان يعبر عنه بجرائم . وكان « القتل الزراعي » ، كما يقول الانكليز ، نقداً (عملة) شائعاً في ذلك العصر : فقد تكونت بين الفلاحين جموع صغيرة سرية قررت القيام بأعمال الانتقام من ملاك طردهم دون سبب مقبول ، أو لأنه لم يشأ أن يعطيهم تعويضاً على التحسينات التي أجروها في أرضه . وعندما يوقف المجرمون ويمثلون أمام محكمة الاستئناف ، كانت المحكمة تهرىء ٥٠٪ من هذه الحالات ، لأن المحكمة كانت مؤلفة من الأيرلنديين .

٣ — الحانة السياسية

لم يكن للأيرلنديين بموجب « صك الاتحاد » لعام ١٨٠٠ برلمان خاص ، ولكن كان لهم الحق في أن يكون لهم نواب في مجلس العموم وحتى ١٨٢٩ ، تاريخ قانون التحرير ، كان هؤلاء النواب بروتستانتاً فقط ، لأنه لم يكن للكاثوليك الحق في ممارسة الوظائف العامة . ولكن منذ ١٨٢٩ ، كان للكاثوليك ممثلهم . ومن البديهي أن يكون قانون

الانتخابات الانكليزي مطبقاً في ايرلنده . غير أن قانون الانتخابات الانكليزي لعام ١٨٣٢ لا يعطي حق التصويت الا لعدد محدود من الناس . وفي ١٨٦٨ أيضاً ، كان يقدر ان العدد الكلي للناخبين ٢٢٠.٠٠٠ في ايرلنده . وكان هؤلاء الـ ٢٢٠.٠٠٠ ناخب ينتخبون ١٠٣ نواب إلى مجلس العموم . وحتى ١٨٧٢ ، كان التصويت عاماً : ومن هنا ندرك حالة الفلاح الايرلندي ، الذي يعلم بأن ملاكه يمكن أن يلقي به الى الخارج ، ويخشى قبل كل شيء أن يطرد . وفي يوم التصويت ، هذا التصويت الذي كان علنياً ، كان من مصلحته أن يصوت في الاتجاه الذي يوحى اليه به الملاك الكبير الذي يشتغل لحسابه . ومن جهة أخرى ، كان النظام الانتخابي يفيد سكان المدن على حساب سكان الريف : لأنه كان للفلاحين الايرلنديين تمثيل أقل من سكان المدن حيث يوجد معظم الانكليز .

ومن ناحية أخرى ، كان الانكليز ، في ايرلنده ، يوجهون الادارة المحلية : فقد كان اللورد - القائمقام - أي نائب ملك ايرلنده ، يقيم في « قصر » دبلن ، والشرطة في انكلترا انكليزية . وأخيراً كان الانكليز يديرون الكونغريات الايرلندية .

وما فتئ الايرلنديون يشكون هذه الحالة . ولكن هذه الشكاوى كانت قليلة الصدى في انكلترا . فقد كان كبار الملاكين ، اللاندلوردات الانكليز ، مدعومين من قبل اللاندلوردات في انكلترا الذين كانت لهم نفس المنافع التي يدافعون عنها . وكان اللاندلوردات انكلترا تفوق لا في مجلس اللوردات فحسب ، بل أيضاً ، حتى ١٨٦٧ ، في مجلس العموم . ومن جهة أخرى ، كان رأي الانكليز لا يتلاءم مطلقاً مع الايرلنديين وفي غير صالحهم . فقد كان الانكليزي المتوسط يشعر حيال الفلاح الايرلندي بأعمق الاحتقار ، وكان الانكليز يستأمنون من هؤلاء الايرلنديين ويعتبرونهم

« هجأ » وبخاصة بسبب « القتل الزراعي » الذي تكلمنا عنه . ولذا كان من الصعب الحصول من البرلمان الانكليزي على فكرة القيام باصلاحات لصالح ايرلنده . وظل الاصلاح حتى ١٨٦٥ مستحيلاً عملياً ، لأن الوزير الانكليزي الأول ، بالمرستون ، كان يحقر الايرلنديين احتقاراً عميقاً ويريد الحفاظ في ايرلنده على سياسة السلاطة .

الاحتجاج الايرلندي . - أخذ الاحتجاج الايرلندي ، بين ١٨٥٠ و ١٨٥٦ ، شكلين : شكلاً يمكن أن يسمى قانونياً وشكلاً ثورياً . الاحتجاج القانوني . - ظهر هذا الشكل في تجمع الايرلنديين في رابطات ، وفي عصبات : ففي ١٨٥٠ تشكلت «عصبة حقوق الفلاحين» وتبنت هذه العصبة برنامج مطالب عرف تحت اسم برنامج الثلاث « F » وهذا الحرف هو الحرف الأول من ثلاثة شعارات تبنتها العصبة . وهذه الشعارات هي : اجار معقول ، ثبات الأرض ، حرية البيع .

الاجار المعقول ، يعني أن الفلاحين كانوا يطالبون بأن يكون مبلغ اجارهم ثابتاً ومحدوداً بسعر معقول بالتحكيم أو بالقانون . وثبات الارض ، يعني أن المستأجر لا يمكن أن يطرده الملاك مادام يدفع اجاره .

وحرية البيع ، تعني حرية المستأجر في بيع حقه تأجيراً ، فاذا عقد اجاراً مع ملاك ، استطاع أن يبيع حقه في الاجار إلى فلاح آخر ، على حين أن المستأجر ، في العرف الايرلندي ، إذا كف عن الاستغلال ، حتى أثناء الأجار ، ليس له حق في أن ينقل اجاره إلى خلفه .

وقد استطاعت هذه العصبة أن تعمل على انتخاب خمسين من أعضائها

في الوفد الايرلندي إلى مجلس العموم الذي كان يضم ١٠٣ ايرلنديين . ولكن هذا لم يؤد إلى كبير نتيجة : ففي عشرين عاماً لم تحصل العصبة على شيء . وفي ١٨٦٠ صدر قانون قبل ، في بعض الحالات فقط ، أن يعطي الملاك تعويضاً إلى المستأجر المطرود إذا أتى هذا المستأجر بتحسينات على الأرض التي استأجرها .

ومن جهة أخرى ، وجدت في ايرلنده منظمة سياسية كانت تعمل ، هي أيضاً ، بالطرق القانونية وتسمى « العصبة القانونية » . وكانت تطالب باستقلال ايرلنده الذاتي ، أي أن يكون للايرلنديين الحق في سن قوانينهم الخاصة بهم . وهذا يعني الغاء صك الاتحاد لعام ١٨٠٠ الذي قرر أن يكون للايرلنديين فقط نواب في البرلمان الانكليزي ، ومنع ايرلنده الحق بأن يكون لها برلمان خاص بها . وهذا الاستقلال التشريعي هو ما سمي فيما بعد « الحكم الذاتي » . وكان الغرض ، الذي وسعته هذه العصبة القومية ، ان الايرلنديين الحقيقيين هم الايرلنديون الكاثوليك الفلاحون الذين يشكلون أربعة أخماس الشعب ، وليتمكن الايرلنديون من الحصول على تشريع ملائم من الوجهة الدينية ومن الوجهة الزراعية يجب إقامة برلمان ايرلندي .

ولم يكن في البرلمان الانكليزي الا ١٠٣ نواب ايرلنديين على ٦٠٠ نائب . وهذا يعني أن الانكليز هم الذين يسنون القوانين التي يجب أن تطبق في ايرلنده . ولو وجد برلمان ايرلندي لكان أربعة أخماس النواب كاثوليكين ويمثلون مصالح الفلاحين ، والثلث فقط يمثل مصالح البروتستانت وكبار الملاكين ؛ وبالتالي ، تسن القوانين لصالح الفلاحين ولصالح الكاثوليك . هذا هو الفارق الأساسي .

الاحتجاج الثوري . - ومن جهة أخرى وجد احتجاج ثوري . وكان من عمل جمعية سرية ، جمعية « الفتيان » ومنها أتى اسم « الفينانية » الذي أطلق على هذه الحركة .

منذ ١٨٤٦ هاجر مئات الألوف من الايرلنديين ، كما رأينا ، إلى الولايات المتحدة . وظل هؤلاء الايرلنديون متجمعين في نفس المناطق : فقد وجد الكثير منهم في شيكاغو . وبين هؤلاء الايرلنديين المتأمركين تشكلت ، في العام ١٨٥٧ ، « جمعية الفتيان » . وجاء هذا الاسم من بطل اسطوري في تاريخ ايرلنده . تأسست هذه الجمعية على يد شاب مفكر اسمه جون اوماهونه درس في ايرلنده في « كلية الثالوث » في دبلن . وانشأت الجمعية مباشرة فرعاً لها في ايرلنده ، وكان رئيس هذا الفرع جون ستيفانس . وبرئاستها اعداد ثورة مسلحة ضد السيطرة الانكليزية . ويقول ستيفانس : إن هذه الثورة يمكن أن تنجح بمساعدة ايرلندي امريكا الذين يستطيعون أن يقدموا المال ويرسلوا الأسلحة ؛ وبمساعدة الجنود الايرلنديين الذين كانوا كثيراً في القطعات الانكليزية - وكانت الجيش الانكليزي يساق بتعهدات المتطوعين فقط . - هذا ولما كان الشعب الايرلندي فقيراً جداً ، وبائساً جداً ، فقد وجد كثير من الشباب الايرلنديين الذين لا يملكون وسائل العيش ، وخلصوا إلى الانخراط في الجيش الانكليزي . ولهذا السبب فكر الفتيان ، ولا شك ، بأنه يوجد بين الجنود الانكليز عدد من العناصر ممن يمكن أن يرفض الزحف عندما يراد النضال ضد الايرلنديين الثائرين . وإذا ما نجحت الثورة ، أعلن الفتيان استقلال ايرلنده وفصلها عن انكلترا أو انشاء جمهورية ايرلنده ولكنهم كانوا ينوون أن يدخلوا في جمهورية ايرلنده كل ايرلنده بما فيها اقليم اولستر حيث كان قسم من السكان بروتستانتياً وانكليزياً .

انشأت الجمعية جريدة تسمى « الشعب الايرلندي » وكانت تطبع سرّاً ونوسع الغرض الآتي . من العبث النقاش مع الانكليز ، ومن العبث أن يطلب اليهم منح ايرلنده الاستقلال الذاتي « الحكم الذاتي » ، ولو منحوه لما أفاد في شيء : فهم يعتبرون دوماً أن ايرلنده بلد ملحق ، فلا تحاولوا النقاش : ان انسلكترا لن تتنازل أبداً إلا أمام القوة .

وجمعت هذه الحركة الفنيانية مشتركين من بين المفكرين والحرفيين والمستخدمين . ويبدو أن مشتركها من بين الفلاحين كانوا قليلين . ومع ذلك كان الفلاحون الايرلنديون مستائين جداً من السيطرة الانكليزية وقادرين على حركات غضب مفاجئة يذبحون فيها الملاكين أو وكلاءهم . غير أنهم لم يكونوا قادرين ، في ذلك الحين ، على الاسهام بنشاط في حركة سياسية مستمرة ، ولا يفعلون شيئاً إلا إذا قال لهم اكليروسهم افعلا . وبالرغم من أن الاكليروس الايرلندي قومي وفي أعماقه مناوئاً للانكليز ، لم يدعم حركة الفنيان . فقد حذر رئيس اساقفة دبلن اكليروسه من خطر السير في هذا الطريق .

وقد تشكلت أطر هذه الحركة بخاصة من الايرلنديين المقيمين في امريكا ، ورجعوا إلى ايرلنده ليوجهوا المنظمة . وعاد هؤلاء الايرلنديون الاميريكيون بخاصة ، ابتداءً من ١٨٦٥ ، ولم يكن بإمكانهم ، بين ١٨٦٥ و ١٨٦٥ مغادرة الولايات المتحدة بسبب حرب الانفصال . فقد استنفروا أثناء هذه الحرب ، وتعلموا مهنة السلاح ولما سرحوا فكروا بأن الوقت قدحان للذهاب إلى ايرلنده ، وانهم ، بمعارفهم العسكرية التي اكتسبوها ، لا سيما وأن بعضهم أصبحوا ضباطاً في الجيش الاميركي ، يمكنهم محاولة تنظيم حركة ثورية في ايرلنده .

ففي ذلك الحين أصبحت حركة « الفتيان » جدية . وتلقى البوليس الانكليزي ، في ١٨٦٥ ، تعليقات واضحة : فقد علم بوجود مؤامرة . وقام بغارة على مكاتب الجريدة السرية « الشعب الايرلندي » واوقف جميع محرري جريدة ستيفانس زعيم المنطقة الذي استطاع أن يفر صدفةً ، وحكم على المتهمين بعقوبة السجن . وبقي أحدهم واسمه اوليري في السجن عشرين عاماً ، لأنه أسهم في منظمة « الفتيان » . ولكن الحركة ، بالرغم من توقيف كبار زعمائها ، استمرت في منطقة دبلن ، وكورك ، أي في الشرق وفي الجنوب الغربي من ايرلنده . واكتشف البوليس ، في كل مكان تقريباً ، مستودعات أسلحة في سبيل الثورة .

عندئذ قررت الحكومة الانكليزية ، في شباط ١٨٦٦ ، أن تعلق في ايرلنده المبدأ الذي لا يوقف بوجه أي مواطن انكليزي دوت حكم . وبوجب قانون خاص بايرلنده ، قانون الاستثناء ، الذي صوت عليه في شباط ١٨٦٦ ، تلقت الشرطة الايرلندية السماح بتوقيف جميع المشبهين خلال ستة أشهر ، والاحتفاظ بهم في السجن دون محاكمتهم (لأنه يخشى من أنهم إذا حوكموا أن يبرأوا) . وتم التوقيف بالآلاف . واستمرت الحركة مع ذلك ، وبخاصة تحت دافع ايرلندي امريكا . وفي كانون الثاني ١٨٦٧ عقد الفتيان اجتماعاً كبيراً في الولايات المتحدة ، وتقرر في هذا الاجتماع أن « يبدأ بالحرب » ضد انكلترا . وبالحال تفجرت الثورات في مختلف نقاط ايرلنده . وقامت اضطرابات في كونتية كيري : فقد استولى عدة مئات من المسلحين على مخفر شرطة وقطعوا الحبل البرقي العابر للاتلسي من ايرلنده نحو الولايات المتحدة ، ولزم الأمر ارسال الجيوش لاعادة النظام . ثم قامت اضطرابات في شهر آذار ١٨٦٧ في منطقة

دبلن ، في منطقة ليميريك . وقطعت الخطوط الحديدية والخطوط
البرقية أيضاً .

وفي الوقت نفسه قرر الايرلنديون أن ينقلوا « عملياتهم » إلى الأرض
الانكليزية ، ووجهوا أنظارهم ، في شباط ١٨٦٧ ، إلى ترسانة شينستر التي
كانت تحرسها حامية مؤلفة من مائة رجل . وكان يراد الاستيلاء على
الحامية وأخذ الأسلحة . وتجمعت عدة مئات من الفتيان في مدينة شينستر ،
ولكن الضربة اكتشفت ، فقد أعلمت الشرطة الحكومة الانكليزية
عن وصول الكثير من الأجانب إلى هذه المدينة . فشكت في الأمر ،
واستدعت الجنود ، واخفق الهجوم الموجه على حامية شينستر . وعندما
حاول المتآمرون أن يتفرقوا أوقف عدد عظيم منهم ، سبعون أو ثمانون .
وبين الايرلنديين الموقوفين كييلي ، زعيم الجيش ، وكان جنرالاً امريكياً
أثناء حرب الانفصال ، وقد أراد أن يستولي على الترسانة .
وبعد أن أوقف كييلي أخذ بعربة إلى السجن ، فموسع الفتيان الفارين
من التوقيف إلا أن ارتموا على العربة وخلصوا كييلي ، ولم يربعدها أبداً .
ثم علم بأنه عاد إلى الولايات المتحدة . وحكم على ثلاثة من الفتيان الأخرى
بالموت ونفذ الحكم .

وقد أثارت قضية شينستر كثيراً من الهياج في انكلترا ، ووجهت
الملكة فيكتوريا رسالة إلى البرلمان الانكليزي تكشف عن خطورة
المؤامرة الايرلندية .

الفصل الثاني عشر

قضية أيرلنده

من ١٨٦٨ إلى ١٩١٠

لعبت القضية الأيرلندية في الدور الواقع بين ١٨٦٨ و ١٩١٠ دوراً من المستوى الأول في سياسة انكلترا الداخلية ، نظراً لما كان لها من انعكاسات خطيرة على الصعيد البرلماني .

أفقد ساعد النضال ، الذي قام به الأيرلنديون ، ضد السيطرة الانكليزية ، على الحصول على اصلاحات جوهرية ، ولكن هذه الاصلاحات كانت جزئية . فقد حصلوا على اصلاحات في المزارع الديني ، واصلاحات في الاراضي الزراعية ، ولكنهم لم يحصلوا على اصلاحات سياسية . وغرضنا الآن أن نبين كيف تمكن الأيرلنديون من الضغط على الحكومة الانكليزية بغية الحصول على هذه الاصلاحات ، ومن ثم نستعرض النتائج العملية التي كسبوها في هذا الدور .

١ — المحاولات الأيرلندية

نريد من هذه المحاولات أن نعرف كيف استطاع الأيرلنديون أن يثيروا اهتمام انكلترا بقضية أيرلنده ، مع أنها كانت غير مستعدة لذلك ، وأن تمنح المطالب الأيرلندية ما يرضيها ولو جزئياً . ولفهم هذه القضية

لا بد لنا من دراسة عمل الإيرلنديين أنفسهم من جهة ، ومعرفة موقف الأحزاب السياسية الانكليزية من جهة أخرى .

عمل الإيرلنديين . - لقد أخذ الاحتجاج الإيرلندي في العام ١٨٦٨ شكلاً عنيفاً في الغالب ، واستمر هذا العنف من ١٨٦٨ إلى ١٩١٠ .

ان « الجرائم الزراعية » ، أي حرائق الحقول التابعة إلى الملاك الكبير الذي وقعت المشاكل بينه وبين الفلاحين ، واطلاق العيارات النارية على وكلاء الملاكين الكبار ، وحتى الاغتيالات التي ارتكبت على شخص هؤلاء الوكلاء أو الملاكين الكبار ، كانت كثيرة . وكان وقع هذه الجرائم الزراعية على صلة مباشرة مع قضية الطود . ففي الدور ، الذي كثر فيه طرد الفلاحين ، كثرت هذه الجرائم مباشرة : ففي ١٨٧٧ وجد ٢١٧٧ طرد أي أن ٢١٧٧ فلاحاً طردوا من أرضهم على يد الملاك الكبير . وفي السنة نفسها وجد ٢٣٦ جريمة زراعية . وفي ١٨٧٩ وجد ٦٢٣٩ طرداً و ٨٠٣ جرائم . وفي ١٨٨٠ وجد ١٠٤٥٦ طرداً و ٢٥٩٠ جريمة زراعية . وهذا يدل على تزايد عدد الجرائم الزراعية .

وفي العام ١٨٨٢ بلغت الجرائم الزراعية حدها الأقصى : ففي شهر واحد ، في ١٨٨٢ ، أي في شهر نيسان وجد ٥٣١ محاولة اغتيال من كل نوع .

ومن جهة أخرى ، يلاحظ ، في بعض الأحيان ، محاولات ذات طابع سياسي موجهة ضد كبار الموظفين الانكليز . وكانت الحالة الشهيرة ، في ٦ أيار ١٨٨٢ ، مقتل اللورد كافنديش في فونيكس - بارك ، في دبلن : كان اللورد كافنديش ، قريباً لغلادستون ، وكبير الأبناء في إيرلنده . وبينما كان يجتاز البارك ، بالقرب من قصر دبلن ، هاجمته عصابة مسلحة

وقتلته مع مساعد أمين الدولة الذي يرافقه . وكانت هذه المحاولة من عمل منظمة سرية ، اسمها « اللاتيمهرون » ، وقد أنكر زعماء الحركة الايرلندية عملها . ومن جهة أخرى ، ارتكبت محاولات قتل بالديناميت في انكلترا نفسها ضد السجنون ، بخاصة ، وأيضاً في محطات لندن . وفي ١٨٨٣ حاول الايرلنديون الاعتداء على ابنة سكوتلانديارد ، أي مقر أركان البوليس الانكليزي ، في لندن ، ونسفها بالديناميت .

وأخيراً ، قام الايرلنديون بمظاهرات كبرى ، وأشهرها المظاهرة التي كانت في ٩ ايلول ١٨٨٧ ، واشتوك فيها ٨٠٠٠ شخص في كونتية يورك : ووقع فيها صدام عنيف مع البوليس الذي أطلق النار وقتل ثلاثة رجال من الايرلنديين . وفي السنة نفسها قام الايرلنديون ، في ١٣ تشرين الثاني ١٨٨٧ ، بمظاهرة كبرى ، في ساحة طوف الفار ، في لندن ، وانضم اليهم الاشتراكيون الانكليز . وهنا أيضاً قامت حملات بوليسية عنيفة وجرح مائة شخص ، ومات منهم اثنان متأثران بجراحها .

ومافىء الهياج الايرلندي يظهر بأشكال عنيفة . ولكنه لم ينجح بهذه الوسائل ، لأن الأعمال العنيفة لم يكن منها سوى تحريض العاطفة العامة الانكليزية ضد الايرلنديين . واذا حصل الايرلنديون على نتائج فذلك بطرق أخرى ، بالعمل البرلماني ، العمل الذي قاموا به في مجلس العموم . وكان يوجه هذا العمل البرلماني رجل يرتبط اسمه بشكل وثيق بتاريخ الحركة الايرلندية كله وهو باونيل .

بادنيل . - ولد بادنيل عام ١٨٤٦ . والجدير بالملاحظة أن هذا الرجل ، الذي سيصبح زعيم الحركة القومية الايرلندية ، كان انكليزياً وبروتستانتيًا . كان ابن ملاك كبير « لاندلورد » يعيش على مسافة من دبلن ، وكان

على صلة بالأوساط الرسمية . ولكن أمه كانت اميركية ، أو ، على الأصح ، من عائلة ايرلندية من اولستر هاجرت إلى الولايات المتحدة في القرن الثامن عشر ، وكانت بنت ضابط في بحرية الولايات المتحدة ، وترى القضية الايرلندية بعين تختلف تماماً عن أعين اللاندلوردات الانكليز .

كان بارنيل ابن لاندلورد ، وتربى تربية انكليزية ، وفي السادسة من عمره ارسل الى المدرسة في انكلترا ؛ ثم انتقل الى جامعة كمبردج . ولم يبرهن فيها على أي استعداد عظيم ، الا في الرياضيات . وغادر الجامعة دون أن يجتاز امتحاناته . ولم يعيش في ايرلنده إلا في طفولته الصغيرة ، لأنه من السادسة حتى العشرين عاماً كان في السكينة أو في الجامعة في انكلترا ، ولم يظهر ، عندما كان طالباً ، أي اهتمام بالقضية الايرلندية .

الا أنه عند رجوعه الى ايرلنده ، عام ١٨٦٥ ، ونحت تأثير امه ، أخذ يهتم بقضية ايرلنده وشجب السياسة الانكليزية علناً . وفي ١٨٧١ - ١٨٧٣ قام برحلة الى الولايات المتحدة واتصل بالايرلنديين فيها . وأكدت هذه الرحلة اقتناعه الذي تبناه فيما يتعلق بقضية ايرلنده .

وفي ١٨٧٦ ، وكانت سنه تسعة وعشرين عاماً ، فكر بالسياسة وانتخب في الدوائر الايرلندية نائباً لمجلس العموم . ولم يكن في ذلك الحين قادراً على الكلام أمام الجمهور ، وليس فيه شيء ظاهر يجلب النظر ، حتى ان الانطباع الذي تركه كان انطباع ضعف وبساطة . ولكن الشيء الذي يلفت النظر في هذا الرجل هو التباين بين مواهبه الخارجية الضعيفة جداً ، والعمل العظيم الفائق الذي قام به .

لم يكن عند بارنيل مواهب فكرية عظيمة ، على حين ان معظم الحركات القومية ٣ - (١٧)

رجال الدولة الانكليز في العصر كانوا رجالاً مثقفين جداً . ولم يكن فصيحاً ، وفي بدء عمله كان لا يتكلم جيداً بصراحة ولكنه توصل شيئاً فشيئاً ، بسائق المراس ، إلى اكتساب القوة والنشاط ، ولم تكن عنده موهبة الخطيب أو سحر المحدث . وكان أفضل اصدقائه مضطربين لمجاملته . وكان يعالج القضايا العملية ، ولا يرتفع الى الأفكار العامة . ولذا كان اسكويث ، الذي أصبح فيما بعد الوزير الأول في انكلترا ، يعجب لضالة بارنيل الفكرية ، ويصرح : د انني لم أسمع ابداً بارنيل يقول شيئاً جيداً حقاً - على الصعيد الفكري طبعاً . - وأخيراً كانت معارف بارنيل ضيقة جداً . كانت معارفه الرياضية بدائية ، بيد أنه كان يعرف الصناعة المعدنية بصورة كافية ويهتم بها . ولكنه ، خارجاً عن ذلك ، لا يعرف شيئاً تقريباً . والشيء النوعي النموذجي هو أنه يجهل مبادئ التاريخ الايرلندي ، وأخيراً ، لم يكن لهذا الرجل جاذبية شخصية كبيرة أو صفات خاصة تؤمن له شعبية في وظائفه بوصفه زعيماً للحركة القومية الايرلندية . وكان يدل على حيطة جليدية تدعو للدهشة . وتروى عنه نكتة تذكر دوماً : . فذات يوم اتى عمدة مدينة صغيرة الى بارنيل بشيك قيمته اربعون الف جنيه استرليني ، وقد جمع هذا المبلغ بمشقة من تكاليف (ضرائب) أناس متواضعين في مدينته . وكان يتوقع أن يستقبل بحرارة . الا أن بارنيل أخذ الشيك وسأل العمدة : هل فكرت بتظهيره ، دون أن ينبس بكلمة شكر أو تشجيع .

ومع هذا ، فقد كان رجلاً ذا نفوذ عظيم فائق : لأن له بعض صفات تميز طبعه وحكمه وخلقه . فقد كان يتمتع بقوة لا تقهر ، وبالجرأة ، والشجاعة ، والهدوء المطلق ، واللامبالاة التامة في كل ما يقال فيه ،

وحضور البديهة بشكل مدهش ، والاستقامة . وفي القضايا السياسية ، كان خصومه مضطرين إلى الاعتراف بولائه واخلاصه . وأخيراً ، كانت له نظرة لا تخيب . وفي الاستراتيجية البرلمانية ، كما يظهر اطمئناناً في الحكم نافذاً . وكان يعرف بشكل يدعو إلى الإعجاب ، كيف يميز نقاط ضعف الخصم ، ويجد ، في وسط الجلسة ، الحلول التي يجب تبنيها . وبالتالي كان بارنيل يمتاز « بعبقرية الزعيم » ، وكان يمتاز بشرف تصرفاته ، وحسن تربيته ، وهذا لم يضره في أن يكون زعيماً - فهو لم يخرج من الشعب بل خرج من الطبقة الارستقراطية الانكليزية . وهذا يؤمن له بعض السلطة وبخاصة بين الفلاحين الايرلنديين .

لقد أراد بارنيل أن يجعل « ايرلندة قومية » ، ويوحد الايرلنديين ، جميع الايرلنديين . وقد توجه قبل كل شيء ، وهو البروتستانتي ، إلى الكاثوليك أولاً ، وحاول ان يجذب ، الى هذه الحركة القومية الايرلندية ، بروتستانتين مثله . واراد أن يضم قوتين ظلتا الى الآن لا تسيران معاً في ايرلندة : القوة العظيمة للكنيسة الكاثوليكية ، والقوى الثورية ، ألفنيان . وأخيراً ، كان يعتمد باستمرار على الايرلنديين المهاجرين في الولايات المتحدة . وقام برحلة جديدة الى الولايات المتحدة عام ١٨٨٠ ليؤمن المساعدة المالية من الايرلنديين الاميركيين .

ولم تكن الطريقة التي استعملها بارنيل طريقة التمرد التي لا تؤدي الى شيء في نظره ، بل اراد أن يستعمل طرق الضغط والعمل في البرلمان الانكليزي ، وان يجمع ، خلفه ، في كتلة منظمة جيداً ، النواب الايرلنديين ليفرض على مجلس العموم المقاوم المتردد لزوم الاهتمام بالقضية - الايرلندية . وقد قال بهذه المناسبة : « أرى ، بأنني لا أستطيع أن -

انجح مع العجلة البرلمانية ، . ولكن هم الأول في النجاح مع « العجلة البرلمانية » كان في احداث الحلل بها ، واخترع اسلوب المناورة ، وذلك بأن يطالب الايرلنديون طوراً وطوراً بالكلام ويتناوبون على المنصة ، حتى ان بعض الجلسات كانت قدوم أربعاً وعشرين ساعة . ودامت احدى الجلسات ستاً وثلاثين ساعة لأن نظام مجلس العموم لا يسمح بمنع الخطيب من الكلام . وهكذا حاول الايرلنديون أن يجعلوا عمل البرلمان مستحيلاً . وكان بارنيل يقول : « سنكف عن هذه المناورة في اليوم الذي تهتمون فيه بالمطالب الايرلندية » .

وتوصل بارنيل لأن يكون له دور عظيم فائق . وقد قيل انه ظل خلال عشرة اعوام « ملك ايرلنده غير المتوج » . ولا شك في أنه وجد في ايرلنده ، هنا وهناك ، منشقون ولا يريدون أن يتبعوا بارنيل ، ولكنهم لم يجرأوا على كفاحه أو لم يكافحوه الا قليلا وبضعف شديد .

وكان نفوذ بارنيل حاسماً في ١٨٧٩ - ١٨٨٠ ، ولكنه كسر فجأة في عام ١٨٩٠ . وفقد « ملك ايرلنده غير المتوج » نفوذه بسبب فضيحة في حياته الخاصة : فقد كانت لبارنيل علاقة مع زوجته أحد زملائه في مجلس العموم وهي كاترينا اوشي . وهذه الصلة ، وان تكن مجهولة من الجمهور ، كانت معروفة عند رجال الدولة الانكليز : فقد كان غلادستون على علم بها ، حتى انه ، عندما يكون له ما يبلغه سراً الى بارنيل ، كان يمرره بطريق السيدة اوشي . ولكن القضية افترشت ، في كانون الأول ١٨٨٩ . وطلب الزوج الكابيتين (النقيب) اوشي الحكم بالطلاق . وفي ١٧ تشرين الثاني ١٨٩٠ صدر الحكم بحق بارنيل . وأصبح وضع الزعيم الايرلندي حرجاً ، لأن الرأي العام الانكليزي ، في هذا الاعتبار ، لا يقوم

برد فعل كالرأي العام الفرنسي : فقد كان يسوءه أن يزج رجل سياسي معروف في قضية زنا . واستغل خصوم بارنيل هذه الفضيحة . ويجب ألا ننسى أن القوميين الإيرلنديين كانوا كاثوليكين ، وأن هؤلاء الكاثوليكين يخضعون لتأثير الكليروسهم . ولذا نريد أن نعرف كيف كان رد فعل الكليروس الكاثوليكي الإيرلندي أمام هذه القضية .

الحق يقال ، أن الحزب الإيرلندي ، في البدء ، ظل مخلصاً لبارنيل ، واعد انتخابه زعيماً للكتلة البرلمانية الإيرلندية . وقال أحد أعضاء الحزب « هل توقف جنود واترلو ، أثناء القتال ، ليطلبوا من قائدهم ما إذا كان يراعي جيداً إحدى الوصايا العشر ؟ » . ولكن هذه الهدنة كانت قصيرة الأجل . وفي إنكلترا ، صرح « اللامتكيفون » ، البروتستانتيون المنشقون ، بأنه من غير المقبول أن يكون زعيم حزب برلماني ، مهما كان ، رجلاً حياته الخاصة مشبوهة .

وبالرغم من أن غلادستون ، زعيم الحزب الليبرالي الانكليزي ، له مصلحة في البقاء على صلات طيبة مع بارنيل ، فقد انتهى بالاعراب عن رأيه . ونشر في الصحافة رسالة صرح فيها بأنه ، بعد تفكير طويل ، وبالرغم من « الخدمات العظيمة التي قدمها بارنيل إلى بلاده - أي إلى إيرلنده - من المستحيل أن يستمر بارنيل في المحافظة على توجيه الكتلة الإيرلندية في مجلس العموم . وحاول بارنيل أن يتخلص من الورطة فنشر بياناً جواباً على غلادستون ، ولكن الكليروس الأعلى الكاثوليكي حكم على بارنيل . وفي كانون الأول ١٨٩٠ أبعد بارنيل عن توجيه الحزب الإيرلندي . ومات بعد ذلك بقليل ، في تشرين الأول ١٨٩١ .

ولم توطد وفاة بارنيل وحدة الحزب لان الإيرلنديين يتحمسون كثيراً

. ويختلفون فيما بينهم : ووجدت في قلب الحزب القومي الايرلندي كتلتان : الكتلة التي يوجهها جون ردموند وتمثل الاتجاه البارنيلي ؛ والكتلة الأخرى ويوجهها توم هيلي وقد أضعف هذا الخلاف ، بين الايرلنديين ، قوة الحزب القومي الايرلندي بعد ١٨٩٠ .

عمل الاحزاب السياسية الانكليزية . - وإذا أرنا أن نفهم نجاح جهود الايرلنديين ، يجب أن نلاحظ رد فعل الانكليز . ولقد رأينا أن الاحزاب السياسية الانكليزية لم تكن مهية مطلقاً لفهم القضية الايرلندية والاهتمام بها : ففي هذه النقطة كان الاحرار والمحافظون في وضع واحد . ولكن رد فعل الزعماء كان مختلفاً : ظل زعماء المحافظين يعادون المطالبين الايرلندية ، لأنهم يرون وجوب المحافظة قبل كل شيء على صك الاتحاد لعام ١٨٠٠ بين ايرلنده وبريطانيا العظمى ؛ وعلى العكس ، كان زعيم حزب الأحرار ، غلادستون ، لصالح المطالبين الايرلندية .

ويمكن القول ، في القضية الايرلندية ، عندما تؤخذ من وجهة النظر الانكليزية ، ان دور غلادستون كان فيها اساسياً . كان غلادستون يهتم بالأمور الاخلاقية ويطبق دوماً هذه الاهتمامات الأخلاقية في الحياة السياسية . وكان منذ زمن طويل يهتم بالقضية الايرلندية : ففي ١٨٤٥ ، أي قبل أن يصبح الوزير الاول بثلاث وعشرين عاماً ، كتب ، في رسالة إلى زوجته ، ان قضية ايرلنده « غيمة العاصفة الآتية » ولم يكن ليعرف بحق القضية الايرلندية في ذلك الحين . والحادث الذي يلفت النظر هو أنه لم يزر ايرلنده الا مرة واحدة في حياته ، في العام ١٨٧٧ ، ولم يدرس بطل القضية الايرلندية قضية ايرلنده الا بعد فوات الأوان ، عندما كان عمره ستاً وستين أو سبعة وستين عاماً .

ولقد دفعت اضطرابات ١٨٦٧ ، اضطرابات « الفتيان » ، غلادستون الى القيام بعمل في القضية الايرلندية ، بعد أن اظهرت هذه الاضطرابات اهمية القضية الايرلندية ، وأدرك منذ ذلك الحين وجوب البحث عن علاجات لهذه الازمة بشكل يبدل رأي الايرلنديين وابعادهم عن الاتجاهات الثورية . وقد فهم ، قبل جميع الانكليز الآخرين ، ان ما يثير استياء الايرلنديين إنما هو النظم الايرلندية . ولكنه كان يعلم جيداً أيضاً ، انه من الصعب جداً ان يذهب بانصاره الخاصين ، اعضاء الحزب الليبرالي الانكليزي ، إلى هذا المفهوم ، وكتب في ١٨٦٧ ، في رسالة إلى أحد أصدقائه بأنه ، إذا قرر أن يهتم بالقضية الايرلندية ، فمن الممكن أن « يؤدي بالحزب الليبرالي إلى الشهادة » . ومع ذلك فقد فعل ، لان قلبه دفعه إلى العمل أكثر مما دفعه اليه عقله .

ولنلاحظ ان هذا لم يمنع غلادستون ، في بعض الاحيان ، مثلاً في ١٨٨١ - ١٨٨٢ ، من أن يظهر شديداً حيال الايرلنديين ، لأنه كان مضطراً للقيام برد فعل أمام الاضطراب والعنف : فمن ذلك انه طلب التصويت في ٢ آذار ١٨٨١ ، على قانون القمع ، الذي يسمح للسلطة التنفيذية ، في ايرلنده ، بالقيام بتوقيفات وقائية أو تعسفية ، خارجاً عن جميع الظروف التي يحددها القانون : حتى انه اوقف بارنيل خلال ستة أشهر ، وهذا لم يمنعه بعد بضع سنين ، أن يكون على صلات طيبة مع الزعيم الايرلندي . ولا شك في أن شخص غلادستون قد سيطر على النقاش على صعيد الإصلاحات الايرلندية .

٢ — نتائج الدور من ١٨٦٨ إلى ١٩١٠

تجدر دراسة هذه النتائج من وجهات النظر الثلاث : الدينية والزراعية

والسياسية . فمن وجهة النظر الدينية حصل الايرلنديون تقريباً على مايرضهم تماماً . ومن وجهة النظر الزراعية ، حصلوا على اصلاحات هامة جداً . ومن وجهة النظر السياسية ، لم يحصلوا حتى ١٩١٠ على شيء .

أ) القضية الدينية . - كانت الكنيسة الانغليكانية في ايرلنده كنيسة « موطدة » أي كنيسة رسمية ولها نظام ممتاز . فقد كانت ، بخاصة ، ناجية « الأعشار » ، وكان الايرلنديون جميعاً ، حتى الكاثوليك ، يدفعون هذه الأعشار . وكان للكنيسة الانغليكانية كنائس في كل ايرلنده ، حتى ولو لم يكن لهذه الكنائس مؤمنون . وعندما أصبح غلادستون الوزير الاول ، في آخر ١٨٦٧ ، قرر ان يضع قضية الكنيسة الايرلندية . وكان يرى ان من العدل ان يرفع عن هذه الكنيسة الانغليكانية ، في ايرلنده ، وضعها الممتاز . ولم يكن هذا بالأمر السهل ، لأنه كان واثقاً من انه سيصطدم بمقاومات من جانب كنيسة انكلترا العليا ، ومن جانب مجلس اللوردات . ولكنه وضع مشروعاً وقدمه لمجلس العموم .

أثار هذا المشروع احتجاجات عنيفة من جانب المحافظين الانكليز ، حتى ان الملكة فيكتوريا نفسها تدخلت في هذه القضية . وقد عرفت الرسائل التي كتبها الملكة الى غلادستون ليتخلى عن مشروعه ، أو ، على الأقل ، ليخففه . وأجاب غلادستون الملكة بانه يشعر بأنه « ملزم » . بتحقيق هذا الاصلاح ، وانه من غير الممكن القيام باصلاح جزئي ، لان هذا لا يرضي احداً وأنه لا بد من تبني الحل الذي اقترحه هو .

صوت مجلس العموم بسهولة على مشروع غلادستون ، في الاول من آذار ١٨٦٩ ، بـ ٣٦٨ صوتاً مقابل ٢٥٠ . وكان يراد معرفة ما اذا كان مجلس اللوردات سيقاوم اولاً : وتدخلت الملكة ابضاً ، ولكن ، في .

هذه المرة ، لتهدئة اللوردات ، عندما فهمت ان غلادستون لن يتنازل . وكتبت بنفسها إلى رئيس أساقفة كانتربوري وحذرتة : وقد صوت على القانون بأكثرية قوية جداً في مجلس العموم ، فاذا رفضه مجلس اللوردات ، جازف بخلاف خطر . وبعد نقاش عاصف صوت مجلس اللوردات على القانون بأكثرية ٣٣ صوتاً .

وهذا القانون ، الذي أصبح قطعياً في تموز ١٨٦٩ ، قرر بأن تكون الكنيسة الانغليكانية ، في ايرلندة ، غير موطدة ، حسب التعبير الانسكليزي ، أي انها لم تعد كنيسة دولة : وفقدت حق جباية الضريبة من السكان . وكان لهذا العمل نتائج مختلفة :

النتائج السياسية : وهي ان الكنيسة الانغليكانية ، في ايرلندة ، لم تعد ، منذ الآن ، تابعة للدولة ، بل تدبر أمر نفسها بحرية : وأصبح الاساقفة الانغليكانيون في ايرلندة ينتخبون من قبل المجامع ؛ ولم يعد للكنيسة الانغليكانية في ايرلندة ممثلون في مجلس اللوردات أي انها لم تعد مؤسسة سياسية .

النتائج المادية : كان للكنيسة الانغليكانية في ايرلندة اموال جسيمة ، أراضي ، أبنية ، تمثل رأسمال يقدر بـ ١٦ مليون جنيه استرليني . وبموجب قانون إزالة الصفة الرسمية عن الكنيسة الانغليكانية في ايرلندة صادرت الدولة هذه الاموال التابعة للكنيسة الانغليكانية في ايرلندة ، أو استودتها ، وتركت للكنيسة الانغليكانية دور العبادة فقط . أما مصير هذه الاموال الكنسية فقد سلم نصفها تقريباً ، ويقدر بسبعة ملايين ونصف جنيه ، إلى جمعية تمثل الكنيسة الانغليكانية السابقة في ايرلندة ، وخصص هذا المبلغ لمساعدة الكنيسة الانغليكانية على دفع مرتبات اكليروسها . أما النصف الآخر ، أي السبعة ملايين جنيه الأخرى ، فقد سلمت الى مؤسسات

التعليم والاحسان والباقي ، وهو مبلغ صغير ، سلم الى المدارس الاكبر كية الكاثوليكية في ايرلندا . ومن جهة أخرى ، زالت الأعشار . وفقدت الكنيسة الانغليكانية حق جباية الاعشار ، أو ، على الاصح ، الرسم الذي يمثل الاعشار .

وبالتالي ، لم تسقط الكنيسة الانغليكانية في ايرلندا في البؤس . ولكنها فقدت وضعها الممتاز . وبهذا الاعتبار أرضى الاصلاح الرأي الكاثوليكي الايرلندي تماماً ، الذي كان يقول دوماً ان الكنيسة الانغليكانية في ايرلندا لانفع لها لا كثرة السكان ، وانما غنيت بغير حق بالمصادرات والاعشار . وبالاجمال اعترفت الحكومة الانكليزية بالمطالب الكاثوليكية الايرلندية .

ب (الاصلاح الزراعي) . - ان هذا الموضوع معقد ، ولكننا نقتصر على ذكر فكرة بجملة عنه . ولذا ذكر ، قبل كل شيء ، مطالب الفلاحين الايرلنديين : « ثبات الارض » ، و « حرية التخلي عن حق التأجير » وأخيراً « الاجار المعقول » .

لقد كان غلادستون يعتبر أن بؤس الفلاحين الايرلنديين لا يتسامح به فقط من وجهة النظر الاخلاقية ، بل انه كان في الوقت نفسه خطراً من وجهة النظر السياسية ، واذا رأى عدم وجوب تغذية حقد الفلاحين الايرلنديين الى ما لانهاية ضد الانكليز ، وطلب التصويت على اصلاحين زراعيين : احدهما سنة ١٨٧٠ والآخر سنة ١٨٨١ .

اصلاح ١٨٧٠ . - يتضمن هذا الاصلاح نقطتين يجدر ايضاحها : النقطة الأولى : وضع الاصلاح مبدئياً الحق ، لكل فلاح ، بالآلا يطرد مادام يدفع اجاره . ومع ذلك فقد احتفظ الملاك ، في بعض الحالات ، بإمكان طرد الفلاح ، حتى ولو كان يدفع الأجار ، واكن ، في هذه

الحالات ، على الملاك أن يدفع تعويضاً الى الفلاح . وفي هذه النقطة الاولى لم يحصل الفلاحون الايرلنديون الا على رضى جزئي .

النقطة الثانية : يمكن للفلاح أن يبيع حقه في التأجير ، ومع ذلك يحتفظ الملاك الكبير ، اللاند لورد ، بحقه ، في بعض الحالات ، في أن يعارض هذا البيع . وأخيراً يغادر الفلاح الحقل ، ولو بصورة غير ارادية ، وله الحق في أن يأخذ من الملاك تعويضاً عن التحسينات التي أدخلها على الابنية أو على الارض .

ومن جهة أخرى ، قرر قانون ١٨٧٠ أن يشجع الفلاح على شراء الارض شريطة أن يقبل الملاك الكبير ببيع هذه الارض . ولكن ، كيف يتمكن الفلاح من شراء أرضه ؟ لم يكن عنده مال : لذا قررت الدولة أن تسلف الفلاح ثلثي سعر الشراء ؛ وعلى الفلاح ، الذي يشتري الارض ، ان يدفع هذه السلفة خلال خمس وثلاثين قسطاً سنوياً وبفائدة ٥٪ . وكان هذا الاجراء غير كافٍ على وجه التأكيد : أولاً ، لأنه ينص على أنه يمكن للفلاح أن يشتري أرضه في الحالة التي يقبل الملاك الكبير أن يبيعها له . ثم انه لا يخول الفلاح إلا سلفة تبلغ ثلثي ثمن الشراء ، ولذا كان الفلاح مضطراً الى تدارك الثلث الأخير بالقرض ، وبالربا . وهكذا لم يتم أصول الشراء في شروط حسنة .

ولنشر الى أن قانون ١٨٧٠ لا يتضمن شيئاً فيما يتعلق بسعر الأجار . ولذا ظل الاجار المعقول معلقاً .

اصلاح ١٨٨١ . — أما القانون الزراعي الثاني الذي وضعه غلادستون فقد فرضه الايرلنديون اثر اضطراب كبير نظمته « العصابة الزراعية » التي كان رئيسها ميكائيل دافيت ، ولكن بارنيل ، في الحقيقة ، هو الذي

أوحى به . قررت عصبة دافيت الزراعية «مقاطعة» كل من يأخذ حقلاً طرد منه فلاحه السابق . فاذا طرد ملاك فلاحه ثم بحث عن فلاح جديد فان الفلاح الذي يقبل ان يحل محل الفلاح المطرود يعزل حالاً ويرفض جميع الفلاحين الايرلنديين أقل علاقة معه ، وليس فقط العلاقة الشخصية ، بل علاقة الأعمال . ولتهديئة هذا الاضطراب ، طلب غلادستون التصويت على قانون ١٨٨١ الذي حقق القسم الاعظم من برنامج الثلاثة « F » .

النقطة الأولى : كان للفلاح الحق في بيع اجاره دون ان يعارض الملاك الكبير في ذلك ، الا « لسبب معقول » . وهذا السبب المعقول تقدره المحكمة . ومن هنا حذف تسلط الملاك الكبير .

النقطة الثانية : يجب ان يحدد الأجار لمدة خمسة عشر عاماً من قبل محكمة خاصة تسمى « لجنة الأرض » ،

النقطة الثالثة : ان الفلاح الذي يملك أرضه بموجب قرار المحكمة ، اي الفلاح الذي حصل على حكم يحدد سعر الأجار ، لا يمكن ان يطرد ابداً اذا كان يدفع أجاره .

ولما كان عدد كبير من الفلاحين الايرلنديين مدينين باجارات متأخرة لملاكهم ، فقد قرر قانون ١٨٨١ الاعفاء من هذه الأجار اذا دفع الفلاح متأخر أجار عام واحد .

التطبيق العملي لهذا القانون . - والواقع ان المحاكم الخاصة ، عندما حددت سعر الاجارات ، انتهت الى تخفيض نحو ٢٠٪ بالنسبة الى الاسعار السابقة للاجارات . وتم الوصول الى هذه النتيجة ، بعد عدد عظيم من الدعاوى : فعلى ٥٠٠٠٠٠ فلاح ، مثل امام المحكمة ٣٦٠٠٠٠ . ومن هنا كانت التعقيدات .

أثار هذا القانون انتقادات عنيفة للغاية من قبل المحافظين الانكليز الذين ادعوا ان اللاندلوردات كانوا، اجمالاً ، محرومين من جزء من حقهم بالملكية . وقالوا ان هذا الاجراء « اجراء ثوري » . ومع ذلك ، ظل القانون غير كاف ، لأنه لم يعالج أخطر محذور في الحياة الزراعية الايرلندية وهي افراط تجزئة الأراضي الزراعية ، وافراط امتداد المراعي بالنسبة للأراضي الصالحة للزراعة .

وانسافت حكومات المحافظين في الدور ١٨٨٦ - ١٨٩٢ وفي الدور ١٩٠٢ - ١٩٠٥ ، في وزارة سالزبوري ووزارة بلفور ، إلى طلب التصويت على قوانين جديدة أرضت الايرلنديين جزئياً . وكان مبدأ هذه القوانين الجديدة تمكين الفلاح من شراء أرضه ، وبالتالي جعله ملاكاً . وهكذا أمكن الوصول إلى حذف الملكية الكبرى بالتدريج . ولتسهيل الشراء وضع قانونان : قانون ١٨٨٥ وقانون ١٩٠٣ .

قانون ١٨٨٥ . - قرر هذا القانون أن تسلف الدولة الفلاح ، الذي يريد شراء أرضه ، بكامل الثمن لا الثلثين فقط . ومن جهة أخرى ، جعلت المدة ، التي يدفع فيها الفلاح الثمن إلى الدولة ، تسعة وأربعين عاماً عوضاً عن خمسة وثلاثين . وقضى هذا القانون بأن الاجارات ، التي حددت بموجب القانون السابق لمدة خمسة عشر عاماً ، يمكن أن تخفض خلال هذا الدور إذا تغيرت الظروف الاقتصادية ، ولا يمكن أن تزداد . ولذا فالقانون لا يمكن أن يلعب دوره إلا لصالح الفلاحين .

قانون ١٩٠٣ . - وسهل هذا القانون الشراء أيضاً بتمديد الدور الذي يدفع فيه الفلاح ثمن الأرض . فقد جعل القانون ١٩٠٣ هذه المدة ٦٨ عاماً . وهذا بالطبع عبء ثقيل ، وشيئاً فشيئاً ، ثقل على خزانة الدولة ،

وبالتالي ، على المكلف ، أي على المكلف الانكليزي الذي ، كان في الواقع ، يدفع نفقات الاصلاح الزراعي في ايرلنده .

قانون المناطق المحققة . - ومع هذا ، فان كل هذا التنظيم لم يسهل قضية سعة المراعي . ولهذا السبب صوت على قانون آخر عام ١٨٩١ وهو قانون « المناطق المحققة » أي المناطق التي يتكبد فيها الفلاحون . وقد خول هذا القانون حق شراء الاملاك التي حولت إلى مراعي لتجرب هذه المراعي من جديد إلى أراضي زراعية . ونرى أيضاً في هذا النظام أن الخزانة الانكليزية هي التي تدفع دوماً نفقات الاصلاح .

وفي الواقع كان لهذه الاصلاحات الزراعية نتيجة جدية : ففي ١٩١٤ كان ثلثا الاراضي الزراعية في ايرلنده ملكاً للفلاحين الذين اشتروها ، وبالتالي بقي الثلث ملكاً لكبار الملاكين وهذا الحل غير كامل ، ولكنه جدير بالتقدير جداً بالنسبة للقضية الايرلندية .

ج (القضية السياسية . - لقد اخفق الجهد في القضية السياسية حتى ١٩١٠ . فنذ ١٨٧٠ وجدت في ايرلنده كتلة تسمى « رابطة حكم ايرلنده » تبنت مطلوب « الحكم الذاتي » ، أي أن هذه الرابطة كانت تطالب بإنشاء برلمان ايرلندي يشرع في القضايا الايرلندية . وقد انشأ هذه الرابطة اسحق بت ، القانوني الايرلندي ، في وقت لم يكن لبارنيل دور سيامي بعد . وهو الذي سعى في مجلس العموم ، في ١٨٧٤ ، لانتخاب أول كتلة من النواب تطالب بالحكم الذاتي .

لم يطالب أنصار الحكم الذاتي باستقلال ايرلنده ، وبالطى في سن قوانينهم الخاصة مع برلمانها الخاص ، بل قبلوا ببقائها متحدة مع انكلترا في قضايا السياسة الخارجية وفي القضايا العسكرية والبحرية .

وكان اسحق بت يقدم هذا المطلوب في جميع الأعوام من ١٨٧٤ إلى ١٨٧٩ ، وفي جميع الأعوام كان الاقتراح يرد بـ ٤٥٠ صوتاً مقابل ٦٠ . وكان عدد النواب الايرلنديين في ذلك العصر ٥٧ نائباً . ووجد بالضبط ثلاثة انكليز يصوتون مع الاقتراح ، ويشس بت ، لاسيا وأن الانكليز كانوا يعاملونه بكل احتقار . ولكن هذا المطلوب تناوله بارنيل وطبق طرقه الجديدة في المناورة ، وتوصل إلى نتيجة : ففي ١٨٨٥ توصل إلى خلق وضع يستطيع بوجهه التجمع القومي الايرلندي ، الذي وصل إلى ٨٠ عضواً - لأن قانون الانتخابات عام ١٨٨٤ وسع الهيئة الانتخابية ، وكان هذا التوسيع مفيداً للايرلنديين - أن يكون حكماً على الحالة السياسية : فكان يستطيع أن يعين الأكتورية في البرلمان ، حسبما يصوت « مع » أو « ضد »

وفي هذه الآونة اعتنق غلادستون ، زعيم الحزب الليبرالي ، علناً فكرة الحكم الذاتي . ومن المحتمل أن غلادستون ، منذ بضع سنين ، كان يفكر بذلك ، ولكنه لم يقله علناً . وفي الانتخابات العامة لعام ١٨٨٥ ، وجد غلادستون أن ايرلنده انتخبت ٨٠ نائباً فصرح عندئذ : « إن هذا التصويت ، في نظري ، يسوي القضية ، وعندما يعبر الشعب عن ارادته بهذا الشكل ، لا يحق للحكومة الانكليزية ، باعتبارها حكومة ليبرالية ، أن تعارض هذه الارادة .

صرح غلادستون الى اصدقائه ، في كانون الأول ١٨٨٥ ، بأنه يجب تخويل ايرلنده الحكم الذاتي . وقد اعلن ابنه هربرت غلادستون هذا القرار في بلاغ مغفل نشر في الجرائد في ١٦ كانون الأول ١٨٨٥ . وكان هذا البلاغ حادثاً في التاريخ الانكليزي : ويسميه الانكليز « عقاب هاواردن » ، وهو اسم الملكية التي وجد فيها غلادستون وأرسل منها هذا البلاغ .

أما وصف هذا البلاغ بـ « مُعقاب » ، فذلك لأن هذا البلاغ « مزق أحشاء » الحزب الليبرالي الانكليزي وأحدث فيه الانقسام .

وعندما عاد غلادستون الوزير الأول في بداية ١٨٨٦ قدم إلى مجلس العموم مشروعاً يخول إيرلنده الحكم الذاتي . وبوجبه يكون لايرلنده برلمان في دبلن ، وهذا البرلمان يمكنه أن يعالج جميع الموضوعات المتعلقة بايرلنده ، عدا قضايا السياسة الخارجية والدفاع عن البلاد ، والقضايا الجمركية والقضايا النقدية (العملة) ، لأن البرلمان الانكليزي جعل هذه الأمور من اختصاصه . ولم يعد وجود للنواب الايرلنديين في البرلمان الانكليزي بالرغم من أن هذا البرلمان ظل يصوت بعض القوانين المطبقة على ايرلنده .

دام النقاش في هذا المشروع خمسة عشر يوماً . وخطب غلادستون خمس خطب عظيمة . ولكن بعض رجال الحزب الليبرالي العظام رفضوا أن يتبعوه فيما ذهب إليه : مثل جوزيف تشامبرلن وهوتينغتن . وعند التصويت على المشروع وجد ، على ٣٣٣ نائباً ليبرالياً ، أن ٩٣ تخلوا عن غلادستون ، وشكلوا كتلة ليبرالية « منشقة » . وفي هذه الظروف صوت الـ ٩٣ نائباً ضد المشروع ، وصوت جميع المحافظين أيضاً ضده . فرفض مشروع الحكم الذاتي . وعندئذ حل غلادستون مجلس العموم ، حسب التعامل البرلماني الانكليزي . وقامت حملة انتخابية عنيفة جداً ، واستعملت فيها عبارات تصدم العادات السياسية الانكليزية : فمن ذلك أن راندولف تشرشل ، اب ونستون تشرشل ، وكان من أنبه رجال حزب المحافظين ، شوهه يصرح في أحد خطبه الانتخابية أن مشروع غلادستون « مزيج من الجمافة والجنون والهستريا السياسية » ، ولكن يجب ألا يحقد على رجل عجز طاعن في السن ، .

كانت نتيجة هذه الحملة نكبة للأحرار الليبراليين : فقد انقسم الحزب

الليبرالي إلى قسمين : وأعطت الانتخابات ٣١ مقعداً للمحافظين و ٧٨ مقعداً لليبراليين المنشقين ، و ١٩١ مقعداً لليبراليين « الغلادستونيين » ، وبمساعدة الايرلنديين ، الذين أصبحوا ٨٥ عوضاً عن ٨٠ ، وجدت أكثرية قوية ٣٩٤ صوتاً ضد ٢٧٦ رفضت الحكم الذاتي ، واضطر غلادستون إلى تقديم استقالته .

ولكن ، بعد انتخابات تموز ١٨٩٢ ، التي فقد فيها المحافظون كثيراً من المقاعد ، عاد غلادستون إلى السلطة ، وكان عمره في تلك الآونة ٨٣ عاماً ، وهذه هي المرة الرابعة التي يصبح فيها الوزير الأول . وكان همه الأول أن يقدم مشروعاً جديداً في الحكم الذاتي لصالح ايرلنده . ووضع فيه شرفه ، وصرح الآن بأن حياته السياسية مرتبطة بالقضية الايرلندية ، وأنه يريد ، قبل أن ينسحب أو يموت ، أن يتحقق هذا المشروع . ولم يكن هذا المشروع نفس المشروع الذي قدمه عام ١٨٨٦ : ففيه يوجد برلمان ايرلندي ، وبوجبه ترك غلادستون للايرلنديين ٨٠ مقعداً في مجلس العموم : اذن يوجد برلمان ايرلندي يعالج القضايا الايرلندية ، باعتبار أن بعض القضايا ظلت خاصة بالبرلمان الانكليزي ، وقد خصص المشروع للنواب الايرلنديين مقاعد في البرلمان الانكليزي للاسهام في القضايا العامة التي تهم بريطانيا وايرلنده .

دام النقاش في هذا المشروع ستة أشهر : عقدت فيها ٨٥ جلسة ظلت في التاريخ البرلماني الانكليزي جلسات انشائية خالدة ، وكان فيها غلادستون عجباً : رجل عمره ٨٣ سنة يخاطب عدداً من الحطب بعبقرية وموهبة ، وببلهجة شديدة ، مع حضور بديهة وصرعة خاطر ، حتى حياه خصومه بعد الاعجاب ، واحترموا هذه الشجاعة العظيمة وهذه الوسائل الخطابية الفائقة عند رجل من سنه . وقد خاتمه قواه مرة فأنهار ، في احدى الحركات القومية ٣ - (١٨)

الجلسات ، ولكنه عاد الى المنصة في اليوم الثاني وبدأ يدافع عن مشروعه . وبالرغم من جهد غلادستون اصطدم المشروع بمقاومة جوزيف تشامبرلين الليبرالي المنشق وآثر بلفور ابن أخت سالزبوري ، أعظم زعيم في حزب المحافظين : وقال هؤلاء المعارضون انه من الخطر ان يخول برلمان الى ايرلنده ، لأن هذا البرلمان الايرلندي يمكن أن يكون على خلاف مع البرلمان الانكليزي في حالة أزمة خارجية . واذا خول الحكم الذاتي الى ايرلنده فما هو مصير البروتستانتين في الاولستر ؟ الا يفيد الكاثوليك ، الذين سيكونون أكثرية في البرلمان من هذه الأكترية وينتقمون من البروتستانتين في ايرلنده ؟ وأخيراً من الخطر أن يتوك نواب ايرلنده يأخذون مقاعدهم في مجلس العموم ، لأن التجربة دلت على أن هؤلاء الايرلنديين يستطيعون في بعض الحالات أن يكونوا أو لا يكونوا الأكترية البرلمانية ، وهذا يعني أن الحياة السياسية الانكليزية تجد نفسها تابعة لهؤلاء الايرلنديين في مجلس العموم .

ومع ذلك صوت مجلس العموم ، في هذه المرة ، على المشروع . ولكن الأكترية كانت ضعيفة جداً وقد سقطت هذه الأكترية في بعض المواد الى ٢٧ صوتاً ، ولذا لم يتردد مجلس اللوردات بطرح مشروع الحكم الذاتي بأكترية عظيمة . عندئذ انحنى غلادستون ، ولم يستأنف خلفه دوزبوري المشروع . ودفنت قضية الحكم الذاتي في ايرلنده عشرين عاماً ، وستظهر بعد ١٩١٠ .

وهكذا نرى أن الايرلنديين ، في هذا الدور ، حصلوا على نتائج جوهرية على الصعيد الديني والصعيد الزراعي ، أي في القضايا التي كانت لها الاهمية الكبرى من الوجهة الاجتماعية . وبالمقابل اصطدمت المطالب السياسية بالرفض أولاً في مجلس العموم ، ومن بعد في مجلس اللوردات .

الفصل الثالث عشر

قضية ايرلنده

الوزمة ايرلندية

من ١٩١٠ إلى ١٩١٤

لقد أغقت القضية الايرلندية في السنوات الأولى من القرن العشرين ، ثم صحت ابتداءً من العام ١٩١٠ . وغرضنا من هذه الفترة أن نبين الظروف التي حدثت فيها اليقظة والنتائج التي أثرت بها في السياسة الداخلية الانكليزية .

١ - يقظة المعارضة ايرلندية

لقد توصل البرلمان الانكليزي بعدة تدابير أن يحل ، على الأقل جزئياً ، قضية الأراضي في ايرلنده . وفي الحقيقة ، ان عدداً لا يستهان به من الفلاحين أصبحوا صغار ملاكين . ولكن قضية النظام السياسي في ايرلنده ظلت موضوعة دوماً كما في السابق . وقد حاول غلادستون ، كما رأينا خلال مرتين ، في ١٨٨٦ وفي ١٨٩٢ - ١٨٩٣ أن يعطي حلاً لهذه القضية السياسية بالتصويت على « قانون الحكم المحلي » الذي يخول ايرلنده الاستقلال الذاتي . ولكن محاولتي غلادستون أخفقتا : الأولى أمام مجلس العموم ، اثر انقسام الحزب الليبرالي ، والثانية أمام مجلس اللوردات . ومنذ ١٨٩٣ لم يحاول شيء جديد من هذا القبيل لسبب بسيط

وهو أن « الوندويين » ، أي ائتلاف المحافظين والأحرار المنشقين ، كانوا يحتلون السلطة في انكلترا بين ١٨٩٥ و ١٩٠٥ ، ومن البديهي ألا ينتظر الايرلنديون شيئاً من هذا الائتلاف الوندوي .

وابتداءً من ١٩٠٦ ، عندما أوصلت الانتخابات العامة الأحرار الى السلطة ، كان من الواضح أن تصبح المنظورات السياسية ملائمة للمطالب الايرلندية . وقد أخذت هذه البقطة شكلين : شكلاً معتدلاً يحاول الوصول إلى حل ودي يطالب ببساطة باستقلال ايرلنده الذاتي ، « الحكم الذاتي » ، وشكلاً متطرفاً يريد فصل ايرلنده عن انكلترا وبالتالي استقلال ايرلنده .

ولندرس الحركة القومية الايرلندية في اطار هذين الشكلين بين ١٩٠٦ و ١٩١١ .

الشكل المعتدل . — كان زعيم هذا الاتجاه جون ردموند الذي كان رئيس الكتلة البرلمانية الايرلندية في مجلس العموم . وكان عدد كتلة هؤلاء النواب الايرلنديين ، في كل انتخاب ، حوالي ٨٠ نائباً ، و ٨٣ في انتخابات ١٩١٠ . وكان جون ردموند يطالب بتحقيق الحكم الذاتي حسب المشروع الذي قدمه غلادستون . وفي ١٩١٠ ، طلب جون ردموند في مجلس العموم أن يصوت على قانون يحول الحكم الذاتي لايرلنده ، وقام بحملة في نفس الاتجاه في مقالات في الجرائد وفي المقابلات حتى ١٩١٢ . كان ردموند يطالب باقامة برلمان ايرلندي ، مع وزارة مسؤولة أمام البرلمان ، على أن يختص البرلمان بالقضايا « الايرلندية الصرفة » أي قضية العمل ، وقضية نظام الأراضي ، والنقل ، والعدل ، والتعليم العام . أما القضايا الأخرى ، وبخاصة السياسة الخارجية والجيش والبحرية والجمارك فتبقى دوماً من اختصاص البرلمان الانكليزي .

وردموند ، ان لم تكن له صفات بارنيل ، كان رجلاً له سلطته وخطيباً برلمانياً ، ولكن هذا لم يمنع وجود تهديد بالانقسام في داخل الكتلة البرلمانية الايرلندية ، في عام ١٩١٠ ، : وذلك أن عشرة من الـ ٨٣ نائباً ايرلندياً الذين كانوا في هذه الآونة في البرلمان الانكليزي ، بدأوا بتوجيه من لوبرين يتممون ردموند بالضعف ويأخذون عليه عدم سلوكه سياسة قوية .

الشكل الانفصالي . لقد نما هذا الشكل الانفصالي للحركة الايرلندية خارجاً عن جون ردموند ، وخارجاً عن الكتلة البرلمانية ، في ثلاث منظمات مختلفة الأساليب ، ولكنها كانت تتابع الهدف نفسه وهو استقلال ايرلنده . فقد احتج الجيل الفتي ، في ايرلنده ، على عدم نفاذ الأساليب البرلمانية التي كانت يستعملها ردموند ، وأخذ عليه « بيع الأصوات الايرلندية » ، إلى الحزب الليبرالي الانكليزي ، وكانت نزعة هذا الجيل الجديد زيادة التباين في ايرلنده بين الكاثوليك والبروتستانت ، كما كانت الحال قبل بارنيل .

وهذه المنظمات الثلاث هي الآتية :

المنظمة الاولى ، وهي العصبة الغائلية ، وكان زعيمها دوغلاس هايد وكان بروتستانتياً . وقد أنشئت العصبة الغائلية في ١٨٩٣ ووقفت نفسها بخاصة على الصعيد الفكري الثقافي . وكان غرضها انعاش الحياة القومية في ايرلنده ، ولذا يجب البدء بأحياء اللغة القديمة في ايرلنده ، اللغة الغائلية . ولكن معظم الايرلنديين هجروا تدريجياً ، مع الزمن ، في سياق القرن التاسع عشر ، اللغة الغائلية . وفي ١٩٠٠ لا يوجد في ايرلنده أكثر من ٥٠٠٠٠ شخص قادر على التكلم بالغائلية . وسقطت بالتالي هذه اللغة إلى لهجة في جميع المناطق الايرلندية التابعة لسلطة الحوري الروحية ،

حتى ان الحوري نفسه لا يعرف الغائلية . وكانت غاية العصبية إعادة توطيد استعمال اللغة الغائلية ، كلفة كلام ، وفي الوقت نفسه خلق أدب غائلي . ونرى هنا الطريقة الكلاسيكية التي استعملتها حركات الأقليات القومية . فاذا لاحظنا ما جرى في البلاد التشيكية بين ١٨٣٠ و ١٨٤٨ ، وفي البلاد السلافية الجنوبية في نفس العصر ، رأينا أن حركة النهضة القومية بدأت بحركة نهضة لغوية . وقد أراد موجهو العصبية الغائلية أن يسلكوا هذا الأصول نفسه .

وكان لهذه العصبية ، منذ ١٩٠٢ ، أكثر من أربعائة فرع ، وأصبحت منظمة قوية ، وتقوم بدعاية نشيطة جداً في الاكايروس الأدنى . ولكنها كانت تكتفي بالدعاية الفكرية . ومن البديهي أن الفكرة الحلقية لموجهيها كانت في تفضيل استعمال اللغة الغائلية على اللغة الانكليزية ، وتهيئة الاختلاف عن الانكليز ، وبالتالي اعداد الطرق لعمل انفصالي في المستقبل ، ولكن هذا العمل يحتاج الى أجل طويل .

المنظمة الثانية ، وهي منظمة انفصالية تحمل اسم « سن - فاين » وهذا يعني بالغائلية « ذاتنا » . وتصدر هذه الحركة في أصولها إلى عصر الحرب في جنوبي افريقية : وذلك ان قولاً قديماً ايرلندياً يقول : كلما وقعت انكاثرا في محنة ، فعلى ايرلنده أن تفيده منها . واغتنم بعض القوميين الايرلنديين حرب جنوبي افريقية وفكروا بإنشاء منظمة جديدة للنضال ضد النفوذ الانكليزي . وانتظمت هذه الحركة « سن - فاين » في ١٩٠٥ ، وأخذت تعرف الناس ببرنامجهما .

كان المحرك لحركة « سن - فاين » آوثر غويث . وكان مفكراً . ويتضمن برنامجه تنظيم حياة ايرلنده دون الانكليز . ومن هنا أتت التسمية « سن - فاين » أي : « لنعمل بأنفسنا دون الانكليز » وقال

غريفت : يجب ألا نحاول طرد الانكليز بالقوة ، لأننا لا نتوصل إلى ذلك . ولكن يجب « تجاهلهم » والعيش في ايرلنده كما لو كان الانكليز غير موجودين وذلك يكون بـ :

١ - عدم ارسال نواب ايرلنديين يأخذون مقاعدهم في مجلس العموم ، والاضراب عن الانتخابات .

٢ - عدم دفع الضرائب الانكليزية .

٣ - رفض كل علاقة مع المصارف الانكليزية ومع المعامل الانكليزية . ومن هنا نفهم أن تحقيق هذا البرنامج يفترض أولاً أن السن - فاين تحاول أن تنظم الحياة الاقتصادية الايرلندية ، وأن تنشئ مشاريع ايرلندية ، لتحل محل المشاريع والمصارف الانكليزية .

وقال غريفت : « اذا حققنا هذا البرنامج أتى يوم لا يكون فيه للانكليز ما يعملونه في ايرلنده وسينصرفون بأنفسهم . وزعم أن هذا الاسلوب مستوحى من الاسلوب الذي اتبعه الجير قبيل ١٨٤٨ بدافع من الزعيم دياك . هذا مع العلم بأننا إذا لاحظنا تاريخ الحركة المجرية وجدنا ان التشابه بينها وبين الحركة الايرلندية غير جلي .

وليتوصل غريفت إلى أهدافه أنشأ منظمة سرية ضمت ، في ١٩١٧ ، سبعين كاتلة . وكانت هذه الكتل تعقد مجلساً عاماً سنوياً ، سرىاً دوماً . وعملها توجيه « مقاطعة » الانكليز ، وفي الوقت نفسه توجيه المبادعات الاقتصادية التي يجب أن يأخذ بها الايرلنديون حسب برنامج غريفت .

إن حركة السن - فاين ، التي مثلت في الغالب حركة ثورية وحركة ترمي إلى العمل المباشر ، كانت تعتمد ، بخاصة في أعماقها ، على الاقتناع . ولم يكن لها في حوالي ١٩١٠ كثير اشعاع ، ولكن الذي عرف بها ، كما يقول الانكليز أنفسهم ، هم الصحفيون الانكليز الذين قاموا بدعاية

عظيمة ، للسنة - فاين ، بنشر المقالات ضدها ، وكانوا سبباً في حسن حظها ، وكم من ضارة نافعة .

المنظمة الثالثة ، وهي منظمة ذات نزعات انفصالية وتعرف باسم منظمة « الاخاء الايرلندي » . وكانت هذه المنظمة ثورية صراحة وبالطبع سرية ، تريد ان تعمل بالسلاح وأن تثير ايرلنده ضد انكلترا للوصول إلى الانفصال الكامل . وتصدر الفكرة الاولى لهذه المنظمة إلى عام ١٨٩٤ . واسم الرجل الموحى بها كوني ، وكان على اتصال بايرلندي اميركا ، وقضى نفسه سنين طويلة في اميركا ولم يعد إلى ايرلنده إلا في ١٩١٠ . وبجىء كوني إلى ايرلنده ، في هذا العام ، بدأ يظهر عمل منظمة « الاخاء الجمهوري الايرلندي » .

وبالرغم من هذه القرائن التي أتينا على ذكرها لا يمكن ان يزعم بأن الوضع في ايرلنده عام ١٩١٠ كان حرجاً . فقد كانت البلاد هادئة ، وأكثر هدوءاً مما كانت عليه قبل عشرين عاماً . ولذا لم يكن هنالك ما يضطر الحكومة الانكليزية إلى القيام ببيادها جديدة فجأة لارضاء الايرلنديين . ومع هذا فان الحكومة الانكليزية قررت في ذلك الحين أن تحل القضية الايرلندية .

٢ - حل الحكومة البريطانية

تسوية القضية الايرلندية . - بعد ان عاد الأحرار إلى السلطة ، في ١٩٠٦ ، أعلنوا مبدئياً ، بانهم يرغبون في تسوية القضية الايرلندية ، وكانوا مضطرين لذلك . لأن عملهم كان مطابقاً لتقاليد الحزب والتقاليد التي تركها غلادستون . وقد توفي غلادستون في ١٨٩٨ . وكان رئيس الحرب الليبرالي في ١٩١٠ - ١٩١١ اسكويث ، وكان محامياً لامعاً ،

ويمتاز بذهلات برلمانية عظيمة ، ولكن لم تكن عنده صعة نظر غلادستون وطبعه .

قرر اسكويث أن يتم من جديد بالقضية الايرلندية ، وذلك لسببين :

السبب الأول . - كان مجلس اللوردات يمانع بجل القضية الايرلندية ، وقد أسقط مشروع غلادستون ، حتى قال الزعماء الليبراليون : « لانستطيع حل القضية الايرلندية ، لأننا إذا طلبنا التصويت على مشروع جديد في مجلس العموم فمن المؤكد أن يرفضه مجلس اللوردات . وهذه الحجة أعفتم من العمل . ولكن هذه الحجة ، منذ ١٩١١ ، لم تعد لها قيمة ، لأنه صوت في شهر آب ١٩١١ في انكلترا على صك « اصلاح دستوري » يسمى « صك البرلمان » ، وينص على انه إذا صوت مجلس العموم على قانون ثلاث مرات خلال ثلاث دورات متوالية ، ورفض مجلس اللوردات هذا القانون ثلاث مرات ، فان القانون ، الذي صوت عليه مجلس العموم ، يأخذ ، في نهاية الدورات الثلاث ، توقيع الملك ، ولو لم يصوت عليه مجلس اللوردات . وبموجب هذا الاصلاح الدستوري تكون موافقة مجلس اللوردات غير ضرورية لسن القانون . ولا يستطيع مجلس اللوردات ، في هذه الظروف ، أن يمنع التصويت على قانون يحول الحكم الذاتي لايرلنده . وهو يستطيع أن يعارضه خلال ثلاث دورات ولكن لا أكثر . وهكذا لم يكن لليبراليين أي عذر مقبول بعدم عرض مشروع الحكم الذاتي .

السبب الثاني . - إن الحزب القومي الايرلندي ، أي الـ ٨٣ نائباً الذين يجلسون في مجلس العموم تحت توجيه جون ردموند ، أصبحوا ، منذ ١٩١٠ ، تكملة لا غنى عنها لتشكيل أكثريه برلمانية . ففي

الانتخابات الانكليزية لعام ١٩١٠ وجد ٢٧٤ ليبرالياً منتخباً ، و ٢٧٣ وحدوباً ، و ٨٣ نائباً ايرلندياً ، و ٤٠ نائباً « عمالياً » أي اشتراكياً . وبالتالي ان الـ ٨٣ نائباً ايرلندياً كانوا ضروريين للأحرار لتأليف اكثرية . وفي هذه الظروف ، كان الحزب الليبرالي مضطراً لارضاء المطلوب الايرلندي إذا أراد الا ينقلب الايرلنديون عليه .

وهذان السببان حملا الحكومة الانكليزية ، في ١٩١٢ ، على عرض مشروع جديد للحكم الذاتي . والنظام الذي تبني في هذا المشروع كات من نوع اتحادي (فيدرالي) : وذلك بأن ينشأ برلمان انكليزي ، برلمان « امبراطوري » ، يجلس فيه دوماً النواب الايرلنديون ، ولكن بعدد قليل . وهذا البرلمان يهتم بالقضايا ذات المصلحة العامة ؛ وبرلمان ايرلندي ، مؤلف من مجلس منتخب ومجلس شيوخ ، ويختص بمعالجة القضايا الايرلندية بخاصة . وهذا الترتيب مطابق لمشروع جون ردموند .

لقد خول هذا القانون « قانون الحكم الذاتي » ايرلنده نظاماً شعبياً يشبه ، من بعض الاعتبارات ، نظام الدومينيون ، ولكنه أعطى مع ذلك إلى ايرلنده حقوقاً أقل من الحقوق التي يمتلكها الدومينيون عادةً : فبموجب هذا المشروع ، لا يحق للبرلمان الايرلندي أن يصوت على قوانين يكون من طبيعتها تفضيل دين من الأديان . وفي الحقيقة ، كان الانكليز يخافون من أن يتخذ البرلمان الايرلندي ، باعتباره مؤلفاً من أكتربة كاثوليكية ، قدايير انتقامية ضد البروتستانتين ، وقدايير لصالح الكنيسة الكاثوليكية . وكذلك لا يحق للبرلمان الايرلندي ان يهتم بالقضايا العسكرية والبحرية ، ولا يمكنه فرض رسوم جمركية . وعدا ذلك ، يجب على الحكومة الانكليزية أن تحتفظ بحق الاشراف على الشرطة في ايرلنده ، وأن توالي الاهتمام بتنظيم القوانين الاجتماعية في ايرلنده . وأخيراً، خرجت

أيضاً قضية شراء الأراضي من اختصاص البرلمان الايرلندي .
ونرى أن هذا المشروع يعطي ايرلنده استقلالاً ذاتياً أقل بصورة
محسوسة من الاستقلال الذاتي الذي وعدناه به غلادستون في ١٨٨٦ . ومع
هذا فقد قرر جون ردموند والاسنقلاليون الذاتيوت الايرلنديون أن
يكتفوا بهذا الحل . وصوت على مشروع الحكم الذاتي لأول مرة في
١٦ كانون الثاني ١٩١٣ بأكثرية ١١٠ أصوات في مجلس العموم . وطرحه
مجلس اللوردات بالحال ب ٣٢٦ صوتاً مقابل ٨٦ . وصوت مجلس العموم
على المشروع للمرة الثانية في آخر ١٩١٣ ، ورفضه مجلس اللوردات أيضاً .
وفي آذار ١٩١٤ صوت مجلس العموم على المشروع للمرة الثالثة . وفي
هذه المرة انتهى كل شيء . حقاً ان مجلس اللوردات يمكنه أن يرفض
المشروع أيضاً في هذه المرة ، ولكن هذا القانون ، الذي صوت عليه
مجلس العموم ، يجب أن يأخذ توقيع الملك ، بموجب الاصلاح الدستوري
لعام ١٩١١ ، ولو لم يصوت عليه مجلس اللوردات .

وهكذا أصبح « قانون الحكم الذاتي » قطعياً في آخر حزيران
١٩١٤ . وبدأت القضية محلولة . ومن الممكن أن يفكر ، على الرغم
من وجود تكتلات انفصالية ، بأن الأكثرية الايرلندية اكدت بهذا
الحل ، لأن جميع النواب الايرلنديين في مجلس العموم ، عدا كتلة
اوبرين الصغيرة ، تبعوا جون ردموند .

٣ - قضية تطبيق الحكم الذاتي

والواقع أن الحالة في ايرلنده كانت خطيرة عندما أصبح « قانون
الحكم الذاتي » قطعياً . وذلك لأن منظور تطبيق الحكم الذاتي كان من

قبل كافياً ، منذ عامين ، أي منذ عرض المشروع في ١٩١٢ ، لاثارة اضطرابات جدية في أيرلنده ، وذلك بسبب قضية اولستر .

قضية اولستر . - كان شعب اقليم اولستر ، الواقع في الشمال الشرقي من أيرلنده ، يتألف في أكثريته من البروتستانتين . وعليه فإن هذا الجزء من أيرلنده يختلف تماماً عن باقي البلاد . ومن الممكن أن يؤكد بأنه يوجد في أيرلنده أمتان أيرلنديتان : أمة كاثوليكية وتؤلف أربعة أخماس السكان ، وأمة بروتستانتية وتؤلف الخمس الباقي . وكان البروتستانتون لا يريدون أن يؤلفوا جزءاً من أيرلنده المستقلة ذاتياً ، والسبب في ذلك يرجع إلى أن الكاثوليكين ، في البرلمان الأيرلندي الذي سينشأ بموجب قانون « الحكم الذاتي » ، سيكونون أكتريية عظمى وستكون لهم أربعة أخماس المقاعد على الأقل ، وبالتالي كان البروتستانتون في الاولستر يخشون من أن يسيطر عليهم خصومهم في الدين . ولأشك في أن « قانون الحكم الذاتي » يخولهم بعض الضمانات ، بمعنى أن البرلمان الأيرلندي لا يحق له التصويت على اجراءات من شأنها تفضيل دين على حساب آخر . ولكن وسائل الدوران على القوانين لاتعدهم ، ولذا كان البروتستانتون في الاولستر يشعرون بأنهم غير مطمئنين .

وهناك سبب آخر ، وهو سبب اقتصادي ، ويرجع إلى أن أيرلنده الكاثوليكية بلد ريفي أساساً ، بلد شعبه فلاح . أما أيرلنده البروتستانتية ، الاولستر ، فقد كانت ، في جزء منها ، بلداً صناعياً : ففي منطقة بلفاست توجد مؤسسات صناعية هامة . ولهذا كان البروتستانتون في الاولستر يخشون من أن يسيطر بمثل المصالح الزراعية على البرلمان الأيرلندي ويتخذوا فيه اجراءات منافية للمصالح الصناعية .

ونشر إلى أن هذا الموقف ، الذي اتخذته سكان الاولستر ، كان حديثاً نسبياً . وبما يلفت النظر أنه لم يعلق أي أهمية في عصر بارنيل على قضية الاولستر . وكتب بارنيل نفسه إلى غلادستون ان البروتستانتين ، وهو بروتستانتي ، كما نعلم ، لا يعارضون « الحكم الذاتي » . ولكن منذ ١٨٨٦ تغيرت الحال كثيراً لأن الرجال السياسيين الانكليز شجعوا سكان الاولستر على اتخاذ موقف المقاومة حيال الكاثوليكين الايرلنديين . فمن ذلك أن راندولف تشرشل كان يشجعهم مباشرة وبشكل حار على المقاومة ، وتبنى ، في ١٨٨٦ ، أي في عهد المشروع الأول الذي وضعه غلادستون ، شعاراً ونشره بكثرة شديدة وهو : « على الاولستر أن تسكفح » .

وكان يوجه عمل المقاومة للحكم الذاتي ، في ١٩١٢ ، وفي السنوات التي تلت ، السير ادوار كارسون ، وهو رجل سياسي له قيمته . فقد جمع ، في شهر كانون الثاني ١٩١١ ، قبل أن يستأنف الليبراليون مشروع الحكم الذاتي ، أنصاره « المجلس الوحدوي للاولستر » ، ووضع الحطة التالية : إذا صوت على الحكم الذاتي فعلى بروتستانتية الاولستر أن يعلنوا الانفصال مباشرة عن باقي ايرلنده ويؤلفوا حكومة مستقلة للاولستر : وهذا يعني فصم وحدة ايرلنده . وتستطيع حكومة الاولستر هذه أن تحافظ على علاقات وثيقة مع انكلترا .

وهنا نرى صعوبات القضية : فكيف يمكن أن يفرض على بروتستانتية الاولستر قانون « الحكم الذاتي » . إن هذا يعني اخضاعهم « لاعدائهم » الكاثوليكين الايرلنديين . ولذا فان سكان الاولستر لا يلبثون أن يلفتوا نظر البرلمان الانكليزي إلى أن يأخذ بعين الاعتبار أرادهم مادام يأخذ بعين

الاعتبار إرادة الكاثوليكين الإيرلنديين ، وهذا يعني أن يجعل للبروتستانتين نظام خاص ، لأنهم لا يريدون أن يروا أنفسهم تحت سلطة حكومة إيرلندية يسيطر عليها الكاثوليكون وقد يقال بوجود حل ممكن : وهو أن يقرر بأن تشكل الاولستر ، من الوجهة السياسية ، بلداً منفرداً له نظام منفرد ، ولكن هذا الحل لم يقبل به الوندويون الإيرلنديون : فقد صرحوا بازوم الحفاظ على وحدة إيرلنده ، ورفضوا التخلي عن أرض كانت ، قبل القرن السادس عشر ، أرضاً إيرلندية صرفاً ، ولم تسكن بالانكليز والبروتستانتين إلا بفضل الفتح الانكليزي في القرن السادس عشر وسياسة « النصب » أو « الغرس » .

ومن جهة أخرى ، إذا قبل بأن يتبنى الحل الذي فضله بروتستانتيو الاولستر ، أي أن يعطى إلى الاولستر نظام منفرد ، تبقى قضية صعبة الحل جداً وهي : على أي المناطق بالضبط يجب تطبيق هذا النظام الخاص ؟ وفي الحقيقة ، ان الاولستر البروتستانتية لم تكن كل الاولستر : ففي احصاء ١٩١١ لم يكن في الجزيرة أكثر من ٤٠٠٠٠٠ نسمة . وكانت سكان الاولستر في هذا الاحصاء ، ١٥٨١٠٠٠ نسمة ، وقد صرح ٨٩٠٠٠٠ أنهم بروتستانتيون ، و ٦٩٠٠٠٠ أنهم كاثوليكون . وعلى التسع كونتيات ، التي تؤلف أقليم الاولستر ، وجد أن أربع كونتيات ، كونتيات الشمال والشرق ، كانت بحق بروتستانتية ، أما في الخمسة كونتيات الأخرى ، في الاولستر ، فقد كان البروتستانتيون والكاثوليكون مختلطين ، حتى وفي ثلاث من هذه الكونتيات الخمس كان التفوق للكاثوليكين ، وعلى وجه الدقة ، يعترف بروتستانتيو الاولستر بوجود ثلاث كونتيات كان الكاثوليكون فيها أكثرية ، وسلموا بالتخلي عن هذه الكونتيات الثلاث ، ولكنهم أودوا أن يحتفظوا ، على الأقل ، بالاثنتين الأخرين ، أي الكونتييتين ، أي كونتية تيزون وكونتية فرماناغ .

وهكذا نرى أن هذه القضية معقدة .

حاولت الحكومة الانكليزية حل تسوية لهذه القضية : فعندما صوت على قانون « الحكم الذاتي » للمرة الثالثة في مجلس العموم ، في آذار ١٩١٤ ، افتتحت الحكومة إضافة تعديل ، وبوجهه تبقى الاولستر خارجة عن « الحكم الذاتي » خلال عشرة أعوام ، شريطة أن أن تطلب كل كونتية من كونتيات الاولستر هذا الخروج . وهكذا فإن الحكم الذاتي لا يطبق إلا على ايرلنده الكاثوليكية ، ويبقى الباقي خاضعاً لصك الاتحاد أي يحتفظ بنواب في البرلمان الانكليزي ، ويدار بموجب القوانين الانكليزية . ومع هذا فلم يقترح إقامة هذا النظام إلا خلال دور ستة أعوام ، وفي ذلك متسع من الوقت ليرى بماذا يأتي . ومن جهة أخرى ، طلب إلى كل كونتية في الاولستر أن تصوت وتقول إذا كانت تطلب أولاً أن تستفيد من هذا النظام الموقت . فاذا قبل هذا التعديل ربما تصوت أربع كونتيات في الاولستر فقط ، وربما على الأكثر ست ، لصالح التعديل ، ولهذا أعلم السير أودارد كارسون ، زعيم الحركة البروتستانتية في الاولستر ، بأن هذا التعديل غير مقبول لأنه يعادل : « إسماء الحكم بالموت مع مهلة ستة أعوام » . عندئذ صرح مباشرة جون ردموند ، زعيم القوميين الايرلنديين ، في مجلس العموم : مادام السير أودارد كارسون رفض هذه التسوية فلا يوجد إلا شيء يجب عمله ، وهو التصويت على « الحكم الذاتي » ، كما وضع ، وتطبيقه بل وتطبيقه في الواقع ، أي إذا رفضت الاولستر أن تخضع له ، فستجبر بالقوة بارسال جيوش إلى البلاد .

وهكذا نرى أن القضية يمكن أن تؤدي إلى قسر ممارسه الحكومة الانكليزية بال جيش الانكليزي ضد الانكليز البروتستانتين في الاولستر ، وبالأجمال ضد الايرلنديين الكاثوليكين .

وقد أدت قضية الاولستر ، في بداية ١٩١٤ ، إلى تهديد بالحرب الأهلية في ايرلنده : وفي الحقيقة استعد بروتستانتيو الاولستر علناً للمقاومة بالسلاح أمام الوضع الذي سيفرض عليهم نظام « الحكم الذاتي » ، وهذا مادفع ، بالطبع ، المعسكر الآخر ، في ايرلنده ، على القيام بالمثل . وهكذا شوهد في كلا الجانبين تشكل « جيوش » حقيقية تستعد للحرب .

لقد أنشأ السير أدوارد كارسون ، منذ ١٩١١ ، « المجلس الوحدوي » في الاولستر ، وكلف بالدفاع عن مصالح الاولستر في قضية « الحكم الذاتي » . وفي ٢٨ ايلول ١٩١٢ وقع الفابروتستانتى ، من الرجال المعروفين بالاولستر ، ملتصقاً يقول : « نحن المقتنعين في وجداننا بأن الحكم الذاتي سيكون نكبة الرفض المادي في الاولستر وفي ايرلنده ، ومناقضاً لعواطفنا الدينية والمدنية ، وخطراً على وحدة الامبراطورية ، نقسم علناً بأننا سنقاوم كل برلمان ايرلندي يوطد حسب نظام « الحكم الذاتي » .

المقاومة البروتستانتية . - ولكن لا يكفي نشر الملتصق ، بل يجب تنظيم المقاومة ، ولم يتردد السير أدوارد كارسون في ذلك . فقد ألف ، ابتداء من آخر ١٩١٢ ، « متطوعي الاولستر » . وكان هؤلاء المتطوعون منظمين في قطعات وكثائب وفرق ، وعندهم مصلحة نقلات ، ومصلحة ارتباط مع ٤٠٠ دراجة نارية وعشرات الألوف من البنادق اشترت من ألمانيا . ويقدر في آذار عام ١٩١٤ أن جيش المتطوعين في الاولستر يضم ١١٠ ٠٠٠ رجل ، يضاف إلى ذلك أن اللجنة الموجهة أسست « مال الحرب » فبلغ مليون جنيه استرليني لمساعدة عائلات القتلى . وأخيراً عينت اللجنة مقدماً سلفاً حكومة موقفة لتتشكل في بلفاست عندما يأخذ مشروع الحكم الذاتي قوة القانون .

وقد دعمت حركة مقاومة الاولستر في انكلترا نفسها من قبل أناس لهم شأنهم : إن زعيم حزب المحافظين بونار لو ، الذي أصبح فيما بعد الوزير الأول بعد ١٩١٩ ، لم يتردد بالمجيء الى ايرلنده ليحضر عرض متطوعي الاولستر ، وخطب خطباً شجعهم فيها على المقاومة . وفي ٢ آذار ١٩١٤ ، نشرت « عصابة الدفاع » ، ملتصقاً في انكلترا يقول : « اذا اعطت الحكومة قوة القانون لمشروع الحكم الذاتي فيجب منع تنفيذه ، وبخاصة ، منع الجيش البريطاني من ان يستخدم لاجبار ايرلنده على التنازل » . وكان اول الموقعين على هذا الملتصق اللورد دوبرتز وكان اكبر زعيم عسكري انكليزي ، وهو الذي قاد الجيش البريطاني اثناء حرب جنوب افريقية .

المقاومة الكاثوليكية . - وبينما كان سكان الاولستر يتهيأون على هذا النحو قامت في ايرلنده الكاثوليكية حركة مناظرة . واتفق كل الناس على الاعتراف بأن حركة المقاومة المسلحة في ايرلنده الكاثوليكية لم تكن الا رداً على حركة المقاومة المسلحة في الاولستر ، وان الايرلنديين الكاثوليكين قرروا تنظيم أنفسهم بعد ان رأوا تنظيم بروتستانتية الاولستر .

وفي تشرين الأول ١٩١٣ ، قررت كتلة من الشباب الايرلنديين ان تنظم في ايرلنده الكاثوليكية ، التي نسميها ايرلنده الجنوبية ، جيشاً من المتطوعين . وكان القائم بهذا المشروع لادكين الاشتراكي التابع لمنظمة « الاخاء الجمهوري الايرلندي » ، أي للكتلة الثورية الانفصالية . وشكل مؤسسو المشروع لجنة مؤقتة ، دخل فيها خمسة او ستة اعضاء من منظمة « سان - فاين » ، وآخرون من منظمة « الاخاء الجمهوري الايرلندي » ، وآخرون غيرهم من الكتلة البرلمانية الايرلندية . وكان رئيس هذه اللجنة ، وفي الواقع موجه الحركة ، ماك ناييل . وعدا هذا ، وجد رجل

آخر لعب في التنظيم دوراً هاماً جداً ، وهو دوجو كازمنت ، وكان انكليزياً وقنصلاً عاماً في بلاد مختلفة ، وفي آخر مكان في البرازيل ، وأخذ تقاعده مبكراً في الخمسين من عمره ، في ١٩١٣ ، وعاد الى ايرلنده ، في هذه الآونة ، وأصبح من أنشط أعضاء الحركة المناوئة للانكليز ، هذا الانسان الذي كان ، كل حياته ، موظفاً انكليزياً .

وقلت جون ردموند من تشكيل لجنه المتطوعين ، لأنه كان يناصر السياسة المعتدلة ، وحاول ان يعدل المشروع ، ويدخل في اللجنة الموجهة للمتطوعين ، أناساً من كتلته . ولكن ماك ناييل طرد رجال ردموند . وبهذه الصورة استولى المتطرفون على توجيه الحركة ، وشكلوا جيشاً من المتطوعين ووضعوا على رأسه الكولونيل مور . وفي ١٩١٤ ، وجد حسب قول مور ، ١٧٠٠٠٠ متطوع ايرلندي . ويقول أمين دولة ايرلنده بأنهم كانوا ١٨٠٠٠٠ .

اذن ، من جهة : ١١٠٠٠٠ متطوع بروتستانتى في الاولستر ، ومن جهة أخرى ١٧٠٠٠٠ أو ١٨٠٠٠٠ متطوع ايرلندي كاثوليكي . ومن عجب ان كل هذا قد تم في وضع النهار . وكانت الشرطة الايرلندية عاجزة عن عمل شيء وقد وجدت انظمة تحرم حمل الاسلحة ولكن الشرطة لم تجرأ على تطبيقها .

ولم تهتم الحكومة الانكليزية ، حكومة اسكويث ، بالخال : ففي ١٩١٢ - ١٩١٣ تركت هذه الكتل من المتطوعين تتشكل ، وطبقت ما يسميه الانكليز « انتظرو وانظرو » وأرادت ان « ترى ما يأتى » ، وأملت بأن تهدأ الحالة ، الا انها ادركت في بداية ١٩١٤ ان الحالة أصبحت خطيرة جداً . واذا قرأنا شاعداً يمكن ان يكون محابداً ، وهو قنصل فرنسا

في دبلن ، نجد انه كتب في حزيران ١٩١٤ : « يوجد الآن ، في ايرلنده ، جيشان مستنفران مستعدان للدخول في المعركة احدهما ضد الآخر ، وتكفي شرارة لتثور الحرب الأهلية » .

وفي ربيع ١٩١٤ حاولت حكومة اسكويت ان تقوم برد فعل ، ولكن بعد فوات الاوان ، ولاقت صعوبات عظيمة جداً : فقد وجد حادثان عظيمان ييزان حالة الرأي عند الايرلنديين ، في هذه الآونة ، في كلا الجانبين : الحادث الاول هو قضية كوراغ وهو اسم حصن وجدت فيه الجيوش الانكليزية في ايرلنده ؛ والقضية الثانية كانت قضية باتشار ووك باسم شارع في دبلن .

قضية كوراغ . - قررت الحكومة الانكليزية ، في آذار ١٩١٤ ، ارسال جيوش انكليزية الى اولستر . وكان في بلغاست مستودعات أسلحة تابعة للجيش الانكليزي ، وفكر بأن المتطوعين قد يستولون على مستودعات الأسلحة هذه بين يوم وآخر . لذا قررت الحكومة الانكليزية حراستها . هذا هو العذر ، والحقيقة هي انها ارادت ان تنقل الى الاولستر حاميات جديّة نجبر فيها متطوعي الاولستر على البقاء هادئين ، ونقلت القيادة البريطانية الجيوش الى ايرلنده ، وفي الوقت نفسه ارسل اسطول ليقف أمام بلغاست لأن الحكومة الانكليزية فكرت بأن البحرية أكثر شعبية من الجيش في نظر السكان ، وان وجود السفن الحربية الانكليزية يجبر الناس في الاولستر على التفكير بأمرهم .

وعندما ارسلت القيادة البريطانية هذه الجيوش قالت الى الضباط ان بإمكانهم قمع الاضطرابات ، وأضافت ان بإمكان الضباط ان يقدموا استقالتهم اذا احجموا عن هذا الواجب : ومباشرة ، في ٢٠ آذار ، استقال مائة ضابط وقطعتا فرسان ، وجاء الجنرال قائد الجيوش ، يساعده

« كولونيلان » ، يطلب الى الوزير الأول ان يطمئه بأن ليس على جيوشه أن ترحف ضد بروتستانتية الاولستر . ولم تشأ الحكومة ان تأخذ على عاتقها هذا التعهد ، ولكن وزير الحربية الكولونيل سيلي صرح بأنه لا يريد استخدام الجيش لاجبار بروتستانتية الاولستر على الاذعان للحكم الذاتي . وعندئذ فرح البروتستانتون في الاولستر . ولكن طلب الايضاح من الوزير في البرلمان فاضطر الكولونيل سيلي الى تقديم استقالته .

وأحدثت قضية كوراغ انفجاراً حقيقياً في البرلمان الانكليزي : فقد صرح الأحرار بأن المحافظين مسؤولون عن كل شيء ، لأنهم شجعوا هذا النوع من التمرد في الجيش ، وقال المحافظون لو لم يكن كذلك ، لسال الدم في الاولستر . ويحدثنا ونستون تشرشل في مذكراته ان المناقشات في مجلس العموم ، في نيسان وفي أيار ١٩١٤ ، كلما اريد معالجة هذه القضية ، كانت تأخذ شكلاً عنيفاً حتى أمكن التساؤل : « هل النظم البرلمانية قادرة على المقاومة ؟ »

قضية بانشلر ووك - واتى ايرلنديو الجنوب ايضاً بالأسلحة من المانيا ، وفي ٢٦ تموز ١٩١٤ ، ذهب « متطوعون ايرلنديون » من دبلن لانتظار سفينة المانية تحمل اسلحة الى الشاطئ . وصلت السفينة دون صعوبة ، وافرغت على عجل ، قبل ان تتدخل الشرطة ، وعاد المتطوعون بموكب كبير الى دبلن مع اسلحتهم . ونبه الجيش الانكليزي الى ذلك فجاء وسد الطريق في وجههم وأمرهم بتسليم الأسلحة ، مضيفاً بأن لا يوقف أحد اذا سلمت الأسلحة ، وهذا يدل على ان الحكومة الانكليزية كانت خائفة من اثاره الحوادث . رفض الايرلنديون فاعطى النقيب الانكليزي الى رجاله الأمر بالقبض على الأسلحة . وقامت معركة ، مع تبادل الضربات باعجاز البنادق ، ومر الايرلنديون دون اطلاق أي عيار ناري . وعندما

دخلوا مدينة دبلن ظافرين ، قامت كتلة منهم في المؤخرة وقاومت الجنود الانكليز . فهتف بهم شعب دبلن . وبينما كان الموكب يسير في الشوارع في ركن باتشاروك ، اطلق البوليس الانكليزي النار على الجمهور وقتل كثيراً من النساء والاطفال .

وهذا الحادث يعطينا فكرة عن خطورة الأحداث التي كانت تحدث في تلك الآونة في ايرلنده . ولنفكر ان هذه الاسلحة كانت تأتي من المانيا ، ولكن لنفكر ايضاً ، بانه وجد في كلا المعسكرين الايرلنديين ، بعض رجال ، بعض ادمغة مجنونة مسعورة لم تتردد في القول بأنها مستعدة للبحث عن سند لها في المانيا . وصرح أحد زعماء الاولستر ، وهو السير جيمس كويغ بقوله : « توجد حالة رأي أخذت تنتشر تدريجياً ، وكل ما أستطيع أن أؤكدده ، حسب تجربتي الخاصة ، هو اننا نفضل المانيا والامبراطورية الالمانية على نظام جون ردموند ! » . وهذا يعني الارتقاء في احضان المانيا عوضاً عن قبول الحكم الذاتي . وفي المعسكر الآخر ، كتب كازمانت في مقالات نشرها في حينه ، وفيها يقول : سيضرب استقلال ايرلنده تفوق انكلترا البحري ضربة خطيرة ، بسبب وضع ايرلنده بين بريطانيا العظمى والمحيط الاطلسي . وان من اللازم استقلال ايرلنده للاضرار بالتفوق البحري الانكليزي ، وان هنالك بلداً ، له مصلحة في هذه النتيجة اكثر من غيره ، وهو المانيا . وما على الايرلنديين الا ان يؤملوا بمساعدة المانيا . وصرح كازمانت بان على الايرلنديين في حالة حرب عامة ، ان يرجوا ظفر المانيا لأن هذه هي الوسطة في تأمين استقلال ايرلنده .

وكان القيصر غليوم الثاني يراقب الحالة . وليس لدينا معلومات أكيدة جداً ، ولكننا نعلم بأنه ارسل ، في ١٩١٤ ، الى ايرلنده دبلوماسياً معروفاً ، وهو كولمان ، وجاء هذا ورأى الحالة بعينه ، واستعرض قطعة متطوعين .

ومن المؤكد اثناء ازمة تموز ١٩١٤ ، ان قضية ايرلنده لعبت دوراً في قرارات المانيا ، ورأت ان انكلترا مشلولة بالقضية الايرلندية .

لقد كانت القضية الايرلندية في ١٩١٤ على درجة كبيرة من الخطورة . وصرح لويد جورج ، في ٢٣ أيار ١٩١٤ : « نجدنا أمام اخطر قضية وصلت في هذا البلد منذ زمن آل ستوارت . ان النظام البرلماني يدخل في هذه القضية » . وصرح تشرشل في مجلس العموم في ٢٨ نيسان : « انظروا النتائج في الخارج : ففي جميع البلاد الصديقة يوجد قلق لأنه يخشى الآن من ان لا تتمكن انكلترا من ان تعمل » . وفي رسالة كتبها سفير الولايات المتحدة في لندن ، باج ، الى اخيه قال : ان الاحزاب السياسية تصرخ عالياً بأن كثيراً من رجال الحزب الثوري المحافظ لا يريدون دعوة الأحرار إلى العشاء ، انهم على وشك حرب أهلية . وطلبت ذات يوم إلى الوزير الأول كيف يعمل لتجنب هذه الحرب الأهلية ، فلم يعطني جواباً واضحاً . وفي هذه العطلة البرلمانية أجد الحكومة تقضي وقتها ، بالرغم من انه لا يوجد انتخابات مرقبة، بوضع الخطب في قضية ايرلنده ، وكلموني عنها : « ماذا تفعل لو كنت مكاننا ؟ » فأجبهم : ارسلوها كلها إلى الولايات المتحدة ، .

وفي ٣ آب ، في الوقت الذي صوت فيه على دخول بريطانيا العظمى الحرب الاوربية ، صرح جون رد موند ، زعيم الكتلة البريطانية الايرلندية ، في مجلس العموم ، بأن الحكومة الانكليزية يمكن أن تكون هادئة ، ما دامت توجد حرب خارجية ، وان الايرلنديين مستعدون للمصالحة . وبامكان الحكومة الانكليزية أن تسحب جيوشها من ايرلنده لتوسلها إلى القتال على القارة ، وان متطوعي جنوبي ايرلنده مستعدون للعمل مع متطوعي الاولستر للدفاع عن شواطئ ايرلنده ضد نزول الماني محتمل الوقوع . وكانت

هذه رغبة جون ردموند ، ولكن الايرلنديين المتطرفين لم يتبعوه . لقد أراد رجال « الاخاء الجمهوري » الانفصاليون ، أن يفيسدوا من حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ لتحقيق ارادة التمرد على انكلترا ، ولو أخفقوا ، للدلالة ، على الأقل ، على حركة لهذه الارادة . ولهذا انفجرت في عيد الفصح في ١٩١٦ في دبلن حركة تمرد اشترك فيها قسم صغير من الشعب الايرلندي . ولم يكن عدد المتطوعين الايرلنديين ، الذين اشتركوا بها ، اعلى من ١٨٠٠٠ رجل . وظلت معارك الشوارع في دبلن خمسة أيام ، وتوجب بالمدفعية أخذ الأبنية واحداً واحداً بعد أن استولى عليها الثوار . وكان الموحى بهذا التمرد كازمانت الذي كان في الولايات المتحدة في بداية الحرب ، ومر بالمانيا وتمت محادثات بينه وبين الرجال السياسيين الألمان ، ثم عاد إلى ايرلنده في غواصة ألمانية ليحاول توجيه الحركة من جديد : ولكنه أوقف وأعدم رمياً بالرصاص .

ولكن القضية الايرلندية لم تحل إلا بعد حرب ١٩١٤ - ١٨١٨ وبعد مصاعب جديدة .

الفصل الرابع عشر

قضية شلزفيغ الشمالية

ترتبط قضية شلزفيغ الشمالية بجموع قضية الدوقيات الدانماركية ، أي الشلزفيغ وهولشتاين وامارة لاونبورغ الصغيرة .

ترجع أصول هذه القضية ، كما رأينا ، إلى ما قبل ١٨٤٨ . فقد كانت الشلزفيغ وهولشتاين متحدتين بالدانمارك بموجب معاهدات تصعد إلى ١٧١٩ وإلى ١٧٢١ ، واللانبورغ بموجب معاهدة ١٨١٤ . وتحقق الاتحاد بشكل اتحاد شخصي ، أي إن ملك الدانمارك كان في الوقت نفسه سيد الدوقيات .

وفي احصاءات ١٨٦٠ كان سكان الدوقيات ٩٩٢٠٠٠ نسمة ، مع ان سكان باقي الدانمارك ، أي الدانمارك الأصلية ، ١٦٦٠٠٠٠٠ نسمة ، وبالتالي تشكل الدوقيات خمسي الدولة الدانماركية .

وبين هذه ال ٩٩٢٠٠٠ نسمة وجد ٥٥٢٠٠٠ في هولشتاين و ٥٠٠٠٠ في لاونبورغ ، و ٣٩٢٠٠٠ في الشلزفيغ . وكان سكان الهولشتاين واللانبورغ ينطقون الألمانية . أما الشلزفيغ فتقسم أرضها إلى قسمين : القسم الشمالي ولغته الدانماركية ، والقسم الجنوبي ولغة سكانه الألمانية . والحد اللغوي بين المنطقتين يقع تقريباً على ارتفاع مدينة فلنسبورغ . ومع هذا فأن الخط الفاصل بين منطقة اللغة الألمانية ومنطقة اللغة الدانماركية في الشلزفيغ

لم يكن واضحاً تماماً ، نظراً لوجود منطقة مختلطة يتكلم السكان فيها تارة الألمانية وتارة الدانماركية وتارة اللغتين .

وبالرغم من أن الشازفيغ منقسمة ، من وجهة النظر اللغوية ، إلى قسمين متساويين تقريباً ، فلم يكن هذان القسمان مأهولين بصورة متساوية : فالقسم الجنوبي ، قسم اللغة الألمانية ، كان مأهولاً بالسكان أكثر من القسم الشمالي . ومن الممكن ان يقدر ، حوالي ١٨٥٠ ، انه لا يوجد أكثر من ١٤٠٠٠٠ ، وربما ١٥٠٠٠٠ نسمة لغتهم دانماركية في الدوقيات . وكل هؤلاء السكان يتجمعون في الشازفيغ الشمالية .

أما من حيث الوضع الدولي فيجب ان نشير الى انه كان للدوقيات أوضاع مختلفة ، لأن الهولشتاين تؤلف ، منذ ١٨١٥ ، جزءاً من الكونفدراسيون الجرمانى ، بينما الشازفيغ خارجة عنه .

ان السبب العميق لهذه القضية ، قضية الدوقيات ، كانت قضية قوميات : فقد كان الشعب الألماني في الدوقيات يشكو من خضوعه للسيطرة الدانماركية ، ويريد الانفصال عن الدانمارك . واختلف الألمان على الشكل الذي يتحقق فيه هذا الانفصال : كان أكثرهم - وهذه النظرية يفضلها ، بخاصة ، استاذة جامعة كيل بين ١٨١٥ و ١٨٣٠ - يدعمون نظرية عدم تقسيم الدوقيات ، أي انهم كانوا يصرحون بأن الشازفيغ والهولشتاين واللابورغ تشكل كلاً واحداً ، ويجب أن يرتبط هذا الكل بأجمعه بالكونفدراسيون الجرمانى ، بما في ذلك ، الشازفيغ الشمالية المأهولة بالدانمارك . وعلى العكس ، كان بعض المؤلفين الألمان ، مثل لودنسن ، يصرحون بلزوم تقسيم الدوقيات حسب مبدأ القوميات ، أي حسب خط التبعية اللغوية ، فالمناطق التي يسكنها الألمان تلتحق بالكونفدراسيون الجرمانى ، والشازفيغ الشمالية المأهولة بالدانمارك تبقى للدانمارك .

ولكن هذه القضية القومية تحققت بقضية وراثية . وعندما يتكلم عن قضية الدوقيات ، يلج على هذه القضية الوراثية . وهذا خطأ ، لأنها لم تكن إلا ثانوية ، ومناسبة . وفي الحقيقة لم يكن القانون الوراثي واحداً في الدانمارك وفي الدوقيات : فقد وجد أن ملك الدانمارك ، الذي كان حتى ١٨٤٨ ، كريستيان الثامن ، لم يكن له إلا وارث واحد مباشر ، وهو ابنه فريديريك ، الذي تزوج مرتين ولم ينجب ولداً . فعند موت فريديريك ، وقد قصور قبل حينه بزمان طويل ، لمن يحدد الأثر ؟ فحسب القانون الدانماركي ، يجب أن يعود الأثر إلى كريستيان غلوكسبورغ ، ابن عم ملك الدانمارك . ولكن ، حسب عرف الدوقيات ، الذي يقبل الأثر في الخط المذكور فقط ، يجب أن يعود الأثر إلى فريديريك اوغستنبورغ ، وهو ابن عم آخر لملك الدانمارك ، ولكنه لم يكن على وفاق معه . ولنشر إلى أن اوغستنبورغ ما كان ليؤكد مزاعمه إلا على الدوقيات فحسب ، ولم يطالب بوراثنة للتاج الدانماركي . وإذا طالب اوغستنبورغ بالاعتراف بحقوقه فالنتيجة هي انفصال الدوقيات عن الدانمارك .

ولقد اسالت هذه القضية الوراثية كثيراً من الخبر قبل ١٨٤٨ . وفي ٢٨ كانون الثاني ١٨٤٨ قرر الملك فريديريك السابع ، الذي خلف كريستيان الثامن ، أن يضم الدوقيات دستورياً إلى الدانمارك : فجنى ذلك الحين كان لسكان الدوقيات مجالس اقليمية ولا يرسلون نواباً إلى الدياط الدانماركي . وابتداء من كانون الثاني ١٨٤٨ كان على الدوقيات أن ترسل نواباً إلى الدياط الدانماركي . وهكذا ارتبطت الدوقيات بصورة وثيقة بالدانمارك .

وكان رد المانيي الشلزيغ - هولشتاين تشكيل حكومة مؤقتة في كيل ، في ٢٣ آذار ١٨٤٨ ، وعندئذ ، احتل الجيش الدانماركي عسكرياً الشلزيغ

ليمنع الألمان من دخولها . فاستنجدت الحكومة المؤقتة بالكونفدراسيون
الجرماني . ونجس عن ذلك حرب بين الكونفدراسيون والدانبارك .
وقد قامت ، في الواقع ، الجيوش البروسية بهذه الحرب . وهذا يهم
الوحدة الألمانية ولن نطيل البقاء عنده ، ويكفي أن نعلم ، بعد وقوع
حربين منفصلتين بهدنة بين الكونفدراسيون والدانبارك ، أن بروسيا أوقفت
الحرب لأنها خافت أن تفسد علاقاتها مع روسيا في هذا الموضوع . وهكذا
تركت الدوقيات تدبر مصيرها بيدها .

الا أن مؤتمراً دولياً عقد ، في أيار ١٨٥٢ ، في لندن ، واهتم بالقضية .
وحضر هذا المؤتمر بريطانيا العظمى ، روسيا ، فرنسا ، النمسا ، بروسيا ،
السويد . وسوى المؤتمر سلفاً وراثته ملك الدانبارك فريدريك السابع ،
وقرر بأن يذهب هذا الارث بكامله ، بما فيه الدوقيات ، إلى كريستيان
غلو كسبورغ ، وبالمقابل ، وعد ملك الدانبارك بأن يعامل ألمان الدوقيات
ودانباركيي الدوقيات معاملة متساوية ، والا يقيم اختلافاً بين الدانباركيين
والألمان . ولشئ إلى أن الكونفدراسيون الجرماني لم يوقع صك لندن
لعام ١٨٥٢ ، بل وقعت النمسا وبروسيا فقط . أما الدوق اوغستانبورغ ،
الذي ألغيت حقوقه في هذا القرار ، فلم يشاور في الأمر ، ولكنه
تخلى عن مطلوبه ، في كانون الأول ١٨٥٣ ، مقابل تعويضات نقدية .

هذه هي أصول القضية . اما ما نريد دراسته ، قبل كل شيء ، فهو تطور
قضية الدوقيات بين ١٨٥٠ و ١٨٦٦ . والحادث الكبير الذي يميز هذه
القضية هو حرب الدوقيات الشهيرة عام ١٨٦٤ . ولذا سندرس أصول
حرب الدوقيات أي أسبابها البعيدة ، ومن ثم تطور الحرب ، لا من
الوجهة العسكرية ، بل من وجهة النظر الدبلوماسية ، وأخيراً مصير
الدوقيات بعد هذه الحرب .

١ — أصول حرب الدوقيات

لقد رأينا الحل الذي تبني فيما يتعلق بالدوقيات في المؤتمر الدولي الذي عقد في لندن ١٨٥٢ . وتجدر الإشارة إلى أن الحكومة الدانماركية ، بالرغم من قرارات مؤتمر لندن ، لم تقف موقفاً فظناً حذراً أو سليماً . كان لدى الحكومة الدانماركية انطباع بأن هذه القضية ستنتهي بفقد شيء ، وكانت تعلم بأنها لن تتوصل إلى انقاذ كل الدوقيات ، ولذا أرادت أن تنقذ ما يمكن انقاذه : فإذا فقدت الهولشتاين ، فيمكن أن تتسامح لأنه بلد مأهول بالألمان فقط . ولكنها حاولت أن تحتفظ بالشازفيغ . وجهدت لتغيير الوضع الراهن لصالحها ، وقامت ابتداءً من ١٨٥٣ - ١٨٥٤ بجهد منظم في « الدائرة » بتأثير المدرسة وتأثير الاكليركوس . وحاولت أن توسع ، شيئاً فشيئاً ، نحو الجنوب ، المنطقة التي يتكلم بها باللغة الدانماركية . وعدا ذلك طلبت التصويت في ١٨٥٤ على دستور ينص على انحسار تام بين الشازفيغ (الشازفيغ فقط لا الهولشتاين) والدانمارك : اتحاد اداري ، واتحاد برلماني ، وبالتالي أقامت تمييزاً ، « تعاملاً تفضيلاً » بين الشازفيغ والهولشتاين .

وارتفعت مباشرة نظمات السكان الألمان في الدوقيتين : وذكروا الوعود التي قطعها ملك الدانمارك على نفسه عام ١٨٥٢ . فقد وعد بأن يعامل الدانماركيين والألمان في الدوقيات معاملة متساوية ، ولكنه لم يفعل ، وحاول ، بوسائل دعاية مختلفة ، ارجاع منطقة اللغة الألمانية إلى الوراء ، وخص نفسه بتعامل مختلف في الشازفيغ ، من جهة ، والهولشتاين من جهة أخرى . ومن المؤكد أن الدانمارك لم تلتزم بتعهداتها .

ومن الطبيعي أن يهتم الديباط الجرمانى بالقضية : فقد أرسل مذكرات إلى الحكومة الدانماركية يذكرها بتعهداتها التي قطعتها على نفسها، وابتداءً من ١٨٦٠ ، اشتركت بروسيا والنمسا في هذه الاحتجاجات . ورفضت الحكومة الدانماركية أن تتنازل ، وصرحت بأن موقفها قانوني . واعلمتها الحكومة الانكليزية ، في مذكرة ٢٤ ايلول ١٨٦٠ ، بأنها أخطأت خطأ كبيراً بالتمسك بهذا السلوك . وبالرغم من نصائح انكلترا ، تمسك ملك الدانمارك بقراراته السابقة ، بل جددتها ، بدستور جديد ، في ١٣ تشرين الثاني ١٨٦٣ . وأعاد هذا الدستور نشر المبدأ الذي تؤلف الشلفينغ بموجبه جزءاً من الدولة الدانماركية . ومع أن الهولشتاين تؤلف جزءاً من الدولة الدانماركية فهي لا ترسل ممثلين الى البرلمان الدانماركي .

وهكذا كانت الحالة متوترة في آخر ١٨٦٣ . وهددت بروسيا ، باسم الكونفدراسيون الجرمانى وبناء على طلب سكان الهولشتاين ، الدانمارك باتخاذ تدابير صارمة ضدها .

وظل هذا التهديد معلقاً ، منذ عدة أشهر ، لولا أن حادثاً وقع فاشعل النار بالبارود : وهو وفاة ملك الدانمارك ، فريدريك السابع ، في ١٥ تشرين الثاني ١٨٦٣ . وعندئذ وضعت قضية الوراثة : وبموجب القرارات المتخذة عام ١٨٥٢ ، أعلن كريستيان غلوكسبورغ ملكاً على الدانمارك . وهذه السيادة تنطبق على الدوقيات أيضاً . وكان هذا مطابقاً تماماً لما قرره المؤتمر الدولي في لندن من حيث الوراثة لصالح غلوكسبورغ وسلامة الملكية الدانماركية . ولكن فريدريك اوغستانبورغ القى نداءً أعلن بموجبه أنه « دوق الهولشتاين وشلفينغ » . ومع أن اوغستانبورغ قد تخلى ، بلء خاطره ، في ١٨٥٣ ، عن حقوقه مقابل تعويض ، فقد

انكر كلامه ، والتمس عذراً ، وقال انه قبل التنازل عن حقوقه عندما طلب مؤتمر لندن اليه ذلك ، ولكن الظروف تغيرت ، لأن ملك الدانمارك لم يف بتعهداته ، ولذا اعتبر الدوق اوغستانبورغ نفسه في حل من تعهداته وطالب بوراثة الدوقيات .

أثارت هذه القضية في المانيا اضطراباً كبيراً : فقد درست المنظمة القومية الألمانية الكبرى (الجمعية القومية) القضية في ١٥ تشرين الثاني ١٨٦٣ ونادت بالمبادئ والشعوب الألمانية ، في ٢٤ تشرين الثاني ، بغية « تحرير » الدوقيات وتسليمها إلى اوغستانبورغ . ولكن الذي يحسب حسابه ، بهذه المناسبة ، هو موقف الدول الألمانية التي تتصرف بقوة السلاح ، أي النمسا وبروسيا . ورأت الحكومة البروسية في ذلك فرصة بمتازة لتضع نفسها بطلاً للمصالح القومية ، وبطلاً لحقوق القوميات . ووراء هذه الحجة السهلة ، وجد دافع آخر للعمل أقوى بكثير : وهو أن بروسيا كانت ترغب في الاستيلاء على منطقة كيل ، لأنها المنطقة التي يمكن منها إقامة قناة بين البحر البaltيكي وبحر الشمال . لكن هذه القناة ، قناة كيل ، التي لم تدشن إلا في العام ١٨٩٥ ، كانت ، في الواقع ، في حيز المشروع ، في ذلك الحين .

ولم تعلن الحكومة البروسية أنها في صالح اوغستانبورغ ، بل صرحت بأنها تريد أن تلتزم الدانمارك باحترام « حق الماني الدوقيات » ، وأعلنت عن نفسها أنها بطل مبدأ القوميات ، وأن الدانمارك ، في سياسة « الدمركة » ، لم تحترم حق الألمان في الدوقيات ، ولذا تريد أن تحمي هذا الحق .

أما الحكومة النمساوية ، فكانت مترودة كثيراً ، وهذا مفهوم ، لأنه لا يمكن أن تقبل بأن تضع نفسها بطل القوميات ، ولا تستطيع أن

نطبق هذا المبدأ في أرضها الخاصة وفي دولتها الخاصة . ولذا لم يكن لها أي مصلحة مبدأ للعمل ، وإن من مصلحتها عدم الحركة ، لأنها لو قامت بحركة ، لأمكن تذكيرها ، بالبندقية وسلافي الجنوب ، والتشكيكين وغيرهم . ومع ذلك لم تشأ الحكومة النمساوية أن تبقى منعزلة جانباً وبعبدة عن قضية تهم الألمان جميعاً . وكانت ترغب كثيراً في حفظ نفوذها في المانيا ولهذا السبب شاركت في السياسة البروسية .

وفي ١٠ كانون الثاني ١٨٦٤ وقع اتفاق مساوي - برومي . وبموجب هذه المعاهدة اتفقت النمسا وبروسيا أن تتوجها معاً إلى ملك الدانمارك المطالبة بالغاء الدستور الدانماركي لعام ١٨٥٤ ، هذا الدستور الذي ربط بصورة وثيقة الشازفيغ بالدانمارك . وإذا لم تقبل الدانمارك بالغاء هذا الدستور فإن النمسا وبروسيا تتفقان على العمل بالسلاح وتسويان ، باتفاق تام ، مصير الدوقيات في المستقبل .

وفي هذا الحين حدثت القطيعة : ففي ١٥ كانون الثاني ١٨٦٤ ، وجهت النمسا وبروسيا ، بموجب معاهدة التحالف ، انذاراً إلى الدانمارك مطالبان فيه بسحب دستور ١٨٥٤ مباشرة . فلم تجب الدانمارك ، وفي الأول من شهر شباط ١٨٦٤ ، ادخلت بروسيا والنمسا جيوشها في الهولشتاين وفي الشازفيغ معاً ، حتى أت الدباط الجرمانى ارسل ، من جانبه ، جيوشاً لنفس الغاية .

٢ - حرب ١٨٦٤

بالرغم من الشجاعة التي أبدتها الجيوش الدانماركية لا حاجة لأث يلع على وجهة النظر العسكرية . لأن نسبة التفاوت بين القوي المتصارعة عظيمة جداً : كانت نفوس الدانمارك ١٦٠٠.٠٠٠ نسمة ، ويمكن أن

يضاف اليها دانياركيو شنزفيغ الشمالية ، فيصبح المجموع ١٧٥٠.٠٠٠ نسمة ، أمام جيوش بروسيا والنمسا مجتمعتين . ولم تمض عشرة أيام على بداية الحرب حتى استولى النمساويون والبروسيون ، في القسم الشمالي من الشانزفيغ ، على أهم الحصون الدانياركية في دويل ، ومن ثم بلغت الجيوش النمساوية - البروسية الأرض الدانياركية الأصلية أي الطرف الشمالي من شبه جزيرة جوتلاند .

وفي هذه الشروط ، اتجهت الدانيارك ، منذ ١١ شباط نحو الدول الموقعة على اعلان لندن ١٨٥٢ ، وطالبت بالتدخل والنجدة .

كان مصير الحرب منوطاً بموقف هذه الدول : انكلترا ، فرنسا ، روسيا ، وخارجاً عن بروسيا والنمسا اللتين بدأنا الحرب ضد الدانيارك .

موقف انكلترا - . لقد التمت انكلترا اولاً اسباباً لئلا تعمل شيئاً : لقد استدعت حكومة لندن قانوني التاج فصرحوا بأن انكلترا غير ملزمة بالتدخل ، لأن ملك الدانيارك لم يحترم التعهدات التي قطعها في ١٨٥٢ . ولا شك في أن انكلترا كانت أيضاً موقعة على معاهدة ١٧١٩ التي تسلم بموجبها ملك الدانيارك الدوقيات ، ومن الممكن أن يتساءل ما إذا كانت معاهدة ١٧١٩ سارية المفعول ؟ ولكن قانوني التاج صرحوا بأن معاهدة ١٧١٩ غير مقبولة ، لأنه كان يجب تجديدها في ١٨١٥ ، أثناء التنظيم العام للقضايا الأوروبية ؛ وما دامت لم تجدد ، فتعتبر ساقطة . وهكذا استطاعت انكلترا من الوجهة الحقوقية الاتهم بقضية الدوقيات . ولكن هذا الرأي لم يكن رأي الفقهاء الذي يكون في هذه الحالة حاسماً . والحاسم هو أن الرأي الانكليزي كان يريد السلام ،

وبخاصة ، اوساط الأعمال التي لا تريد الحرب ، لأن الحرب تضيق حركة الأعمال وتجر إلى أعباء ضريبية عظيمة . يضاف إلى ذلك أن الملكة فيكتوريا ، في هذه القضية ، كانت « مناصرة للألمان » وقد كتبت بذلك إلى ابنتها زوجة الامير الوارث ولي عهد « كرونبراز » بروسيا . والايضاح الوحيد الذي يمكن اعطاؤه لهذا الموقف ، هو أن فيكتوريا كانت وفية بشدة لذكرى زوجها الأمير - كونسور البير ، وكان أميراً ألمانياً . وربما تساءلت الملكة فيكتوريا كيف يمكن لزوجها أن يعمل لو كان حياً : وخلصت إلى أنه سيكون لصالح النظرية الألمانية ، ولهذا أعلنت بأنها نفسها لصالح هذه النظرية .

لقد كانت للانكليز أسباب للبقاء سليبين . ولكن أسباباً أخرى كانت تدفعهم إلى العمل ، لأن الجيوش الألمانية إذا توصلت الى الحفاظ على الشانزينغ وضم هذه الأرض إلى هولشتاين فان المنطقة التي يمكن أن تنشأ فيها قناة كيل تكون عندئذ منطقة المانية . وان انشاء قناة كيل لا يعجب الانكليز ، لأن بروسيا ، التي لا تملك حتى الآن بحرية حرية ، ستلقى تسهيلات جمة لانشاء هذه البحرية في اليوم الذي تحفر فيه قناة كيل . ويمكنها عندئذ أن تنشئ هذه البحرية في البحر البaltic أي في معصم من الاسطول الانكليزي ، ومن بعد ، تخرجه بواسطة قناة كيل إلى بحر الشمال . ومن جهة أخرى ، لا تريد انكلترا أن تنهار الدانمارك تماماً ، لأن الدانمارك تمسك بمفاتيح البaltic أي ان المضائق التي توصل إلى البaltic واقعة في المياه الإقليمية الدانماركية ، وتستطيع الدانمارك أن « تغلقها » بسهولة جداً .

وبعد أن وازنت الحكومة الانكليزية بين ما للقضية وما عليها ،

أنجحت نحو فرنسا وطلبت إليها ما اذا كانت مستعدة إلى المشاركة في ارسال اسطول انكليزي الى البحر الباطيكي وجيش فرنسي على «الراين» لجعل بروسيا والنمسا تفكران في الأمر .

موقف فرنسا - . لم تظهر الحكومة الفرنسية حماسة . ففي السنة السابقة ، ١٨٦٣ ، قامت الثورة في بولونيا ضد روسيا . وفي أثناء هذا التمرد استنجد البولونيون بفرنسا . وكان نابليون الثالث ، على الأقل ، مستعداً لمساعدتهم . ولكنه رأى كثيراً من سوء ارادة انكلترا التي تظاهرت بأنها تريد أن تشارك في المبادأة الفرنسية ، ولكنها تركت أخيراً فرنسا وحدها حتى انتهت إلى لا مخرج . وفكرت الحكومة الفرنسية ، في عام ١٨٦٤ ، ان انكلترا ستعمل نفس العمل في قضية الدوقيات . وأجابت بأنه إذا وقعت حرب مع النمسا وبروسيا بمناسبة قضية الدوقيات فان دورهما لا يكونان متساويين حقاً : لأن انكلترا تقترح أن تقوم وحدها بالجهد البحري : وذلك بأن ترسل اسطولاً إلى الباطيك حيث لا يخاطر هذا الاسطول بشيء ، لأنه لا يوجد لبروسيا فيه اسطول ، بينما ، على العكس ، ان ارسال قطعة جيش فرنسي على الراين يمكن أن يثير حرب فرنسية - بروسية مع جميع النتائج المترتبة عليه . ولذا صرحت الحكومة الفرنسية بأنه يستحيل عليها أن تلتزم بشيء في هذه الشروط .

وكان لنابليون الثالث ، في قضية الدوقيات ، نظرات شخصية . فقد كان يرى في هذه القضية قضية قوميات ؛ وبالتالي إن كل منطقة الدوقيات المأهولة بالألمان يجب أن تكون ألمانية وتلتحق بالكونفدراسيون الجرمان . وعلى العكس ، ان القسم الشمالي من الشايفيغ ، باعتباره مأهولاً بالدانماركيين ، يجب أن يبقى للدانمارك . وصرح الامبراطور ، في ١٣

نيسان ١٨٦٤ : « نحن الفرنسيين لا نستطيع أن نساند قضية القوميات في البندقية ونكافحها في الدوقيات » .

وأخيراً ، كانت السياسة الفرنسية ترجو تقسيم الدوقيات على أساس مبدأ القوميات ، وذلك بأن تعود أربعة أخماس الدوقيات ، من حيث رقم السكان ، إلى الكونفدراسيون الجرمانى ، والخمس الباقي يظل للدانمارك .

موقف روسيا - . كانت الحكومة الروسية في ذلك الحين منهكة بشاغل كثيرة : ففي السنة السابقة كانت مهمة بقمع الثورة البولونية الخطيرة ، وتساءلت ما إذا كانت هذه القضية البولونية قد هدأت حقاً ؛ وفكرت ، من جهة أخرى ، بأن بروسيا إذا استولت على الشلزيغ - هولشتاين واحتفظت بهذه الأراضي ، انشأت على وجه التأكيد قناة كيل ، وفي ذلك ما يساعد البحرية البروسية على النمو . وهذه البحرية البروسية تخفض من تفوق انسكاترا البحري . وهذه النتيجة لا تسيء إلى روسيا . وهكذا اقتربت وجهة نظر الروس ، في هذا الاعتبار ، من وجهة النظر البروسية . ومن جهة أخرى ، لم تشأ الحكومة الروسية أن تذهب وتساعد على انهيار الدانمارك انهياراً كاملاً ، لأنه لا يعلم أين تقف الجيوش النمساوية - البروسية . وبعد فتح الشلزيغ يمكن أن تستولي على جوثلاند بكاملها وتنزل في الجزر الدانماركية ، وعندئذ ، تنهار الدانمارك . وفي هذه الحال من الممكن أن تعطى بقايا الدانمارك إلى السويد . وهذا التضخم السويدي لا يعجب روسيا ، لأن السويد والروسيا كانتا في صعوبة بنامية قضية فنلاند وجزر آلانده . وفي السياسة الدولية يجب الاهتمام بكل شيء ، لأنه لا يمكن معالجة القضايا بشكل مستقل فيها البعض عن الآخر . وما دامت أي دولة من الدول الكبرى لا تريد القيام بجهد عسكري ، فما من سبيل إلا الحل الدبلوماسي . وقد اقترحت بريطانيا عقد مؤتمر

دولي ، وقبلت روسيا وفرنسا ، فاضطرت النمسا وبروسيا أن تقبلابه .
وانعقد هذا المؤتمر في نيسان ١٨٦٤ : بدأ بتقرير هدنة . وفي أثناء هذه
الهدنة ، جرى التفاوض . وصرحت بروسيا بأن الحل الوحيد الممكن
هو استقلال الدوقيات استقلالاً تاماً عن الدانمارك ، وقالت ان هذا الحل
هو الضمان الوحيد للسلام . ولذا يجب تشكيل الدوقيتين : هولشتاين
والشلفيغ في دولة مستقلة ، تحت صولجان فريديريك اوغستانبورغ .
واقترحت بريطانيا العظمى وفرنسا ، على العكس ، تقسيم الدوقيات ،
وهذه هي خطة نابوليون الثالث . وهكذا ينفصل المالت الدوقيتين عن
الدانمارك (كل الهولشتاين ، والالونبورغ ، والقسم الجنوبي من الشلفيغ) .
ويبقى القسم الشمالي من الشلفيغ دانماركياً لأنه مأهول بالدانماركيين ،
وتضمن الدول استقلال الدانمارك .

وهنا طرحت قضية صعبة وهي : كيف يحدد خط التقسيم ؟ اوحث
الحكومة الفرنسية باستفتاء : وحسب نتائج هذا الاستفتاء تعين المناطق
التي يريد سكانها أن يبقوا دانماركيين ، والمناطق التي يريد سكانها أن يصبحوا
ألماناً . رفضت الدانمارك الاستفتاء وصرحت بأنها تريد أن تسوي القضية
بمفاوضات مباشرة مع الكونفدراسيون الجرمانى : وجرت هذه المفاوضات ،
ولم تؤد إلى شيء وانتهى تاريخ الهدنة دون الفصل في شيء ، واستؤنفت
الحرب .

لماذا ارتكبت الدانمارك هذا الخطأ ولم تقبل بالحل الذي اقترحتة الحكومة
الفرنسية ؟ ربما لأنها لا تريد التخلي عن مدينة فلنسبورغ الواقعة في المنطقة
المختلطة من الوجهة اللغوية . وفي هذه المنطقة لا يمكن التنبؤ بنتائج
استفتاء . والنتيجة الوحيدة لعنادها استئناف الحرب في ٢٥ حزيران .

واستاءت بريطانيا العظمى وقررت بالأتزج نفسها في القضية . وأيد مجلس العموم هذا القرار بأكثرية ١٨ صوتاً .

وهكذا تركت الدانمارك وشأنها تماماً . ولم تكن النتيجة طويلة : فبعد ثلاثة أسابيع على استئناف الحرب ، اجتاحت الجيوش الألمانية الجوتلاند ، وعبرت المضيق ، ودخلت الجزر . وعندئذ طلبت الدانمارك الاستسلام . وأيد هذا الاستسلام بمعاهدة فينا في ٣٠ تشرين الأول ١٨٦٤ . وبموجب هذه المعاهدة تتخلى الدانمارك عن جميع الحقوق التي كانت لها على الدوقيات بكاملها ، لا الهولشتاين واللابورغ فحسب ، بل كل الشازفيغ أيضاً . وعدا ذلك ، تعترف الدانمارك بأن تتخذ النمسا وبروسيا الاجراءات التي تريدانها لتسوية مصير الدوقيات في المستقبل : أي انه يحرم سلفاً كل احتجاج . وحصلت الحكومة الدانماركية على أن يكون لدانماركبي الشازفيغ الشمالية حق في الاختيار لصالح الدانمارك ، وفي هذه الحالة ، يجب أن يغادروا الشازفيغ وبتنقلوا إلى الأراضي الدانماركية ويأخذوا معهم اموالهم المنقولة . كما نصت المعاهدة على انه يحق لهم الحفاظ على ملكية ابنتهم وعملائهم .

٣ — مصير الدوقيات من ١٨٦٤ الى ١٨٦٦

هكذا كانت نتيجة حرب ١٨٦٤ . وبقيت قضية أخيرة تحتاج إلى تسوية : لقد نصت المعاهدة على أن تنظم النمسا وبروسيا مصير الدوقيات في المستقبل . وفي الحقيقة ، ان هذه القضية ، قضية « مساوية - بروسية » ، وتهم ، قبل كل شيء ، قضية علاقات النمسا وبروسيا . وقد أصبحت هذه القضية ، في ذلك الحين ، عنصر تنافس بين النمسا وبروسيا . ونقتصر على ذكر مراحلها الأساسية .

لقد ظهر ، منذ البدء ، الاختلاف بين النمسا وبروسيا : وقبلت حكومة الدوقيات ، عند الضرورة ، أن يصبح فريديريك اوغستانبورغ سيداً ، شريطة أن يخول بروسيا ما يرضيها ، وذلك بأوامر اتفاق عسكري بين الدوقيات وبروسيا ، أي عقد حلف ، ومنح بروسيا محطة بحرية في كيل ، مع حق إنشاء قناة ، وأخيراً دخول الدوقيات في الاتحاد الجمركي الذي ترأسه بروسيا وليست النمسا عضواً فيه . وكل هذه البنود مخصصة لتحقيق ارتباط وثيق بين الدوقيات وبروسيا ، وهذا يعني ، عملياً ، ان الدوقيات ستكون تابعة لبروسيا .

احتجت الحكومة النمساوية على هذا الحل : وصرحت بأنها لا تستطيع أن تقبله ، وان ما تطلبه هو أن تجعل من الدوقيات امارات مستقلة حقاً ، تحت ادارة اوغستانبورغ ، امارات تكون عضواً في الكونفدراسيون الجرمانى ، مثل بافاريا وفرانكفورت وليس لها أي رابطة الحاق أو تبعية ببروسيا .

كيف يمكن التوفيق بين هاتين النظريتين ؟ لقد جرت مفاوضة نمساوية - بروسية وافهمت الحكومة النمساوية خلالها أنها مستعدة إلى قضحية حقوق اوغستانبورغ إذا أعطتها بروسيا تعويضاً من جهة سيليزيا ، ومن جهة غلاتز ، أو بشكل آخر : إذا أعطت بروسيا إلى النمسا ضماناً لأرضها في منطقة البندقية . وجرى تساؤل أيضاً ما إذا أمكن أن يكون هذا التعويض السماح بدخول النمسا في التسولفراين . وأخيراً ، اخفقت كل هذه الترتيبات . عندئذ انقلبت السياسة النمساوية : قدم وزير الشؤون الخارجية روتبرغ استقالته واتخذ خلفه موقفاً أكثر صلابة مع بروسيا ، حتى توترت الحالة تماماً ، في ١٨٦٥ ، وجرى تساؤل حول ما إذا كان الوضع على ابواب حرب نمساوية - بروسية بمناسبة قضية الدوقيات .

ولكن القضية سويت أخيراً بتسوية مؤقتة باتفاق غاشتاين ، في ١٤ آب ١٨٦٥ .

وبوجب هذا الاتفاق أصبح مصير الدوقيات كما يلي : ضمت دوقية اللاونبورغ إلى بروسيا التي دفعت مقابلها ٥٠.٠٠٠.٠٠٠ فرنك إلى النمسا-هولنداريا ؛ وسلمت الشازفيغ إلى إدارة بروسيا « بصفة مؤقتة » . وسلمت هولشتاين إلى إدارة النمسا بصفة مؤقتة أيضاً إلا مدينة كيل التي ادخلت تحت إدارة بروسيا . وكان مصير الدوقيات التقسيم بين النمسا وبروسيا ، ولكنه تقسيم مؤقت . ولنشر إلى أن الدوق اوغستانبورغ في هذا الاتفاق وضع جانباً تماماً ولم يتكلم عنه .

ولم تته هذه التسوية المؤقتة الصعوبات : لم يذعن اوغستانبورغ ، وأثار الاضطراب في الدوقيات ، وقام بحملة لصالح الاستقلال . واتخذت الإدارة النمساوية والإدارة البروسية حيال هذه الحملة موقفين مختلفين : كانت الإدارة النمساوية ، في الهولشتاين ، متساهلة للغاية . لأن استقلال الدوقيات لم يضايقها مطلقاً . أما الإدارة البروسية ، على العكس ، فقد قمت حملة اوغستانبورغ بشدة لأنها لا تريد استقلال الدوقيات . وكان ذلك مناسبة لحلاف جديد بمساوي - بروسي : فقد طلبت الحكومة البروسية من الحكومة النمساوية أن تتفق معها للقضاء على دعاية اوغستانبورغ ، فرفضت النمسا . وتساءل الناس ما إذا كانت الحرب ستنفجر مرة أخرى . وفي هذا الحين انعقد مجلس التاج ، في برلين ، في كانون الثاني ١٨٦٦ وقرر أن قضية الدوقيات تستحق الحرب .

وهكذا كانت قضية الدوقيات مناسبة لاثارة الحرب النمساوية - البروسية ، في ١٨٦٦ ، رغم انها لم تكن قضية اساسية . ففي بداية حزيران

١٨٦٦ ، صرحت الحكومة النمساوية ، بأنها تدع إلى الديباط الجرمانى ،
الناطقى باسم الكونفدراسيون ، حل قضية الدوقيات . فاحتجت بروسيا
بقولها ان النمسا بهذا التصريح خرقت حرمة معاهدة التحالف فى ١٨٦٤
وادخلت جيوشها فى هولشتاين . فأجابت النمسا بأن هذا العمل عدوان
من جانب بروسيا وطلبت إلى دول الكونفدراسيون الجرمانى النفير ضد
بروسيا ، وصوتت الدول الكبرى فى الكونفدراسيون : دول المانيا الجنوبية ،
الهانوفر وامارات المانيا الوسطى ، إلى جانب النمسا .

لقد وقعت الحرب ، وبعد معركة سادوفا ، اقترح نابوليون
الثالث وساطته بين بروسيا والنمسا ، دون أن يجرأ فى الذهاب حتى
التدخل المسلح : ففي ١٤ تموز ١٨٦٦ قدم امبراطور الفرنسيين أسس
السلام : وفى هذه المقترحات ظل نابوليون الثالث وفاقاً لفكرته فى عام
١٨٦٤ : وهى حل قضية الدوقيات على أساس مبدأ القوميات . وصرح
بأنه يقبل بانضمام الدوقيات إلى بروسيا ، إلا فيما يتعلق بالشازفيغ الشمالية
التي يجب أن يتنازل عنها إلى الدانمارك إذا استشير شعب هذه المنطقة
باستفتاء وطلب هذا الانضمام . وقد سلم بسمارك بهذا الحل ، لأنه لم يستطع
فى ذلك الحين أن يجابه نابوليون الثالث ، وأبدت مقدمات نيكولسبورغ ،
فى ٢٦ تموز ١٨٦٦ هذا الحل . وسجل هذا الحل نفسه فى صالح براغ ،
فى ٢٣ آب ١٨٦٦ .

وفى ١٨٦٦ كان الوضع الحقيقى كما بلى : لقدسويت قضية الدوقيات
بمعاهدة براغ ، وتم التفاهم على أن تتبع جميع المناطق المأهولة بالألمان :
هولشتاين ، لاونبورغ وجنوب الشازفيغ ، بروسيا . وعلى العكس ، على
« شازفيغ الشمالية » أن تقرر مصيرها الخاص باستفتاء . وهذا الاستفتاء
لا يشك بنتيجته ، لأن الشعب كان بكامله دانماركياً تقريباً .

الفصل الخامس عشر

مصير الشلزفيغ الشمالية

إن معاهدة براغ ، التي انتهت الحرب النمساوية - البروسية في ١٨٦٦ ، نظمت ، في مادتها الخامسة ، قضية الدوقيات . وتقول هذه المادة : « إن صاحب الجلالة امبراطور النمسا ينقل إلى صاحب الجلالة ملك بروسيا جميع الحقوق التي اعترف بها صلح فينا بمعاهدة ٣٠ تشرين الأول ١٨٦٤ له على دوقيتي الشلزفيغ والهولشتاين » . ومعاهدة فينا هذه هي التي انتهت حرب الدوقيات وفصلت هذه الدوقيات عن الدانمارك وسلمتها إلى بروسيا وإلى النمسا معاً . أما معاهدة براغ فقد سلمت إلى بروسيا كامل الدوقيات ، لأن النمسا تخلت عن حقوقها . ولكن المادة الخامسة من معاهدة براغ تضيف : « مع هذا التحفظ : وهو أن ينضم سكان المناطق الشمالية في الشلزفيغ من جديد إلى الدانمارك إذا عبروا عن رغبتهم في ذلك بتصويت معانٍ بجمرية » . وبالتالي ، ان المادة الخامسة من معاهدة براغ تنص على استفتاء في الشلزفيغ الشمالية ليساعد السكان على القول فيما إذا كانوا يريدون أن يبقوا ألماناً أو إذا أرادوا ، بالعكس ، أن ينفصلوا عن كونفدراسيون ألمانيا الشمالية ليعودوا ثانيةً دانماركيين .

وقد دست هذه المادة الخامسة وبخاصة تحفظها النهائي في معاهدة براغ بناءً على طلب نابليون الثالث .

ولفهم معنى هذه المادة الخامسة على وجه الصحة يجب أن ننظر إلى الخارطة : في ١٨٦٧ كان في الشازفيغ نحو ٥٣٠.٠٠٠ نسمة . وتنقسم الشازفيغ إلى قسمين منفصلين بمنطقة مرازغ تمتد من فلنسبورغ حتى هوجر وان ما يسمى « بالاجمال » الشازفيغ الشمالية ، هو القسم الواقع في شمال هذا الخط . وكانت الشازفيغ الشمالية في العام ١٨٦٧ تضم تقريباً ١٩٠.٠٠٠ نسمة ، وسطحها ٤٠٠.٠٠٠ هكتار أي ما يساوي تقريباً مساحة شبه جزيرة كوتانتان في فرنسا . أما الشازفيغ الجنوبية فكانت نفوسها في الوقت نفسه ٣٤٠.٠٠٠ نسمة . اذن كانت الشازفيغ الجنوبية مأهولة بالسكان بشكل محسوس اكثر من الشازفيغ الشمالية . وفي الشازفيغ الشمالية كانت لغة الشعب في أكتريته العظمى الدانماركية . ففي شمال خط فلنسبورغ - هوجر يكاد يوجد ٢٠.٠٠٠ شخص يتكلمون الألمانية . وفي الشازفيغ الجنوبية ، في جنوبي هذا الخط نفسه يكاد يوجد ٢٠.٠٠٠ شخص يتكلمون الدانماركية . وعلى وجه الاجمال يمكن أن يقال انه يوجد خط تقسيم للقوميات ، وان هذا الخط يمتد تقريباً من فلنسبورغ إلى هوجر ، ولكن بوجه الاجمال فقط ، لأنه ، إذا أريد النظر إلى القضية عن كثب ، لشهد ، على وجه الدقة حول هذا الخط المتوسط : فلنسبورغ - هوجر ، أنه يوجد مناطق يختلط فيها الدانماركيون والألمان ، وليس بالسهل اقامة خط تقسيم كما يمكن أن يعتقد .

ونظراً لهذه الحالة ، على أي شيء يطبق التعبير الموجود في معاهدة براغ : « المناطق الشمالية في الشازفيغ » ؟ من الممكن أن يفكر بأنه ينطبق على كل الجزء الواقع في شمال الخط فلنسبورغ - هوجر ؛ نقول من الممكن أن يفكر بذلك ، ولكن المعاهدة لا تقول بذلك صراحة .

ومن جهة أخرى ، ان هذه المادة الخامسة تنص على استفتاء ، ولكنها تهمل أن تقول في أي تاريخ يقع هذا الاستفتاء .

اذن القضية الموضوعة هي الآتية : ما هو مصير شازفيغ الشمالية ، ومصير هذه « المناطق الشمالية في الشازفيغ » ؟ بهذا الاعتبار يوجد حادثان كبيران يجدر حفظهما : الحادث الأول ، هو أن الحكومة البروسية لم تنفذ الوعد الذي سجل في المادة الخامسة من معاهدة براغ ، أي ان استفتاء الشازفيغ الشمالية لم يحدث ؛ والحادث الثاني ، هو أن الحكومة الألمانية سلكت سياسة جرمنة منظمة في الشازفيغ الشمالية .

١ - عدم تنفيذ المادة الخامسة من معاهدة براغ

في ١٢ كانون الثاني ١٨٦٧ ، ضمت الدوقيتان ، هولشتاين والشازفيغ ، إلى بروسيا ، وكان ذلك نتيجة منطقية لمعاهدة براغ ١٨٦٦ ، ودخلت الدوقيتان ، في الوقت نفسه ، في الاتحاد الجرمني . وابتداءً من هذا الحين كانت القضية الموضوعة معرفة ما إذا كانت المادة الخامسة من المعاهدة ستنفذ ، أي ما إذا كان سكان الشازفيغ الشمالية سيدعون إلى التصويت ليقولوا ما إذا كانوا يفضلون العودة إلى الدانمارك أو ما إذا كانوا يريدون البقاء رعايا الدولة البروسية . ومنذ ٢٣ آب ١٨٦٦ ، أي منذ اليوم الذي وقعت فيه معاهدة براغ ، وضعت الحكومة الدانماركية مشروعاً بغية تنفيذ المادة الخامسة ، وابلغت هذا المشروع فرنسا ، لأن الحكومة الفرنسية كانت المرحية بفكرة هذا الاستفتاء .

ينص المشروع الدانماركي على ما يلي :

١ - ان الأرض التي يقع فيها الاستفتاء تمتد حتى خط يمر قليلاً في

جنوب فلنسبورغ .

٢ - في هذه الأرض المعرفة على هذا النحو بأنها الشازفيغ الشمالية ،
تميز ثلاث مناطق منفصلة من الشمال إلى الجنوب ، ويدعى السكان إلى
التصويت في كل منطقة من المناطق . وقد وضعت الدانمارك هذا الحكم
لأنها فكرت بأن الأكثرية ، في منطقة فلنسبورغ ، قد لا تكون لصالحها ،
وأرادت على الأقل الاحتفاظ بمنطقتي الشمال إذا فقدت الثالثة .

٣ - اقترحت الدانمارك أن يكون التصويت بالتصويت العام ، وأن
يكون الناخبون جميع الرجال المولودين في الشازفيغ أو كانوا يقيمون
فيها منذ عشرة أعوام . وهذا الحكم يساعد الدانماركيين ، الذين لم يريدوا
البقاء في الشازفيغ ، اثر حرب ١٨٦٤ ، لأنها أصبحت تحت الادارة
البروسية ، على العودة إلى الشازفيغ والتصويت . ويجب أن يكون هذا
التصويت تحت رقابة ثلاثة مفوضين : دانماركي ، ألماني ، وفرنسي .

هذا هو النظام الذي اقترحته الدانمارك ، وعرضه وفد من دانماركي
الشازفيغ ، في ٣٠ آب ١٨٦٦ ، على ملك بروسيا غليوم الأول ولكن
ملك بروسيا رفض استقبال الوفد . وبعد ذلك بقليل ، في ٣٠ كانون
الأول ١٨٦٦ ، قال بسمارك في خطاب له في مجلس النواب البروسي :
« لقد كان رأيي دوماً أن الشعب ، الذي يبدي بثبات ارادة مصممة
على ألا يكون بروسيا أو ألمانيا ، وان الشعب ، الذي يبدي ارادة
مصممة على اتباع دولة مجاورة له مباشرة ومن نفس القومية ، لا يأتي
بأي قوة إلى الدولة التي يريد الانفصال عنها ، . وهكذا أفهم بسمارك ،
بعد كل هذا ، بأن دانماركي الشازفيغ ، إذا كانوا لا يريدون أن
يبقوا بروسين ، فهو لا يحرص على الاحتفاظ بهم . ولكنه أضاف بأنه
من الممكن أن تكون هنالك عوامل « جغرافية » أو « ستراتيجية »
يمكن أن تدفع الحكومة البروسية إلى عدم قبول رغبات الشعب

وهكذا نرى أن بسمارك يتبنى موقفاً غامضاً ملتبساً . فهو مبدئياً ، يبرر المطلوب الدانماركي ، وعملياً ، يصرح بأنه غير متأكد من أن بروسيا تقبل له اعتباراً . ويسدو أن بسمارك ، في ذلك الحين ، كان على خلاف مع غليوم الأول : لأن الملك لا يريد ، بأي ثمن ، تنفيذ الاستفتاء ، على حين أن بسمارك ربما كان يقبل به .

وفي شباط ١٨٦٧ تشكل الراجشتاغ التأسيسي لاتحاد المانيا الشمالية . ودعى سكان الشازفيغ أن يرسلوا نوابهم إلى هذا المجلس ، لأن الشازفيغ ، منذ شهر كانون الثاني ، ١٨٦٧ ، أصبحت تؤلف جزءاً من الدولة البروسية . وجرت الانتخابات في شباط ١٨٦٧ . وهذه الانتخابات جديدة بالملاحظة لأنها تعادل الاستفتاء . فقد وجد في كل دائرة انتخابية ، وعددها أربع في الشازفيغ ، مرشح « الماني » أي مناصر للانضمام إلى المانيا ، ومرشح « دانماركي » أي مرشح محتج على هذا الانضمام .

أما نتائج هذه الانتخابات فكانت كما يلي :

١ - في الدائرة الانتخابية الاولى التي تمتد في شمال الشازفيغ أي دائرة هادوسين ، التي تتر حدودها الجنوبية تقريباً على عشرين كيلومتراً في شمال فلنسبورغ ، حصل المرشح الدانماركي ، أي المرشح الذي احتج على الانضمام إلى بروسيا ، على أكثرية قوية جداً . فقد وجد ١٥٠٠٠ صوت دانماركي ضد ٣٧٠٠ صوت الماني . وهذا الرقم ٣٧٠٠ يدل ، مع ذلك ، على أن عدداً من الناس الذين يتكلمون الدانماركية قد صوتوا للانضمام إلى المانيا .

٢ - وفي الدائرة الانتخابية الثانية ، التي تضم مدينة فلنسبورغ وجزيرة آلز ، توازنت الأصوات الألمانية والأصوات الدانماركية : ٩٩٠٠ للدانمارك و ٩٦٠٠ لألمانيا .

٣ - في الدائرتين الانتخابيتين الباقيتين الموجودتين في الجنوب كانت الأكتية الألمانية عظيمة .

وعلى العموم : وجد في الشلزيغ ، في مجموع الدوائر الانتخابية الأربع بجمعة : ٢٧٠٠٠ صوت دانباركي و ٣٩٥٠٠ صوت الماني . ولكن الاكتية الدانباركية في الدائرة الانتخابية الاولى لا تقبل الجدل . والحادث الجدير بالذكر أن نائبين من نواب الشلزيغ ، وهما النائبان الدانباركيان عن الدائرة الانتخابية الاولى والثانية ، عندما جلسا في المجلس التأسيسي لكونفدراسيون المانيا الشمالية ، صرحا على الفور : « نحن دانباركيون ونريد أن نبقى دانباركيين » .

وفي غضون ذلك قرر بسمارك القيام بمفاوضات مع الدانبارك : ففي ٧ أيار ١٨٦٧ ، استدعى وزير الدانبارك في برلين وصرح له بأنه مستعد لأن يدرس مع الدانبارك الشروط التي يمكن أن يجري بها الاستفتاء . وفي ١٨ حزيران ١٨٦٧ وجهت الحكومة البروسية مذكرة إلى الحكومة الدانباركية أوضحت فيها الشروط التي سيجري فيها هذا الاستفتاء . وهي كما يلي :

١ - إن حكومة كونفدراسيون المانيا الشمالية تطلب « ضمانات » لأمن الألمان الذين يعيشون في الشلزيغ الشمالية . وطلب بسمارك : هل الدانبارك مستعدة لمنح الماني الشلزيغ الشمالية هذه الضمانات ؟

٢ - صرحت حكومة كونفدراسيون المانيا الشمالية بأن امتداد الأراضي التي سيتنازل عنها يتعلق بمنح هذه الضمانات .

وهكذا صرح بسمارك إلى الحكومة الدانباركية بقوله : أي الضمانات أنتم مستعدون لاعطائنا إياها لتكون مطمئنين على أن الألمان ، في

الشازفيغ الشمالية ، إذا صوتت هذه الشازفيغ الشمالية على أنها دانيمركية ، ليس لهم ما يشكونه من نقل السيادة ؟ والنقطة الثانية : انني انتظر الجواب على هذا السؤال لأعين امتداد الأرض الخاضعة للاستفتاء . ويجب ألا ننسى أن المادة الخامسة من معاهدة براغ قالت فقط « مناطق شمالية » دون أن توضح أكثر من ذلك .

وعندما سلمت هذه المذكرة إلى الحكومة الدانماركية أوضح بسمارك شفهاً ، في حديث له مع وزير الدانمارك في برلين بأن الأرض التي يمكن أن تخضع إلى الاستفتاء لا تضم ، على كل حال ، مدينة فلنسبورغ ، لأنه يوجد في فلنسبورغ المان بقدر ما يوجد دانياركيون ، ولا تضم جزيرة آلز ولا منطقة دوبييل . والشعب في دوبييل وآلز دانياركي دون نقاش . ولكن بسمارك قال : « في هذه المنطقة جرت المواقع العنيفة ، في ١٨٦٤ ، أثناء حرب الدوقيات ، وبالتالي ان هذه الأراضي فتحتها الجيش البروسي ، ولا مجال لارجاعها .

وفي ١٨ تموز ١٨٦٧ أعطت الحكومة الدانماركية جوابها ، ويتضمن النقاط التالية :

النقطة الاولى . - قالت الحكومة الدانماركية : فيما يتعلق بالضمانات ، ما هي الضمانات المقصودة ؟ إن الدستور الدانماركي ينص على الحرية الدينية وحرية الصحافة ، وحرية الاجتماع لجميع سكان الدانمارك . وقالت الحكومة الدانماركية ايضاً : إننا لا نريد أن نقهر بعض الألوف الألمانين في الشازفيغ الشمالية ، إذا أعيدت هذه الأرض لنا . ولكنها أضافت : ان ما نخشاه الدانمارك هو أن تكون هذه الضمانات التي يطلبها بسمارك من طبيعة تساعد الألمان على ممارسة حق اشراف على

الادارة الداخلية في الدانمارك ، وتساعد المان الشاذفيغ الشمالية ، إذا ضموا إلى الدانمارك ، على توجيه شكاواهم ، فيما بعد ، إلى حكومة كوفندراسيون المانيا الشمالية ، زاعمين بأن الدانمارك تعاملهم معاملة سيئة . وهكذا طلبت الحكومة الدانماركية أن توضح بشكل دقيق طبيعة الضمانات التي تطلبها بروسيا .

النقطة الثانية . - فيما يتعلق بالحدود الأرضية ، في المنطقة التي سيجري فيها الاستفتاء ، صرحت الحكومة الدانماركية بالزوم اجراء الاستفتاء في كل المنطقة ، التي وجدت فيها اكثرية أصوات لصالح الدانمارك ، في انتخابات شباط ١٨٦٧ ، لأن هذا الاقتراع كان تعبيراً لارادة السكان . ولنلاحظ ، في انتخابات شباط ١٨٦٧ ، أن جزيرة آلز ومنطقة دريل صوتتا للدانمارك ، وأن دائرة فلنسبورغ الانتخابية أعطت اكثرية خفيفة للدانماركيين .

وهكذا كان موقف بروسيا والدانمارك مختلفين بوضوح ، عندما حاولت الحكومة الفرنسية أن تزج نفسها في القضية ؛ وان التدخل الفرنسي في قضية الشاذفيغ الشمالية يستحق أن يلاحظ عن قرب ، لأن هذا الحادث يلفت النظر في دبلوماسية نابوليون الثالث . وقد عرفنا ذلك من مجموعة الوثائق التي نشرت عن أسباب حرب ١٨٧٠ بين فرنسا والمانيا .

في ١١ تموز ١٨٦٦ ، ارسل وزير الشؤون الخارجية الفرنسي ، الماركيز موسستيه ، تعليمات إلى القائم بالأعمال الفرنسي في برلين ، لوفيفر دو بيهين ، وقال فيها : هل الشروط التي وضعتها المانيا لتنفيذ الاستفتاء في الشاذفيغ مقبولة ؟ ولاحظ بأن فرنسا لها الحق بأن تهتم بالقضية ، لأنها ، بعد كل شيء ، هي التي طلبت تسجيل المادة الخامسة في معاهدة براغ . ومن المعلوم أن هذه المعاهدة ابرمت فقط

بين النمسا وبروسيا ، ولكن المادة الخامسة في الواقع دست بناء على طلب فرنسا الصريح والرسمي ولذا ترى الحكومة الفرنسية ما يلي :

١ - إن من واجب ألمانيا أن تتنازل عن الشازفيغ الشمالية إلى الدانمارك إذا طلب السكان ذلك . انه « واجب » ، وبالتالي لا يمكن لبسمارك أن يضع شروطاً لتحقيق هذا الواجب .

٢ - اذا اعطت الدانمارك كونفدراسيون ألمانيا الشمالية الضمانات التي يطلبها بسمارك في موضوع مصير المان الشازفيغ في المستقبل ، فان حكومة الكونفدراسيون لها الحق بالتدخل في القضايا الداخلية للملكية الدانماركية ، وسيكون ذلك فرصة لصعوبات اكيدة بين بروسيا والدانمارك . واستخلص موستيه ان الحل الوحيد الممكن هو التنازل دون شرط ، وتم التنازل حسب خط التقسيم بين القوميات كما عرفه التصويت في انتخابات الرايخشتاغ التأسيسي في شباط ١٨٦٧ .

وهكذا تبنت الحكومة الفرنسية ، بالاجمال ، النظرية الدانماركية المطابقة للمبادئ العامة لسياسة نابليون الثالث .

وفي ١٦ تموز ١٨٦٧ ذهب لوفيفر دوبييهن القائم بالأعمال الفرنسية ، في برلين ، إلى تيله ، أمين سر الدولة في الشؤون الخارجية لكونفدراسيون ألمانيا الشمالية ، وكان بسمارك في تلك الآونة غائباً ، عن برلين ، يستريح في ملكيته في الريف . بلغ لوفيفر دوبييهن أمين سر الدولة الألمانية المقاطع الأساسية من البرقية التي ارسلها اليه وزير الشؤون الخارجية الفرنسي مينا له ، وهذا تمييز دقيق ولكنه دبلوماسي ، بأنه يطلعه على هذه المقاطع ولا يقرأها عليه . والواقع انه قرأها عليه ولكن قراءة غير رسمية . وباختصار اخذ أمين الدولة الألماني علماً بوجهة نظر الحكومة الفرنسية .

ورأساً أجاب قبله الى القائم بالأعمال الفرنسي: « ان هذا خطير جداً ، وصرح بأنه سيرجع بذلك على الفور الى ملك بروسيا . ولم يسمع بشيء . ولكن بعد ثمانية ايام تفجرت في جميع الصحف البروسية حملة صحفية موجهة ضد فرنسا ، واوضحت الجرائد أن فرنسا سلمت الحكومة البروسية مذكرة في قضية الشازفيغ الشمالية ، وان هذه المذكرة كتبت بلهجة قاسية ، وان فرنسا ، على وجه التأكيد ، ترجو الحرب ، وان بروسيا لن تترك نفسها عرضة للمفاجأة

وكان انطباع القائم بالأعمال الفرنسي ان هذه الحملة المقحمة كانت نتيجة حساب ، وان بسمارك يحاول أن يولد حادثاً ، ويرجيه تحمل القضية الاساسية وتنقل الى الصعيد الثاني ، اي اغراق هذه القضية في قضية اخطر منها بكثير، وهي معرفة ماذا كان هنالك نزاع فرنسي - الماني . ماهي وجهة نظر بسمارك ؟ في الوثائق المنشورة تحت العنوان «سياسة بروسيا الخارجية» ١٨٥٩-١٨٧٠ ، نجد مذكرتين بخط يده . يصرح بسمارك في الاولى ، بان البليغ ، في رأيه ، ان تجرباً الحكومة الفرنسية وتوجه الى حكومة كونفدراسيون المانيا الشمالية احتجاجات في موضوع قضية الشازفيغ ، وانه لا ينبغي « التسامح لحظة واحدة » بهذا التدخل الفرنسي . وهذه هي محاكمة بسمارك في الواقع : ان الرأي العام الفرنسي يستخر تماماً من دانياركيي الشازفيغ ، واذا تظاهر نابليون الثالث بانه مهمتهم فذلك لأنه يريد البحث بأي ثمن عن فوز دبلوماسي : وكان بحاجة الى ذلك لأسباب سياسة داخلية ، ليمحو ذكرى الاخفاق الذي مني به في مغامرته المكسيكية . وصرح بسمارك عندئذ بأن بروسيا لن تتنازل . وفي المذكرة الثانية بوضح وجهة نظره في قضية الاستفتاء نفسه بقوله بأن لاجال ، باي

حال من الأحوال ، للتنازل للدانبارك عن دوبيل وجزيرة آلز ؛ ان هذه النقطة خارجة تماما عن نطاق البحث .

مالذي ستفعله الحكومة الفرنسية ؟ لم تعرف مذكرتي بسمارك ، ولكنها عرفت حملة الصحافة الألمانية . وفي ٢٧ تموز كتب وزير الشؤون الخارجية الفرنسي ، دومستيه ، الى القائم بالأعمال الفرنسي ، في برلين ، بان الحكومة البروسية ، على وجه التأكيد ، « استاءت » من طابع الملاحظات التي ابدتها فرنسا : ان فرنسا ابعد ما تكون عن « جرح حساسية بروسيا » . وفي ٢٨ تموز كرر موستيه قوله ، ووضح ان الحكومة الفرنسية لم تسلم الحكومة البروسية مذكرة دبلوماسية ، وانها لم تقدم ايضاً الى الحكومة البروسية بلاغاً رسمياً ، بل نقلت اليها ببساطة ملاحظات شفوية . ولكن الصحافة الألمانية شوهدت كل القضية زاعمة وجود مذكرة احتجاج فرنسية . وفي الوقت نفسه نشرت « المونيتور » ، الجريدة الرسمية الفرنسية ، بلاغاً رسمياً يصرح : « لم تسلم اي مذكرة الى حكومة برلين لافي قضايا الشايفينغ ولا في أي قضية أخرى » .

وباختصار ، قاالت الحكومة الفرنسية متراجعة . ومذ رأت حملة الصحافة الألمانية تقول : « اذن هل تريد فرنسا الحرب ؟ اذا ارادتها ، فستكون عليها » تراجعت ، وهذا الحادث . واراد بسمارك ان يصرح في بلاغ شبه رسمي في « الجريدة الألمانية » بانه عرف ، بالاجمال ، بان مساعي فرنسا لم تكن من طبيعتها ، لافي الجوهر ولا في الشكل ، ان تثير من جانب برلين أي مساع ، وان السلام غير مهدد . وفي الحقيقة ، حصل بسمارك على ما يريد : فبعد ان حاول نابوليون الثالث تقديم ملاحظات الى بروسيا ، لم يعد يلج .

وتركت الدانبارك وشأنها . ولاشك في انه كان من الممكن لدولتين

آخرين ان تهتا في القضية وهما روسيا وانكاترا . وقد أبدت الحكومة الروسية بعض الاهتمام : من ذلك أن المستشار غورتشاكوف وجه الى بسمارك رسالة شخصية يوصيه فيها « أن يبرهن على العدل » ، ولكنه اضاف : « اما من جهتنا فنحن غرباء عن هذه المساومات ونريد ان نراعي نفس التحفظ عند تنفيذها » . ومن جهة أخرى ، سألت الحكومة الفرنسية الحكومة الانكليزية ، فاجابت بان ليس لها أي داع للاهتمام بالقضية ، وانها لن تخرج من التحفظ الذي رأت من واجبها الحفاظ عليه في هذه القضية .

واضطرت الدانمارك ان تستمر وحدها في المحادثات مع حكومة برلين ، ولكن هذه المحادثات لم تؤد الى شيء . وظل بسمارك خلال عدة أسابيع يلبح على قضية الضمانات التي ستمنح الى المان الشازفيغ . وخلصت الحكومة الدانماركية بان أممعت بان من الممكن منح ضمانات ، ولكن طلبت مدى امتداد المنطقة الخاضعة للاستفتاء : فاجاب بسمارك ستكون على الاكثر منطقة واحدة ، المنطقة الشمالية الاكثر من غيرها في الشازفيغ . وفي الشازفيغ الشمالية يوجد كما رأينا اربع مناطق من الوجهة الادارية والشمالية اكثر من غيرها هي منطقة هادرسين . وفي هذه الشروط لم تتمم الحكومة الدانماركية المحادثة وظلت القضية معلقة . ولم تنفذ المادة الخامسة من معاهدة براغ ولم يجر الاستفتاء .

ودامت هذه الحال عشرة أعوام . ولكن في ١٨٧٨ قررت الحكومة البروسية أن تتحرر من الوعد الذي قطعته . وافادت من ظرف ربما لم تكن الحكومة الدانماركية فيه مستقيمة جداً : فقد تزوجت ابنة ملك الدانمارك دوق كامبرلاند . وكان هذا يدعي بعرش هانوفر ، وهذا العرش لا يوجد منذ ضمت هانوفر إلى بروسيا عام ١٨٦٦ . ولكن باعتبار أن العائلة الملكية في الدانمارك ، التي تطالب بالشازفيغ الشمالية ، ترتبط بعائلة

كانت تطالب، على الأقل مبدئياً ، بهانوفر ، فقد ظهر هذا الادعاء لبسارك لبسارك أنه طريقة سيئة ، فأفاد منه ، وصرح بأنه يجب اعطاء درس إلى الدانمارك . ولما كان في ذلك الحين على علاقات طيبة مع الحكومة النمساوية ، لأنه كان على وشك إبرام الحلف النمساوي - الألماني ، فقد حصل ، في ١١ تشرين الأول ١٨٧٨ على توقيع معاهدة جديدة نمساوية - بروسية ، وبموجبها حذف المقطع الأخير من المادة الخامسة في معاهدة براغ . وهذا المقطع الأخير كان بالضبط العبارة التي تعد بالاستفتاء . ولاننسى ان معاهدة ١٨٦٦ كانت معاهدة نمساوية - بروسية : فاذا تخلت النمسا عن المطالبة بتنفيذ هذا البند ، فان بروسيا يمكن أن تقول بأنها ليست ملزمة بشيء ، لأنها أخذت تعهداً حيال النمسا ، وأن النمسا ألغت هذا التعهد . وعلى هذا يمكن ان يجاب بأنه يوجد ، مع هذا ، تعهد متخذ ، على الأقل اخلاقياً ، حيال الشانزيغ الشمالية . ولكن بسارك لم يقبل بهذا أبداً .

٢ - سياسة الجرمنة في الشانزيغ الشمالية

لقد استعملت الادارة البروسية في الشانزيغ الشمالية طرقاً مختلفة في سياسة الجرمنة ، ونريد أن نستعرض بسرعة هذه الطرق ، فقد كانت ذات أهمية وتعتبر مثلاً صالحاً للطرق التي استعملت في مناطق أخرى بمناسبة قضايا القوميات . وقد يبدو احساسنا بهذه الطرق انها تافهة بالنسبة لما نشاهده من حوادث في عصرنا . ولكن الدانيمركيين يعتبرون مضطهدين في اوروبا آخر القرن التاسع عشر وتقاليدها الليبرالية ، وهذه الطرق التي استعملتها الادارة الالمانية هي كما يلي :

١ - اجراءات ضغط ضد بعض الأفراد : فمن ذلك اجراءات ضغط ضد الموظفين : ففي الشازفيغ الشمالية وجد ، بالطبع ، عند الانضمام إلى بروسيا ، عدد عظيم من الموظفين من أصل دانياركي . ودعي جميع هؤلاء الموظفين لتأدية بين الولاء إلى ملك بروسيا ، وعزل الموظفون الذين رفضوا تأدية هذه اليمين ، دون راتب تقاعدي : فقد وجد من ٦٠٠ إلى ٨٠٠ موظف رفضوا اليمين . ومن بعد وجدت قضية « المختارين » وليس في نيتنا أن نشرح هذه القضية بالتفصيل ، فقد كتب عنها الدانياركيون كتباً مطولة حقوقية كبرى . وغرضنا أن نبسط الأمور ما أمكن : فبموجب معاهدة ١٨٦٤ ، أي المعاهدة التي تنازلت بموجبها الدانيارك عن الدوقيات للنمسا والبروسيا ، ذكر ، في المادة التاسعة عشرة بان لسكان الشازفيغ الحق ، اذا أرادوا ، أن يختاروا الدانيارك ، شريطة أن يذهبوا ويعيشوا في الدانيارك آخذين معهم أموالهم المنقولة ، وبأماكنهم أن يبقوا مالكين للبنايات التي يملكونها في الشازفيغ . ومن حيث المبدأ ، للحفاظ على القومية الدانياركية ، يجب على ساكني الشازفيغ الشمالية ، أن يغادر الأرض ويذهب ليقم في الدانيارك . ولكن ، في ١٨٧٢ ، أبرم اتفاق بين الدانيارك وبروسيا يسمح « للمختارين » أي لسكان الشازفيغ الشمالية ، الذين يريدون الحفاظ على قوميتهم الدانياركية ، أن يبقوا مع ذلك في الشازفيغ مع كونهم مواطنين دانياركيين . وهذا الاجراء سمح لعدد من المختارين ، الذين ذهبوا من قبل ، أن يعودوا إلى بلدهم . لأن الاختيار لم يكن يملء القلب ، فاذا أمكن الرجوع إلى الأهل والعائلة والدار وإلى الأماكن التي يجد فيها الانسان عاداته وملكيته لفضل ذلك . ووجد اناس اختاروا بعد ١٨٦٤ لصالح الدانيارك ، وبعد ١٨٧٢ ، عادوا إلى الشازفيغ الشمالية مع المحافظة على قوميتهم الدانياركية .

وفي ١٨٩٨ قررت الادارة الألمانية طرد هؤلاء المختارين الدانماركيين بالملئات دون اعطائهم أقل سبب مبرر .

وبالتبع ، ان للحكومة الحق دوماً في طرد الأجانب الذين يريدون لها غير مرغوب بهم : هذا اجراء بوليسي بسيط . اما « المختارون » فكانوا حقوقياً أجانب لأنهم اختاروا الدانمارك . حقاً لقد عاشوا في الشلفينغ ، وعاشوا فيها دوماً ، وفيها ثرواتهم ومشاكلهم ولكن الادارة الألمانية طردتهم وعائلاتهم في أربع وعشرين ساعة ، ومن الطبيعي أن من طردتهم قد اختارهم بعناية : لقد طردت اناساً كان من عادتهم أن يحضروا اجتماعات جمعيات دانماركية ، واناساً لم يكن موقفهم السياسي موثقاً ، واناساً كان من عادتهم أن يربوا اولادهم في مدارس الدانمارك .

٢ - اجراءات تتعلق بالقضية اللغوية : ان العلامة الخارجية للقومية هي اللغة . فقد كان الناس ، الذين يتكلمون بالدانماركية ، ولا يريدون التكلم بالألمانية ، يظهرون بذلك بأن لهم عاطفة قومية دانماركية . وقد حاولت الادارة الألمانية أن تقلل ، ما أمكن ، عدد الناس الذين يستعملون اللغة الدانماركية ، ووضعت قضية التعليم : فقد جرمنت الحكومة الألمانية التعليم الثانوي . ولكنها ، في التعليم الابتدائي ، في مدارس الريف على الأقل ، سمحت بالتعليم بالدانماركية ، ثم شيئاً فشيئاً عدلت عن هذا الوعد : وفي ١٨٧١ ، فرضت في كل المدارس الابتدائية ست ساعات لغة المانية في الاسبوع . وفي ١٨٧٨ قررت أن يعطى التعليم في المدارس الابتدائية باللغة الألمانية في كل المواد الأساسية : النحو ، الحساب ، العلوم الطبيعية ، التاريخ ، الجغرافية ؛ وأخيراً في ١٨٨٨ قررت الا تعلم اللغة الدانماركية في المدارس ، إلا فيما يتعلق بالتعليم الديني . وفي الوقت نفسه ، اغلقت

المدارس الخاصة الدانماركية ، الواحدة بعد الأخرى ، حتى لم يبق منها شيء في ١٨٨٨ . وهذا يوضح بأن لا سبيل أمام العائلة الشازفيغية ، التي تريد أن يعرف أبنائها اللغة الدانماركية ، إلا أن ترسلهم إلى مدرسة في الدانمارك .

وفي نفس هذا النظام من الأفكار ، يمكن أن نضع قضية الكنيسة ، وهي قضية لغوية : فقد أرسلت الحكومة الألمانية مباشرة إلى الشازفيغ أمواجاً من الرعاة الألمان . وكان الشازفيغيون لوثرين ، ولوثرين طبيين ، وبالتالي يمكن أن يكونوا حساسين بتأثير الراعي اللوثرى الألماني . وكان هؤلاء الرعاة يستخدمون اللغة الألمانية فقط كلغة للكنيسة ، وشيئاً فشيئاً ، لم يبق في الشازفيغ الشمالية ، في ١٩٠٤ ، على ١٠٨ كنائس إلا ٣٦ كنيسة دانماركية ظلت فيها اللغة الدانماركية لغة الكنيسة .

قضية الجرائد . - ولتغذية استعمال اللغة الدانماركية يجب وجود صحافة دانماركية . وقد أنشأ الألمان عدداً عظيماً من الجرائد الألمانية في الشازفيغ الشمالية : وجد عشر جرائد . وتركوا أربع جرائد باللغة الدانماركية : ولكن حياة هذه الجرائد الأربع كانت صعبة للغاية ، لأنها كانت عرضة لمراقبة السلطات البروسية وخلال مرات عديدة كان المحررون والصفافون هدفاً للتوقيف والطرده . وحكم على رؤساء التحرير بعقوبة السجن . ووجد بين ١٨٦٨ و ١٩٠٤ خمس وستون حكماً بالسجن ضد الصحفيين الدانماركيين في الشازفيغ .

٣ - الهجرة الألمانية . لقد كان من صالح الألمان بالطبع ، لجرمنة الشازفيغ الشمالية ، زيادة عدد السكان من أصل الماني ، وبالتالي ، الاتيان بألمان من الداخل . وفي بعض الأحوال ، كان هذا الأمر سهلاً

جداً . فمن ذلك أن مستخدمي الخطوط الحديدية كانوا الماناً . وجاء إلى المناطق التجارية والصناعية عدد من الألمان من بروسيا ، وبراندبورغ وساكس وريانيا . إن مدينة فلنسبورغ ، وهي أهم مدينة ، كانت تضم في العام ١٨٦٧ عشرين الف نسمة ؛ وفي ١٩١٢ أصبح سكانها ٦٣.٠٠٠ ، لأنه حدث بهذه المدينة نهوض تجاري وصناعي واجتاحتها موجة مهاجرين المان ، حتى انه لم يوجد فيها في انتخابات ١٩١٢ إلا ٤٥٦ صوتاً دانيارياً بينما وجد فيها ٥٠٠٠ صوت الماني .

ولكن لا يكفي استيطان المدن ، بل ينبغي استيطان الأرباب أيضاً . وهذه القضية صعبة . ولهذا انشئت ، في ١٨٩١ ، « شركة الاستعمار الألمانية » ونظمت في ١٩٠٩ تحت ادارة الكونت دانتزاو . وكانت هذه الشركة الاستعمارية ، التي تساعدها الحكومة الألمانية ، تشتري في الشازفيغ الشمالية الأملاك وتؤجرها إلى معمرين المان ، أو أنها تستخدم نظاماً آخر يسميه الألمان نظام « دنتن غوتر » : وذلك بأن تقدم شركة الاستعمار إلى الألماني ، الذي يرغب في شراء ارض في الشازفيغ الشمالية ، قرضاً بفائدة معتدلة بسعر $\frac{1}{3}\%$ ، واتفق على ألا يبيع المستفيد ملكه دون موافقة الدولة . وبالطبع كانت الحكومة البروسية ترفض هذه الموافقة إذا كان البيع إلى دانياركي . وبالتالي كان هذا النظام واسطة لكسب أراضي كان ملاكها الماناً وسيظلون دوماً الماناً . وأخيراً تدخلت الدولة نفسها في القضية ، وبين ١٩٠٠ و ١٩١١ اشترت أراضي في الشازفيغ الشمالية ، لحساب املاك الدولة ، ثم أجرتها ، وخصصت الحكومة البروسية ، في ١٩١١ ، اعتماداً ضخماً لهذا الغرض .

كانت تدابير الجرمنة جميعاً نشيطة بخاصة بين ١٨٩٧ و ١٩٠١ ،

عندما كان الرئيس الأعلى فون كولر يوجه إدارة الشلزيغ . وقد أثارت هذه الأعمال احتجاجات عديدة في الرايخشتاغ ، وحاول النائب الدانماركي الوحيد أن يجذب الانتباه إلى شدة هذا النظام . ونجح ، مرة واحدة فقط ، في شهر شباط ١٨٩٩ ، في الحصول على تصويت مشترك فيه الاشتراكيون الألمان والوسط الكاثوليكي بل وجزء عظيم من القوميين - الأحرار ، أي الأحزاب الثلاثة الكبرى . فقد صوتت مع النائب الدانماركي ، ووضعت الحكومة في حالة أقلية . ولم يكن لذلك نتيجة أخرى ، ولكن فيه دليلاً : لأنه وجد في الأوساط الألمانية من كان يرى أن موقف فون كولر كان مبالغاً ومفرطاً .

مقاومات الجرمنة . - اصطدمت سياسة الجرمنة بالطبع بمقاومات . وتجدر الإشارة إلى أن العنصر الدانماركي كان في تناقص مستمر بسبب الهجرة : فمن ذلك ان كثيراً من شبان الشلزيغ الشمالية ، عندما يبلغون سن الخدمة العسكرية ، كانوا يغادرون البلاد ، لثلا يخدموا في الجيش البروسي . ونقص الشعب الدانماركي في الشلزيغ الشمالية ٦٠.٠٠٠ نسمة بين ١٨٦٦ و ١٨٨٦ ، مع العلم بأن سكان الشلزيغ الشمالية ، في ١٨٦٧ ، كانوا ١٩٠.٠٠٠ نسمة تقريباً . ومع ذلك ، قاوم دانماركيو الشلزيغ الشمالية . ولتقدير هذه المقاومة يجب أن نلاحظ نتائج الانتخابات التي يتقدم اليها دوماً مرشح دانماركي محتج . ويكفي أن نرى الأصوات التي يحصل عليها . ففي شباط ١٨٦٧ ، وجد في الشلزيغ الشمالية كلها ٢٧.٠٠٠ صوت د دانماركي ، ومن ثم ، بين ١٨٧٨ و ١٨٩٠ انخفض العدد ، وبلغ في ١٨٩٠ اخفض نقطة ؛ فلم يوجد أكثر من ١٣٧٦٠ صوتاً دانماركياً . ثم صعد رقم الأصوات الدانماركية إلى ١٥.٠٠٠ ، وفي ١٩١٢ إلى ١٧٢٠٠ . وفي هذا قرينة تدل على أن الاحتجاج الدانماركي لم ينقطع .

لقد وجهت هذه المقاومة تباعاً من قبل ثلاثة رجال كانوا في الوقت نفسه نواباً « دانيار كيين » عن الشازفيغ في مجلس الرايخشتاغ : كروغير ، يوهانسن ، يستن . كان كروغير يمثل الاتجاه المتشدد ، وقد قبل الجلوس في الرايخشتاغ لأت النواب في هذا المجلس كانوا غير ملزمين بحلف اليمين ، ولكنه انتخب أيضاً في لاندتاغ بروسيا . وهنا كان ملازماً بحلف عين الولاء للملك بروسيا ، فرفض أن يجلس في المجلس . وأثار هذا الموقف بعض التردد والحيرة ، وتساءل عدد من دانيار كيين الشازفيغ ما إذا كان اسلوب : « كل شيء أولاً شيء » ، مناسباً ، وبخاصة ما إذا كان اسلوب رفض اليمين حاذقاً .

ولكن دانيار كيين الشازفيغ لم يكتفوا بالتعبير عن رأيهم بالتصويت . فقد نظموا أنفسهم لمقاومة الجريمة ، وأنشأوا عصبة للحفاظ على اللغة الدانياركية ، وأسست هذه العصبة مكاتب المطالعة بلغ عددها ١٧٠ مكتبة دانياركية في الشازفيغ الشمالية ، وكانت توزع الكتب على السكان . وأنشأوا أيضاً عصبة التعليم ، وقد نظمت لترسل على نفقتها التلاميذ إلى مدارس الدانيارك . وأخيراً نظموا كتلة اهتمت بقضية الأراضي ، وجمعت ، باكتتابات طوعية ، مبالغ هامة جداً لتمنع الألمان من شراء الأراضي . وعندما يريد الماني الحصول على أرض ، يأتي مباشرة دانيار كيين تساعد الكتلة ويقترح سعراً أعلى ويحاول انتزاع المعاملة .

ولم ينجب جهد مقاومة الدانيار كيين في الشازفيغ حتى ١٩١٤ ، ولكن يجب أن نقول إن هذا الجهد ، بعد ١٩٠٠ ، لم تشجعه الحكومة الدانياركية الا قليلاً . وعندما وصل الاشتراكيون والجندريون الدانياركيون إلى السلطة ، قام الوزير كرويستسن ، حسب الوثائق الدبلوماسية الألمانية المعروفة اليوم ، خلال عدة مرات ، بمحادثات مع المانيا .

وكانت الدانمارك تخف حرباً عامة ، وفكرت بأنها ستكون مأخوذة بين المانيا وانكلترا ، ومحتملة من هذه أو تلك ، وحاولت أن تسحب اصبعها من القضية . وقبلت في ١٩٠٧ بتوقيع اتفاق مع المانيا . وبموجبه أرضت المانيا الدانماركيين بعض الرضى في قضية « المختارين » . وبالمقابل وعدت الحكومة الدانماركية ، بأن تؤثر على دانماركيي الدانمارك بغية « تهدئة قضية الشازفيغ » ، أي ، باختصار ، أن تنصح الدانماركيين ، في الدانمارك ، بالايدعوا دانماركيي الشازفيغ الشمالية في مقاومتهم ضد المانيا .

وهكذا ظلت الحالة حتى ١٩١٤ . وبعد حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ قرر مؤتمر السلام استفتاء في الشازفيغ الشمالية . وكان هذا الاستفتاء تنفيذاً لما وعده به بسمارك ولم يفعله . وجرى الاستفتاء في منطقتين : في منطقة شمالية تنطبق تقريباً على الدائرة الانتخابية في هادرسبين ، وفي منطقة ثانية تضم مدينة فلنسنبورغ : ففي المنطقة الاولى ، الشمالية ، وجد ٧٥٠٠٠ للدانمارك و ٢٥٠٠٠ لألمانيا . وفي المنطقة الثانية ، بالمقابل ، كان للألمان ٥١٠٠٠ صوت وللدانماركيين ١٢٧٠٠ . وهذا يرجع إلى أن استيطان هذه المنطقة ، وبخاصة فلنسنبورغ ، قد تغير كثيراً منذ ١٨٦٦ ، بسبب الهجرة الألمانية . وعادت الشازفيغ الشمالية إلى الدانمارك في العام ١٩٢٠ .

الفصل السادس عشر

الحركة القومية النورفيجية

ان حالة الحركة القومية النورفيجية خاصة ، حتى انه من الممكن التردد ، بادىء ذي بدء، في ادخالها في حركة القوميات . فقد كان للنورفيجين ، في مملكة السويد ، التي يؤلفون جزءاً منها ، استقلال ذاتي كامل في قضاياهم الداخلية ، وبالتالي لا يمكنهم أن يزعموا بأنهم « مقهورين » او مضطهدين من قبل السويديين ، لأنهم يديرون أنفسهم ويسنون قوانينهم بحرية ، ومع ذلك ، لم يشاؤوا الاكتفاء بهذا النظام ، وانفصلوا عن السويد، وكانت المطالبة بالاستقلال ظاهرة عاطفة قومية نورفيجية .

وفي دراستنا هذه نريد أن نبين أصول الحركة القومية النورفيجية ؛ وأن نلج على الخلاف الذي شجر بين النورفيجين والسويديين بين ١٨٩١ و ١٩٠٥ ؛ وأخيراً ، أن نوضح الظروف التي تكونت فيها دولة النورفيج المستقلة .

١ - اصول الحركة القومية

لفهم هذه القضية يجب أن نرى أولاً وضع النورفيج في الدولة السويدية وكيف نما احتجاج السويديين على هذا الوضع .

وضع النورفيج في الدولة السويدية . - لقد وجدت النورفيج متحدة بالسويد منذ ١٨١٥ .

في بداية القرن التاسع عشر كانت البلاد الاسكاندينافية منقسمة إلى دولتين : من جهة ، بملكة الدانمارك ، وتضم الدوقيات الدانماركية والنورفيج ؛ ومن جهة أخرى ، السويد التي تملك فنلاند .

وفي ١٨٠٩ ، اثر حرب بين روسيا والسويد ، اضطرت السويد أن تتنازل لروسيا عن فنلاند مع جزر آلانند الموجودة في البحر الباطيك بالقرب من الشاطئ السويدي . وكان هذا الظرف خطيراً للغاية على المملكة السويدية ، لأن الهزيمة ، التي منيت بها ، أدت إلى هزات داخلية ، حركة ثورية : فقد خلع الملك غوستاف أدولف الرابع بهذه الحركة ، واستعيض عنه بعمه ، الدوق شارل ، الذي أصبح ملكاً تحت اسم شارل الثالث عشر .

وكان هذا الملك الجديد مسناً ، ولم ينجب أولاداً : وكان همه الأول أن ينتخب وارثاً له . وبنتيجة ظروف مختلفة ، لا مجال للتعرض إليها الآن ، وقع اختياره على جنرال فرنسي اسمه برنادوت ، وكان معروفاً من قبل السويديين ، لأنه أتى في ١٨٠٦ على رأس جيش فرنسي واحتل بوميرانيا السويدية ، وخلال هذا الاحتلال ، كسب عطف السكان . وكان برنادوت في هذه الآونة في باريس : فأرسل إليه رسول ، وقبل أن يأتي إلى السويد وبصبح فيها أميراً وارثاً . لماذا كانت للسويديين هذه الفكرة الغريبة في البدء في الذهاب والبحث عن جنرال فرنسي ؟ لأن أوربه كانت ، في ذلك الحين ، في اوج النظام النابوليوني ، وفكروا بأنه إذا كان ملكهم في المستقبل أميراً فرنسياً ، شملهم عطف نابليون ، الذي يستطيع أن يحميهم ضد هجوم جديد من روسيا . ولكن الأمور دارت بشكل آخر لا يتصور في ١٨١٠ عندما قبل برنادوت أن يكون أميراً وارثاً .

ومنذ أن فقدت السويد فنلانده بحثت عن « تعريض » ، وكان التعويض الهام بالنسبة لها ضم النورفيج . لأن السويد سجيئة في بحر الباطيك ، فإذا ضمت النورفيج ، كسبت واجهة محيطية ، وأصبحت دولة بحرية ، ويمكنها أن تتأكد من مساندة بل وحلف انكلترا ، بينما لا تستطيع انكلترا أن تعمل شيئاً لمساعدة السويد إذا ظلت هذه محصورة في البحر الباطيك . غير أن السويد لا تستطيع أن تنتظر كسب النورفيج من نابوليون ، لأن الدانمارك كانت حليفة نابوليون . وهكذا تطورت السياسة السويدية . وعند القطيعة بين نابوليون والقيصر الكسندر ، رأى هذا الأخير أن يستميل السويد إلى جانبه ، فوعدها ، إذا دخلت في التآلب ضد نابوليون بأن يعطيها النورفيج . واستعد برنادوت لهذه السياسة ، وتخلي عن نابوليون ، ودخل في التآلب ضد فرنسا ، وحصلت السويد على النتيجة التي بحثت عنها . وبما أن الدانمارك بقيت حليفة لنابوليون ، فقد اضطرت ، في كانون الثاني ١٨١٤ ، في معاهدة كييل أن تتخلي عن النورفيج .

وحدث حادث له معناه في هذه الآونة : فقد أراد النورفيجيون ، في ١٨١٤ ، أن يؤلفوا دولة مستقلة . كان حاكم النورفيج ، في ظل النظام الدانماركي ، أميراً من الأسرة الملكية الدانماركية ، الأمير كريستيان : فقد نادى كريستيان هذا بنفسه ملك النورفيج وبادر بسرعة ، في ١٧ أيار ، إلى وضع دستور يشبه كثيراً الدستور الفرنسي لعام ١٧٩١ . ولم تشأ السويد أن تترك النورفيج تنظم استقلالها . وقامت حرب بين السويد والنورفيج ، وظفرت الجيوش السويدية بسهولة . وفي ١٨١٥ وقع صك الاتحاد بين السويد والنورفيج ، وبدا هذا الصك في شكله ارتباطاً مقبولاً بحرية ، ولكنه ، في الحقيقة ، فرض على النورفيجين بالقوة . ولكن صك الاتحاد ترك للنورفيجين حريات واسعة جداً . وقد فهمت

الحكومة السويدية المقاومة التي ظهرت في النورفيج ضد الاتحاد ، ورأت ، إذا أرادت الوصول إلى شيء ، أن تقوم بتنازلات . واتحدت النورفيج والسويد تحت ظل السلالة السويدية ، ولكن كان لكل منهما وزاراتها المتميزة ، وإدارة منفصلة تماماً لكل بلد . إلا أن توجيه الشؤون الخارجية ظل عاماً على السويد والنورفيج . وتأمين هذا التوجيه بوزير سويدي . وبالتالي ، كانت النورفيج ، فيما يتعلق بالسياسة الخارجية ، ملحقة بالسويد . أما في القضايا الأخرى فقد حكمت النورفيج نفسها بحرية ، مع التحفظ بموافقه ملك السويد . إذن يوجد نوع من نظام « ثنائي » . وهذا هو الاسم الذي أعطي فيما بعد ، في ١٨٦٧ ، في النمسا - هونغاريا ، إلى نظام مشابه . ومع ذلك وجد اختلاف محسوس بين الثنائية السويدية - النورفيجية في ١٨١٤ ، والثنائية النمساوية - الهونغارية في ١٨٦٧ : وهو أن القضايا المشتركة بين السويد والنورفيج ردت إلى الحد الأدنى ، لأن الإدارة الوحيدة المشتركة كانت إدارة الشؤون الخارجية .

تنظيم الحكم . - لقد كان النظام في السويد دستورياً . فقد وضع في عام ١٨٠٩ بعد الثورة التي أطاحت بالملك غوستاف الرابع أدولف . وكان في السويد مجلس منتخب ، ولكنه في العام ١٨١٥ كان مجلساً من نوع مجلس المملكة العام في النظام القديم في فرنسا ، مجلساً مؤلفاً من ممثلي الطبقات الأربع : الكليروس ، الطبقة النبيلة ، البورجوازية ، الفلاحون . وكانت هذه الطبقات تصوت منفردة . وبالتالي كان هذا النظام استقراطياً ، لأن الطبقة النبيلة والاكليروس يؤلفان حلقاً ويتوصلان بسهولة إلى الحصول على الاكثورية . إلا أن هذا النظام حول في العام ١٨٦٦ وأقيم في السويد برلمان من اسلوب حديث ، الريكسداغ ، وكان ينتخب بالتصويت الضريبي .

أما النورفيج ، في الاتحاد السويدي - النورفيجي ، فقد احتفظت بدستور أيار ١٨١٤ الذي تكلمنا عنه . وهذا الدستور ينص على وجود مجلس منتخب في النورفيج ، الستورتينغ ، وكان ينتخب بالتصويت الضريبي ، ولكن بضرية مخفضة : وليكون المواطن ناخباً في الأرياف يكفي أن يكون وارده ٨٠٠ فرنك في العام . وهذا الدستور لعام ١٨١٤ مستوحى من الدستور الفرنسي لعام ١٧٩١ ، ومبني على مبدأ فصل السلطات . والنتيجة هي أن الملك لا يستطيع أن يحل الستورتينغ النورفيجي . وهذا المجلس يستطيع أن يصوت على القوانين ، ولكن كان الملك ، مثل لويس السادس عشر في نظام دستور ١٧٩١ ، حق الفيتو التعليقي ، أي انه إذا رفض توقيع قانون ، فعلى الستورتينغ أن يصوت على هذا القانون خلال ثلاث دورات تشريعية متوالية ليضطر الملك أخيراً إلى توقيعه .

وهكذا نرى انه كان للنورفيج استقلال ذاتي كامل في شؤونه الداخلية ، ولم تكن تابعة للسويد إلا في قضايا السياسة الخارجية ، وكان يوجد ، في مكاتب وزارة الشؤون الخارجية ، موظفون نورفيجيون . وفي الوظائف الدبلوماسية والوظائف القنصلية ، كان الملك يستخدم أيضاً نورفيجين نوعاً . ولا يمكن للنورفيجين أن يزعموا بأنهم كانوا موضوعين جانباً .

ومع كل ذلك فقد احتج النورفيجيون على هذا النظام الذي ليس فيه شيء قهري أو اضطهادي . فلماذا لم يرضوا عن الحالة التي وضعت لهم عام ١٨١٥ ؟ يوجد سبب أساسي ، وهو أن هذا النظام فرض عليهم بالقوة . فما زالت ذكرى حرب ١٨١٥ ضد السويد ماثلة في أذهانهم . ولكن توجد أسباب أخرى ترجع إلى الاختلافات بين النورفيجين والسويديين .

الحركات القومية ٣ - (٢٢)

الفارق اللغوي . - كانت اللغة الرسمية ، وهي اللغة الأدبية أيضاً ، في النورفيج اللغة الدانماركية ، الدانماركية المتبدلة قليلاً . وكانت كتلة الشعب النورفيجي لا تتكلم الدانماركية ، بل تتكلم لهجة خاصة ، وهذه اللهجة تختلف عن السويدية أكثر بكثير منها عن الدانماركية . ولنلاحظ أن هذه القضية اللغوية لم يكن لها أهمية كبرى ، لأن النورفيج تدير أمورها بحرية ؛ وبالتالي ، لا يوجد في النورفيج أي موظف يتكلم السويدية .

الفارق الاجتماعي . - على الرغم من أن أكثرية الشعب في السويد كانت مؤلفة من الفلاحين فقد كان يوجد فيها طبقة نبيلة كثيرة العدد ودورها هام ، وبخاصة في القسم الجنوبي بلد الملكية الكبرى . وبالعكس ، لا يوجد في النورفيج طبقة نبيلة فقد وجد فيها في القديم طبقة نبيلة دانماركية في العصر الذي كانت فيه النورفيج مرتبطة بالدانمارك ، ولكن هذه الطبقة النبيلة زالت عملياً . حتى أن الطبقة الموجهة ، في النورفيج ، لم تكن من صاحبة الأطيان من كبار الملاكين ، لأنها لا توجد إلا قليلاً ، بل من التجار ، وبخاصة تجار المواشي والرعاة ، رجال الدين . أما كتلة الشعب فتتألف من الفلاحين وصغار الملاكين ، والنوتيين ، النوتيين الصيادين والنوتيين التجار (٥٦٠٠٠ نوتي دون حساب الصيادين) .

فارق السياسة الاقتصادية . - كانت السويد تنزع إلى تبني نظام المبادلة الحرة ، وهذه الحال أمر طبيعي لبلد تجارته البحرية هامة جداً . وبالرغم من الوحدة الدينية ، لأن النورفيجيين كالسويديين كانوا لوثريين صالحين ، كان الشعب النورفيجي يشعر بأنه يختلف أساساً عن الشعب السويدي .

الحركة الفكرية . - وزادت عاطفة الاختلاف القومي بالحركة

الفكرية التي تمت في النورفيج في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .
وتمتاز هذه الحركة بصفتين أساسيتين :

١ - في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، كان للحركة الأدبية النورفيجية ممثلون مشاهير : ويكفي لذلك أن نذكر اسم آيدسن وبيورسون .
وتجدر الإشارة إلى أن هؤلاء الأدباء النورفيجيين الكبار كانوا في الوقت نفسه ، رجال عمل ، ورجالاً سياسيين : فقد كان بيورسون مثلاً حوارياً الراديكالية في النورفيج ، أي كان يمثل الجناح الأيسر للحزب الليبرالي ، وإن عمل هؤلاء الأدباء كان يارس دوماً في الاتجاه الديمقراطي . وهذا الاتجاه كان يتعارض تماماً مع ما يجري في السويد ، حيث كانت الأرستقراطية تهيمن على الحياة السياسية . وفي هذا ما يزيد الفوارق بين النورفيج والسويد .

٢ - يمكننا أن نشير إلى أهمية حركة الدراسات التاريخية إلى جانب الحركة الأدبية الأصلية . وقد توخّت هذه الدراسات التاريخية أن تري النورفيجيين وجود قومية نورفيجية لها دوماً فرديتها ، وعليها أن تؤكد هذه الفردية . وكان المؤرخ النورفيجي العظيم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ساريس . فقد جهد ، في المؤلفات الكبرى التي نشرها ، أن يعطي تفسيراً كاملاً للتاريخ النورفيجي ، وبين أن الأرستقراطية النورفيجية زالت منذ زمن طويل ، وإن النورفيج ، منذ تاريخ مديد ، كانت بلداً ديمقراطياً ، على خلاف السويد ، وأنه ينبغي بناء على هذا الطابع الديمقراطي للشعب ، أن تكون للنورفيج نظمها السياسية الحرة ، ورسم هو هذه النظم منذ ١٨١٥ . والفكرة التي بصر عليها هي أن للنورفيج سيادة خاصة بها في البلاد الاسكاندينافية . وسعى كثيراً في مؤلفه أن يقوي العاطفة القومية ويطلع في النورفيجيين فكرة لزوم محاولة ارجاع استقلال النورفيج .

كان انتشار هذه الأفكار ، في القسم الاعظم منها ، من عمل المدرسة . ففي ١٨٧٧ جرت محاولة لانشاء مدارس شعبية خاصة في الأرياف ، مدارس من نموذج أصيل جداً : فلم يحاول في هذه المدارس اعطاء الأطفال معارف دقيقة ، بل كان يراد ببساطة تشكيل طبعهم ، واعطاؤهم فكرة لزوم التضحية بالنفس في سبيل قضية عادلة . و اريد منهم دراسة لغة الأم ، ولا يراد بهذه اللغة اللغة الدانماركية - النورفيجية ، بل اللهجة النورفيجية المحلية . وأخيراً اريد ايقاظ اهتمامهم بالقراءات التاريخية والأدبية . ولا توجد في هذه المدارس دورة دراسات منظمة : بل ان التلميذ يأتي إلى الصف عندما يسمح وقته بذلك ، عندما لا يكون عنده شيء أفضل للعمل . ومن جهة ثانية لا يوجد نظام امتحانات . وفي الدور الذي لا يوجد فيه بعد مدارس دولة ، كانت هذه المدارس الخاصة تمارس في شعب الأرياف النورفيجية نفوذاً هاماً جداً .

وبقي الشعب النورفيجي معادياً ، منذ ١٨١٥ ، لصك الاتحاد مع السويد ؛ ويطالب بالمساواة في جميع الحقوق بين النورفيجين والسويديين ، ويقول ان هذه المساواة غير موجودة ، لأن وزارة الشؤون الخارجية بأيدي السويديين . وان افضل وسيلة ، بالنسبة للنورفيجين ، لابداء رأيهم ، هو القاء المسؤولية على الامتيازات الملكية . ولهذا السبب قام الستورتنينغ ضد ملك السويد بنضال عنيف وانتهى ، في ١٨٨٤ ، باجبار الملك على منح النورفيج حكومة برلمانية : واتفق ، ابتداءً من ١٨٨٤ ، على أن تؤخذ الوزارة النورفيجية من الحزب الذي تكون له الاكثورية في الستورتنينغ . وهذا الحادث هام جداً لأن الستورتنينغ أصبح منذ الآن قوة لا تضاهى .

٢ - النزاع بين السويد والنورفيج

بدأ هذا النزاع عندما وصل الراديكاليون إلى السلطة في النورفيج ، أي عناصر اليسار المتطرفة ، الديموقراطيون التقدميون أكثر من غيرهم . حصل هؤلاء الراديكاليون على الأكثرية في انتخابات ١٨٩١ وكان لهم ٦٥ مقعداً في الستورتينغ على مجموع ١١٤ . وقام رئيس مجلس الوزراء النورفيجي الراديكالي ، شتين ، عندئذ ببادئة إثارة قضية تبذول أول وهلة أنها ثانوية ، ولكن يجب ملاحظتها عن كُتب لأن قضية القنصليات خرجت منها .

قضية القنصليات - لقد كان ملك السويد يوجه إدارة الشؤون الخارجية ، وكان الوزير السويدي للشؤون الخارجية يوجه سياسة الاتحاد الخارجية : ولذا كان قنصل الاتحاد السويدي - النورفيجي ، في الخارج ، يخضعون لأوامر الوزير السويدي للشؤون الخارجية . وكانت شتين يطالب بأقامة مصالحة قنصلية منفصلة للنورفيج من جهة ، ومثلها للسويد من جهة أخرى ، أي أن يكون للنورفيج قنصلها الخاص . والحجج التي تدرع بها هي كما يلي :
الحجة الأولى . - هي أنه ليس للنورفيج والسويد مصالح واحدة ، من وجهة النظر الاقتصادية ، ولذا ، فإن القنصل ، الذين تسميم وزارة الشؤون الخارجية السويدية ، يدافعون بشكل سيء عن مصالح التجارة النورفيجية ويهتمون كثيراً بالتجارة السويدية .

الحجة الثانية . - ان للنورفيج تجارة خارجية أهم بمرتين من تجارة السويد ، وبالتالي ، ان النورفيج بحاجة إلى قنصل في بعض المدن الخارجية وليس للسويديين حاجة بأن يكون لهم فيها قنصل .
وقد أثار هذا المطالب نزاع مبدأ . قالت الحكومة النورفيجية

بتوظيف قناصل نورفيجيين ؛ لأن هذه القضية قضية داخلية صرفاً. ولكن الحكومة السويدية أجابت بأن هذا مستحيل ، لأن القناصل موظفون يتبعون وزارة الشؤون الخارجية ، وأضافت ، ان هذه القضية قضية دستورية ولا يحق للنورفيجيين تسمية قناصل بسلطتهم الخاصة ، لأن تسمية القناصل تتعلق بوزارة الشؤون الخارجية ، أي بوزير سويدي .

وفسحت هذه القضية مجالاً لمناقشات طويلة . ويكفي أن نثر عليها مريعاً .

المرحلة الاولى . - طلبت وزارة شتين الراديكالية النورفيجية من الستورتنغ في ١٨٩١ التصويت على انشاء قنصليات نورفيجية ، فرفض ملك السويد اوسكار الثاني أن يوقع هذا القانون ، بموجب حق الفيتو التعليقي الخول اليه . عندئذ استقالت وزارة شتين . ولكن في انتخابات ١٨٩٥ حافظ الراديكاليون النورفيجيون على الاكثية ، فظهر النزاع ثانية ، وتوترت الحالة حتى اتخذت الحكومة في السويد تدابير عسكرية : بدأت بالاستنفار . وكانت الجرائد السويدية تتكلم علناً عن التأهبات التي تقوم بها الحكومة السويدية ، وكان يراد ارسال جيوش سويدية لاحتلال المدينتين الأساسيتين في النورفيج : كويستيانيا ، وهي اليوم اوسلو ، وتروندهيم . وكانت النورفيج في حالة لا تمكنها من المقاومة . كانت قواها المسلحة تافهة ، فخضع النورفيجيون في ١٨٩٦ : وصوت الستورتنغ النورفيجي ، في ٧ حزيران ١٨٩٥ ، على اقتراح قبل فيه فكرة المفاوضة مع السويد في قضية القنصليات . ومن الممكن القول ، في هذه المناسبة ، ان الحزب الراديكالي النورفيجي قد أخفق .

المرحلة الثانية . - دامت المفاوضة سنوات : جرت المفاوضة الاولى بين ١٨٩٥ و ١٨٩٨ ، والف لهذه الغاية ما تسميه الحقوق الدستورية

السويدية - النورفيجية « لجنة اتحادية » تتألف من ثلاثة سويديين وثلاثة نورفيجيين . وبعد مناقشات طويلة أخفقت المفاوضة . ولكن النورفيج ، التي شعرت بضعفها أثناء أزمة ١٨٩٥ ، قامت بجهد كبير في تنظيم دفاعها الوطني : زادت عدد الجنود في الجيش ، واشترت عتاد الحرب من الخارج ، وانشأت تحصينات على الحدود بين السويد والنورفيج ، في القسم الجنوبي على الأقل ، وهو القسم الأكثر حساسية ؛ ومن جهة أخرى ، شكلت النورفيج اسطولاً حربياً صغيراً ضم أربعة عمائر ضخمة ، ونسافات : وأخيراً حصنت ميناءي اوسلو - كريستيانيا وتروندهيم حيث يفترض أن يأتي الاسطول السويدي اليها ويهاجمها . وشعرت النورفيج بأنها قوية منذ اتخذت هذه الاجراءات ، وشعرت الحكومة السويدية بذلك أيضاً ، ولهذا السبب قبلت الاستمرار في المفاوضات .

وفي ١٩٠٢ تشكلت لجنة اتحادية جديدة وبجئت عن الوسائل العملية لتنظيم قنصليات منفصلة . وبعد مناقشات طويلة تم الوصول ، في ٢٤ آذار ١٩٠٣ ، إلى اتفاق : فقد تم التفاهم على أن تتميز القنصليات النورفيجية عن القنصليات السويدية ، وان للنورفيج الحق في أن يكون لها قناصلها الخاصون . وهؤلاء القناصل النورفيجيون أو السويديون ، كما يقول النص ، يتبعون « سلطة بلدهم التي تعينها حكومتهم » أي ان للنورفيج الحق في انشاء وظيفة رئيس الادارة القنصلية . وأخيراً ، ان وضع القنصليات حيال وزارة الشؤون الخارجية العامة ، التي كانت سويدية ، يجب أن ينظم بقوانين واحدة في البلدين ، السويد والنورفيج ، ولا يمكن أن تكون قابلة لتبديلات لاحقة .

ويبدو أن القضية سويت في ذلك الحين . وقد صادق الستورتنغ على الاتفاق ووافق الملك عليه .

الموحلة الثالثة . - بقي وضع « القوانين الواحدة » الشهيرة . واستؤنف النقاش ، وكانت الجلسات حادة للغاية . وفي البدء ، لم يصر النورفيجيون بشدة ، لأنه وجد في آخر ١٩٠٣ أزمة اقتصادية في النورفيج . ولكن في ربيع ١٩٠٤ تعارضت وجهات النظر النورفيجية والسويدية علناً : فقد رأى السويديون أن ينص في « القوانين الواحدة » على أنه يمكن لوزير الشؤون الخارجية ، السويدي ، أن يعزل القناصل ، ولو كانوا نورفيجين ، إذا كانت طبيعة سلوكهم افساد العلاقات مع الدول الأجنبية . ومن جهة أخرى ، صرح السويديون بأنه يجب على الادارة القنصلية النورفيجية ألا تعطي تعليقات معاكسة للتعليقات التي يعطيها وزير الشؤون الخارجية ، فلم يقبل النورفيجيون بهذه البنود .

واقترح النورفيجيون ، من جانبهم ، بأنه يمكن للعمال الدبلوماسيين اعطاء أوامر للقناصل ، شريطة ألا تكون هذه الأوامر متناقضة مع الأوامر التي تعطيهم إياها الادارة القنصلية النورفيجية ، فأجاب السويديون ، ان هذا المشروع النورفيجي يخاطر بحذف وحدة الشؤون الخارجية إذا أعطت الادارة القنصلية النورفيجية ، من جانبها ، تعليقات تعاكس تعليقات وزارة الشؤون الخارجية .

وهكذا انقطعت المفاوضات . وعلى اثر هذه القطيعة قامت ، في النورفيج ، في ربيع ١٩٠٥ ، حركة رأي عام عنيفة : هياج ضد السويد ، لا ضد الحكومة فقط ، بل ضد الشعب السويدي ، واحتجاج ضد ارادة تفوق السويديين ، والمطالبة بالمساواة بالحقوق ، والمناداة بالوطنية النورفيجية . وكانت الدعاية النورفيجية نشيطة جداً ، في ذلك العصر ، في مدن اوربة الرئيسية . وقد أشرف على تنظيمها نانس . وكانت هذه الحركة حركة الرأي

العام النورفيجي كله . إلا أن بعض الأصوات المنعزلة حاولت التبشير بالمصالحة ، فلم تلق أي صدى . وفي آذار ١٩٠٥ تألفت في النورفيج وزارة اتحاد قومي ضمت ممثلين عن جميع الأحزاب تحت رئاسة ميشيلسن الراديكالي ، وقد اظهر ارادته في أن يصل بالمفاوضات النورفيجية إلى هدفها .

وهذه الظاهرة ، في اجماع النورفيجين في هذه القضية ، جعلت الحكومة السويدية تفكر في الأمر . وكان الملك اوسكار الثاني طاعناً في السن ، فأرسل إلى النورفيج ولي العهد الأمير الوارث ، الأمير غوستاف ، فنادم الحفاظ على الاتحاد ، وطلب استئناف المفاوضات بشرط واحد : وهو الابقاء على وحدة وزارة الشؤون الخارجية ، أي أن يبقى وزير الشؤون الخارجية وزيراً سويدياً . وقال الأمير غوستاف : هذا هو الشرط الأساسي للاتحاد . فلم تشأ الحكومة النورفيجية أن تسمع ذلك ، وأرادت أن تخرج ملك السويد ، فطلبت التصويت في ١٨ أيار ١٩٠٥ على قانون يقرر انشاء قنصليات نورفيجية ، وان يدخل هذا القانون في حيز التنفيذ في ١ نيسان ١٩٠٦ ، وهذا يعني الرجوع ، بالاجمال ، إلى الزعم الذي أعلنه النورفيجيون في ١٨٩١ واطرحته السويد .

وصوت الستورتينغ بالاجماع على القانون عدا بعض الامتناع . اجاب السويديون بأن هذا العمل اجراء ثوري ، وان النورفيج تريد تخليص نظامها القنصلي من طاعة وزارة الشؤون الخارجية ، وليس لها الحق في ذلك دون التفاهم بادىء ذي بدء مع السويد . ولذا رفض الملك ، في ٢٧ أيار ١٩٠٥ تأييده للقانون . وقدمت الوزارة النورفيجية استقالتها . وبما أن اجماع الستورتينغ كان إلى جانبها ، كان من المستحيل تشكيل وزارة جديدة . واضطر الملك أن يرفض استقالة الوزارة القائمة ، لأنه لا يستطيع في الوقت الحاضر تشكيل وزارة جديدة . وكان هذا

منه . اعتراف تام بالعجز . وفي ٦ حزيران ١٩٠٥ قرر الوزراء النورفيجيون ، بالرغم من رفض استقلالهم ، أن ينقطعوا عن وظائفهم . ولم يعد للنورفيج حكومة .

وفي ٧ حزيران ١٩٠٥ قرر الستورتينغ بأن الملك لم يستطع تأليف وزارة جديدة ، وأن الوظيفة الملكية كفت عن القيام بما يطلب منها لأن الملك كف عن القيام بوظائفه ، وأن الحل المنطقي هو الاعلان عن حل الاتحاد السويدي - النورفيجي والمناداة باستقلال النورفيج . وانطلاقاً من هذه القضية الصغيرة ، الصغيرة ظاهراً على الأقل ، قضية التنظيم القنصلي ، توصل النورفيجيون إلى اعلان استقلالهم . ومع أن الستورتينغ صرح بحل الاتحاد ، فقد أكد ، في رسالته إلى الملك اوسكار الثاني ، بأنه يرغب في العيش بسلام مع السويد والبقاء على الصلات الطيبة معها . وأضاف بأنه لا يضر أي مرارة أو حقد على السلالة الحاكمة والشعب السويدي ، وأنه يشعر تجاهها بعواطف الصداقة والعطف الخالص .

٣ - تشكيل دولة النورفيج المستقلة

لقد اعلن الاستقلال ، ولكن يجب معرفة كيفية تحقيق القرار في الواقع . العقبات . - وضعت أمام النورفيجين قضية أساسية : وهي التساؤل عن موقف السويد . فهل ستسامح مع القرار الذي اتخذته الستورتينغ النورفيجي في ٧ حزيران ١٩٠٥ ؟ لنلاحظ أن الحكومة السويدية يمكن أن تدعي على حق بأنه وجد في العام ١٨١٥ صك اتحاد وأن هذا الصك وقع ، على الأقل ولو ظاهراً ، بحرية ، وبالنسالي فأن النورفيجين يرتكبون عملاً ثورياً بكسرهم صك الاتحاد . هذه هي النظرية الحقوقية السويدية . ولكن القضية ليست هنا ، لأن قضية القوة هي التي يحسب

حسابها في مثل هذه الحالات . فهل الحكومة السويدية تنوي استدعاء الجيش ومحاربة النورفيج كما فعلت في ١٨١٥ لاجبار النورفيج على الخضوع؟ هكذا كان رأي الارستقراطية السويدية المتنفذة سياسياً . ولكن نفوذها في العام ١٩٠٥ قلّ عما كان عليه قبل قرن . لقد تصورت فكرة الحرب ضد النورفيج ، ولكن هذه الفكرة اصطدمت بعقبات جديدة . العقبة الاولى . - كان الجيش السويدي في حالة تنظيم جديد . فقد تقرر من قبل تحويله كاملاً ، ولم ينته هذا التحويل ، وبالتالي كان من الصعب جداً استنفار هذا الجيش .

العقبة الثانية . - وهي الخوف من التعقيد الخارجي . فقد كانت الحكومة السويدية تخشى دوماً روسيا ، وتساءلت ما إذا كانت روسيا ، في افتراض حرب سويدية - نورفيجية ، تتدخل زاعمة بأنها تأتي لمساعدة النورفيج ، ولكن ، في الحقيقة ، لتسوية قضية تشغل روسيا ، وهي قضية جزر آلاند ، هذه الجزر القريبة من الساحل السويدي ، وقد سبق لروسيا أن ضمتها عام ١٨٠٩ اليها مع فنلاند في نفس الوقت . ولكن في ١٨٥٦ ، في معاهدة باريس ، التي انتهت حرب القرم ، فرضت فرنسا وبريطانيا العظمى على روسيا ، بناء على طلب السويد ، لزوم عدم تحصين جزر آلاند وعدم اقامة حاميات فيها . وكان حياد جزر آلاند ضماناً يؤمن السويديين كثيراً . وكانوا يعرفون بأن روسيا يمكن أن تفيد من حرب سويدية - نورفيجية لتتخلص من بند معاهدة باريس كما تجلصت ، عام ١٨٧١ ، من بند معاهدة باريس في تحييد البحر الأسود .

ومن جهة أخرى ، كانت الحكومة السويدية تعلم بأن الرأي في فرنسا وفي بريطانيا العظمى ، كان في صالح القضية النورفيجية ، ولذا لم يكن لها أي سند تنتظره من جانب الدول الكبرى .

العقبة الثالثة . - إن جماهير الشعب السويدي كانت ترغب في السلام: فقد وجد في السويد حزب اشتراكي نشيط يحب السلام ويوصي الحكومة بأن تكون « عادلة » تجاه النورفيج . وفي الأول من أيار ١٩٠٥ ، بمناسبة عيد العمل ، مر موكب من ثلاثين ألف مناصر للسلام في شوارع سنوكهولم مع لافتات كتب عليها : « العدل للنورفيج » ، ونادى المتظاهرون بقرار يشجب سياسة الحكومة السويدية ويطالب بحق النورفيجيين « بتسوية شؤونهم الخاصة » .

ولكل هذه الأسباب ، لم تلج الحكومة السويدية وصوت الريكسداغ، في ٢٧ تموز ١٩٠٥ على قرار قبل بموجبه « حل الاتحاد » شريطة أن يكون هذا الحل في « ظروف مرضية لتأمين السلام » . وهذه الشروط هي كما يلي :

١ - أن تقوم النورفيج باستفتاء يقول فيه الشعب النورفيجي بوضوح ما إذا كان يريد حل الاتحاد .

٢ - أن تكون منطقة الحدود بين السويد والنورفيج منزوعة السلاح ، وهذا يؤدي إلى تقويض التحصينات التي شادتها النورفيج بين ١٨٩٥ و ١٩٠٠ على طول الحدود السويدية .

٣ - أن يكون للابوين، في شمال السويد ، الحق في الانتخاب في الأراضي النورفيجية ، لأنهم بحاجة إلى المراعي النورفيجية أثناء الصيف لترعى فيها قطعان وعولهم .

٤ - أن يقوم اتفاق يتعلق بالخطوط الحديدية ليمتد ميناء نارفيك منفذاً لفلزات الحديد السويدية ، وذلك لأن مناجم الحديد السويدية الهامة جداً والواقعة في شمال البلاد لا تستطيع نقل فلزاتها إلا بواسطة الخط الحديدي الذي ينتهي في ميناء نارفيك على الشاطئ النورفيجي .

وأخيراً قبل الستورتنينغ النورفيجي هذه الشروط . ولا شك في أنه أبدى بعض المقاومة ، وبخاصة ، في قضية تقويض التخصيصات التي تشغل قلبه ، ولم يشأ تدميرها بعد أن كلفت نفقات باهظة وخلال بضع سنوات. وتدخلت انكلترا في الأمر ولعبت دور الحكم . وكان للنورفيجيين دواع قوية في تعليق أهمية كبرى على ما تنصحهم به انكلترا . واعلمتهم انكلترا بأنها لن تدعمهم إذا تمت القطيعة بسبب قضية التخصيصات . فسلم النورفيجيون وقبلوا الشروط التي وضعها السويديون . وفي ١٣ آب ١٩٠٥ جرى الاستفتاء . وكانت نتيجته واضحة جداً : فقد وجد ٨٠٪ من المصوتين : ٣٦٨٠٠٠ صوت مع الاستقلال ، و ١٨٤ ضده ، و ٣٠٠٠ ورقة باطلة تقريباً .

ولا شك في ان اجماع البلاد كان إلى جانب حل الاتحاد . وكان هذا التصويت حاسماً : وفي ١٦ تشرين الأول ١٩٠٥ صوت الريكسداغ السويدي على إلغاء صك الاتحاد لعام ١٨١٥ ، وفي ٢٧ تشرين الأول تنازل الملك اوسكار الثالث عن اعتباره ملك النورفيج . وتركت السويد جزءاً من أرضها يعلن استقلاله بنفسه دون أن تقوم برد فعل .

وقرر الستورتنينغ الحفاظ على الملكية في النورفيج ، ودعا لعرش النورفيج الأمير الدانماركي ، شارل الدانمارك ، الذي أخذ اسم هاكون السابع ، وهو الاسم الذي يحمله ملوك النورفيج ، في القرن الرابع عشر ، قبل اتحاد النورفيج والدانمارك ، وأراد النورفيجيون أن يسجلوا بذلك استمرار الملكية النورفيجية . وقد تزوج هاكون السابع ، قبل أن ينتخبه النورفيجيون ملكاً عليهم ، ابنة ملك انكلترا ؛ وكان ارتباطه الزواجي قوياً على الصعيد الدولي . وكان من الذكاء أن ألحق قبوله العرش باستفتاء . ولما حصل على أربعة أخماس الأصوات ، في تشرين الثاني ١٩٠٥ ، قبل تاج النورفيج .

وضع النورفيج الدولي . - وبقيت نقطة واحدة بحاجة إلى تسوية ،
ولا تخلو من أهمية ، وهي قضية وضع النورفيج من الوجهة الدولية .

ولفهم هذه القضية ، يجب أن نعلم أن فرنسا وبريطانيا العظمى ،
أثناء حرب القرم ، منحت السويد ، في ٢١ تشرين الثاني ١٨٥٥ ،
معاهدة ضمان موجهة ضد روسيا ، أي أنها وعدتا السويد بأن تدعمها
إذا هاجمتها روسيا . وكانت السويد ، في ذلك الحين ، تشمل النورفيج .
وهذا الضمان ينطبق أيضاً على الأرض النورفيجية . ولكن هل تحافظ
معاهدة ١٨٥٥ على قيمتها عند حل الاتحاد السويدي - النورفيجي ؟ لقد
كانت الحكومة النورفيجية ترغب في الحفاظ على ضمان الاستقلال ، لأنها
كانت تشعر بنفسها ضعيفة . ولذا حاول النورفيجيون أن يجمعوا أنفسهم
بالحصول على معاهدة مع انكلترا : وفي ١٣ كانون الأول ١٩٠٦ طلبت
الحكومة النورفيجية من انكلترا الاعتراف بمجادها و ضمان سلامة أراضيها .

وكانت الحكومة الانكليزية تهتم كثيراً بالقضية النورفيجية بسبب
وضعها الجغرافي : لأن القضية بالنسبة لها قضية سيادة بحر الشمال : ففي
حال خلاف انكليزي - ألماني ، يمكن أن تضطر انكلترا ، بقوة
الظروف ، إلى القيام بعملية نزول على شواطئ النورفيج . ولذا لم تشأ
اتخاذ تعهد قد تجدد نفسها يوماً ما مضطرة لخرقه . وبالمقابل ، كانت
مستعدة إلى منح النورفيج ضماناً بسلامة أراضيها . ولكن انكلترا رأت
أن من الحكمة أن تعطي لهذا العمل طابعاً دولياً ، أي أن تطلب من
الدول الكبرى الأخرى أن تعمل عملها . وقامت بمفاوضات مع فرنسا
وألمانيا وروسيا . ولن نقف على التفاصيل التي أصبحت معروفة بنشر
الوثائق الدبلوماسية الألمانية عن أصول حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ ، وأيضاً ،

بالوثائق الانكليزية . وبعد مشاريع عديدة ومشاريع معاكسة لها ابرمت معاهدة ٢ تشرين الأول ١٩٠٧ ، ووقعتها المانيا وفرنسا وبريطانيا العظمى وروسيا والنورفيج ، وتتضمن البنود التالية :

١ - تتعهد النورفيج ألا تتنازل ، عن أي جزء من أرضها ، إلى دولة أخرى ، ولو بضعة احتلال مؤقت .

٢ - تتعهد الدول الأربع الكبرى باحترام سلامة الأرض النورفيجية ، واعطاء مساندتها إلى النورفيج ، إذا هددت سلامتها دولة من الدول . وبالتالي فإن هذا التعهد يبقى ساري المفعول حتى ولو كان الخرق من إحدى الدول الموقعة : وهذا ما حدث من المانيا بالضبط ، في ١٩٤٠ . وكانت هذه المعاهدة صالحة لعشرة أعوام ، ولكنها قابلة للتجديد ضمناً دون تحديد زمن . وفي الوقت نفسه الغى تصريح فرنسي-انكليزي معاهدة ١٨٥٥ .

هذه هي الظروف التي انشئت فيها الدولة النورفيجية الجديدة . ومن البديهي أن هذه القضية صغيرة ، ولكنها ذات أهمية ، رغم أن الاهتمام بها كان قليلاً . ولكن قضية البالطيك ، في ذلك الحين ، ما زالت بحاجة إلى دراسة هامة ، وستظهر هذه الدراسة أهمية الدور الذي لعبته القضية النورفيجية .

الفصل السابع عشر

الحركة الفلامنغية في بلجيكا

لهذه الحركة صفة خاصة : وهي أنها حركة كتلة لغوية أخذت تشعر بفرديتها رويداً رويداً ، لأن لها « ثقافة » خاصة وصلت بها ، في بداية القرن العشرين ، إلى المطالبة بالاستقلال الذاتي الإداري . ولكن الحركة الفلاماندية لم تضر ، قبل ١٩١٤ ، وحدة الدولة البلجيكية . ولذا يجب ألا تشبه بحركات الأقليات القومية التي درسناها .

وغرضنا من هذه الدراسة أن نبين أولاً كيف وضعت القضية اللغوية غداة الثورة البلجيكية عام ١٨٣٠ واستقلال بلجيكا ، وأن ندرس فيما بعد نمو حركة « الاحتجاج » الفلاماندي ، وأخيراً ، أن نرى النتائج التي ترقبت عليها قبيل حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ .

١ — القضية اللغوية

إن البلاد ، التي شكلت ، في ١٨٣٠ ، بلجيكا المستقلة ، كانت في السابق خاضعة إلى سيطرات أجنبية . ويكفي أن نذكر السيطرة الاسبانية ، ثم ، بعد ١٧١٥ ، السيطرة النمساوية ، وأثناء حروب الثورة والامبراطورية ، السيطرة الفرنسية . وأخيراً ، بين ١٨١٥ و ١٨٣٠ انحلت البلاد البلجيكية بملكة البلاد المنخفضة الجديدة التي تألفت بؤثر فينا ، أي ان الشعوب البلجيكية أخضعت إلى السيطرة الهولاندية .

ولكن خلال كل هذه التغيرات والتطورات وجد حادث لم يتبدل أبداً : وهو انقسام هذه البلاد الباجيكية إلى كتلتين لغويتين : الكتلة « الفلاماندية » والكتلة « الفالونية » . ويتكلم الفلامانديون لهجة قريبة جداً من النيثرلاندية مع بعض الفروق في اللفظ فقط ؛ ويتكلم الفالونيون ، بالعكس ، لهجة فرنسية ولغتها الأدبية هي اللغة الفرنسية . والحد بين هاتين الكتلتين اللغويتين لم يتغير أبداً بصورة محسوسة منذ القرن الخامس الميلادي . وهذه حالة استمرار لغوي تلفت النظر . ويعرف هذا الحد بخط يتجه تقريباً بالضبط من الشرق إلى الغرب ويمر في مستويخت ، وبروكسل ليبلغ منطقة الايبر .

ولنشر إلى أن اللغة الدارجة المستعملة في إدارة البلاد المنخفضة النمساوية ، في ظل السيطرة النمساوية ، في القرن الثامن عشر ، كانت اللغة الفرنسية لا الفلاماندية . وكانت الأوساط المثقفة ، أي كل ما اتفق على تسميته « المجتمع الطيب » ، البورجوازية الغنية ، كانت تتكلم الفرنسية فقط في جميع المدن سواء في بلاد اللغة الفلاماندية أو في البلاد الفرنسية الفالونية . وكانت الجرائد جرائد فرنسية ، والمسرح فرنسي . وهذا يرجع إلى نفوذ الحركة الفرنسية في القرن الثامن عشر .

ان الفتح الفرنسي الذي بدأ في آخر ١٧٩٢ وانتهى في ١٧٩٤ - نقطة انطلاق السيطرة الفرنسية التي دامت حتى ١٧١٤ - كان من نتيجته ثمرة استعمال الفرنسية ، لأن الإدارة الفرنسية قررت أنه يتوجب على جميع الموظفين المحليين وحتى في المدن الريفية أن يعرفوا الفرنسية . وفي التعليم الثانوي كانت اللغة الفرنسية اللغة الأساسية .

وبعد ١٨١٥ ، عندما انحلت البلاد الباجيكية بملكية البلاد المنخفضة

الحركات القومية ٣ - (٢٣)

الجديدة ، بذلت الملكية الهولندية جهداً لنشر استعمال اللغة النثرلندية في ادارة البلاد البلجيكية . وفي ١٨٢٣ تقرر أن تكون اللغة النثرلندية لغة الادارة في الأقاليم التي يتكلم شعبها الفلاماندية ، أي في اقليم آنفرس ، والفلاندر الغربية ، والفلاندر الشرقية ، وفي الليمبورغ . وكان الموظفون ، الذين لا يعرفون غير الفرنسية ، ينقلون ویرسلون إلى وظائف أخرى . وقررت الحكومة النثرلندية أيضاً أن تكون النثرلندية لغة التعليم الثانوي في الأقاليم الفلاماندية . وفي بروكسل نفسها انشئت « جمعية دعاية للغة والادب النثرلانديين . ولكن هذا الجهد الذي بذلته الادارة الهولندية لم يدم إلا خمسة عشر عاماً ، وبالتالي ، لم تكن له نتائج ناجعة . وفي الواقع ، ظلت البورجوازية في المدن الفلاماندية تتكلم الفرنسية : وتتألف هذه البورجوازية من بورجوازيين « مفرنسين » في مدنت المنطقة الفلاماندية ويسمون « الفرنسكيون » .

والجدير بالاشارة ، قبل ثورة ١٨٣٠ ، هو أن كتلة الشعب الريفي البلجيكي كانت منفصلة إلى كتلتين لغويتين : الفلاماندية ، من جهة ، والفالونية ، من جهة أخرى . إلا أن البورجوازية في كافة مدن البلاد كانت تستعمل ، على العموم ، اللغة الفرنسية .

وفي ١٨٣٠ قامت الثورة التي كان منها فصل البلاد البلجيكية عن هولانده وتأسيس دولة بلجيكية مستقلة . ودارت ثورة ١٨٣٠ لصالح اللغة الفرنسية لأنها دمغت ظفر البورجوازية المطبوعة بطابع الثقافة الفرنسية . فقد كان استعمال اللغة الفرنسية ، في أعين هذه البورجوازية البلجيكية ، علامة كره لحكومة البلاد المنخفضة ، بعد أن انفصلت عنها . وأخيراً كان الاكايوس الكاثوليكي البلجيكي ، أثناء ثورة ١٨٣٠ ، يميل إلى تشجيع استعمال اللغة الفرنسية كرهاً بهولانده السكالفنية .

ميدان اللغة الفرنسية . - لقد تقرر في الكونغرس التأسيسي في ١٨٣٠ أن استعمال اللغات المألوفة في بلجيكا « اختياري » ، ولكن كان مفهوماً أن القانون يمكن أن يحدد استعمال هذه اللغات ، بخاصة ، من أجل القضايا المتعلقة بالادارة القضائية ، ونشر النصوص التشريعية . وبوجب هذا القرار الذي هو قرار مبدأ يمكن لأي مواطن ، وبالتالي كل موظف ، أن يستخدم حسب هواه ، في العلاقات التي يقيمها مع الادارة أو في المراسلة الرسمية ، الفرنسية أو الفلاماندية ، وحتى ، نظرياً ، أن يستخدم الألمانية ، لأنه يوجد في شرق مدينة فيوفيه وفي شرق مدينة آدلون ، بضعة الوف من السكان يتكلمون الألمانية . ولكن ، عملياً ، اتخذ الكونغرس قرارات لا تتفق تماماً مع المبدأ الذي أعلنه :

١ - تداع القوانين باللغة الفرنسية فقط . ولكن ينشر لها ترجمات في المدن التي لا يتكلم فيها بالفرنسية . ولنلاحظ أن النص الفرنسي للقانون هو المعتمد وحده . وان الفرنسية ، بهذا الواقع ، اللغة الرسمية للادارة .

٢ - من جهة أخرى ، كانت لغة الجامعات اللغة الفرنسية ولغة مؤسسات التعليم الثانوي الفرنسية . وفي الأقاليم الفلاماندية كانت الفلاماندية تعلم أيضاً ولكن بصفة « لغة حية » فقط ، وكانت الفرنسية لغة التبادل .

٣ - استعمل الجيش البلجيكي اللغة الفرنسية فقط « لغة القيادة » أي ان الضباط البلجيكيين يعبرون ويفصحون بالفرنسية فحسب .

وهكذا كانت الحكومة والبرلمان والادارة والجيش تستخدم الفرنسية . ولا غرابة في ذلك لأن الفرنسية كانت لغة البورجوازية ، ولأن النظام المنبثق عن ثورة ١٨٣٠ كان مؤسساً على التصويت الضريبي : ففي ١٨٣٠ وجد قليل من الناخبين في بلجيكا : ١١٦.٠٠٠ تقريباً على مجموع ١٧٥٠.٠٠٠

رجل في سن له الحق بالتصويت . ولقد وجدت البورجوازية سيادة الحياة السياسية ولذا كان من الطبيعي جداً . في ١٨٣٠ ، ان تجعل من الفرنسية لغة شبه رسمية . ومن جهة أخرى ، استخدم الموظفون المادة التي صوت عليها ، الكونغرس التأسيسي ، ، وبوجها كان استعمال اللغات اختيارياً للتصريح ، حتى عندما كانوا يعملون في الأقاليم الفلاماندية ، بأنهم ليسوا بحاجة إلى تعلم الفلاماندية ، لأن كل مواطن له الحق في أن يستخدم الفرنسية أو الفلاماندية حسب هواه .

وفي الواقع ، لم تكن البورجوازية اهتم مطلقاً بالفلاماندية التي لا يتكلم بها إلا الشعب ، ورأت أن من الخير نشر استعمال الفرنسية ، لأن تحقيق الوحدة اللغوية شيئاً فشيئاً في البلاد يقوي القومية البلجيكية وبعد ١٨٣٠ وجد أناس يفكرون بأن الفلاماندية ، إذا توصل إلى ارجاعها إلى حالة « لغة محلية ، ستنتهي تدريجياً إلى الزوال . يضاف إلى ذلك أن اللغة الفرنسية كانت تستخدم فقط في الأعمال الكبرى : كالبنك الرئيسي ، الشركة العامة لبلجيكا ، وكانت له فروع في كل أجزاء البلاد ويستخدم جهازاً يفصح عن نفسه بالفرنسية فقط ، حتى في الاقاليم الفلاماندية .

ميدان اللغة الفلاماندية . - ولم تكن اللغة الفلاماندية في حال استعمال إلا عند شعب الاقاليم الفلاماندية . وحوالي ١٨٣٠ ، لم يعرف على وجه الدقة عدد الناس الذين يتكلمون الفلاماندية في بلجيكا . الا أنه وجدت ، في احصاء ١٨٤٦ ، مسلمات دقيقة وشاهد عندئذ أنه يوجد ٢٤٧١٠٠٠ شخص يصرحون بأنهم يتكلمون الفلاماندية ، على حين انه يوجد منهم ١٨٢٧٠٠٠ يتكلمون الفرنسية . وهكذا كانت الفلاماندية اللغة التي

تتكلم بها أكتورية الشعب ، ومع هذا لم يكن لها أي دور في الادارة وفي الحياة الاقتصادية وحتى في التعليم ، باستثناء التعليم الابتدائي .

٢ - نمو حركة الفلاماندية

الحركة الأدبية . - ولا يخلو من فائدة أن نشير إلى أن هذه الحركة بدأت بشكل شبيه بالحركات الاخرى التي درسناها في أوربه الوسطى . فاذا لاحظنا أصول الحركة التشيكية مثلاً ، أو الاصول البعيدة للحركة اليوغوسلافية ، لرأينا في البدء « يقظة أدبية » . وهذا ما جرى في البلاد الفلاماندية في بلجيكا ، لانه يرى في أصل الحركة عمل بعض المفكرين الفلامانديين الذين حاولوا أن يروا وجود ثقافة فلاماندية أصلية وأن شعوب اللغة الفلاماندية تؤلف شعباً حيي « فردية تاريخية » .

وفي هذه الحركة الادبية يجدر ذكر دور رجلين :

جان دافيد وفيللمز

دافيد . - كان دافيد كاهناً كاثوليكياً ، وابتداءً من ١٨٣٤ سمي استاذ الادب والتاريخ الفلامانديين في جامعة لوفتن الكاثوليكية . ونشر تاريخ الفلاندر وسماء « تاريخ الوطن » ، في أحد عشر مجلداً ولم ، يقرأها الا قليل من الناس . وهذا العمل له معناه ومغزاه ، لانه كان في أصل جميع الحركات القومية . وفيه نرى الاهتمام بالبحث عن السوابق التاريخية واطهار ان للشعب ، الذي يهتم به ، تاريخاً خاصاً ، وماضياً مشتركاً .

فيللمز . - اما فيللمز فقد اختص بدراسة فقه اللغة الفلاماندية وفي البحث عن المخطوطات القديمة الفلاماندية وفي نشر هذه المخطوطات . وفي ١٨٣٦ انشئت في غاند جمعية فلاماندية وأصبحت ملتقى المفكرين الفلامنضيين .

هنري كونسيانوس . - ولم تكن هذه الحركة بعد الا حركة أدبية بالمعنى الصحيح . وقد بدأت في ١٨٣٧ ، وكان المحرك لها هنري كونسيانوس . ولد في آنفرس ، وأبوه ملاح فرنسي أتى اليها في عهد نابوليون وتزوج فلاماندية وبقي في آنفرس الى ما بعد ١٨١٥ . نشر هنري كونسيانوس بالفلاماندية ، ابتداءً من ١٨٣٧ ، روايات وقصصاً شعبية ، كتبت بكثير من القريحة ، والموهبة ، ولكن دون كثير فن ، وفيها يرجع إلى نفس الغرض : حب البلد الفلاماندي ، حب اللغة الفلاماندية والأعراف الفلاماندية . وكان لأثره الأسامي الذي ظهر في ١٨٣٩ صدى عظيم وعنوانه « أسد بلاد الفلاندر » وهو تمجيد لماضي الفلاندر .

البيوت رادينباخ . - وامت هذه الحركة الأدبية التي بدأها هنري كونسيانوس وبلغت أوجها في ١٨٨٠ على يد البيوت رادينباخ . وكان رادينباخ طالباً في جامعة لوفن الكاثوليكية عندما بدأ بنشر قصائد في ١٨٧٧ - ١٧٧٨ ، ثم أعطى في ١٨٨٠ درامة كبرى شعرية تسمى « غودرون » . وغودرون هذه تجسد الفلاندر المتنازعة بين الجرمانين والرومانين . وتوفي رادينباخ شاباً جدهاً في ١٨٨١ ، ولكن أثره طبع في الحركة الادبية الفلاماندية .

الاتصال مع الخارج . - ولا يخلو من فائدة أن نرى أن هذه الحركة الادبية الفلاماندية بحثت عن اتصالات مع الخارج ، وبالطبع من جهة فرنسا . بدأت الاتصالات الاولى مع الالمان . وجرت محاولات « تأخي » بين طلاب جامعة لوفن وطلاب جامعة بون ، في رينانيا . وجرت زيارات قام بها زعماء الحركة الادبية الفلاماندية إلى كتاب المان : فقد كان فيللمز مثلاً ، على صلة بجاكوب غريم الذي لعب في

الحركة القومية الألمانية قبل ١٨٤٨ دوراً هاماً . ولكن الفلامانديين ما عتَمُوا أن لاحظوا أن هذه الصداقة مع الألمان لا تخلو من خطر ، لأنه شوهد منذ ١٨٤٤ ظهور كتاب ، تحت توقيع مؤلف الماني، سيمروك ، يقول فيه أن أوستاند يجب أن تكون الحد الطبيعي للوطن الألماني ، . فهل يجب أن نرى في هذا تهديداً بامتصاص المانيا للفلاندر ؟

ومن جهة أخرى ، كان لهذه الحركة الادبية اتصالات مع الهولانديين وابتداء من ١٨٤٩ عقدت بانتظام مؤتمرات أدبية نيئرلاندية ، وأولها في غاند ، وكانت هذه المؤتمرات تجمع الكتاب الفلامانديين والكتاب الهولانديين ، ولكن هذه الحركة ظلت أدبية فقط ، وبرهن الهولانديون على رزانة عظيمة ، ورأوا أن حوادث ١٨٣٠ ، انفصال بلجيكا وهولاندة ، يجب أن تعتبر قطعية ، ولم يحاولوا استخدام هذه الصداقات ، التي عقدوها في بلجيكا ، لغرض سياسي .

الاحتجاج السياسي . - وهيأت هذه البقطة الأدبية ثمر حركة احتجاج سياسي : فمذ كانون الثاني ١٨٣١ ، لاحظ أحد أعضاء الكونغرس القومي البلجيكي أن مواطني اللغة الفلاماندية سيخرجون من الوظائف العامة لأن شرط التوظيف معرفة اللغة الفرنسية . ولكن هذه الملاحظة ، في ذلك الحين ، وقعت في الفراغ ، ولم يلتفت إليها أحد ، وشيئاً فشيئاً قامت احتجاجات من جانب بعض بورجوازيين فلامانديين ناديين « لم يتفرنسوا » وحافظوا على عاداتهم بالتكلم بالفلاماندية . وهذه حال بلومورت . فقد نشر في ١٨٣٢ اثرأ صغيراً يدعى : « ملاحظات على إهمال اللغة النيئرلاندية » . ويصرح ، في هذا المؤلف ، أن الادارة البلجيكية أخطأت بعدم تعليق أي أهمية على الفلاماندية ، وأن واجب الادارة الصالحة هو قبل كل شيء ، التكلم بلغة محكومها . ولكن كراس بلومورت لم يتروك اثرأ كبيراً .

الا أن حركة احتجاج بدأت بالظهور بحق نحو ١٨٤٠ وسند كر عدداً من الاحداث التي تحدد معالم هذه الحركة .

في ١٨٤٠ قرر المجلس الاقليمي لاقليم آفرس بالا يعهد في المستقبل بالوظائف الادارية في الاقليم الا للاشخاص الذين يمكنهم التعبير بالفلاماندية وفي ١٨٤٠ ايضاً احتج النائب دكو في مجلس النواب البلجيكي على « التأخي الاداري » . وفي السنة نفسها وجه فيللمز وجمع من أصدقائه عريضة الى مجلس النواب يطالبون فيها بأن تكون اللغة الفلاماندية لغة الادارة في الفلاندر . وزعم بأن عريضته وقعت من قبل مائة الف شخص .

وفي ١٨٤١ ظهر مؤلف أحدث ضجة . ومؤلفه تيؤدود فان ريسفيك وكان ذا موهبة أدبية غير منازعة . وقد حاول ان يفيد من هذه الموهبة الأدبية لاغراض سياسية : نشر رواية تدعى « انتيغون » ، وكان انتيغون نابوليون ، وقص حول انتيغون تاريخ البلاد الفلاماندية مع شيء من أدب الرواية ، منذ بداية القرن التاسع عشر ، وانتهى مصرحاً بأن الشعب الفلاماندي منذ ١٨٣٠ ، أي منذ استقلت بلجيكا ، في حالة « بأسة » . وأخيراً في ١٨٤٦ انشئت في آفرس جمعية تسمى « الاتحاد المقدس » ، واشترك فيها هنري كونسيانسان وفان ريسفيك . وكان لكل من الرجلين ، على الصعيد الأدب ، أهمية كبرى في الحركة الفلاماندية في ذلك الحين . ونشرت هذه الجمعية في ١٨٤٧ تصريح مبدأ طالبت فيه بالمساواة بين الفرنسية والفلاماندية في التعليم والادارة . وقال التصريح : يجب ان يطلب من كل موظف معرفة اللغتين : الفرنسية والفلاماندية .

ولكن بعد ١٨٤٨ ، وتحت تأثير الحركة العامة لعام ١٨٤٨ ، التي كانت في أساسها حركة قوميات ، نمت حملة الاحتجاج . وبدأت الجرائد

الفلاماندية في ذلك الحين تقول ان الحاله اللغوية في الاقاليم الفلاماندية في حالة يرثى لها أكثر من أي وقت مضى . حتى انها قالت : لقد كان الفلامانديون تحت السيطرة النمساوية « أكثر اعتباراً » منهم في زمن استقلال بلجيكا .

ومع هذا لم يكن للحركة دوماً كبير نفاذ : أولاً ، لأن جمهوء الرأي في الأقاليم الفلاماندية ظل سلبياً ، ولأن المحييين لم يظهروا « جهة وحيدة » ، فقد وجد بينهم كاثوليكيون واهرار وكانوا عاجزين عن انتظامهم في حزب فلاماندي . وأخيراً ، يجب ألا ننسى أن النظام الانتخابي البلجيكي ظل نظاماً حزبياً ، وأن البورجوازية بالتالي هي التي تحكم وتمارس حق التصويت . ولما كانت هذه البورجوازية مثقفة ثقافة فرنسية ، فان المحتجين لا يمكنهم أن يكونوا كثيراً في مجالس النواب البلجيكي .

وفي ١٨٥٦ تقدمت الحركة الفلاماندية خطوة هامة الى الأمام : فقد قبلت الحكومة ، في ذلك الحين ، ان تشكل لجنة التحقيق لدراسة المطالبات الفلاماندية وادخلت ، في هذه اللجنة التي تضم تسعة اعضاء ، هنري كونسيانس وجان هافيد . وتوصلت اللجنة الى القول بأن شكواي الفلامانديين لها أساس ونشرت في ١٨٥٨ تقريراً اقترحت فيه عدداً من الحلول :

١ - من وجهة نظر التعليم ، يقول التقرير ان الفلاماندية يجب أن تكون لغة التبادل في كل التعليم في الفلاندر ، بل وحتى في التعليم العالي ويجب أن يعطى التعليم في جامعة بلجيكية ، جامعة غاند ، باللغة الفلاماندية ، في المواد الأساسية ، على الأقل .

٢ - من وجهة نظر الادارة ، يجب أن تُنشر القوانين باللغتين :

الفرنسية والفلاماندية : وعلى القضاة والمحامين أن يعرفوا إجبارياً اللغتين .
والمراسلة الادارية في الاقاليم الفلاماندية يجب أن تكون بالفلاماندية .
وعلى العمال الدبلوماسيين والقنصلين أن يعرفوا جميعاً الفرنسية والفلاماندية
لتمثيل بلجيكا في الخارج .

٣ - وأخيراً ، من وجهة نظر الجيش ، يقترح تقرير اللجنة تقسيم الجيش
إلى قسمين : القطعات الفلاماندية والقطعات الفالونية ، لغة القيادة في
الاولى الفلاماندية ، ولغة القيادة في الثانية اللغة الفرنسية .

كان برنامج اللجنة في عام ١٨٥٨ هاماً ، لا لأن له اقل نتيجة في
ذلك الحين ، لأن الحكومة لم تأخذ له أي اعتبار ، بل لانه ظل أساساً
لبرنامج المطالب الفلاماندية حتى ١٩١٤ .

وابتداء من ١٨٧٠ تزايدت حركة الدعاية للقومية الفلاماندية فقد نمت
الصحف الفلاماندية كثيراً . وفي ١٨٧٠ نشرت في غاند أول صحيفة
يومية فلاماندية عظيمة الاخراج « الفولكسبلاد » ؛ حتى ان بعض
الجرائد الفلاماندية ، مثل : « صحيفة آفرس » ، الجريدة
الكاثوليكية ، كانت ، في آخر القرن التاسع عشر ، عظيمة الاخراج
ان لم تكن اعظم من جرائد اللغة الفرنسية في بروكسل . وانتظمت
جمعيات الدعاية ، ووجدت جمعيتان : كان اتجاه الاولى ليبرالياً أي مناوئاً
للكنيسة وتسمى « كنز » ، فيللمز بامم فيللمز الذي توفي في ذلك الحين
ولكن تقاليده استمرت ، والأخرى كانت كاثوليكية وتسمى « كنز
دافيد » . وشرعت هاتان الجمعيتان بنشر كتب وكرارس واغانى فلاماندية .

ولكن يجب الوصول حتى عام ١٨٩٣ لرؤية تغيير عميق . وهذا
التاريخ مطبوع باصلاح أساسي في الحياة السياسية في بلجيكا وهو حذف
النظام الضريبي واقامة التصويت العام .

وفي الحقيقة ان هذا التصويت العام قد شوه قليلاً بالتصويت «الأكثري» أي التصويت الذي يحق فيه لبعض الناخبين صوت أو صوتان اضافيات إذا توافرت فيهم بعض الشروط . وليكون للناخب الحق في هذه الأصوات الاضافية ، يجب أن تكون له ثروة أو القاب جامعية : وبالتالي فان التصويت الاكثري كان يلعب دوره لصالح البورجوازية . ولكن هذا الاصلاح أدخل ، في الهيئة الانتخابية ، الجماهير الشعبية التي كانت في غالبيتها فلاماندية اللغة ، وبدل شروط القضية تماماً . وابتداءً من هذا الحين تأكدت المطالبات الفلاماندية على منصة مجلس النواب بحماسة وحرارة وفي الغالب بجفاء لم يكن لها من قبل .

النتيجة - كانت الحكومة حتى ١٨٦١ تعارض المطالبات الفلاماندية بموقف سلبي مطلق . وفي ١٨٦١ ، أعطت انطباعاً لأول مرة بأنها مستعدة للتنازل : وقبلت أن تدخل ، في الرسالة التي صوت عليها مجلس النواب جواباً على خطاب العرش ، عبارة تلزم الحكومة « بإزالة شكاوى الفلاماندين » . ولم يكن هذا الا تصريح مبدأ . وفي الواقع ، تنازلت الحكومة ببطء وبعده إجراءات جزئية . ولا بد لنا من ذكر هذه الاجراءات التشريعية التي غيرت الحالة ، وهي كما يلي :

١ - في ١٨٧٠ قررت الحكومة ألا تسمي في المستقبل في المناطق الفلاماندية إلا موظفين يعرفون الفلاماندية عدا الفرنسية .

٢ - وفي ١٨٧٣ ، قرر قانون ، في الأقاليم الفلاماندية الأربعة ، آفئرس ، فلاندر الغربية ، فلاندر الشرقية ، ليمبورغ ، أن يكون أصول المحاكمات الجزائية لا المدنية باللغة الفلاماندية . ومع ذلك يحتفظ للشهود بحق التعبير بالفرنسية إذا فضلوا ذلك . ولهذا القانون أصل ميز خاص

بسبب وقوع حادث مشين في بروكسل ، وهو أن عاملاً لا يعرف إلا الفلاماندية أراد أن يصرح بميلاد ابنه ، والقانون يلزمه أن يجبر ديوان الأحوال المدنية ، ولما كان موظف الديوان يجهل الفلاماندية ، كان من المستحيل التفاهم معه ، وانصرف العامل . ولما لم يصرح بابنه في دائرة الأحوال المدنية فرضت عليه مخالفة ، فرفض أن يدفع هذه المخالفة وشجعت الجمعيات الفلاماندية على هذا الرفض . وعظمت القضية ، وحكم على العامل بالسجن ، فاستأنف الحكم ، وأيدت محكمة الاستئناف الحكم الاول . وانتهى الرأي العام إلى التفكير بأن شيئاً غير سوي في النظام الموجود .

٣ - وفي ١٨٧٨ ، قرر قانون أن تكون البلاغات الرسمية والمراسلة الادارية بالفلاماندية في الاقاليم الفلاماندية الاربعة . ومع هذا فان كل فرد يأخذ مراسلة ادارية بالفلاماندية ، ويصرح بأنه لا يعرف هذه اللغة ، يمكنه أن يطلب ترجمة لها .

٤ - وفي ١٨٨٣ صدر قانون في التعليم ، وبوجبه أصبحت الفلاماندية لغة التعليم الثانوي في الأقاليم الفلاماندية .

٥ - وفي ١٨٨٩ ، أقر قانون نشر النصوص التشريعية بالفرنسية والفلاماندية . أي أن للنص الفلاماندي نفس قيمة النص الفرنسي ، ولا يخلو ذلك من فائدة ، وذلك لأن الترجمة لا تكون مضبوطة تماماً ، وفي القضايا القضائية يمكن أن يؤدي عدم الضبط إلى منازعات وصعوبات .

٦ - وأخيراً ، في ١٩١٣ ، ألزم ضباط الجيش بمعرفة الفلاماندية والفرنسية .

وشيثاً فشيثاً حصلت المطالب الفلاماندية على بعض النتائج الجديرة بالتقدير .

٢ - الحالة قبل حرب ١٩١٤

لم يرض زعماء الحركة الفلامنغية عن النتائج الجزئية التي حصلوا عليها . فقد كانوا يرون أن المساواة اللغوية لم تتحقق بعد ، وأن اللغة الفرنسية تحتفظ بدور ممتاز ، لأن الإدارات المركزية ما زالت لغتها فرنسية ، ففي الوزارات ، لا يتكلم إلا باللغة الفرنسية ، وبالتالي ، يقول زعماء الحركة الفلامنغية ان المواطنين البلجيكيين الذين لا يعرفون إلا اللغة الفلاماندية هم « بلجيكيون من المنطقة الثانية » ، لأن ليس لهم المكانة العددية التي لهم الحق بها عادة في الإدارة ، وبخاصة ، في وظائف الإدارة العليا . ولتشكيل الاطر الادارية الفلاماندية كان زعماء الحركة الفلامنغية ، في ١٩١٤ ، الليبرالي لويس فوانسك والاشتراكي هويسمانس ، والكاثوليكي فان كاوفيلاند ، يلحون على ضرورة إنشاء جامعة فلاماندية : أي تحويل جامعة غاند ، لأن الأطر الادارية في المستقبل تؤخذ من الجامعة .

ولكن بعض الفلامنغيين ذهبوا بعيداً ، ولم يكتفوا بإنشاء جامعة فلاماندية فحسب ، بل أرادوا اجراءين هامين جداً : الفصل الاداري ، وفصل الجيش . وهذا الإجراء الأخير ، فصل الجيش ، كان يطالب به ، في العام ١٨٥٨ ، في تقرير اللجنة الذي تكلمنا عنه آنفاً . أما الفصل الاداري ، فقد كان الفلامنغيون يريدون منه بأن تنفصل ادارة المنطقة الفلاماندية تماماً عن ادارة المنطقة الفالونية ، وبهذا يمكن الوصول إلى وزارات فلاماندية ووزارات فالونية ، عدا بعض الامور العامة . وهنا يبدو الخطر : لان له محاذير خطيرة على وحدة الدولة البلجيكية التي يمكن أن تصبح « ملكية ثنائية » ، كالنمسا - هونغاريا .

ولنشر إلى أن هذه المطالب التي تتعلق ظاهراً بالقضية اللغوية وحدها ، كانت ترتبط في الحقيقة بقضية اجتماعية وبقضية دينية .

كانت هذه المطالب مرتبطة بالقضية الاجتماعية لان الناس الذين يتكلمون الفلاماندية ولا يتكلمون إلا الفلاماندية كانوا أناساً من الشعب . وفي بداية القرن العشرين قامت دعاية على يد كنسي وهو الاب دينز ، وكان يصرح بأن الفلاماندية « لغة الفقراء » ، والفرنسية « لغة الاغنياء » ، ولذا كان يضع القضية اللغوية على الصعيد الاجتماعي .

ولكن القضية اللغوية كانت مرتبطة بالقضية الدينية : فقد كان الاكليروس الكاثوليكي الفلاماندي ، وهو قوي جداً ، يرى في اللغة الفرنسية عجلة الفكر الحر . وكان هذا الاكليروس الفلاماندي معادياً لفرنسا ، لأنها كانت تسلك ، منذ ١٩٠١ ، سياسة مناوئة للاكليروس . ولكن يجب أن نشير إلى أن حالة الرأي هذه لم تكن من رأي الاكليروس الأعلى : فقد كان هذا الاكليروس الاعلى ، حتى في الاقاليم الفلاماندية ، اكليروساً مثقفاً ثقافة فرنسية ، وكان أكثر مقاومة وتردداً حيال الحركة الفلاماندية من الاكليروس الادنى . وهذا الحادث يميز لان الاب دينز ، الذي تكلمنا عنه ، شجبه اسقفه وحرم عليه الاستمرار في دعايته .

حركة المقاومة الفالونية . - وفي ١٩١٣ - ١٩١٤ ، أخذت المناقشات في القضية الفلاماندية في البرلمان البلجيكي طوراً حرجاً . فقد كان بعض الخطباء يلمحون ، أثناء الدفاع عن وجهة النظر الفلاماندية ، إلى العبقرية الجرمانية « ليعارضوا بها » ، « الانحطاط الفرنسي » ، وبالطبع كان الفالون يحيون بشدة .

وكلمنا ثم هذه الحركة الفلامنغية تأكدت حركة المقاومة من جانب

الفالونيين . ووجد في فالونيا أناس يفكرون بأن الحالة لا تخلو من القلق وإذا لاحظنا الاحصاءات رأينا ، في النصف الاخير من القرن ، أن نسبة البلجيكيين الذين يتكلمون الفرنسية قد تناقصت : ففي ١٨٦٦ وجد مليوناً شخص يتكلمون الفرنسية ، و ٢٤٠٠٠٠٠ يتكلمون الفلاماندية و ٣٠٠٠٠٠ يتكلمون اللغتين . وفي ١٩١٠ تكاثرت السكان ووجد أن ٢٨٠٠٠٠٠ يتكلمون الفرنسية و ٣٢٢٠٠٠٠ يتكلمون الفلاماندية و ٨٧١٠٠٠ يتكلمون اللغتين . ولهذا انتقلت الفرنسية من ٤٢٪ في ١٨٦٦ إلى ٢٨٪ في ١٩١٠ . وهذا يعود إلى أن شعب الاقاليم الفلاماندية كانت الولادة فيه أقوى من الولادة في الاقاليم الفالونية . ومن هنا يمكن التفكير بأن الثقافة الفرنسية في بلجيكا آخذة شيئاً فشيئاً بالتراجع ، ولا يوجد إلا خطورة . ويرى بعض الفالونيين وجوب الدفاع عن النفس ضد هذا الخطر ، ووجد مجلس فالوني كان يعقد جلساته من حين لآخر . وقد عقدت احدى هذه الجلسات في تشرين الاول ١٩١٢ ، في شارلوروا ، وكان برنامجها النضال ضد الحركة الفلاماندية .

كان اللسان الناطق لحركة الاحتجاج الفالونية نائب استراكي من شارلوروا ، وهو جول ديستويه ، نشر في آب ١٩١٢ وثيقة شهيرة تسمى « رسالة إلى الملك » ، وفي هذه الرسالة بالغ جول ديستويه في المخاوف التي يشعر بها بشكل هيج الرأي . وظهر تقدم الحركة الفلاماندية ، والاضطراب التي يمكن أن تولفها على الدولة البلجيكية في المستقبل ، وتوصل إلى عبارات مقلقة ومزعجة جداً ، وقال إلى الملك : « يا صاحب الجلالة ، لا توجد روح بلجيكية ، ان صهر الفلامانديين والفالون غير مرجو ولكنه مرغوب فيه ، ويجب أن نرى أيضاً أنه غير ممكن ، ولا يوجد بلجيكيون في بلجيكا إلا الموظفون الذين يرتبطون بالدولة بوضعهم ، وان الناس في منطقة بروكسل الذين يرون رأي رجل شارلوروا هم ريبليون ، ضئيولون ،

أناس ليس عندهم حماسة ، . وهذه الأقوال من جول ديستريه ليس فيها ما يطمئن عن مصير دولة بلجيكا في المستقبل . وتوصل ديستريه إلى القول بضرورة « الفصل الإداري » وتحويل بلجيكا إلى دولة اتحادية .

وطرحت في بلجيكا نظريات أخرى كان أهمها ولا شك نظرية المؤرخ البلجيكي الكبير هنري بيرين . ان كل « تاريخ بلجيكا » ، الذي ألفه ، ملهم بهذه الفكرة الأساسية وهي : وجود قومية بلجيكية . ولا شك في أنه يوجد في بلجيكا شعبان يتكلمان لغتين مختلفتين ؛ وثقافة أحدهما جرمانية وثقافة الآخر فرنسية . ولكن بسبب المنافع الاقتصادية وبسبب الذكريات التاريخية المشتركة يشكل الفلامانديون والفالون أمة .

هل هذا التفاؤل الذي يظهره هنري بيرين مقنع ؟ إن كثيراً من البلجيكيين يرون في ربيع ١٩١٤ ان الحالة مظلمة ومقلقة ، فضلاً عن أنه يوجد في ألمانيا أناس يراقبون عن كثب كل ما يجري في بلجيكا ، « كرجال الجامعة الجرمانية » الذين كانوا ينظرون حول ١٩٠٠ إلى جهة بلجيكا ولا يتوددون في أن يصرحوا بأن الفلامانديين يتبعون الكتلة اللغوية الجرمانية ، ولذا يجب ان يقعوا في يوم أو آخر في منطقة نفوذ ألمانيا السياسي ؛ وفي منشورات معتدلة اللهجة ، في المجلة الألمانية الكبرى : « الكتاب السنوي البروسي » ظهر في العام ١٩١٤ مقال لمساعد في جامعة ليبزيغ واسمه اوسفالد بعنوان : « كفاح القوميات بين الفلامانديين وبين الفالونيين » : وفيه يأتي المؤلف على سرد تاريخ الحركة الفلاماندية للوصول إلى الإشارة إلى أن هذا « الكفاح » بين الفلامانديين والفالونيين كان عنصراً مدمراً للدولة البلجيكية .

وهنا نجد عنصراً من العناصر التي دفعت الحكومة الألمانية إلى الاعتقاد ، في ١٩١٤ ، بان الجيش الألماني لن يلقى مقاومة متى خرق حياد البلجيكي .

ويروى عن السفير الالماني في باريس أنه قال ، قبل قيام حرب ١٩١٤ ببضعة أيام : « ان البلجيكيين ، في اليوم الذي ندخل فيه بلجيكا ، يضعون سياجا ليرونا نمر ، وعندما خرقت المانيا حياذ بلجيكا ، كانت حمية الشعب البلجيكي مجمعة ضد الغازي المجتاح .



وهذا لا يمنع من أن لهذه الحركة الفلاماندية بعض الاهمية في تاريخ السياسة الالمانية في بلجيكا من ١٩١٤ إلى ١٩١٨ . ومن المهم دراسة هذا الموضوع لان الالمان ، منذ أن احتلوا بلجيكا وأقاموا فيها خلال أربعة أعوام ، حاولوا أن ينعشوا الحركة الفلاماندية وأن يستخدموها لغايات سياسية . وكانوا يرغبون في أن تكون لهم اليد العليا على بلجيكا بعد الحرب بشكل أو بآخر . وفكروا بأن أفضل وسيلة للوصول إلى ذلك هي كسب نقطة استناد في بلجيكا ، وأملوا أن يجدوا نقطة الاستناد هذه بدعم الحركة الفلاماندية ، وهذا ما حملهم على أن يقرروا ، في ١٩١٦ ، انشاء جامعة فلاماندية في غاند ، وفي ١٩١٧ ، تحقيق الفصل الاداري بين الفلاندر والفالونيا ، وأخيراً انشاء « مجلس الفلاندر » الذي يجب أن يكون الناطق بلسان استقلال الفلاندر الذاتي في المستقبل . ولكن هذه السياسة لم تتبع إلا من قبل عدد ضئيل من الفلامانديين : وهم الفلامنغيون النشيطون الذين قبلوا خدمة المصالح الالمانية . وبالأجمال ، ان الاجراءات التي اتخذتها الادارة الالمانية اصطدمت من ١٩١٦ إلى ١٩١٨ بمقاومة مستمرة من جميع عناصر السكاث تقريباً .

الفصل الثامن عشر

قضية الالزاس — لورين

من ١٨٧١ إلى ١٩١٤

ضم الالزاس — لورين

يتناول البحث ، في هذه القضية ، ضم الامبراطورية الالمانية للالزاس لورين في ١٨٧١ ، وحياة الالزاس - لورين تحت الادارة الالمانية حتى ١٩١٤ ، وأخيراً النتائج الدولية لقضية الالزاس - لورين ، وبخاصة في العلاقات الفرنسية - الألمانية .

١ - موقف الرأي الألماني والحكومة الألمانية قبل ١٨٧٠

من قضية الالزاس - لورين

في عام ١٦٤٨ خولت معاهدات وستفاليا ملك فرنسا الحقوق التي كان يملكها حتى الآن الامبراطور الجرمني في الالزاس . وفي القرن الثامن عشر انحلت اللورين بفرنسا في عهد الملك لويس الخامس عشر . ولكن يجب الانسى أن الالزاس ، بخاصة ، حافظت حتى الثورة الفرنسية ١٧٨٩ على شيء من روح النعرة المحلية . ولكن الثورة الفرنسية والنتائج الاجتماعية ، التي ادت اليها ، دجحت الالزاس تماماً في الجماعة الفرنسية . وقد اتفق المؤرخون الالمان والمؤرخون الفرنسيون على هذه النقطة . وكان مجموع

الشعب الالزامي ، باستثناء قسم من الطبقة النبيلة ، يجهد الاصلاحات التي أتت بها الثورة ، ويشعر ، منذ ذلك الحين ، بأنه مرتبط ولا شك بالجماعة الفرنسية . والمهم هنا أن نرى وجهة نظر الالمان في قضية الالزاس - لورين في القرن التاسع عشر ، قبل ١٨٧٠ .

ظروف المطالبة - لقد ظلت الالزاس حتى ١٦٤٧ ، واللورين حتى القرن الثامن عشر ، اراضي تابعة للإمبراطورية الجرمانية الرومانية المقدسة . وظهرت فكرة انتزاع هذين الاقليمين من فرنسا ابتداء من ١٨١٣ في مناسبات مختلفة : وهذا التاريخ ١٨١٣ يسميه الالمان « حرب الخلاص » أو « حرب التحرير » ، وهي الحرب القومية التي قامت ضد السيطرة الفرنسية . وفي هذه الحرب أخذ الرأي العام الالمانى يطالب بالالزاس - لورين . ان الظروف التي ظهرت فيها هذه المطالبة هي الآتية :

(١) في ١٨١٣ - ١٨١٤ . في خريف ١٨١٣ ، بعد الاخفاق العظيم الذي منيت به جيوش نابوليون في لايبزيغ ، بدأ انهيار الامبراطورية النابوليونية ، كما بدأت تظهر في المانيا حركة وحدوية ، ولم نضع ، منذ ذلك الحين ، قضية الالزاس - لورين من قبل بعض رجال الدولة فحسب ، بل ومن قبل الناشرين ايضا . وجرى تساؤل عن الحدود الغربية لالمانيا المستقبل اذا تحققت الوحدة الالمانية . وقد طبق الالمان على هذه القضية الفكرة التي وسعها فيخته في « خطب الى الامة الالمانية » الشهيرة التي القاها بين ١٨٠٨ و ١٨١٠ . وتتلخص نظرية فيخته في كلمة وهي : ان اساس القومية وحدة اللغة ، وبالتالي يقول المان ١٨١٣ : لما كان السكان في الالزاس ، وفي قسم من اللورين ، يتكلمون لهجة ليست في الحقيقة اللغة الالمانية الصرفة ، وليكنها لهجة جرمانية ، ويؤلفون جزءاً من المجموعة اللغوية الجرمانية ، فيجب أن يؤلفوا جزءاً من الوحدة السياسية الالمانية .

يضاف الى ذلك ان المان ١٨١٣ يرون أن فصل الالزاس - لورين عن فرنسا ، يمكنهم من الوصول الى تأليف نوع من حاجز بين فرنسا وألمانيا . ويجب هنا ألا نحكم على هذه الامور كما نحكم عليها بافتار اليوم ، أي كالفرنسيين الذين تحملوا الغزو الالماني ثلاث مرات في قوت واحد ، بل يجب أن نضع أنفسنا موضع الالمان عام ١٨١٣ الذين يعتبرون فرنسا خطراً عليهم ويتذكرون ، بخاصة ، غزوجيوش لويس الرابع عشر في البالاتينا . وقد وضعت فكرة فصل الالزاس - لورين عن فرنسا ، ابتداء من كانون الثاني ١٨١٤ أي ابتداء من الوقت الذي اجتازت فيه جيوش النابليون الراين .

وقد عبر عن هذه الفكرة اولاً الشاعر والكاتب السياسي آرندت . فقد نشر في ١٨١٣ كراساً يسمى « الراين نهر الماني وليس حداً لالمانيا » . وهذا يعني ان الراين يجب أن يجري في ارض المانية . ويطالب آرندت ، في هذا الكراس ، بالالزاس وأراضي السار (سارلوي وساربروك) وببلاد الموزيل ، بلاداً ألمانية . واستؤنفت هذه الفكرة في العصر نفسه في دورية تسمى « الصحيفة اللمانية » ، وظهرت في الاركان العامة للجيش الحليفة . وسعت في هذه الدورية الفكرة التي تقول بان الحدود الاستراتيجية الصالحة لالمانيا هي كتلة جبال الفوج .

ومن جهة أخرى ، كان أمراء المانيا الجنوبية ، في بداية ١٨١٤ ، يتصورون ايضاً ضم الالزاس ويعتبرونه « هدف حرب » . فقد فكرت الحكومة البافارية ، مثلاً ، في تقسيم الالزاس بين مملكة فرتامبرغ ودوقية باد الكبرى ، على ان تأخذ بافاريا ، بالمقابل ، أراضي من دوقية باد الكبرى ومن مملكة فرتامبرغ . وأخيراً ، كان القائد الاعلى للجيش البروسية ، غنيزنو ، يرى ايضاً ، أن ضم الالزاس لاغنى عنه لاسباب استراتيجية .

ولم تأخذ الحكومات الحليفة بهذه الفكرة . حتى ان الحكومة البروسية نفسها لم تأخذ بها ، أولاً ، لان الدول الظافرة كانت تتحاسد ويراقب بعضها بعضاً ، ولا تريد ان ترى واحدة منها تكبر وتتضخم كثيراً ؛ ولان هذه الدول كانت ترغب في توطيد الملكية في فرنسا ولا تريد أن تخاطر أكثر مما خاطرت في عدم الثقة بآل بوربون : لان فرض التنازل عن الألزاس على أسرة آل بوربون ، في وقت يتوطد فيه السلام ، معناه جعل دورها في فرنسا صعباً في المستقبل .

(٢) بعد حكم المائة يوم . - ولكننا نرى ظهور فكرة ضم الالزاس واللورين في البلاد الالمانية بعد حكم المائة يوم وبعد اخفاق نابوليون ، في واترلو في ١٨١٥ . فقد أعلن ملك فراتمبرغ في شباط انه في صالح ضم الالزاس - لورين . ودعمته الحكومة البافارية . وكانت بافاريا ترى بأن تستولي الفرتمبرغ على الالزاس ، شريطة أن تأخذ ، بالمقابل ، تعويضات أرضية في ألمانيا الجنوبية . ثم عاد غنيزنو إلى فكرته وأعرب عنها في مذكرة مؤرخة في ٢٢ حزيران ١٨١٥ ، وأوضح فيها للحكومة البروسية ان هدف الحرب الاساسي يجب أن يكون في ضم الالزاس - لورين لبروسيا . وكذلك كان هاردانبرغ ، مستشار بروسيا ، يجبذ في ذلك الحق ضم الالزاس وجزءاً من اللورين من متز إلى تيونفيل بخاصة ، على حين أنه ما كان يريد ذلك في العام القاتل .

ووجد بين المؤلفين والناشرين من كان دوره أساسياً وشهيراً في ١٨١٥ مثل جوزيف غورز : فقد نشر جريدة « عطارد الريناني » ، والحق في صيف ١٨١٥ على ضرورة ضم الالزاس - لورين : وأراد أن يجعل منها أرضاً تابعة لمجموع الدول الالمانية . وظهرت عنده لأول مرة الفكرة التي حققها بسمارك في ١٨٧١ ، وهي فكرة الرينسلاند أي : « أرض

الامبراطورية ، . ولكن المستشار النمساوي مترنيخ لم يشأ هذا الحل ولم تلح الحكومة البروسية . ولنلاحظ أنها حصلت ، من جهة ثانية ، على فوائد هامة في ١٨١٥ وهي الاقليم الريناني ، على الضفة اليسرى لنهر الراين ، وعلى السار مع سارلوي . وتخلت عن المطالبة بالالزاس - لورين . وفي ١٨١٥ افلست فكرة الوحدة الالمانية . وزالت تقريباً قضية الالزاس - لورين من وجهة نظر الرأي الالماني .

(٣) أزمة ١٨٤٠ . - ولكن الفكرة ظهرت في زمن أزمة ١٨٤٠ ، هذه الازمة التي أثارها القضية المصرية ، قضية محمد علي ، وكان لها انعكاسات اوروبية خطيرة . وقد قام تبادل جدل شهير فرنسي - ألماني ، في ذلك الحين ، واغنية نيقولا بيكور « الراين الالماني » ورد الشاعر الفرد موسيه عليها . والمهم ، بالنسبة لنا ، هو أن نرى الفرنسيين والالمان ينتصبون من جديد ، وجهاً لوجه ، في وقت كانت حركة الرأي عنيفة من كلا الجانبين وتعارض الشعبين ، وظهور المطالبة بالالزاس - لورين مباشرة : فمن ذلك أننا نرى رجلاً لعب فيما بعد دوراً هاماً في تاريخ الوحدة الالمانية ، وهو هانس فون غاغيرن ، كتب في ١٨٤٠ « ان الالزاس ارض يجب أن ترجع إلى المانيا . هذه هي الفكرة الشائعة عند الفرنسيين وهي ان الراين ملكهم ، ولكن هذه الفكرة لا يمكن للألمان ان يقبلوها » ، و اضاف : « ان استوداد المناطق ، التي ينطق سكانها اللغة الجرمانية ، على ضفة الراين اليسرى ، هو بالنسبة لالمانيا قضية شرف » ويقول : وسيقوم ذات يوم نزاع جديد ضد فرنسا ، وعندئذ يجب تسوية القضية .

(٤) أزمة ١٨٤٨ . - ثم اغتقت قضية الالزاس - لورين من جديد حتى ازمة ١٨٤٨ : فقد انعقد المجلس القومي في فرانكفورت وحجرت محاولة لتوطيد الوحدة الالمانية ولكنها اخفقت . وقد فكر المجلس القومي في

فرنكفورت بتوطيد الوحدة الألمانية ، ووجد نفسه بالضرورة امام قضية : ما هي حدود المانيا في المستقبل ؟ لقد اهتم المجلس القومي بقضية الدوقيات وبخاصة الشازفيغ ، وبقضية اللوكسمبورغ ، والتيبول الشمالي المأهول بالالمان . ولكن لاي درجة اهتم بقضية الالزاس - لورين ؟ قليلا على العموم . والحق يقال ، اننا نجد في كراريس العصر وخطبه التوكيد مراراً وتكراراً على « الصفة الالمانية » للالزاس . ولكن رجال ١٨٤٨ لا يتكلمون عن فتح . بل كانوا أنصار « حق الشعوب في تقرير مصيرها » . وفي المجلس القومي في فرنكفورت ، قال أحد النواب الذين عاجلوا هذه القضية واسمه كارل فوغت : « هذا واقع ، وهو أن الالزاسيين واللورينيين ، وان تكلم قسم كبير منهم اللهجة الجرمانية ، لا يرغبون ان يكونوا الماناً . وما دامت هذه الرغبة غير موجودة ، فوجب حق الشعوب في تقرير مصيرها ، فان القضية غير موضوعة » . ولكن فوغت اضاف : اذا كان الالزاسيون واللورينيون لا يرغبون بذلك فهذا يرجع إلى أن فرنسا ، التي يؤلفون جزءاً منها ، دولة قوية ، على حين أنه لا توجد دولة المانية قوية : فاذا ما تبدلت الحالة وانشئت دولة المانية قوية ، عندئذ يمكن التفكير بأن يتغير رأي الالزاسيين . وعليه فقد كان فوغت يأمل بأن يوماً سيأتي ويتغير فيه رأي الالزاسيين .

٥ () في عام ١٨٥٩ . - وبعد أزمة ١٨٤٨ عادت القضية فاعقت من جديد . ولكنها ظهرت في عام ١٨٥٩ عندما تشكلت المنظمة الالمانية الكبرى التي تسمى « الجمعية الألمانية » (ناسيونالفرين) . إن رجال هذه المنظمة ، أي الرجال الذين رفعوا علم الوحدة الالمانية في ١٨٥٩ وتكلموا مباشرة بقضية الالزاس ولورين ، رأوا أن تكونا المانيتين . ثم ان رئيس الأركان العامة الجنرال فون مولنكه ، عندما وصل إلى هذا

المنصب ، كتب في ذلك الحين ان « الحدود الطبيعية » بين فرنسا وألمانيا هي الكتلة الفوجية ، جبال الفوج .

(٦) في ١٨٦٦ . - بعد أن غلبت النمسا في الحرب النمساوية - الألمانية عام ١٨٦٦ ، وأصبحت فرنسا بالنسبة للألمان خصماً قريباً ، أخذت قضية الالزاس بالتدريج مكاناً هاماً في الرأي الألماني .

وعندما اثبتت « قضية اللوكسمبورغ » في ١٨٦٧ وجه طلاب برلين نداءً إلى طلاب الالزاس - لورين يلومونهم فيه على « تنكركم لقوميتهم » وينصحونهم بأن يعودوا « ابناء الوطن الألماني الخالص » . حتى ان بسمارك نفسه لمح بالمطلوب الألماني : ففي غداة مقدمات صلح نيكولسبورغ التي انتهت الحرب النمساوية - البروسية ، عندما حاولت حكومة نابليون الثالث أن تحصل من بسمارك على تعويضات ثمناً للموقف الذي وقفته فرنسا اثناء حرب ١٨٦٦ ، وعندما جاء سفير فرنسا بينيديتي ليجتمع ببسمارك ، في بداية آب ١٨٦٦ ، ليطلب منه أن يمنح فرنسا هذه التعويضات ، رفض بسمارك رفضاً مطلقاً وهدد فرنسا بالحرب ، في ٧ آب ١٨٦٦ وأضاف : « وسنأخذ منكم الالزاس » .

وهكذا كانت الالزاس هدف حرب الحكومة البروسية في حالة حرب فرنسية - ألمانية ، هذا أمر ليس فيه أقل شك . ومنذ بداية حرب ١٨٧٠ كان الالزاسيون يعرفون ذلك .

٢ - تحقيق اهداف ألمانيا

منذ بداية حرب ١٨٧٠ وجدت في ألمانيا حركة رأي نشيطة لصالح ضم الالزاس - لورين . وقد صرح المؤرخ الكبير تيودور مومسن ، في ٣٠ آب ١٨٧٠ ، في « رسالة إلى الايطاليين » ، بأن تأخذ ألمانيا

الالزاس - لورين وبرر هذه المطالبة بالحجة اللغوية . ونشر آدولف فاغنر استاذ الجامعة كراساً يسمى « الالزاس - لورين : العودة إلى المانيا » . وكتب هينريك فون ترايتشكه ، المؤرخ الشهير في الوقت نفسه ، في ٢٠ آب ١٨٧٠ ، بأن النصر الألماني يجب « أن يحو كل ما مضى منذ القرن السابع عشر ، أي منذ معاهدة وستفاليا فيما يتعلق بالالزاس واللورين .

وكانت حركة الرأي هذه عامة تقريباً . والاستثناءات الوحيدة يمكن أن تعد على الأصابع : فقد وجد بعض الاشتراكيين الماركسيين ، وبخاصة بييل ، الذي ظل حتى ١٩١٤ زعيم الحزب الاشتراكي : ففي ١٨٧٠ أعلن بييل رأيه في عدم ضم الالزاس - لورين . ووجد استاذ أو استاذان جامعيان : فرنز فينيس ، وماكس نورداو من هذا الرأي . وكذلك وجد رجلان أو ثلاثة رجال سياسيين « جذريين » ، أي بقايا من ١٨٤٨ ، وبخاصة جاكوبي الذي كان قبل ١٨٤٨ أحد زعماء الحركة الليبرالية في بروسيا ، لا يحبذون الضم . ولكن خارجاً عن هذه الآراء المتعزلة كانت الألمان من جميع الأحزاب لصالح ضم الالزاس - لورين .

ومنذ ١٥ آب ١٨٧٠ ، أي بعد بداية الحرب بثلاثة أسابيع ، أعلن بسمارك عن عزمه ، في ضم الالزاس في حال النصر ، ولم يقل بعدد باللورين . ولكنه ، في ٣١ آب ، صرح ، في مقال نشر في « جريدة المانيا الشمالية » التي كانت جريدة بسمارك الشبه رسمية ، وقد علم منذ ذلك الحين أن بسمارك نفسه قرأ هذا المقال ثانية ، أنه لنزع كل امكانية عدوان من فرنسا يجب أن تضم إلى المانيا ستراسبورغ و Metz . وبالتالي فقد توسع برنامج بسمارك . وأخيراً في ١٣ و ١٦ ايلول رجا بسمارك

في بلاغات وجهها إلى عماله الدبلوماسيين ان يعرفوا رأي الحكومات المحايدة
بنوايا الحكومة البروسية في ضم ستراسبورغ ومتز .

ومنذ ١٤ آب ١٨٧٠ ، أي بعد ثمانية أيام على معركة فروشفيلار ،
صدرت براءة من ديوان ملك بروسيا بتسمية حاكم عام للألزاس . وخلق
يقال أن مدينة ستراسبورغ نفسها لم تؤخذ بعد ، لأن ستراسبورغ ،
وان ضربت بالقنابل ابتداء من ١١ آب ١٨٧٠ ، قاومت حتى ٢٧
ايلول ، ولكن مجموع الأرض الالزاسية احتل ، وسمي ملك بروسيا
الكونت بسمارك - بولن حاكماً عاماً . وفي ٢١ آب حددت تعليمات
ملكية حدود الحكم العام في الالزاس - لورين : « يجب أن يمتد على
المقاطعات الفرنسية المحتلة في مناطق الراين الاعلى والراين الادنى والموزيل
مع ضم مناطق متز وتيونفيل وسارغرمين وشاتو - سالان^١ وسارلوي ، .
وهذا الخط الفاصل الذي ثبت في ٢١ آب كان أساساً ، فيما بعد ، في
مقدمات الصلح .

وكان الالمان يرون أن القضية سويت في ذلك الحين . وإذا نظرنا
إلى الصحافة الألمانية في آخر ١٨٧٠ وجدنا أن القضية التي كانت موضع
مناقشة هي قضية معرفة النظام القادم للالزاس واللورين اللتين ضمتا إلى
الامبراطورية الألمانية : كان يتساءل ما إذا كان من اللازم إلحاق الالزاس
بأحدى دول المانيا الجنوبية أو إلحاقها بروسيا . وقد نوقشت هذه
القضية كثيراً في الجرائد . وصرح المؤرخ ترايتشكه البروسي بأن
لامندوحة عن ربط الالزاس واللورين بروسيا . وعلى العموم ، كان
القوميون الليبراليون يناصرون هذا الحل . وفي بعض الاوساط المحافظة ،
كان المحافظون ، الذين تعبر « صحيفة الصليب » عن رأيهم ، مقاومين
ومتوردين لأنهم لا يريدون زيادة قوة بروسيا بالنسبة إلى الدول الالمانية الاخرى .

وتوازياً مع هذا الجدل الصحفي ، قامت محادثات بين الحكومات الألمانية : قامت محادثات ، في قضية الألزاس - لورين ، بين الحكومة البروسية وحكومات ساكس ، وبافاريا ، ودوقية باد الكهري . ولكن بسمارك كان من المهارة بالآ يطالب بالألزاس - لورين من أجل بروسيا : لأنه فهم جيداً بأنه في الوقت الذي يريد به تأسيس الامبراطورية الألمانية ، لا يكون من مصلحته ايقاظ قلق الامراء الالمان الآخرين واخافتهم بالهيمنة البروسية . وهذه الهيمنة كانت اكيدة وغير ممكن اجتنابها ولكن يجب ألا تظهر بروسيا نعمة جداً ، لأن هذا يزيد في الصعوبات عند المفاوضة بتشكيل الامبراطورية . ولهذا السبب أعلن بسمارك أنه في صالح الحل الذي دل عليه غورز في عام ١٨١٥ وهو الحل الذي يقضي بجعل البلاد المنضمة د ارض امبراطورية ، أي أرضاً غير تابعة لأي من الدول الألمانية وحدها ، بل إلى الامبراطورية الألمانية بجمعوعها . ورأى بسمارك أن الألزاس - لورين بهذا الشكل تكون « اسمنت الوحدة الألمانية » .

ونعلم من اشارات في يوميات كرونبرنز بروسيا أن هذا الحل : الألزاس - لورين « ارض امبراطورية » قد تبنته الاوساط الرسمية الألمانية منذ ١٢ ايلول ١٨٧٠ . فقد أشار الكرونبرنز إلى ذلك في هذا اليوم في يومياته : « محادثة في الألزاس - لورين : ستكون الألزاس - لورين ارض امبراطورية ، ودل على أن هذه هي وجهة نظر بسمارك .

٣ - رد الفعل الفرنسي

أمام هذه المطالبة الألمانية التي اعرب عنها علناً بعد بداية الحرب بستة أسابيع ، نريد معرفة رد فعل الرأي والحكومة الفرنسيين .

الرأي الفرنسي . - لقد عبر عن رد فعل الرأي الفرنسي بوثيقة

شهيرة وهي الرسالة التي وجهها المؤرخ الكبير فوستل دو كولانج إلى تيودور مومسن ، المؤرخ الالماني ، الذي اعرب عن رأيه أنه لصالح ضم الالزاس - لورين . ورسالة فوستل دو كولانج وثيقة كلاسيكية تقريباً ، لأنه عبر فيها بأوضح بيان عما يمكن أن يسمى « النظرية الفرنسية » في القومية تجاه « النظرية الالمانية » . لقد أراد الالمان ضم الالزاس - لورين لأسباب استراتيجية : وهي الرغبة في سحب الحدود إلى ما وراء الراين ، وكانت الحجج التي يعرضونها أمام الرأي العام على نوعين :

١ - الحقوق التاريخية : وهي أن الالزاس لورين كانت تابعة في الماضي إلى الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة .

٢ - الحجة اللغوية : وهي أن وحدة اللغة علامة تبعية لقومية واحدة . ويجيب على ذلك فوستل دو كولانج في هذه الرسالة ، التي نشرت في ٢٧ تشرين الاول ١٨٧٠ ، أن ما يمكن الاعتماد عليه في تعيين تبعية شعب إلى قومية ، ليس اللغة التي يتكلمها ، بل إرادة السكان . ويقول فوستل دو كولانج : ولا شك في أن إرادة الالزاسيين واللورينيين هي البقاء فرنسيين : « الوطن هو ما يجب » .

رأي الحكومة الفرنسية . - حاولت الحكومة الفرنسية ابتداءً من ١٢ ايلول ١٨٧٠ أن تثير اهتمام المحايدین إلى هذه القضية : ففي البلاغ الذي وجهه وزير الشؤون الخارجية للحكومة المؤقتة ، جول فافور ، إلى الدول المحايدة ، في ١٢ ايلول ١٨٧١ طلب بأن تتوسط لدى المانيا لاقامة السلام على اساس السلامة الارضية ، أي أن تتخلى عن ضم الالزاس - لورين . ومن جهة ثانية ، ان تيير الذي كان في ١٨٧٠ يعارض اعلان الحرب ، قام بناءً على طلب الحكومة المؤقتة ، بجولة لدى الحكومات

المحايدة : في النمسا ، في روسيا ، في انكلترا ، في النصف الثاني من ايلول ١٨٧٠ ودعم في كل مكان نفس الغرض بقوله : هل تريدون مساعدتنا في تسوية السلام على اساس السلامة الارضية ؟ ولكن هذه المساعي التي قام بها تيير والحكومة الموقنة لم تؤد إلى نتيجة .

وفي الحقيقة ، إذا لاحظنا الوضع الدولي ، نرى حالة واحدة تجبذ النظرية الفرنسية وتوافق عليها علناً ، وهي حالة النواب التشيكيين في دباط بوهيميا : ففي ١٨٧٠ نشر هؤلاء النواب التشيكيون بياناً يقول ان ضم الالمان للالزاس - لورين من قبل الالمان مناقض لحق البشر ولارادة الشعوب . وهم الوحيدون الذين أعطوا رأيهم بوضوح . ومن جهة أخرى نرى ان المستشار النمساوي بوست المناوئ لبروسيا صراحة يدعم فكرة الاستقلال الذاتي للالزاس - لورين ، لأن الالزاس - لورين المنفصلة عن فرنسا ، يمكن أن تشكل دولة - حاضرة بين فرنسا والمانيا ، وقد دعم بوست هذه الفكرة ، في كانون الأول ١٨٧٠ ، في مذكرة وجهها الى الحكومة الانكليزية . وفيما يتعلق بالحكومة الانكليزية نفسها « لا شك في أن الوزير الأول الانكليزي ، غلادستون ، قد خطأ المانيا ورأى أن ضم الالزاس - لورين يناقض جميع مبادئ الحق الدولي . ولكنه عندما وضع آراءه لزملائه في الوزارة ، فهم جيداً ، بأنهم لا يجارونه ، لأن الوزارة الانكليزية لم تشأ أن تضع المانيا « عدواً لها ، ولذا لم ينجح غلادستون ، ويجب الانسى ، إذا لاحظنا الصحافة الانكليزية المعاصرة ، ان أكثرية الجرائد الانكليزية كـ « التايمز » و « ساتردي ريفيو » و « الدايلي نيوز » كانت تصرح جميعاً بان ضم الالزاس لورين إلى المانيا كان ، بالاجمال ، طبيعياً تماماً : وبعد كل شيء ، ان هذه البلاد كانت تؤلف جزءاً من الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة ، وقد أخذتها فرنسا

في القرن السابع عشر وفي القرن الثامن عشر ، والآن تعود المانيا وتستودهما ، ولا شيء يعترض عليه .

ويجب أن ندرك حالة الرأي هذه لنفهم اخفاق الجهود التي بذلتها حكومة الدفاع الوطني في فرنسا .

وبعد إخفاق الجيش الفرنسي على اللوار واستسلام باريس وقعت الهدنة في ٢٨ كانون الثاني ١٨٧١ . وقبل فتح مفاوضات السلام ، أراد بسمارك أن تكون الحكومة الفرنسية مجهزة بسلطات نظامية ، ورغب في أن تجري في فرنسا انتخابات عامة ، مقتنعاً بأن الناخبين سيكونون لصالح السلام . وجرت الانتخابات في ٨ شباط ١٨٧١ لتشكيل المجلس الوطني . وبالرغم من أن الالزاس - لورين كانت محتلة من قبل الالمان ، وانما كانت موضوعة تحت الادارة الألمانية ، وان الحكومة الالمانية عينت حاكماً عاماً ، فقد قررت الحكومة الألمانية بأن سكان الالزاس واللورين يمكنهم أن يمارسوا حق التصويت . واتيحت للالزاسيين واللورينيين الفرصة في ٨ شباط ١٨٧١ للانصاح عن عاطفتهم . وقد دلت القوائم التي شكلت في الالزاس واللورين على أنها كانت تضم فقط ، انصار المقاومة حتى النهاية عدا اسم واحد ، وان الرجل الذي يشخص فكرة المقاومة حتى النهاية كان غامبياً ، وقد انتخب هذا في منطقة الراين الأعلى وفي منطقة الراين الأدنى .

ولكن إذا أعربت الالزاس عن المقاومة حتى النهاية ، فلم يكن هذا رأي أكثرية الناخبين الفرنسيين . فقد اعطت انتخابات ٨ شباط ١٨٧١ أكثرية قوية لصالح السلام ، ولا سبيل إلى الحداع والضلال . وكان يعلم أن السلام يعني ضياع الالزاس واللورين . وفي هذه الظروف

سمى المجلس الوطني في بوردو ، في ١٠ شباط ١٨٧١ ، تيسير رئيساً للسلطة التنفيذية .

جرت مفاوضات مقدمات الصلح في فرساي ، من ٢١ إلى ٢٦ شباط ، بين تيسير وجول فافر عن الجانب الفرنسي ، وبسمارك عن الامبراطورية الألمانية التي تألفت في ١٨ كانون الثاني ١٨٧١ . وأوضح بسمارك شروطه الأرضية وهي : التنازل عن الالزاس وعن قسم من اللورين ، مقاطعة الموزيل . وكان تيسير يخشى ما هو اقبح من ذلك . ففي العجلة التي اقلته إلى فرساي ، قال إلى جول فافر بأنه يتساءل ما إذا كان بسمارك سيطلب منه اللورين كلها . ولكن ، عندما شعر تيسير بمفاجأة موائية ، لم يظهر شيئاً من ذلك واحتج مصرحاً بأن الضم الاجباري غير عادل وحاول الحصول على مخفضات : حاول أن ينقذ بلفور و متز : بلفور ، لأن الكولونيل دانفور دوشيرو قاوم في المدينة فيما وراء حد الهدنة ، ولم يستسلم ، إلا في ١٨ شباط ١٨٧١ ، بعد أن مضى على توقيع الهدنة ثلاثة أسابيع ؛ و متز ، لأن المدينة ، دون منازع ، مدينة فرنسية . وقد نوشت هذه القضية طويلاً بين بسمارك وتيسير في ٢٤ شباط . واستخدم تيسير جميع الحجج الممكنة ، حتى انه عرض على بسمارك ، إذا تخلى عن متز ، أن يضم دوقية اللوكسمبورغ الكبرى ، ووعدته بالا تضع فرنسا الغرافيل في سبيله ، وعند الحاجة تساعد على ذلك . ولكن بسمارك كان صعب المراس مطلقاً . وعلى العكس ، في قضية بلفور ، هدد تيسير بسمارك بتقديم استقالته وترك فرنسا دون حكومة ، مما يجعل الادارة الألمانية أمام حالة صعبة . وأخيراً ربح القضية ، وتم التفاهم على أن تبقى بلفور مدينة فرنسية ، وبالمقابل ، قبل تيسير ان تحتل الجيوش الألمانية ، في باريس ، حي الشانزيليزيه حتى التصديق على مقدمات الصلح ، أي خلال بضعة أيام

فقط . ووقعت مقدمات الصلح في ٢٦ شباط ١٨٧١ وتخلت فرنسا عن الالتزام ، عدا مدينة بلفور ، وعن مقاطعة الموزيل .

مفاوضات بروكسل . - وجرت مفاوضات المعاهدة النهائية بعد ذلك مباشرة وبدأت في بروكسل . وفي غضون ذلك ، كانت الحكومة الفرنسية في عراك مع ثورة القومون ، وهذا ما جعل وضعها حرجاً بشكل فريد ، لأنها لا تستطيع في الواقع ، للقضاء على ثورة القومون ، ان تعتمد على الجنود العسكريين ، عدا اسرى الحرب الذين تريد ألمانيا أن تردهم اليها . وقد نصت مقدمات الصلح على أن أسرى الحرب بإمكانهم أن يعودوا مباشرة ، ولكن الحكومة الألمانية نظمت عملياً انطلاق القطارات ، وكان بإمكانها ، حسب هواها ، أن تؤخر عودة الاسرى إلى فرنسا ، ولذا كانت الحكومة الفرنسية مضطرة ، للنضال ضد القومون ، أن تنتظر ارادة ألمانيا بارسال اسرى الحرب . وهذا بالطبع ما أعطى لألمانيا وضعاً قوياً .

وتناولت مفاوضات بروكسل نقطتين :

١ - قضية حق الاختيار : فقد قالت مقدمات الصلح ان الحكومة الألمانية لا تضع أي عقبة « لهجرة السكان من الاراضي المتنازل عنها » ، ولكن يجب تحديد كيف يمكن لهؤلاء السكان أن يبقوا فرنسيين إذا أرادوا ذلك .

٢ - قضية تحديد أرض بلفور : لقد قالت مقدمات الصلح بان تبقى مدينة بلفور فرنسية ، ولكنها لم توضح بالضبط مدى امتداد قطرها ، وحاول تيير بالطبع أن يوسع هذا القطر ما أمكن .

معاهدة فرانكفورت . - وأخيراً ، وبعد مفاوضات شاقة جداً ،

وبعد التهديد بانذار من بسمارك ، انتقل المفاوضون ، في بداية أيار ١٨٧١ ، إلى فرنكفورت ، وفيها وقعت في ١٠ أيار ١٨٧١ المعاهدة النهائية . ومن الوجهة الارضية ، إذا قارنا معاهدة فرنكفورت بمقدمات الصلح ، نجد أنها أتت بتعديلات :

الأول ، يتعلق بأرض بلفور : فقد تم الاتفاق على الا تضم هذه الارض مدينة بلفور فحسب ، وإنما مناطق بلفور الاصلية : ديل وجيروماني وجزءاً من منطقة فونتين أي أرضاً تضم ٢٧٠٠٠ نسمة . وبالمقابل ، حصلت المانيا على « تصحيح حدود » على طول منطقة تيونفيل . وهذا التصحيح في الحدود أعطى المانيا ٧٠٠٠ نسمة كان من الممكن أن يظلوا فرنسيين حسب مقدمات الصلح . إذن كانت المفاوضة تبادلاً ترك إلى فرنسا ٢٧٠٠٠ فرنسي وافقدها ٧٠٠٠ فقط . وقبل بسمارك بذلك ، لانه يعلم بأنه يوجد ، في الارض الصغيرة على طول تيونفيل ، فلزات حديد ، وهذا يعتبر من الوجهة الاقتصادية كسباً هاماً جداً .

الثاني ، يتعلق بقضية الاختيار . فقد قررت المعاهدة النهائية أن الرعايا الفرنسيين المقيمين في الاراضي المتنازل عنها في الالزاس - لورين يمكنهم أن يحافظوا على قوميتهم الفرنسية ، ولكن شريطة أن ينقلوا منازلهم إلى فرنسا قبل ١٠ تشرين الاول ١٨٧٢ . لقد سمح بالاختيار ، ولكنه علق بشرط وهو أن يغادر المختارون الالزاس واللورين .

وقد صادق المجلس الوطني الفرنسي على معاهدة فرنكفورت في ١٨ أيار في فرساي ، وكرس القانون الالماني الصادر في ٩ حزيران ١٨٧١ ضم الالزاس - لورين إلى الامبراطورية الالمانية بصفة « أرض امبراطورية » .
الحركات القومية ٣ - (٢٥)

٤ - موقف اللزاسيين - لورينيين

عندما انعقد المجلس الوطني في بوردو ، في ١٧ شباط ١٨٧١ ، ولم تبدأ المفاوضة بمقدمات الصلح بعد ، أخذ نائب الراين الاعلى ، كيكر ، الكلام في المجلس الوطني وصرح بأن اللزاس واللورين لا تريدان أن تكونا المانييتين ، وإن فرنسا لا يمكن أن تقبل ولا أن توقع هذا التنازل عن اللزاس واللورين ، وإن أوربة لا يمكن أن تسمح ، ولا أن تصادق على هذا التنازل : « في عصرنا هذا ، في كامل الحضارة ، لا مجال للتصرف بصير الشعب دون رضاه » . فقام تيير الذي انتخب ، في ١٢ شباط ، رئيساً مؤقتاً للسلطة التنفيذية ، واعترض بأنه يجب على المرء أن يكون منطقياً . وقال : إذا أريد السلام فلا يمكن أن يصوت على اقتراح كيكر ، لان هذا الاقتراح يقتضي استمرار الحرب . وأخيراً ، صوت المجلس الوطني على قرار يصرح بأنه يتقبل بكل عطف شديد تصريح كيكر وزملائه ، ولكنه يتروك ذلك « إلى حكمة ووطنية » المفاوضين . كانت الثقة بتيير عظيمة . وقد بذل جهد استطاعته لانقاذ ما يمكن انقاذه ، ولكنه استسلم أخيراً .

لقد وقعت مقدمات السلام ، في ٢٦ شباط ١٨٧١ ، وتدخل تصديق المعاهدة بالحال ، وكان عاجلاً ، لا سيما وان الجنود كانوا يجتاحون حي الشانزيليزيه ، ودرس مجلس بوردو على الفور مقدمات الصلح . وفي جلسة الاول من آذار ١٨٧١ جرت المناقشة . وقدم اللزاسيون - اللورينيون عدة ملتمسات واحتجوا على ضم المانيا ، ودعمت هذه الملتسمات بخطب عدد من عظماء الحزب الجمهوري ، مثل ادغار كينيه ، فقد صرح بأن المانيا إذا اضمت اللزاس - لورين ، فانها لا تستطيع أن تكرس

هذا التملك بالتصويت العام ، وسيكون هذا العمل ظفراً للقوة المحضة ، ومن غير الممكن اعطاؤه مظاهر ظفر الحق . وصرح فيكتور هوغو : « التملك يفترض الرضى » ، والرضى غير موجود ، وستنهض فرنسا يوماً فظيعة ولن تسترد الالزاس واللورين فحسب ، بل ضفة الراين اليسرى كلها . ويقال لوي بلان : « ليس للمجلس الوطني الحق في تشويه الامة » ، وليس له حق في انتزاع صفة فرنسي عن الفرنسيين ، وإن من واجبه الاستمرار في الحرب . وعندئذ صعد كيار ، النائب الالزامي إلى المنصة وصرح بأنه يحتاج كالزامي وفرنسي على مقدمات الصلح التي كانت في نظره « ظلاماً وكذباً وعاراً » .

وأجاب تيير ببساطة ان فرنسا في حالة اضطراب تام ومن غير المفيد أن تمدد المقاومة ، لان هذه المقاومة مستحيلة . وصادق المجلس الوطني على مقدمات الصلح ، وبالتالي التخلي عن الالزاس - لورين بـ ٥٤٦ صوتاً مقابل ١٠٧ أصوات .

وبعد التصويت قرأ نائب الراين الأعلى ، غروجان ، الاحتجاج الشهير الذي قدمه النواب الالزاسيون واللورينيون : « مع الاحتقار لكل عدل ، والاساءة البشعة لاستعمال القوة تسليماً لسيطرة الاجنبي ، علينا آخر واجب للقيام به . اننا نصرح مرة أخرى أيضاً بأن ما من صك يتصرف بنا دون رضانا ، واننا نحافظ على تعلقنا بشكل لا يتسرب اليه الحلل والفساد بالوطن الذي انتزع منا بالعنف ، وعلى عطفنا البنوي لفرنسا . اننا ننتظر ، بثقة كاملة في المستقبل ، اليوم الذي تستعيد فيه الالزاس - لورين مكانها في فرنسا » .

الفصل التاسع عشر

الالزاس — لورين تحت النظام الالماني

من ١٨٧١ إلى ١٩١٤

وأني بسمارك : - لدينا وثيقة عن رأي بسمارك في قضية الالزاس - لورين عام ١٨٧١ ، وهي ضبط المحادثة التي تمت في ١٤ آب ١٨٧١ بين المستشار الالماني ، والقائم بالاعمال الفرنسي في برلين ، غابرياك الذي تسلم وظائفه حديثاً . ويوجب هذا التقرير اوضح بسمارك بهذه العبارات عن رأيه في قضية الالزاس - لورين : « انني لأضل نفسي ، الشيء اللامعقول بالنسبة اليها هو أننا اخذنا منكم مئز الفرنسية ، ولا أريد ان احتفظ بها لالمانيا » . وأوضح بان الاركان العامة للجيش هي التي فرضت عليه ضم مئز . وواصل بسمارك قوله : « وأقول كذلك بالنسبة للالزاس - لورين : انها خطأ ارتكبتها باخذها منكم ، اذا أريد أن يكون السلام دائماً ، لأن هذين الاقليمين بالنسبة لنا ورطة » . فأجاب غابرياك : « ان بولونيا وفرنسا خلفها ، ، فرد بسمارك : « نعم ، بولونيا وفرنسا خلفها » . وهكذا أدرك بسمارك تماماً ان قضية الالزاس - لورين ستظل سبباً عميقاً ومستديماً في الخلاف بين فرنسا والامبراطورية الالمانية الجديدة .

ومع ذلك فان بسمارك كان يأمل ، في ١٨٧١ ، بان تتوصل الامبراطورية الالمانية الى مثل سكان الاراضي التي ضمتها . ففي ١٨٧١ كان

عدد هؤلاء السكان ١٥٤٢٠٠٠ شخصاً) . وكان يعتقد ان ليس عند شعب الألزاس واللورين ، بالاجمال ، الا « طلاء فرنسي » ، وان ثقافتها الفرنسية سطحية ، ولذا كان يأمل بأن تكون الصعوبة التي تشعر بها المانيا في حكم الألزاس - لورين مؤقتة ، وأن يكون الوصول الى هذا التمثل بثلاث وسائل : بالهجرة الالمانية وقدم الموظفين الالمان الى الاراضي المضمومة للبدء بعملهم ، ثم بحبي الصناعات ومستخدمي الصناعة والعمال الألمان ، وتأثير المنافع المادية بتأمين الرفاه الاقتصادي الذي يرضي سكان الألزاس - لورين ؛ وأخيرا بحجاة العواطف الدينية العميقة جداً عند الألزاسيين - لورينيين . وكان بسجارك يشعر بعدم سلوك سياسة كنسية في الألزاس - لورين شبيهة بالسياسة التي سلكها في بروسيا او في الامبراطورية .

موقف الألزاسيين - لورينيين . - وجد في شعب الألزاس - لورين المنضم موقفان ، « الاحتجاجيون » و « الاستقلاليون » . وكان الاحتجاجيون لا يريدون أي تسوية ، بل أن يبقوا غرباء عن حياة الدولة الالمانية ، دون البحث عن اسهام في سن القوانين او تطبيقها : وباختصار ، ان يدعوا نظام الغالب يفرض عليهم دون قبول المشاركة به . أما الاستقلاليون ، فلم يريدوا الاقتصار على المقاومة السلبية ، بل حاولوا الحصول من الحكومة الألمانية على بعض الحق في ادارة قضايا الألزاس - لورين الخاصة بها .

وقد تنوعت هذه المواقف الاحتجاجية والاستقلالية حسب العصر ، وذلك لانه كلما طال النظام الالمانى ، كلما أصبح محتوماً على سكان الألزاس - لورين ان يقبلوا ببعض الخضوع . ولكن هذه التغيرات في الرأي العام في الألزاس - لورين تتعلق أيضاً بعوامل أخرى : فهي تتعلق بموقف الحكومة الألمانية التي تختلف طرقها صرامة وتساهلاً . وتعلق أيضاً بموقف الحكومة الفرنسية وموقف الرأي العام في فرنسا ؛ فهل تفكر فرنسا بالتأثر اولا ؟

من الواضح في الأدوار التي يتخلى فيها الرأي العام الفرنسي في أكثره العظمى عن فكرة أي ثأر من ألمانيا ، فإن هذا التخلي لا يكون من طبيعته ان يشجع الالزاسيين - لورينيين على مقاومة النفوذ الألماني .

ومن المفيد ان نتابع تغيرات هذه الحالة ، ولذا يجب تمييز ثلاثة أدوار: الاول من ١٨٧١ الى ١٨٧٤؛ والثاني : من ١٨٧٤ الى ١٩١١ . والدور الاخير من ١٩١١ الى ١٩١٤ . وهذه التقسيمات تختلف حسب المبادئ التي تبنتها الادارة الألمانية في كل منها .

الدور الاول : ١٨٧١ - ١٨٧٤

لقد عاشت الالزاس - لورين في هذا الدور الاول تحت نظام « الدكتاتورية » فقد كانت المناطق المضمومة تحكم بعلم المستشار ، الرئيس الاعلى للالزاس - لورين واتباعه ، وكان الرئيس الاعلى في الالزاس - لورين ، في حالة خطر ، بموجب القانون المؤرخ في ٣٠ كانون الاول ١٨٧١ ، سلطة اتخاذ جميع التدابير التي يراها ضرورية للأمن العام . وهذه المادة في قانون ٣٠ كانون الاول ١٨٧١ تحول الرئيس الاعلى للالزاس - لورين سلطات استثنائية تسمى « سلطة الدكتاتورية » ، وظلت سارية المفعول حتى ١٩٠٢ .

ولم تكن ادارة الالزاس - لورين خلال هذا الدور خاضعة الى أي اشراف من البرلمان الألماني ، الرايخستاغ . كانت القوانين العائدة للالزاس - لورين يهيؤها البندسرات أي المجلس الاتحادي (الفيدرالي) الألماني ، وليس فيه ممثل عن الالزاس - لورين . وكانت التدابير المتخذة في هذا الدور صارمة للغاية : فقد كان الموظفون المستخدمون في الالزاس - لورين ألماناً جميعاً ، ولم يقبل أي الزاسي - لوريني في وظائف الادارة .

وحرم استعمال اللغة الفرنسية ، لافي المدارس فحسب ، بل في المؤسسات العامة . ويريد القانون الألماني بالمؤسسات العامة حتى الخطوط الحديدية ؛ وأخيراً في المراكب التجارية . ولم تنفذ الجرائد الفرنسية إلى الألزاس - لورين ، حتى ان الجرائد المحلية التي كانت تتعاطف مع فرنسا كانت ممنوعة .

وقد انتقدت هذه الطرق الادارية في الألزاس - لورين ، في عصر «الدكتاتور» ، في البرلمان الألماني ، وبخاصة ، من قبل زعيم حزب الوسط ، أي الحزب الكاثوليكي ، فيندهورست ، خصم بسمارك ، في خطاب ألقاه ، في ١٦ أيار ١٨٧٣ ، في الرايخشتاغ .

ما هي نتيجة العلاقات بين الشعب المضموم والحكومة الألمانية ؟ لنفكر أولاً بالعاصفة التي انتابت الألزاس - لورين عقب الانضمام . وقد ظهر في هذا الاضطراب اتجاهان مختلفان منذ الأصل : لجنة الدفاع وعصبة الألزاس .

لجنة الدفاع . - ظهر هذا الاتجاه عندما شكت غرفة تجارة ملهوز ، في ١٨٧١ ، مأسمة « لجنة الدفاع » . وقد ضمت لجنة الدفاع هذه وجهاء الزاسيين ، وبخاصة صناعيين ، تحت رئاسة صناعي من ملهوز ، اوغست دولفوس ، وقررت أن ترسل مندوبين إلى برلين لاجراء اتصال مع بسمارك ، وللحصول على نظام صالح مأمكن في نطاق الامبراطورية الألمانية يتضمن إمكان ادارة مستقلة ذاتياً ، وابقاء التشريع الفرنسي ، وبخاصة عدم تطبيق الخدمة العسكرية الاجبارية في الألزاس - لورين ، أو ، على الأقل ، تأخير محسوس في تطبيق هذه الخدمة العسكرية الاجبارية . واستقبل بسمارك مندوبي لجنة الدفاع ، وكلهم كلاماً طيباً ، ولكن لا شيء أكثر من ذلك .

عصبة الالزاس . - وتمثل الاتجاه الآخر بمنظمة مربية تسمى « عصبة الالزاس » ، وقد انشئت في مقاطعة الراين الأعلى ، وجعلت هدفها « تقوية الايمان عند الاقوياء ، وشد الضعفاء ، وفضح الجبناء » . وكان لهذه العصبة السرية تأثير قوي جداً في السنوات الأولى من النظام الألماني في الالزاس - لورين ، وكانت مركز مقاومة للنظام الألماني . ولاشك في أن الشرطة الألمانية عملت ما في وسعها للبحث عن زعماء هذه العصبة ، ولكنها لم تستطع اكتشافهم أبداً .

ولكن ماهي القضايا المباشرة التي توضع بالنسبة لسكان الالزاس - لورين ؟ وجدت قضيتان : قضية الاختيار وقضية الخدمة العسكرية .

قضية الاختيار . - لقد نصت معاهدة فرنكفورت على أن الاشخاص المقيمين في الالزاس - لورين الذين يريدون الاحتفاظ بقوميتهم الفرنسية ، أي أن يختاروا فرنسا ، يجب أن يصرحوا باختيارهم قبل الاول من تشرين الاول ١٨٧٢ ، وأن ينقلوا منازلهم إلى فرنسا . ولذا يجب توافر شرطين لاختيار القومية الفرنسية : تصريح إلى الادارة الألمانية ونقل المنزل الى فرنسا . وهذا الامر يضع قضايا خطيرة على الصعيد الفردي وعلى الصعيد العام . فمن وجهة النظر الشخصية ، من الواضح أن البقاء معناه قبول الاحتكاك مع الالمان ، وبالنسبة للشبان ، قبول الخدمة العسكرية البروسية التي يعلمون أنها ستتفد عاجلاً أو آجلاً ؛ وان الذهاب ، من جهة أخرى ، يعني التخلي عن عادات وروابط عائلية ، وأوضاع مكتسبة . ومثل هذه الأمور يحسب حسابها بالنسبة للموظفين أو الصناعيين .

ومن وجهة النظر العامة ، يعني البقاء الحفاظ على إمكانية الدفاع عن التقاليد الفرنسية في الالزاس - لورين . ويعني الذهاب ترك المكان حراً للعناصر الألمانية التي يمكن أن « تجرمن » البلاد بسهولة .

ويبدو أن الحكومة الفرنسية ، أي الحكومة الموقفة التي كان فيها
تيير رئيس السلطة التنفيذية ، لم تعط ، ولو سراً ، تعليمات إلى وجهاء
الالزاس - لورين ؛ وأنت رأي تيير كان في تفضيل البقاء على الاختيار
لفرنسا وذلك للتمكن من الحفاظ على الفكرة الفرنسية في الالزاس -
لورين .

ولكن من المؤكد ، من جهة ثانية ، أن الاختيار ، في نظر العالم ،
أوضح وسيلة لتسجيل احتجاج معنوي على الضم .

حالة الموظفين . - ان القضاة الذين كانوا على وظائفهم في الالزاس -
لورين ، أثناء معاهدة فرنكفورت ، يبدو أنهم ذهبوا كلهم ، ولم يبق منهم
إلا ستة قضاة . وكذلك ذهب كبار موظفي التعليم كلهم تقريباً . ولا
يوجد إلا ثلاثة أو أربعة اساتذة من كلية ستراسبورغ قبلوا البقاء في
الالزاس - لورين ، والخدمة تحت النظام الألماني . وذهب معظم اساتذة
التعليم الثانوي ، وعدد كبير من المعلمين ومستخدمي البريد . وبقي
آخرون ، لأن الادارة الفرنسية لم تعدم باعطائهم وظيفة معادلة في فرنسا
وعليهم أن يختاروا دون أن يكون عندهم أي ضمان . وبالعكس ، بقي
معظم الكنسيين ، وذلك لانهم يرون بأن لهم نفوذاً معنوياً يمارسونه ،
ونفوذاً هاماً ، لاسيما وأن الالزاس - لورين سيكون لها ادارة بروتستانتية
أي ادارة يكون للبروسيين فيها الدور الفعلي ، وأراد الاكليروس
الكاثوليكي أن يقوم بدور الدفاع .

حالة غير الموظفين . - وذهب نصف كتاب العدل والمعرفين .
ويجب أن نقول ان الحكومة الفرنسية قبلت نظام التعويض عليهم . وذهب
مستخدمو السكك الحديدية كلهم تقريباً . وكانوا مطمئنين بأن يجدوا عملاً

في فرنسا . وعلى العكس ، لم يستطع الفلاحون أن يذهبوا ، لأنهم متعلقون بالأرض .
وذهب بغض الصنّاعين ، وربما لأسباب مرتبطة بمنافعهم الاقتصادية ، لان
ضم الالزاس - لورين إلى الامبراطورية الألمانية ستكون نتيجته إقامة
خط جرمي بين الالزاس - لورين وفرنسا . وبالتالي فإن صنّاعي ملموز ،
مثلاً ، لا يستطيعون الاستمرار في بيع منسوجاتهم في فرنسا بسهولة .
ولذا فإن كثيراً منهم فضّلوا أن ينقلوا معاملهم إلى الجهة الأخرى من
الحدود .

وبالاجمال ، ان ١٦٠٠٠٠ شخص على شعب ١٤٥٢٠٠٠ اختاروا
فرنسا ، أي أكثر من ١٠٪ بقليل . ولكن من هؤلاء الـ ١٦٠٠٠٠
شخص لم ينقل فعلاً إلا ٥٠٠٠٠ شخص منازلهم إلى فرنسا قبل التاريخ
المتوقع الذي كان الأول من تشرين الأول ١٨٧٢ . أما بالنسبة للآخرين
فقد صرحت الإدارة الألمانية بأنهم ما داموا لم ينقلوا منازلهم إلى فرنسا ، فإن
اختيارهم أصبح لاغياً . وهذه الصورة الغريبة ١١٠٠٠٠ اختيار . وهذا الفرق
بين الأرقام يرجع إلى أن « عصابة الالزاس » اذاعت في الشعب
مناشير مربة تؤكد بأنه يكفي المواطن إذا أراد اختيار فرنسا ،
أن ينقل منزله إلى فرنسا خلال وقت قصير . ويمكن فيما بعد أن يعود
إلى الالزاس . وفي هذه الشروط اختار كثير من الالزاسيين تفضيلهم
لفرنسا . ولكن عندما وضعت الإدارة الألمانية حداً لهذا الأمل مصرحة
بأن الاختيار لا يقبل إلا إذا انتقل المنزل فعلاً ونهائياً إلى فرنسا ، وجد
أن كثيراً من الناس الذين اختاروا فرنسا لم يقدروا على مغادرة منازلهم .

قضية الخدمة العسكرية الاجبارية . - لقد قال بيجارك في البدء
بأنه سيؤخر تطبيق الخدمة العسكرية في الالزاس - لورين خلال عدة
سنوات على الأقل . ثم غير رأيه ورأى أنه يحسن تطبيق الخدمة الاجبارية

فوراً ، ويجب إرسال المجندين من الالزاس - لورين إلى القطعات داخل ألمانيا وبخاصة القطعات البروسية ، وبالصدافة التي ستعقد بين الجنود الذين يقومون بالخدمة العسكرية يمكن الوصول بسرعة ، كما يعتقد ، إلى التمثيل .

وقرر ابتداءً من تشرين الأول ١٨٧٢ أن تطبق الخدمة العسكرية الألمانية في الالزاس - لورين . ووضعت قوائم قرعات التجنيد ، واستدعي ٣٣٤٧٥ شاباً لخدمة العلم في آخر ١٨٧٢ . وعلى هؤلاء الـ ٣٣٤٧٥ شاباً اطاع الدعوة ٧٤٥٤ فقط . وعبر الآخرون الحدود . واستمرت هذه الحالة في السنوات التالية : فعلى ٤٠٠٠٠ مدعو بالقرعة وجد ١٠٠٠٠ مقاوم . ولكن عدد هؤلاء المقاومين أخذ يقل من سنة لأخرى : في حوالي ١٨٩٩ - ١٩٠٠ لم يكن أكثر من ٢٠٠٠ أو ٣٠٠٠ في السنة .

وإذا تجردنا الآن ممن ذهبوا ، من مختارين أو مدعويين للخدمة مقاومين ، فلاشك في أن مجموع الالزاسيين - لورينيين الذين ظلوا في أمكنتهم قد بنوا موقف المقاومة حتى ١٨٧٥ . وعبرت الاكثية العظمى من الشعب الالزاسي - لوريني عن تعاطفها مع فرنسا بظاهرات عامة ، وأغاني وطنية ، والعلم المثلث الألوان ، والاشتراك في الجمعيات الفرنسية . ولم يكتم بسمارك نفسه ، في آخر نظام الدكتاتورية ، بأن أمه خاب ، وأنه كان يأمل شيئاً آخر .

الدور الثاني : ١٨٧٤ - ١٩١٠

وبدأ من ١٨٧٤ هيأت الحكومة الألمانية نظاماً جديداً للالزاس - لورين أقل صرامة من النظام السابق . وتحقيق هذا النظام بعدة اجراءات اتخذت بين ١٨٧٤ و ١٨٧٩ .

لقد قررت الحكومة الألمانية نظام الالزاس - لورين الجديد ،

بقانون الأول من كانون الثاني ١٨٧٤ ، ان توطد اشرف الراجشتاغ على تشريع الالزاس - لورين ، وهذا يعني أن القوانين المتعلقة بالالزاس - لورين ، عوضاً عن أن تها فقط في البند سرات ، كما هي الحالة حتى الآن ، يجب أن يصوت عليها الراجشتاغ أيضاً . والنتيجة المنطقية لهذا القرار هي أنه يجب أن يسمح للالزاسيين - لورينيين بارسال نواب إلى الراجشتاغ . وعدا ذلك قرر قرار ٢٩ تشرين الاول ١٨٧٤ أن يقيم في الالزاس مجلساً محلياً يسمى لاندسأوسشوس الذي يمكن ترجمته حرفياً بـ « اللجنة المحلية » . ويترجم عموماً بـ « مندوبية » وتنتخب هذه الهيئة من قبل المجالس العامة ، لانت المجالس العامة القديمة ، في النظام الفرنسي ، لم تحذف . وعلى كل مجلس عام أن يندب عشرة أعضاء إلى « مندوبية الالزاس - لورين » . ومجموع الاعضاء ثلاثون عضواً . ولهذا المجلس سلطة استشارية فقط . فهو يدرس مشاريع القوانين العائدة إلى الالزاس - لورين ويعطى رأيه قبل أن يصوت عليها الراجشتاغ والبندسرات ، وليس له سلطة اتخاذ أي قرار .

وفي ٢ أيار ١٨٧٧ تم الاصلاح الثالث : فقد خولت الحكومة الالمانية مجلس الالزاس - لورين حق التصويت على القوانين العائدة إلى الالزاس - لورين لإعطاء رأيه فحسب . ويمكن الراجشتاغ أن يتدخل ، ولكنه في الواقع لم يتدخل إلا في حالات استثنائية .

وفي ١٨٧٩ تم الاصلاح الرابع : فقد قرر القانون المؤرخ في ٤ تموز ١٨٧٩ ان تحكم الالزاس - لورين بموظف يمثل الامبراطور مباشرة ويحمل لقب شتاتالتر . ويرتبط هذا الحاكم بالامبراطور مباشرة ، لا بالمستشار ، فهو اذن « مستشار الالزاس - لورين » . وبمساعده أمين دولة ووزراء ، ولكن هؤلاء الوزراء كانوا غير مسؤولين مطلقاً أمام « مجلس الالزاس

لورين « . ومن جهة أخرى رفع عدد أعضاء مجلس الالزاس - لورين إلى ٥٨ عوضاً عن ٣٠ . وتعين المجالس العامة وبلديات المدن الكبرى ، ٣٨ عضواً منهم ، والـ ٢٠ الآخرون يجب أن ينتخبوا بنظام التصويت على درجتين في النواحي الريفية . وحصل هذا المجلس أخيراً على حق التصويت على القوانين العائدة للالزاس - لورين دون أن تمر هذه القوانين بعد ذلك إلى الرايخشتاغ ، ولكنها تعرض دوماً على رقابة البند سرات . ولنلاحظ مع ذلك ، في هذا النظام ، ان سلطة الدكتاتورية التي تكلمنا عنها ما زالت موجودة ، أي ان الحاكم (شتاير) مازال يحتفظ بسلطات استثنائية بوليسية واسعة للغاية .

موقف الالزاسيين - لورينيين من النظام الجديد . - يجب أن يميز هنا دورين : قبل ١٨٩٠ وبعد ١٨٩٠ . قبل ١٨٩٠ سيطر الاتجاه الاحتجاجي . وبعد ١٨٩٠ حصل تقدم واضح جداً في اتجاه الاستقلال الذاتي .

قبل ١٨٩٠ . - في ١٨٧٤ ، ولأول مرة ، دعي الالزاسيون - لورينيون للتصويت لتعيين نوابهم في الرايخشتاغ . وكان هذا التصويت هاماً . ووجد خمسة عشر مقعداً . وكان الخمسة عشر نائباً منتخباً احتجاجيين أو ، على الأقل ، اعلنوا انهم كذلك . وقدموا للرايخشتاغ ، منذ أخذوا مقاعدهم ، اقتراحاً يطلبون فيه أن تقوم الامبراطورية الالمانية في الالزاس - لورين باستفتاء للقول ما إذا كان الشعب يقبل بأن يصبح المانياً أو يريد أن يبقى فرنسياً . ويقول الناطق بلسان هؤلاء النواب الالزاسيين - لورينيين : « نريد أن نخضع التنازل المتحقق في معاهدة فرنكفورت إلى تصديق الشعب » . فطرح الرايخشتاغ هذا الاقتراح حالاً ولم يناقشه . وقرر سبعة نواب من نواب الالزاس - لورين إلا يحضروا الجلسات وانسحبوا . واستمر سبعة من الثمانية الباقيين في حضور الجلسات ، متخذين

موقفاً محتجاً . أما النائب الخامس عشر فكان اسقف ستراسبورغ ، المونسنيور رايس . فقد صرح في الرايخشتاغ ، بأن التنازل الذي قرره معاهدة فرنكفورت لا يمكن طرحه على بساط البحث . وكان الوحيد ، من بين الخمسة عشر نائباً ، الذي اعترف بالنظام الألماني .

وفي الانتخابات الجديدة التي جرت في ١٨٧٧ استطاع الاستقاليون أن يكون لهم خمسة منتخبين على خمسة عشر ، أنوا بهم من ستراسبورغ ، وسافيرن وهاغيناو . وكان زعيم هؤلاء الاستقاليين شنيفانز ، ثم ترك الحياة السياسية فيما بعد ، ودخل الادارة القنصلية الالمانية ، ومات قنصلاً عاماً لألمانيا في تريبستا . وفي انتخابات المجالس العامة التي تمت في نفس الفترة ، كانت اكثرية المرشحين احتجاجيين . وفي الالزاس السفلى أعلن بعض أعضاء المجالس العامة أن اتجاههم استقلالي ، أي قبول السيطرة الالمانية ومحاولة التفاهم مع الحكومة الالمانية بغية تخفيف النظام المطبق في الالزاس - لورين .

ولكن ، ابتداءً من ١٨٨٠ ، كان الاستقلال الذاتي في تراجع . ففي انتخابات ١٨٨١ ، كان شتاتالتر الالزاس - لورين الماريشال مانتويفل وكان موقفه مصالحاً وموفقاً شخصياً حيال الالزاسيين - لورينيين . وقد اتته فكرة مشرومة فطلب إلى الاستقاليين الاعتراف الموالي والصريح باتحاد الالزاس - لورين مع ألمانيا . فانهار مباشرة حزب الاستقاليين . وانتخب استقلالي واحد في انتخابات ١٨٨٠ ، وكذلك كانت الحال في ١٨٨٤ وفي ١٨٨٧ ، عندما كانت العلاقات الفرنسية - الألمانية متوترة بخاصة ، بسبب قضية الجنرال بولانجيه وقضية شنابيليه وقد أفهمت الحكومة الالمانية بأن التصويت ضد المرشحين المحبذين لزيادة جنود

الجيش الألماني ، معناه التصويت لفرنسا في الواقع . ولذا صوت
الالزاسيون - لورينيون جماهيرياً ضد المرشحين المحبذين لزيادة الجيش
الألماني ، حتى ان الـ ١٥ منتخباً في ١٨٨٧ كانوا كلهم احتجاجيين . ولذا
قال المستشار كلبريقي ، أول خلف لبسمارك ، في الرايخشتاغ ، في ١٠
حزيران ١٨٩٠ : « الواقع ان الروح الألمانية بعد سبعة عشر عاماً على
الضم ، لم تحرز أي تقدم في الالزاس » .

بعد ١٨٩٠ . - وابتداءً من ١٨٩٠ يرى تطور مختلف : ففي
انتخابات ١٨٩٠ ، وجد ، على خمسة عشر نائباً ، احد عشر نائباً احتجاجياً
وأربعة نواب استقلاليين . وفي انتخابات ١٨٩٣ وجد خمسة نواب استقلاليين ،
واحتجاجي واحد واضح في احتجاجه ، والباقون أناس « ملونون قليلاً » ،
ويحاولون ألا يصطبغوا بهذا اللون أو ذاك ، وألا يكونوا مشتركين في
هذا الاتجاه أو ذاك . وفي انتخابات ١٨٩٨ وجد على خمسة عشر نائباً ان
اثني عشر نائباً يؤكدون ولاهم لألمانيا .

ووجدت برادر أخرى تدل على التطور نفسه . فقد قبل النواب
الالزاسيين - لورنيين ، ابتداءً من ١٨٩٥ ، وبخاصة من ١٩٠٠ ، أن
يأخذوا مقاعدهم بين الأحزاب الألمانية : دخل بعضهم في الحزب الكاثوليكي ،
وآخرون في الحزب الاستراكي . ومنذ أن قبل هؤلاء النواب الجلوس
في الاحزاب الألمانية ، فهم انهم بدأوا يتخلون عن صعيد « المطلوب
القومي » . ومن جهة أخرى ، يرى عدة مرات ، ابتداءً من ١٩٠٢ ،
في الوفد الالزاسي - لوريني ، خطباء يفصحون علناً عن أفكار استقلالية .
وحوالي ١٩٠٢ - ١٩٠٣ وجد رجال عرفوا بعاطفتهم العدائية حيال
المانيا ، مثل النائب برايس والأب فاترليه ، يقبلون انفسهم بإمكان النقاش
إذا اقترحت المانيا نظاماً مقبولاً للالزاس .

أسباب تقدم الاتجاه الاستقلالي . - يمكن تفسير هذا التقدم في الاتجاه الاستقلالي بثلاثة أسباب .

السبب الأول . - ان معظم الالزاسيين - لورينيين في ١٨٩٥ - ١٩٠٠ لم يعرفوا النظام الفرنسي ، ودرسوا في المدرسة الألمانية . ولذا كان اتجاههم قبول الضم ، محاولين فقط تحسين مصير الالزاس - لورين . وشيئاً فشيئاً ، أخذ يندر في ذلك الحين عدد من يعتقدون بإمكان عودة الالزاس - لورين إلى فرنسا . حتى ان منظور حرب فرنسية - ألمانية ، بين ١٨٩٥ و ١٩٠٠ لم يكن موجوداً إلا قليلاً . وفي فرنسا نفسها ، لم تظهر فكرة التأثير من ألمانيا . ولذا كان من الطبيعي أن يفكر قسم من شعب الالزاس - لورين ، في ذلك الحين ، بأن الادعاء لا يمكن اجتنابه . ولنفكر بالعدد العظيم من المهاجرين الألمان الذين جاءوا واستوطنوا الالزاس - لورين . فقد جاء نحو ٤٠٠.٠٠٠ بين ١٨٧١ و ١٩١٤ . ومن الطبيعي أن تتوطد الصلات الشخصية وحتى الصلات العائلية بين المهاجرين والالزاس - لورينيين .

السبب الثاني . - كان الكاثوليكيون كثيراً بين الالزاسيين - لورينيين و متمسكين بكاثوليكيته عن قناعة . وكان للاكليروس الكاثوليكي دور هام في سياسة مقاومة الادارة الألمانية حتى ١٨٨٠ - ١٨٨٥ . وكان هؤلاء الكاثوليكيون الالزاسيون - لورينيون مستائين من نمو السياسة المناوئة للكنيسة في فرنسا التي كانت بخاصة نشيطة بين ١٩٠١ و ١٩٠٦ ، وحولت سياسة وزارة كومب في فرنسا عدداً كبيراً من الكاثوليكين الالزاسيين - لورينيين من فرنسا .

يضاف إلى ذلك أن الاكليروس الالزاسي - اللوريني كان منذ ١٨٩٩

تحت سلطة الأساقفة الألمان : فحتى ١٨٩٩ كان اسقف ستراسبورغ ، وقد رأينا موقفه سابقاً ، واسقف متز ، بالعكس ، يحافظان على موقف المقاومة ، ومازالا من الاساقفة الذين عينوا في عهد النظام الفرنسي ، واضطرت الادارة الألمانية أن تنتظر حتى موتها . ولكن الامبراطورية الألمانية حصلت عندئذ من البابا على تسمية حبرين الماسيين وغير الزاسيين لكرسي اسقف ستراسبورغ ومتز . وقد أثر حضور هذين الاسقفين الألمانين على الاكليروس الزاسي - اللوريني . وأخيراً ، قدمت ألمانيا ، في ذلك العهد ، عروضاً محسوسة للكاتوليكين الزاسيين ، وبخاصة لإنشاء كلية اللاهوت الكاثوليكي في جامعة ستراسبورغ . وقدر الاكليروس الزاسي هذه المبادرة كثيراً .

السبب الثالث . - كان الزاسيون - لورينيون على العموم راضين عن الرفاه المادي والخصب الاقتصادي اللذين تمتعت بهما الزاس - لورين تحت النظام الألماني . ولا نريد هنا أن ندرس التطور الاقتصادي في الزاس - لورين ، حسبنا أن نشير إلى النقاط الأساسية : لقد تقدمت الصناعة تقدماً كبيراً . فقد نهضت صناعة اللورين المعدنية نهوضاً عظيماً ، ابتداءً من ١٨٨٦ ، بتبني الطرق الجديدة في معالجة فلزات الحديد ، طرق « تصفية الفوسفور » التي ساعدت على استعمال فلزات الحديد في أفضل الشروط ، وانتقل انتاج فلزات الحديد بين ١٨٧١ و ١٩١٤ من ٣٦٤.٠٠٠ طون في السنة إلى ما يقارب ٢١١٠.٠٠٠ طون . وصحت صناعة النسيج من كبوتها بعد أن كانت قلقة جداً في بادئ الأمر ، ووجد الصناعيون الزاسيون للمنسوجات زبائن في ألمانيا ، ولم يكن لهم مايشكونه . وأخيراً ، نشأت في الزاس العليا صناعة جديدة ، وهي صناعة البوتاس .

أما في الزراعة ، فقد أفادت الكروم الالزامية كثيراً من الانضمام إلى ألمانيا ، لأن خمور الالزاس ، عندما كانت تباع في السوق الفرنسية ، كانت تنافسها الخمور الفرنسية الأخرى ، بينما لم تجد في السوق الألمانية إلا منافسة كرم محدود جداً في وادي الراين ، وتباع جيداً . وكان الخمار الالزامي راضياً على العموم عن منافعه المادية .

وأخيراً ، من وجهة النظر التجارية . قام الألمان بأعمال كبرى في ميناء ستراسبورغ في ١٨٩٢ وبخاصة ابتداءً من ١٩٠٥ - ١٩٠٧ . لقد أنجزوا أعمال تصحيح أرض مجرى نهر الراين في القسم الالزامي ، وهذا ما ساعد ستراسبورغ على أن تصبح ميناء نهرياً كبيراً ، وأن تكون له تجارة نامية مع روتردام وانفرس ، ومن جهة أخرى تجارة بالقنوات مع مناجم السار .

وهكذا أعطى الالزاميون - لورينيون انطباع الرفاه والخصب على الصعيد الصناعي والزراعي والتجاري .

وتغيرت طرق الإدارة الألمانية حسب استعدادات الشعب الالزامي - لوريني : فبين ١٨٧٩ و ١٨٨١ تقدم الشنتالتر مانتويل بعروض كثيرة إلى الالزاميين - لورينيين ، وحاول أن يصالح الشعب ، وبخاصة الوجهاء والاكايوس . فلم ينجح ، لأن انتخابات ١٨٨١ أخفقت . عندئذ رجعت الإدارة الألمانية ، بين ١٨٨١ و ١٨٩٠ ، إلى طرق القمع والشدة : منع استعمال اللغة الفرنسية في « مجلس الالزاس - لورين » وأوقف النائب اللوريني ، انطوان ، ولحق بتهمة الخيانة العظمى ، ومنع تعليم اللغة الفرنسية للأطفال ، ومنع الفرنسيون من الجيء والاقامة في الالزاس - لورين ، إلا إذا حصلوا على جواز سفر ، ولا يمنح هذا الجواز إلا نادراً . ومنع وضع نقوش كتابية بالفرنسية على المقابر . وبعد انتخابات ١٨٨٧ التي كانت بالاجماع

احتجاجية ، كانت اجراءات الادارة الالمانية أكثر شدة : رفع دعوى الخيانة العظمى ، حل الجمعيات ، وحتى الجمعيات الموسيقية التي كانت مشبوهة بتعاطفها مع فرنسا . وعلى العكس ، تراخى النظام الاستبدادي بعد ١٨٩٠ . فقد حذف الحصول على جواز السفر في ١٨٩١ ، وأعيد منح حق نشر الجرائد بالفرنسية في ١٨٩٨ ، وأخيراً ، في ١٩٠٢ ، حذفت « سلطة الدكتاتورية الاستثنائية » . وفي ١٩٠٥ و ١٩٠٨ ، اتخذت الادارة الالمانية اجراءات لزيادة حرية الاجتماع والجمعيات .

وبالاجمال ظهر انطباع ، في ١٩٠٧ - ١٩٠٨ ، ولاحظه المؤلفون الالزاسيون ، وهو أن « صورة الوطن الفرنسي » ، كما قال أحدهم ، « تضاعفت شيئاً فشيئاً عند الالزاسيين » .

الدور الثالث ١٩١١ - ١٩١٤

يلاحظ ، في هذا الدور ، بقطة عاطفة مقاومة .

ومع ذلك فقد بدأ هذا الدور بظاهرة مصادمة من الحكومة الالمانية : وهي منح الالزاس - لورين قانون ٣١ أيار ١٩١١ الذي حول من جديد نظام البلاد .

النقطة الاولى . - حصلت الالزاس - لورين على ممثل في البندسرات ، وكان لها ثلاثة أصوات في البندسرات ، مثل دوقية باد الكبرى أو هس . وكان الشتااتر يعين هذا الممثل ، ولكن الممثل في البندسرات في الدول الالمانية الاخرى كان ينتخبه السيد ولم يكن منتخباً .

النقطة الثانية . - حذف « مجلس الالزاس - لورين » وعوض ببرلمان يضم مجلسين : مجلس النواب ، وينتخب بالتصويت العام ؛ ومجلس

الشيوخ ، وإضم أعضاء يمينيين ، أعضاء يساريين الشتاتيات وبعض أعضاء منتخبيين كانوا مندوبين عن غرفة التجارة والجامعات .

وقد يتبادر إلى الذهن أن هذا النظام نظام استقلال ذاتي حقيقي ، لا شيء من هذا . لأن وزارة الالزاس - لورين لم تكن مسؤولة مطلقاً أمام البرلمان الالزامي - لوريني . ومن جهة أخرى ، احتفظ الشتاتيات بحق التشريع ببراءات عندما لا يكون البرلمان في حالة انعقاد ، واحتفظ أيضاً بحق اقتطاع الضرائب إذا لم تقب الموازنة في الوقت المطلوب . وبالتالي ، أن دستور ١٩١١ أيضاً لا يعطي إلى الالزاس - لورين نظاماً شبيهاً بنظام الدول الألمانية . ومع ذلك فإن التقدم محسوس نحو الاستقلال الذاتي .

كيف نفسر هذا القرار ؟ لدينا عن ذلك وثيقة هامة : وهو تقرير أرسله الشتاتيات فيديل إلى غليوم الثاني . ففي هذا التقرير شرح ، في آذار ١٩١٠ ، أن السياسة الألمانية حاولت منذ ١٨٧٤ أن تعتمد على « الوجهاء » : فقد عين « الوفد الالزامي - لوريني » بالتصويت الضيق ، وكان تعبيراً لرأي البورجوازية الالزامية - لورينية . ويقول فيديل : « إن هذه البورجوازية ليست في صالحنا » ، لأنها بقيت فرنسية الروح أكثر من غيرها ، ولذا فإن من صالحنا وجود برلمان الزاسي - لوريني منتخب بالتصويت العام ، لأننا نجد في الشعب عطفاً أكبر مما عند البورجوازية ، ومن هنا نرى أن الإصلاح كان يهدف إلى إيجاد نظام انجع « لتمثل » الالزاس - لورين .

في انتخابات تشرين الأول ١٩١١ ، لتحسين أعضاء برلمان الالزاس - لورين ، ضرب المرشحون الناهيون في حزب الاتحاد القومي ، وهو الامم

الذي يحمله حزب الاحتجاجيين ، وكانت أكتوية البرلمان الالزاس - لورين إلى جانب النواب الذين يؤلفون جزءاً من الوسط الكاثوليكي ، الحزب الالماني ، والحزب الاجتماعي - الديمقراطي ، وهو حزب ألماني أيضاً . ومع ذلك ، لم تبد كتلة الشعب أي عطف لألمانيا ، وظل الموظفون الألمان يشعرون بالعزلة . وقد قال نائب استقلالي ، وهو عضو لبرلمان الالزاس - لورين : لقد غلبت القومية باعتبارها حزباً ، ولكنها مازالت موجودة كحالة رأي .

ولما نجحت هذه السياسة الجديدة نجاحاً ضعيفاً عادت الإدارة الألمانية حالاً إلى إجراءات الشدة : بدأت بحل جمعية تسمى « ذكرى الالزاس - لورين » وكان هدفها العناية بقبور قدامى المحاربين في عام ١٨٧٠ . وكذلك الحملات التي تقوم بها الصحف الألمانية ضد بعض أساتذة جامعة ستراسبورغ الذين كانوا يعتبرون ممثلين للفكر الفرنسي ، ومنع مسابقات الجمعيات الرياضية التي تعقد كل عام لأن هذه الجمعيات كانت تبدو مراكز للدعاية الفرنسية .

قضية سافيرن . - ولكن قضية سافيرن أثارت ، في تشرين الثاني ١٩١٣ ، في الالزاس - لورين هياجاً عظيماً جديداً : ففي قطعة المشاة الـ ٩٩ ، التي كانت حامية سافيرن ، حذر ملازم أول ، ملازم أول صغير ، عمره تسعة عشر عاماً ، واسمه فورشنر ، في تعليانه إلى الجنود ، من الشعب الالزامي ، وأضاف ، إذا قامت مشادة بين جندي ألماني والزامي ، « فليس للجندي قانون عقوبات » يخشاه . وإذا طعنت بديهة أحد هؤلاء « الزعران » ، رجال سوء ، فلن تسجن شهرين ، « وفي كل مرة تأتيني بواحد منهم تأخذ عشرة ماركات » . وقد ذكرت هذه الأقوال في الصحافة الالزاسية نقلاً عن تصريحات جنود الزاسيين في

القطعة . وقامت القيادة المحلية بالتحقيق ، فوجدت أن التصريحات صحيحة ، ولكنها لم تتخذ أي عقوبة بحق الملازم الأول فورشنر . ولذا تمادى في طغيانه وتطرف في تعليماته إلى الجنود بمناسبة الجوقة الأجنبية الفرنسية : واستعمل تعابير وسخة حيال العلم الفرنسي . وفي ٧ تشرين الثاني ١٩١٣ قامت مظاهرة ضد فورشنر أمام منزله . وفي اليوم التالي ، دخل الضابط مطعماً وأراد المستهلكون إخراجه ، وبالحال ، أخرج مسدسه من جيبه ووضعه على الطاولة أمامه . وفي ٩ تشرين الثاني ، وبينما كان يسير مع قطعته في قرية في جوار سافريون ، صاح الجمهور ساخراً فأمر ببعثرة الجمهور . وأوقف سبعة وعشرون شخصاً وطرحوا في السجن .

كان لقضية سافريون انعكاسات كبرى جداً في ألمانيا : ففي الراجشتاغ تقدمت العناصر الليبرالية تطلب استجواباً من الحكومة ، وصرحت بأن موقف القيادة الألمانية غير مفهوم ، فهل جذبت لغة هذا الضابط أو لا ؟ غطى وزير الحربية الضباط ، واتهم الجنود الالزاسيين « بعدم القيام بواجبهم » ، ونشر على الجمهور عبارات قيلت في داخل القلعة . وقال إن الجنود جوزوا بالسجن من ثلاثة إلى ستة أسابيع وأوقف فورشنر ستة أيام ومثل أمام مجلس حربي ، ولكنه برىء ، أما كولونيل القطعة فقد مثل أمام مجلس حربي وبريء وبدل حاميته وأعطى وساماً .

كان احتجاج الالزاسيين شديداً للغاية . وكان هذا الاحتجاج ضد سلوك الضباط والعقوبة الألمانية عموماً . وقد دلت قضية سافريون على وجود « عدم تلاؤم » بين الالزاسيين - لورينيين واللمان . وفي ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٣ صوتت المجالس العامة في الالزاس العليا والدنيا بالاجماع على قرار يشجب الضابط فورشنر الشنيع . وصوت المجلس الثاني للالزاس - لورين ، في ١٣ كانون الثاني ١٩١٤ على اقتراح بنفس

المعنى ، وصوت مجلس الشيوخ الالزامي - لوريني أيضاً بالاجماع ، إلا ثلاثة أصوات، على قرار بلوم الادارة .

وهكذا تدل بداية ١٩١٤ على نضال بين الادارة الالمانية والبرلمان الالزامي - لوريني .

وأخيراً صممت الاحتجاجات المرتعدة ، وخضع الناس . وكانت الاكثية العظمى من الالزاميين - لورينيين ترجو الهدوء ، ولا ترغب بحرب فرنسية - ألمانية وهي مع ذلك الوسيلة الوحيدة لعودة الالزام - لورين الى فرنسا . ولكن الالزاميين - لورينيين ، من جهة أخرى ، ظلوا يؤكدون نعتهم ويقاومون الجرمنة ، وبخاصة في الاوساط المثقفة: فقد حافظت الثقافة الفرنسية على تماسكها بفضل عمل بعض المجلات ، مثل «المجلة الالزامية» التي كان ينشرها الدكتور بوخو ، و « دفاتر الازامية » بفضل عمل بعض الصحفيين أو الكاريكاتوريين ، مثل هانسي . وفي ١٩٠٨ درس سفير فرنسا في برلين ، جول كامبون مجموع القضية الالزامية - اللورينية وتوصل إلى هذه النتيجة وهي « ان بقاء الثقافة الفرنسية أفضل وسيلة لانقاذ ما يمكن إنقاذه . وإنه ، على كل حال ، أفضل وسيلة لحفظ النار تحت الرماد » .

الفصل العشرون

انعكاسات قضية الألزاس - لورين

على العلاقات الفرنسية - الألمانية

إن القول بأن قضية الألزاس - لورين كانت سبباً أساسياً ودائماً للصعوبات الفرنسية - الألمانية ، خلال هذا الدور (١٨٧١ - ١٩١٤) هو من قبيل تأكيد البديهي ، ولكن يجب معرفة موقف رجال الدولة الفرنسية ورجال الدولة الألمانية ، مع العلم بأن هذا الموقف يتعين جزئياً بتطور الرأي العام . وعلى ضوء هذا الاعتبار ، يميز في العلاقات الفرنسية - الألمانية ، بمناسبة قضية الألزاس - لورين ، ثلاثة أدوار : الأول ، يذهب حتى ١٨٩٠ ، ويتفق مع العصر الذي كان فيه بسمارك مستشار الامبراطورية الألمانية ؛ والثاني ، يذهب من ١٨٩٠ تقريباً إلى ١٩١١ ؛ والثالث ، من ١٩١١ إلى ١٩١٤ .

الدور الاول (١٨٧١ - ١٨٩٠)

لقد ظل الرأي العام في فرنسا ، في هذا الدور ، يهتم بنشاط بقضية الألزاس - لورين . وفي السنوات التي تلت ١٨٧٠ ازدهرت الحفلات التذكارية ونشاط الرابطات الوطنية وبخاصة الرابطة العامة للألزاس - لورين التي انشئت في ١٨٧١ . وكانت فكرة حرب الثأر ، التي هدفها استرداد الألزاس - لورين ، موضوع هذه التظاهرات . ومع

ذلك يرى ، في حوالي ١٨٨٠ ، تخفيف ظاهر يتفق مع الدور الذي اتجه فيه انتباه فرنسا نحو القضية الاستعمارية ، ولكن بعد ربيع ١٨٨٥ ، اضطر جول فيري ، اثر قضية تونكن ، أن يتخلى عن السلطة . وانتكست العاطفة « القارية » في الرأي الفرنسي . ولعبت قضية الالزاس - لورين من جديد دوراً نشيطاً في تطور الرأي العام . ويتفق هذا الدور مع الحركة البولانجية من بدء ١٨٨٦ حتى ١٨٨٩ . ونرى في هذه الفترة أولاً : نشاط عصبة الوطنيين ، وكان رئيسهم منذ ١٨٨٥ ، بول ديروليد . ونرى أيضاً في باريس نشر جريدة عنوانها : « الثار » وقد صدرت في شهر آذار ١٨٨٦ . ونشرت هذه الجريدة صورة وزير الحربية آنذاك ، الجنرال بولانجيه . ونرى أخيراً أن جريدة « فرنسا العسكرية » ، اللسان الرسمي لوزارة الحربية ، تلمح باستمرار إلى فكرة الثار : « بعد خمسة أعوام ، سيخيف الجيش الفرنسي المتجدد الامراء الالمان من بعيد » . وعلى العموم ، كان الرأي الفرنسي جملة ، خلال هذا الدور ١٨٧١ - ١٨٩٠ ، متجهاً بوضوح نحو فكرة حرب الثار . ونتساءل عن موقف رجال الدولة الفرنسية وهم المسؤولون عن توجيه السياسة ، ومن المفيد أن نرى عن كتب تفكير الكبار منهم .

موقف أدولف تيير . - كان تيير أول رئيس للسلطة التنفيذية بعد ١٨٧١ ، ونذكر أنه صرح أمام مجلس بوردو بأن لا بد من السلام ، وأنه عند احتجاج الالزاسيين - لورينيين ، أوصى المجلس القومي ، بعدم أخذ هذا الاحتجاج بعين الاعتبار . حتى ان انطباع بعض المعاصرين يدل على أن تيير كان جاف القلب ، ولم تؤثر قضية الالزاس - لورين في أعماقه . ومن المهم أيضاً أن نرى الموقف الذي اتخذته ، في ١٨٧٣ ، عندما شاعت

ضجة بأن الحكومة الألمانية تنوي الدعوة إلى انعقاد مؤتمر دولي لتعترف كل أوروپة بالتعديلات الارضية التي جرت بين ١٨٦٦ و ١٨٧١ ، أي بالتعديلات الارضية التي جرت على حساب فرنسا . وقد علم تيير بنية بسمارك هذه ، فكتب ، في ٢٢ آب ١٨٧٢ ، إلى سفير فرنسا في سان - بطرسبورغ : « إذا كلمنا عن ذلك » ، ويقصد مشروع بسمارك في عقد مؤتمر دولي ، « فلا مجال للتردد : يجب أن نقاوم على الاطلاق ، وانه ليستحيل علينا ، بعد توقيع الشروط المفروضة في فرساي ، ان نذهب بأنفسنا ، في عز السلام ، ولسنا ، كما كنا ، تحت قدم غالبنا ، ونتحمل مرة ثانية عار توقيع معاهدة فرضت علينا » ، ان هذا خزي . اذن تبدو وجهة نظر تيير في أنه يعتبر أن ضياع الالزاس - لورين قطعي ، ولا يتناصر فكرة الثأر ، ومع ذلك لا يريد أن يقبل ، طوعاً هذه المرة ، ان يوقع تخلياً صريحاً عن الالزاس - لورين . ولنلاحظ هذا الفرق الدقيق لاننا سنرى بعد قليل . بأنه لعب دوراً في السياسة الفرنسية .

موقف غامبتا . - لقد لعب غامبتا دوراً مسيطراً في سياسة فرنسا الداخلية والخارجية بين ١٨٧٧ و ١٨٨٢ . لقد كان غامبتا في ١٨٧١ رجل الحرب حتى النهاية ، وبعد ١٨٧١ بدا حقاً رجل الثأر ، مادام في صف المعارضة . ولم يسهو أن يظهر كما هو ، ولكنه عندما رأى امكان اقتراب السلطة منه ، أخذ يبدل نوعاً ما موقفه .

لقد كان غامبتا يرى أن ضم الالزاس - لورين « نبتة موت » ، هذا هو التعبير الذي استعمله ، لعمل بسمارك : « وقد كتب في ١٨٧٥ : « مادام الالمان لا يصلحون هذا الخطأ فسيظل السلام قلقاً ضعيفاً ولا أحد يلقي السلاح » ، ورأى أن واجب فرنسا أن تنتظر فرصة مواتية

تساعد على « إعادة النظام والحق في أوربة » ولكن غامبتا توصل شيئاً فشيئاً إلى فكرة تقول بإمكان الحصول من بسمارك نفسه على اصلاح للماضي . ولكن كيف كون هذا الضلال ؟ من الصعب النفوذ إلى نفسيته . ولكن الحادث أكيد : ففي ١٧ شباط ١٨٧٨ القى بسمارك خطاباً في الرايخشتاغ يحتوي تضمينات ودية حيال فرنسا : فاستنتج منها غامبتا مباشرة ان بسمارك في حالة تطور وانه من الممكن الحصول منه على تنازلات ، ربما تكون إعادة الالزاس - لورين . ونجد الدليل ، على هذه الحالة الفكرية ، في رسالة وجهها ، في ٢٠ شباط ١٨٧٨ ، الى صديقه ليون ليون « وهكذا بشرق الآن في هذا الرجل ، ويريد بسمارك ، فجز حق مشع ، وعلينا الآن أن نفيذ من هذه الظروف والاستعدادات لنضع بوضوح مطالبينا المشروعة ونؤسس النظام الجديد باتفاق معه » . وقد اعتقد ، في ذلك الحين ، ان من الممكن الذهاب إلى بسمارك والقول له : « السلام قلق لانك أخذت منا الالزاس - لورين ، أعد الينا الالزاس - لورين ، يكن كل شيء على مايرام » . ووضع في ذلك الحين مشروع لقاء بين غامبتا وبسمارك . وكان الوسيط الذي فاوض في هذا المشروع مالي الماني اسمه هنكل فون دونر سمارك . وحدد اللقاء في ٣٠ نيسان ١٨٧٨ . وكان غامبتا ينوي عرض قضية الالزاس - لورين على بسمارك ، ولكنه تهرب في الزمن الاخير : فقد أدرك ولا شك أن الرأي الفرنسي غير ناضج لفكرة تقارب مع ألمانيا ، وانه إذا ذهب إلى هذا اللقاء خاطر بفقد جاهه الشخصي ، وربما يكون قد فهم ، في آخر الامر ، بأنه لن يكسب شيئاً ، لان بسمارك أصعب اقتناعاً مما كان يتصور في البدء . ولذا عدل عن لقاء بسمارك .

وعلى اثر هذه الحيلة ، تبنى غامبتا موقفاً آخر وعرفه في خطابين

شهرين : القى الأول في شربورغ ، في شهر آب ١٨٨٠ والآخر في مينيلونتان ، في شهر آب ١٨٨١ ، وقد قال : « عندما يلاقي الحق كسوفاً فعلى الشعوب أن تنتظر بهدوء وحكمة . ان الاصلاحات الكبرى يمكن أن تخرج من الحق . وان العدل في أمور هذه الدنيا عتيد وملازم وبأني في يومه وفي ساعته » ؛ وأضاف : « على السياسة الفرنسية أن تتجنب التهور ، روح الانقلاب والتأمر والعدوان » ؛ وقال « ومن السائغ أخيراً أن نأمل يوماً بجلال الحق والحقيقة والعدل ، وسنجد وسنضم اخوتنا المنفصلين عنا » . وهذا يعني أن غامبتا يؤجل المطالبة بالالزاس لورين . انه لا يتخلى عن المطالبة ولكنه يحاول مساومة بين سياسة التنازل البسيط وبين سياسة الثأر ، سياسة التهور . وهذه المساومة هي ما سميت « الانتهازية » .

جول فيري . - لقد سيطر جول فيري على السياسة الفرنسية ابتداء من ١٨٨٠ وكان رئيساً لمجلس الوزراء بين ١٨٨٣ و ١٨٨٥ ، ومحركاً للسياسة الاستعمارية في فرنسا . وكان من طبيعة هذه السياسة الاستعمارية ان تضع فرنسا في صعوبة ، إن لم تكن في نزاع ، مع بريطانيا العظمى . ويرى جول فيري أن من غير الممكن ، إذا أريد القيام بسياسة استعمارية ، أن تبقى فرنسا في الوقت نفسه على علاقات سيئة مع ألمانيا ، لأن فرنسا قد تخاطر وتجد نفسها ذات يوم أمام انكسار ألمانيا معاً . ولهذا السبب صرح جول فيري بأن واجب الفرنسيين الا يبقوا منومين « بنحط الفوج الازرق » ، حسب التعبير الذي استعمله في خطاب شهر . ولا فائدة ، في رأيه ، من البقاء والانظار مصوبة على الالزاس - لورين ، بل يجب البحث عن تعديل حالة العلاقات الفرنسية - الألمانية . وفي الرسائل الخاصة ، وبخاصة في رسائله إلى زوجته ، التي نشرت بعد زمن طويل ، عبر جول فيري

بان فرنسا تكون بدون هدف إذا ظلت العلاقات فاسدة إلى الابد مع ألمانيا ، وانه يجب أن تقبل بفكرة التعاون مع المانيا ، في بعض المناسبات ، وبخاصة بمناسبة القضايا الاستعمارية . ونلاحظ أن هذه الفكرة البسيطة تتضمن بوضوح التخلي عن كل فكرة ثأر . ولكن هل كانت جول فيري مستعداً لأن يذهب إلى أبعد من ذلك ؟ لقد فكر أحياناً أنه يناصر ولا شك التقارب بل والتحالف مع ألمانيا . لا شيء من ذلك البتة . فقد كان يشعر بأن الرأي العام الفرنسي لا يقبل بذلك ، بدليل أن جول فيري ، في آخر ١٨٨٤ ، عندما وجد أمام بعض العروض التي قدمها اليه بسمارك ، جعل جل اهتمامه في ترك قضية الألزاس - لورين خارجاً عن المحادثات الفرنسية - الألمانية . حقاً انه لم يشأ المطالبة بالألزاس - لورين ، لانه يعلم أن هذا عبث ، ولم يشأ أن يقول له بسمارك : هل تقبل بالتخلي صراحة عن الألزاس ؟ .

وغادر جول فيري السلطة في ربيع ١٨٨٥ ، اثر الاخفاق الذي منيت به الجيوش الفرنسية في تونكن . وفي ذلك الحين حصل تبدل في السياسة الخارجية الفرنسية ، وبدأت تظهر بوادر الحركة البولانجية . وقد نتساءل ما هو موقف المسؤولين عن السياسة الخارجية في هذه الحركة البولانجية ؟ كان بولانجية وزيراً للحربية ، وكان وزير الشؤون الخارجية في ١٨٨٦ وفي بداية ١٨٨٧ ، فلورن ، وما فتئ فلورن يردد بأنه يريد السلام وينكر كل فكرة لحرب الثأر ، وكتب ، في ١٨٨٧ ، الى سفير فرنسا في برلين : « يمكنك أن تقول بأن وزير الحربية لا يقرر عندنا الحرب أو السلام ، وان الارادة الحازمة للحكومة الفرنسية بكاملها ، بما فيها المجلسان اللذان يمثلان الرأي ، إنما هو الحفاظ على السلام » ، ومن جهة أخرى ، ان رئيس الجمهورية في ذلك العصر ، غويقي ، قال ، في أيار ١٨٨٧ ،

ففي حديثين إلى السفير الألماني في باريس ، بأنه تدخل شخصياً ، باعتباره رئيساً للجمهورية ، ليذهب ببولانجه إلى ترك وزارة الحرب ولأنه يرى في بولانجه « مشاغباً على السلام » .

وهكذا يمكن القول ان خط السلوك الذي تبعته الحكومات الفرنسية المتعاقبة كان واضحاً : وهو أن فكرة الثأر لم تقصع عنها الحكومات ، حتى انها لم توجد في فكر رجال الدولة الفرنسيين في ذلك العصر ، لأنهم عرفوا أن ذلك مستحيل . ولكن ، من جهة أخرى ، ما من أحد منهم ، حتى الذين كانوا مسبقاً أكثر استعداداً لتقارب فرنسي - الماني ، كان يرضى بتخلٍ جديد ، تخل صريح عن الالزاس - لورين .

موقف بيسمارك . - لقد كان موقف بيسمارك أقل وضوحاً . فقد قال مراراً ، وبخاصة في ١٣ آب ١٨٧٨ : « لن نعيد الالزاس - لورين أبداً » . وكان هذا التاريخ ١٣ آب ١٨٧٨ ، بعد المقابلة التي لم يحضرها غامبتا بثلاثة أشهر . ولكن هذا يدل بشكل كاف على أن غامبتا يتخذ نفسه إذا كان يعتقد بأنه يستطيع أن يذهب بيسمارك إلى التخلي عن الالزاس - لورين .

موقف غليوم الثاني . - وكان هذا الموقف موقف غليوم الثاني عندما وصل إلى السلطة : ففي إحدى خطبه الأولى ، في ١٨٨٨ ، قال بأنه لا يمكن التخلي عن شيء من فتوحات « العصر العظيم » أي العصر ١٨٦٦ - ١٨٧١ .

سياسة بيسمارك . - وبالرغم من التصريحات المعتدلة دوماً من قبل رجال الدولة الفرنسية ، ظل بيسمارك مقتنعاً بأن فرنسا تفكر بالثأر . ولقد رأينا ما قاله إلى القاشم بالأعمال الفرنسي ، غابرياك ، في شهر آب

١٨٧١ ، وهو أنه « يرى بأن السلام لن يدوم » ، وانه يشعر بأن ضم
الالزاس - لورين حفر وهدة بين المانيا وفرنسا . وفي هذه الظروف
كان بسمارك يبحث دوماً عن ضمانات تؤمن تملكه للالزاس - لورين .
ففي ١٨٧٩ ، عندما فاض التحالف بين المانيا والنمسا - هونغاريا ،
حاول الحصول من النمسا - هونغاريا على وعد بالدعم المسلح ضد فرنسا ،
ولكن الحكومة النمساوية - الهونغارية رفضت : كانت النمسا - هونغاريا
تريد أن تصبح حليفة الامبراطورية الألمانية ضد روسيا ، ولكنها لم
تشأ أن يكون الحلف موجهاً ضد فرنسا . وقد قال المستشار الهونغاري
ذلك صراحة إلى بسمارك : « لماذا تريدون حلفاً ضد فرنسا ؟ ليضمن
لكم تملك الالزاس - لورين ؟ انكم أقوياء للدفاع عنها وحدكم » . وفي
ايلول ١٨٧٩ تصور بسمارك فكرة تحالف بين انكلترا ومانيا . فأجاب
الوزير الانكليزي الاول ، ديزرائيلي : « حلف ضد روسيا ؟ نعم وبطيء
خاطر . حلف موجه ضد فرنسا ؟ لا » . وفي آخر آب ١٨٧٩ قام
بسمارك بمحاولة لدى روسيا : ففي حديث له مع السفير الروسي في برلين ،
سابوروف قال : « ان هدفنا أمن الالزاس - لورين . أمنوا لنا تملك
هذا الأقليم وسأكون مستعداً لان اتبعكم في كل شيء ، وان أضع كل
قوى ألمانيا في خدمة مصالحكم في الشرق » فاجابه السفير الروسي :
« إن المانيا قوية لحماية فتوحاتها بنفسها » . وهكذا لم تشأ النمسا -
هونغاريا ، ولا انكلترا ، ولا روسيا ، أن تعطي لمانيا ضماناً أرضيا
مقبولاً ضد فرنسا . والدولة الوحيدة التي أعطتها هذا الضمان كانت إيطاليا
بمعاهدة الحلف الثلاثي في ١٨٨٢ .

ولما لم ينجح بسمارك ، في الحصول على حلف من الدول الكبرى ضد
فرنسا ، حاول أن يتملق لها ويدفعها إلى التخلي عن فكرة كل ثأر ، مقابل

الدعم الذي ستخوله ألمانيا إلى فرنسا في القضايا الاستعمارية . وهذه هي الفكرة التي أفصح عنها بسمارك ، في آخر ١٨٨٤ في المحادثات التي جرت مع سفير فرنسا في برلين : فقد قال بأنه يريد « أن يدفع فرنسا إلى الصفح عن سودان كما صفحت عن واترلو » . ولينجح في ذلك أبدى استعداداه لمساعدتها فيما يرضيها في جميع الاتجاهات الممكنة ، باستثناء اتجاه الراين . وإذا أرادت فرنسا أن تصرح بأن تتخلى عن استعادة الألزاس - لورين فإن بسمارك مستعد لاعطاء فرنسا دعمه في القضايا خارج أوربه .

ولم تؤد هذه المحاولة في التقارب مع فرنسا إلى شيء ، لانه يشك باخلاصها ، ولذلك عاد بسمارك إلى طرق الصارمة اثناء الازمة البولندية ، بعد أن أقلقته هذه الحركة . وإذا قرأنا الوثائق الدبلوماسية الألمانية التي نشرت منذ ذلك الحين رأينا بريقات عديدة موقعة من بسمارك تصرح بأن وجود بولانجيه في وزارة الحربية في فرنسا خطر على السلام . وهو يرى بأن بولانجيه ، إذا أصبح رئيساً لمجلس الوزراء أو رئيساً للجمهورية ، يحاول أن يقيم نظاماً دكتاتورياً عسكرياً ، وإن هذا النظام يقوم على الحرب . هذا ما قاله بسمارك . ولكن ما الذي يفكر به ؟ هل هو محاصر في مخوفاته ؟ ان ما يسمح بالشك إنما هو هذا الموقف الفريد الذي وقفه في بداية ١٨٨٧ : فقد وجه السفير الألماني في باريس مونستر ، إليه تقريراً يقول فيه ان الحركة البولندية كانت ، بعد كل شيء ، سطحية ، وإن حالة الرأي الفرنسية كانت مسالمة ، وإذا كان لا بد من وقوع الحرب بين فرنسا وألمانيا ، فعلى ألمانيا أن تقوم بالمبادرة ، لان فرنسا لا تقوم بها حقاً . وبعد أن أخذ بسمارك هذا التقرير أبوق إلى مونستر يقول له : « أرجوك أن تسحب التقرير الذي وجهته الي » . فقبل السفير . وهذه المرحلة

تجعلنا نفكر بأن بسمارك ربما كان يلعب لعبة معقدة : فقد كان يحاول أن يقنع الامبراطور غليوم الاول بوجود مخاطرة بحرب ، وان وصول تقرير مونستر قائلاً بأن لا شيء من هذا القبيل يضايق الفكرة التي يريد دعمها . ولهذا رأى أن يجب السفير هذا التقرير . وكل هذا يدل على أن بسمارك ربما لم يكن مخلصاً تماماً عندما أفصح عن خوفه من الحرب . وقام بسمارك ، في تلك الآونة ، بعدة أعمال : فقد جهد في تعزيز الحلف الثلاثي مع إيطاليا ، وبخاصة قام بجهد للحصول على مشايعة بريطانيا العظمى للحلف الثلاثي باتفاق البحر المتوسط في شباط ١٨٨٧ .

المور الثاني : ١٨٩٠ - ١٩١١

لقد تبدلت ، ابتداء من ١٨٩٠ ، مسلمات قضية الالزاس - لورين . لأن إخفاق الحركة البولانجية في فرنسا كان تاماً في ١٨٨٩ وله معناه ، باعتبار أن هذه الحركة البولانجية كانت في الاصل فكرة الثأر . ومن جهة أخرى ، ان المنازعات الداخلية ، التي تمت في فرنسا ابتداء من ١٨٩٣ ، أضعفت ذكرى العنف التي اثبتت للالزاس - لورين : لقد ضعفت المطالبة الفرنسية ، وكان رد فعل الرأي العام يشك شيئاً فشيئاً في موضوع الالزاس - لورين : فقد كان يبيل ، في أعماقه ، إلى التسليم بالامر الواقع . ونجد الدليل على ذلك في الاوساط الفكرية : فقد أدى ديمي غودمون بتصريح عن الالزاس - لورين ظل شهيراً ويرجع تاريخه إلى ١٨٩٧ : وفيه يقول : « بأنه لن يضحي حتى باصبع صغيرة لاستعادة الالزاس - لورين . ثم قامت مجلة « عطارد فرنسا » بتحقيق في ١٨٩٧ في قضية الالزاس - لورين ، فوجدت من جانب بعض

مشاهير الرجال تصريحات من هذا النوع : فقد قال جول دونار مثلاً :
« اني لأمل عما قريب بان تعتبر حرب ١٨٧٠ - ١٨٧١ حادثاً تاريخياً
قليل الأهمية كظهور « السيد » أو خرافة لافونتين ، أما وأن مثل هذه
الافكار قد عبر عنها في الاوساط الفكرية دون اثاره رد فعل عنيف فهذا
يعني بادرة . ومن جهة أخرى ، حدث في الاوساط السياسية والبرلمانية حادث
ذو معنى وهو الوضع الذي اتخذته الحزب الاشتراكي وبخاصة زعيمه جان جوريس .
ففي خطاب ٨ حزيران ١٩٠٢ أنكر جوريس صراحه فكرة الثأر ، وصرح
بأنه لما كانت فرنسا لاتريد حرب الثأر فمن غير المفيد ادخار الاسلحة .
وفي تشرين الثاني ١٩٠٩ قال جوريس : « لقد أبدى اللازاسيون - لورينيون
« شجاعة حقيقية » . وهذه الشجاعة كانت في التخلي عن فكرة حرب
الثأر ومحاولة الحفاظ على أصالة فكرة اللازاس - لورين . ويرى جوريس
ان حركة الاستقلال الذاتي في اللازاس - لورين تتجاوب مع مصلحة
اللازاسيين - لورينيين .

رد الفعل الشعبي . - ولتكون لدينا فكرة عن رد فعل العنصر
الشعبي ، نجد في كتاب للاشتراكي مارسيل - ممبا نشر في ١٩١٣
واسمه : « اصنع ملكاً » ، والا فاصنع السلام » . وهو يتضمن قصة
ذات طابع ميمز : فقد ذكر مارسيل ممبا ان اجتماعاً عاماً عقد ، قبل
بضع سنين ، في حي مونمارتر ، في شارع لوبيك ، وفيه تناول الكلام
بيلميان الراديكالي - الاشتراكي العجوز - وكان عسكري المزاج ،
ولكنه كان وطنياً لأنه يرجع الى الجيل الذي عاش حوادث ١٨٧٠ -
١٨٧١ . ويقص مارسيل - ممبا ان بيلميان اندفع في حملته حتى
الأعماق ضد الرجعيين والمتعصين القوميين « الشوفينيين » ، ولكنه
أضاف : « اما أنا وأنا الوطني » وتوجه الى سماعته وصرخ بها : « أنسيتم

١٨٧٠ ؟ ، فشده عندما أجابه الحضور : « نعم ، نعم ، فأصر بيليتسان بصوت أقوى ظاناً بأنه لم يفهم ، وصرح : « هل تشعرون في أعماق قلوبكم بحرج الالزاس - لورين الدامي ؟ » فأجابته السبابة : « لا ، لا ، لا » ، هذا هو الفرق في الموقف بين راديكالي عجوز من جيل ١٨٧٠ - ١٨٧١ ، وبين العناصر الشعبية الفتية التي لم تعرف ١٨٧٠ - ١٨٧١ . والواقع في ١٩١٠ أن الناس الذين ظلوا يهتمون بنشاط بقضية الالزاس - لورين كانوا يرون بأن ذكرى ١٨٧٠ قد بهتت في الاجيال الفرنسية الشابة ، وإن تذكر الظلم المرتكب لم يكن الغالب الا عبادة عن صيغة توزيع جوائز ، وليس مصدر هياج عميق .

موقف رجال الدولة . - وبالرغم من هذا الهدوء في الرأي ، ومن الممكن القول من هذا الخبل في الرأي الفرنسي ، فقد ظلت قضية الالزاس - لورين عقبة دائمة لكل تقارب فرنسي - ألماني . ولذا يحسن بنا أن نرى موقف رجال الدولة الفرنسيين والألمان .

الجانب الفرنسي . - لقد وجد في السياسة الخارجية الفرنسية حادث كبير جديد في هذا الدور : وهو إبرام الحلف الفرنسي - الروسي الذي أصبح قطعياً في آخر ١٨٩٣ ، فقد بدل إبرام هذا الحلف ظروف التوازن الأوربي ، ولم يعد بالامكان الكلام ، منذ إبرام هذا الحلف ، عن « هيمنة المانية » . ومن الممكن أن يشجع هذا الحلف من كانوا في فرنسا يفكرون بالتأثر . ولكن القيصر اتخذ حيلته وقال أثناء تصديق الحلف الفرنسي - الروسي الى سفير فرنسا في سن - بطرسبورغ : « لاشك في أن فكرة استرجاع الالزاس - لورين عاطفة طبيعية ، ولكن يوجد ما هو أبعد من هذه الفكرة وهو الاثارة بغية الثأر : وستعرفون كيف تنتظرون بكرامة » . وفي الوقت الذي انتهى فيه

القيصر ابرام الحلف مع فرنسا كان همه ان يقول ببلغة دبلوماسية ، بأنه يعتمد على فرنسا بالا تستخدم هذا الحلف الفرنسي - الروسي بغية حرب للآر ، وانه لا يوجد حيال قضية الالزاس - لورين الا موقف واحد يجب اتخاذه : وهو استمرار الانتظار .

ود فعل الوزراء الفونسيين . - كان الاسمان المسيطران : هانوتو اولاً ، وديكاسيه ثانياً .

كان هانوتو وزيراً للشؤون الخارجية بين ١٨٩٤ و ١٨٩٨ ، عدا فترة بضعة أشهر ، وإذا أخذنا بما نقوله الوثائق الدبلوماسية الألمانية وجدنا أن هانوتو أفصح ، في ايلول ١٨٩٦ ، إلى وسطاء شبه رسميين عن رغبته في تقارب مع ألمانيا

قال هانوتو : « يجب وضع الالزاس - لورين خارجاً عن السياسة العملية » . وهذه فكرة جديدة . ويبدو أن هانوتو قال بأنه يقبل التخلي عن الالزاس - لورين . ولنلاحظ أنه يجب النظر إلى التاريخ : ايلول ١٨٩٦ ، فقد كان هذا التاريخ زمن تهية النزاع الفرنسي - الانكليزي ، بمناسبة منطقة أعلى النيل ، الذي سينتهي بقضية فاشودا ، وحسباً بتواءم يبدو أن هانوتو كان يرى بان هذا النزاع آتٍ ، ولذا كان يشعر بحاجة إلى البحث عن نقطة استناد من جانب ألمانيا ، وعندما قدم هانوتو هذه العروض إلى ألمانيا لم يجب المستشار الالماني هوهنلوهره ، أو بالأحرى صرح بأنه لا يريد أن يجيب على عروض قدمت بواسطة أناس شبه رسميين ، . وكان يريد ولا شك تصريحاً مباشراً من هانوتو . فلم يفعل هانوتو ، وبقيت رغبة التقارب في حالة إرادة ضعيفة لا تستطيع الصمود .

أما ديكاسيه فقد خلف هانوتو في ١٨٩٨ وظل في وزارة الشؤون

الخارجية حتى حزيران ١٩٠٥ ، وكان يفكر بأن قضية الالزاس - لورين هدف أسامي من أهداف السياسة الفرنسية .

في شهر آب ١٨٩٩ شخص دلكاسيه إلى سن بطرسبورغ وتفاوض مع وزير الشؤون الخارجية الروسي ، الكونت مورايف ، بشأن متمم للحلف الفرنسي - الروسي . وهذا المتمم يبدل مدة الحلف ، ويبدل ، بخاصة ، هدفه : فقد تم التفاهم على أن هدف الحلف ليس « الحفاظ على السلام » ، فحسب ، بل أن له هدفاً آخر وهو « الحفاظ على توازن القوى الأوروبية » . ورأى دلكاسيه أن لهذا التبدل في الكلمات أهمية عظيمة : فهو يرى أن هذا التبدل وسيلة لعرض قضية الالزاس - لورين في المستقبل وإقناع روسيا بدعم فرنسا في قضية الالزاس - لورين . ولدينا الدليل على ذلك وهو رسالة تلفت النظر من دلكاسيه وجهها إلى رئيس الجمهورية عند عودته من سان بطرسبورغ : ويذكر فيها الاحتياطات التي اتخذها ليعود بنص الاتفاق السري موقعاً من روسيا . ولم يشأ أن يعهد به إلى أحد ، بل انه أتى به بنفسه ، بين قميصه وجلبده ، وأضاف : « ان الاتفاق الذي وقعته وسيلة لتحقيق أهدافنا وآمالنا » . لقد كان إذن يفكر بقضية الالزاس - لورين ، ويأمل بأن يكون من الممكن دعم روسيا في قضية الشرق ، مثلاً ، للحصول بالمقابل على سند من روسيا في قضية الالزاس - لورين .

وإذا فتحنا كتاب موريس باليولوغ : « المنعطف الكبير للسياسة العالمية » ، وهو كتاب هام لأن باليولوغ كان في ذلك الحين في وزارة دلكاسيه ، وجدنا فيه محادثة لدلكاسيه تدل على حالة فكره . فقد قال في تشرين الثاني ١٩٠٤ إلى باليولوغ : « إذا لم يعاد النظر بعاهدة فرنكفورت فمن غير الممكن أن يكون تعاون وثيق بين فرنسا وألمانيا . ان

مشايعتنا السياسة الألمانية لاتعادل في شيء على الأقل إلا تأييد فقدان
الالزاس - لورين تأييداً لا يمكن نقضه . وإذا ، لسوء الحظ ، لم تثر
غريزتنا القومية فستكون نهاية فرنسا .

الجانب الألماني . - لقد ظلت ألمانيا مصممة على عدم طرح قضية
الالزاس - لورين . وقد صرح بذلك كابريني ، اول خلف لبسمارك ،
في الرايخشتاغ في شباط ١٨٩٣ : « ان ألمانيا لتفضل اراقة آخر نقطة من
دمها على ان تعيد الالزاس - لورين » . ومن المفيد أن نرى أنه خلال
ثلاث مرات : في حزيران ١٨٩٨ ، وفي أيار ١٨٩٩ ، وفي آذار ١٩٠٠ ،
ونعلم ذلك من الوثائق الدبلوماسية المنشورة ، ان المستشار الألماني بلوف
قام بمحاولات ، لدى الحكومة الفرنسية ، كان غرضها واحداً دوماً : هل
تقبل فرنسا حلفاً مع ألمانيا وروسيا ، حلفاً « قارباً » مع العلم بأن
الشرط الأولي لهذا الحلف هو الاعتراف الصادق والصريح بمعاهدة فرنكفورت
فلم تجب الحكومة الفرنسية على هذه العروض .

الدور الثالث : ١٩١١ - ١٩١٤

بعد ١٩١١ ، وبالرغم من تطور السياسة الألمانية في الالزاس - لورين
من حيث منح دستور ١٩١١ ، تشاهد بقطعة في الرأي العام الفرنسي :
فقد أصبحت قضية الالزاس - لورين أكثر حيوية بما كانت عليه في السنوات
السابقة . وهذا يرجع إلى الحالة الدولية عموماً : كالصعوبات الفرنسية -
الألمانية في قضية مراكش وأزمة اغسادير والتهديد الخيم بالحرب ؛ وإلى
مايسر في الالزاس - لورين أيضاً : وبخاصة ، في آخر ١٩١٣ ، وهو
حادث سافيرن الذي تكلمنا عنه آنفاً .

اتجاهات الرأي العام في فرنسا . - من المؤكد أنه يوجد ثلاثة اتجاهات على الأقل :

١ - الاتجاه الأول ويمكن أن يسمى « الاتجاه القومي » . فقد لوحظ في ١٩١٢ - ١٩١٣ أن هذا الاتجاه القومي أخذ بالتقدم : ففي الصحافة الفرنسية ترى تلميحات عديدة إلى حرب فرنسية - ألمانية ممكنة ، وتلميحات متكررة إلى قضية الألزاس - لورين .

وكان سفير فرنسا في برلين جول كامبون ينكر ، وعلى كل حال ، بأسف لافراط الصحافة القومية . ولاشك في أن الرأي العام في قسم عظيم منه ، في فرنسا ، قد تبسّع العناصر القومية أثناء قضية سافيرن ، في آخر عام ١٩١٣ ، لأنه كان يرى في هذه القضية ظفر ما كان يسمى « حزب السيف » في ألمانيا والدليل على أن الألزاسيين - لورينيين كانوا يعاملون مواطنين من « المنطقة الثانية » . وهكذا استيقظت بالتأكيد ذكرى الألزاس في الرأي العام الفرنسي . ولنشر مع ذلك إلى أن المراقبين الألمان ، في تقاريرهم عام ١٩١٣ ما فتؤوا يقولون إلى حكومتهم بأن هذه الحركة القومية سطحية جداً ، وأن الشعب الفرنسي ، بالإجمال ، كان مسالماً تماماً ولا يفكر أبداً بحرب مع ألمانيا .

٢ - وفي الطرف الآخر من الأفق السياسي نرى الحملة الاشتراكية . وكان غرضها : أن فرنسا يمكن أن تقبل قطعاً بمعاهدة فرنكفورت إذا منحت ألمانيا الألزاس - لورين استقلالاً ذاتياً كاملاً في نطاق الرايخ . هذا مع العلم بأن دستور ١٩١١ الذي منحه غليوم الثاني إلى الألزاس - لورين لا يقيم الاستقلال الذاتي التام ، بل كان تقدماً في اتجاه الاستقلال الذاتي ، ولا يساوي النظام الذي تفيد منه الدول الألمانية الأخرى .

٣ - وبين هذين القطاعين في الرأي ، القومي والاستراكي ، نريد أن نتعرف بحالة الرأي في الأوساط الأخرى . ولدينا على ذلك دليل يلفت النظر : وهو مامر في شهر أيار ١٩١٣ في المؤتمر البرلماني في برن . فقد قام البرلمانيون السويسريون بمبادرة عقد مؤتمر برلماني في برن . وجاء الى هذا المؤتمر نواب وشيوخ فرنسيون من جهة ؛ ومن جهة أخرى ، أعضاء من الراجشتاغ الألماني . وكان الفرنسيون اكثر من الالمان : ١٩٦ فرنسياً و ٤٤ ألمانياً فقط . وكان الالمان الذين أتوا الى مؤتمر برن استراكيين تقريباً . ووجد بين الفرنسيين استراكيين وراديكاليين . وصوت المؤتمر البرلماني في برن على افتتاح لصالح تقارب فرنسي - ألماني . ولكن جوريس أراد أن يضاف الى هذا الاقتراح مقطع اضافي يلمح فيه الى الالزاس - لورين . الا أن نصف الاعضاء الفرنسيين تقريباً في المؤتمر ، أي الراديكاليين ، رفضوا أن يوقعوا على جدول الاعمال لأنه يلمح الى الالزاس - لورين . وهكذا نرى ان الراديكاليين كانوا مسالمين ويرجون تقارباً فرنسياً - ألمانياً ، ولكنهم لا يقبلون بتدخل صريح عن الالزاس - لورين ، بل يريدون أن يبرروا القضية بصمت ، والا يطلب منهم أن يقولوا بصراحة بان فرنسا تتخلى عن المطالبة بالالزاس - لورين .

وفي هذا الدور الأخير ، لم تعالج قضية الالزاس - لورين الا قليلاً في العلاقات الدبلوماسية الفرنسية - الألمانية ، والحادث الوحيد كان قضية صغيرة حدثت في شهر آذار ١٩١٢ وهي : ان ألمانيا يدعى كارل دونيه ، وكان عاملاً شبه رسمي في وزارة الشؤون الخارجية الألمانية في بعض مفارشات استعمارية ، جاء لرؤية سفير فرنسا في برلين ، جول كامبون ، وصرح اليه أن مساعد أمين الدولة الألمانية في الشؤون الخارجية ، تسيمومان ، على استعداد لاعطاء تنازلات واسعة فيما يتعلق باستقلال الالزاس - لورين

الذاتي » ، إذا قبلت السياسة الفرنسية أن تتطور من جهة ألمانيا . وفي عادات ثانية أوضح كادل رونييه بأن تسييرمان مستعد للتفاهم مع فرنسا على أساس الاستقلال الذاتي القام للألزاس - لورين في نطاق الأمبراطورية وتحييد الألزاس - لورين ، أي عدم وجود حدود ألمانية في الألزاس - لورين ، فلم يجب السفير الفرنسي ونقل تصريحات رونييه إلى الحكومة الفرنسية ، فأجاب رئيس مجلس الوزراء ، ريمون بوانكاريه ، في ٢٧ آذار ١٩١٢ ، بهذه العبارات إلى سفير فرنسا في برلين : « إذا أصغينا إلى اقتراحات كاتراحات السيد رونييه ، أفسدنا علاقاتنا مع إنكلترا وروسيا ، وأضعنا كل الفائدة التي نتابعها سياسة فرنسا منذ سنوات طويلة ، ولا نحصل من أجل الألزاس إلا على رضى وهمي ، ونجد أنفسنا في اليوم التالي معزولين ومتصاغرين وفاقدين اعتبارنا » .

ولم يقبل بوانكاريه المحادثة . ولنلاحظ أن هذا الحادث لم يكن له أي أهمية عملية ، لأن وثائق المحفوظات الألمانية برهنت ، منذ ذلك الحين ، على أن كارل رونييه لم يكن مندوباً مطلقاً من الحكومة الألمانية ، بل جاء ليرى سفير فرنسا دون أن يكون مكلفاً من أحد بهذا المسعى . ولكن هذا الحادث يبقى له معنى ، لأنه يدل في العام ١٩١٢ على أن الحكومة الفرنسية كانت تحافظ على الموقف الذي لم يتغير وحافظت عليه دوماً منذ ١٨٧١ : وهو أنها لا تستطيع أن تتخلى صراحة عن الألزاس - لورين ، وتعطي ألمانيا وعداً بالا تطرح قضية الاقليمين المفقودين على بساط البحث .

الفصل الحادي وعشرون

الحركة القومية الكاتالونية

لقد وجدت في اسبانيا ، من جهة في بلاد البشكنس (الباسك) ، ومن جهة أخرى ، في كاتالونيا ، حركات قدعو باسم مبدأ القوميات . وكانت للحركة الكاتالونية أهمية خاصة في الحياة السياسية الاسبانية . وفي الحقيقة ، ان أهمية هذه الحركة الكاتالونية لم تظهر بكاملها الا بعد حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ . فقد أوجدت القضية الكاتالونية للحكومة الاسبانية ، صعوبات خطيرة . ولهذا الحركة أصول ترجع الى ما قبل ١٩١٤ . ولمعرفة هذه الأصول لابد لنا من دراسة ماضي كاتالونيا وتبيان الحد الذي استطاع به الشعب الكاتالوني ان يبرز ملامح مميزة « لحركته القومية » ، ثم الظروف التي حدثت فيها اليقظة القومية في كاتالونيا ، وأخيراً ، المطلب السيامي لهذه الحركة قبل ١٩١٤ .

١ - كاتالونيا

جغرافية كاتالونيا . - كاتالونيا هي المنطقة الواقعة في الشمال الشرقي من اسبانيا وتضم أقاليم بارسلونة وجيرونة ، وتاراغونه وليريدا ، أي المنطقة التي تضم ارضا مثلثة الشكل يحدها من الشمال جبال البيرينة الشرقية ، ومن الشرق ، البحر المتوسط ، ويبلغ طول شواطئها ٤٠٠ كم تقريباً . وهي بالاجمال بلاد

جبلية ، وتؤلف السهول فيها ما يقارب ربع السطح العام . ويتراوح ارتفاع سلسلتها الجبلية الشاطئية الصغيرة بين ٣٠٠ و ٤٠٠ متر . وسلسلتها الوسطى أهم وتتراوح ذراها بين ارتفاع ١٢٠٠ و ١٧٠٠ متر ، وأخيراً ، في الشمال ، الكتلة البيرينية ويقارب ارتفاعها ٣٠٠٠ متر .

كان شعب كاتالونيا ، في القرن التاسع عشر ، نحو مليونين ونصف المليون نسمة ، أي ما يعادل عشر شعب اسبانيا تقريباً . وهو شعب نشيط يتألف من ملاحين وفلاحين وعمال يتصفون بالفكر العملي والحماسة للعمل . وفي آخر القرن التاسع عشر ، ازدهرت الصناعة الكاتالونية ، رغم أنه لا يوجد في الارض الكاتالونية مناجم حديد أو فحم ، ولكن يوجد فيها صناعة نسيجية . ويمثل انتاج المنسوجات القطنية في كاتالونيا ٩٦٪ من الانتاج الاسباني . وتوجد فيها صناعة كياوية تستعمل بخاصة املاح البوتاس .

تاريخ كاتالونيا . - هذا ويجدر بنا أن نعطي كلمة مربعة ومقتضبة عن تاريخ كاتالونيا .

عندما لاحق الفرنجة العرب ودخلوا اسبانيا ، استولى شارلومان على بارسلونه ، وبقي خلال عام سيد كاتالونيا . وفي عهد لويس النقي تألفت كونتية بارسلونه ، ولكن هذه الكونتية رفضت فيما بعد الاعتراف بهوغ كابيت ملكا على فرنسا ، وعاشت كونتية بارسلونه أي كاتالونيا حياة مستقلة . وفي القرن الثاني عشر ، أصبحت كاتالونيا دولة كبرى تشمل قسماً من جزر الباليار ، جزيرة ماجوركا ، كما تشمل قسماً من الارض الفرنسية الحالية ، في منطقته روسيون . حتى ان قار قاصونة خلال فترة من الزمن ، في القرن الثاني عشر ، كانت تؤلف جزءاً من دولة كاتالونيا .

وبعد ١١٦٢ توسعت دولة كاتالونيا في اتجاه بروفانس . وظلت هذه الدولة هامة حتى بداية القرن الخامس عشر . ولكن السلالة الكاتالونية انطفت في ١٤١٢ ، واتحدت كاتالونيا بأراغون . وفي ١٤٧٩ اتحدت آراغون بدورها بقشتالة ، وبالتالي خضعت كاتالونيا لهيمنة قشتالة .

ولقد تأملت كاتالونيا في الدور الذي تلا مباشرة إلحاقها بقشتالة بسبب حادثين دوليين :

١ - لأن استيلاء الاتراك على القسطنطينية خولهم نفوذاً في البحر المتوسط ، وتأملت ، على اثره ، تجارة كاتالونيا المتجهة نحو البحر المتوسط بسبب منافسة سفن افريقية الشالية لها في هذا البحر .

٢ - لأن اكتشاف امريكا على يد كريستوف كولومب حول النشاط التجاري للموانئ الاسبانية ، نحو الاطلسي ، بعد أن كانت تتجه ، حتى الآن ، نحو حوض البحر المتوسط . ووجدت كاتالونيا البلد المتوسطي ، بسبب هذا الحادث ، في شروط ملائمة أقل مما في السابق .

ثم ان الملك فيليب الثاني طبق في اسبانيا ، في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، سياسة مركزية ، وأرسل إلى كاتالونيا اكليروساً قشتالياً . واستمرت هذه السياسة في عهد خلفائه ، فاحتجت كاتالونيا ، وقامت حركة ثورية في ١٦٤٠ ، ولكن ملك اسبانيا قمع هذه الثورة في ١٦٥٢ . ثم قامت حركة تمرد جديدة في كاتالونيا في الوقت الذي أصبح فيه دوق آنجو ملكاً على اسبانيا . وفي هذه المرة قمعت الملكية الاسبانية الثورة الكاتالونية واستسلمت بارسلونه في ايلول ١٧١٤ ووضع ملك اسبانيا فيليب الخامس ادارة المنطقة في أيدي الموظفين القشتاليين .

وفي القرن الثامن عشر ، زادت الادارة الاسبانية الاجراءات

المركزية : فمن ذلك ان حرم استعمال اللغة الكاتالونية أمام المحاكم . وحذفت الجامعات الموجودة في كاتالونيا وعددها خمس واستعوض عنها بجامعة اسبانية واحدة . وأخيراً طبق النظام الضريبي الاسباني بكامله تقريباً في كاتالونيا . ومع هذا حافظت كاتالونيا على نظام خاص من الوجهة الحقوقية ، فمن ذلك أن المحاكم ظلت تطبق الحق الكاتالوني ولم تطبق الحق الاسباني .

وفي آخر القرن الثامن عشر خضع الكاتالونيون إلى نفوذ قشتالة . وأضربوا للقشتاليين حقداً أكيداً وشعروا بضرورة تشكيل « أمة » خاصة . ولكن هذه العاطفة القومية الكاتالونية لم تكن عاطفة « محرصة » . وباختصار ، خضع الكاتالونيون واستسلموا .

وظهر الدليل على هذا التسليم بما جرى في الدور النابوليوني . ففي ١٨٠٦ تمت فكرة احتلال كاتالونيا في الاوساط الرسمية الفرنسية : فقد فكر تاليران بأن احتلال فرنسا لهذا البلد يمكن أن يلجم الحكومة الاسبانية ، حتى انه فكر بأن من الممكن أن يوجد في كاتالونيا ، نظراً لكراهة الكاتالونيين للاسبانيين عموماً ، بعض العطف الذي يمكن للحكومة الفرنسية أن تستغله لصالحها . وفي آخر شباط ١٨٠٨ دخلت الجيوش الفرنسية بارشونة . وعلمت الحكومة الاسبانية بالأمر ، قبيل الحادث ، ولم تحتج ، ودام الاحتلال خمسة أعوام . ولا مجال للشك في عواطف الشعب الكاتالوني في هذا الدور . وقد درست القضية في اطروحة الدكتوراة للسيد بيمير كوفار وعنوانها : « نابوليوت وكاتالونيا » . ويمكننا أن نرى في هذا العمل العظيم تاريخ الاحتلال الفرنسي يوماً بيوماً . لقد كان الكاتالونيون مجمعين على الاحتجاج ضد الاحتلال الفرنسي . وظهر استياؤهم حيال نظام الاحتلال الذي أدى إلى السلب والنهب ونفوذ

الاكايروس الكاتالوني الذي يخشى أن تطبق في كاتالونيا المبادئ الفرنسية ، أي مصادرة أموال الاكايروس . وقبل بعض الموظفين فقط « التعاون » في برشلونة مع السلطات الفرنسية . أما جمهور الشعب ، وبخاصة « الشعب الصغير » ، على العكس ، فقد احتفظ حيال فرنسا ، بتصرفات سيئة باستمرار . وفي الريف الكاتالوني لم تنقطع الثورة ضد فرنسا في ١٨٠٩ و ١٨١٠ .

وفي هذه الأزمة النابوليونية ، لم يقم الكاتالونيون برد فعل يختلف عن رد الفعل الذي قام به الاسبانيون عموماً . فقد أظهروا ، حيال فرنسا ، نفس العداء الذي أظهره الشعب الاسباني . وما من أحد تقريباً في كاتالونيا كان يرى أن بالامكان الافادة من الاحتلال الفرنسي للانفصال عن اسبانيا .

وبعد أزمة الثورة والامبراطورية ، أعيد تنظيم الدولة الاسبانية ، ابتداءً من ١٨١٤ ، واستأنفت الحكومة الاسبانية حيال كاتالونيا السياسة التي سلكتها في الماضي . حتى انها قوت سياسة المركزية . وبين ١٨٢٢ و ١٨٧٥ - ١٨٧٧ ظل جهد المركزية مستمراً . ومن جهة أخرى ، قامت الحكومة الاسبانية بتوحيد الحقوق . فقد حافظت كاتالونيا حتى الآن على قانونها المدني وقانون العقوبات ، ولكنها فقدت هذا الامتياز . وطبقت المحاكم الكاتالونية ، ابتداءً من ١٨٢٢ و ١٨٢٩ القانون الاسباني . ومن جهة أخرى ، قامت الحكومة الاسبانية بتوحيد التعليم : وابتداءً من ١٨٢٥ حرم التعليم باللغة الكاتالونية في المدارس . وأخيراً وحدت العملة ، بعد أن حافظت كاتالونيا ، حتى ١٨٣٧ على نظام نقدي خاص بها وفقدته بهذه المناسبة .

وهكذا وجدت كاتالونيا ، في منتصف القرن التاسع عشر ، خاضعة بصورة وثيقة للإدارة الاسبانية ، وفقدت تقريباً كل ما كان يؤلف فرديتها . ومع ذلك فقد بقي في كاتالونيا صفة مميزة : وهي اللغة . فقد كانت الكاتالونيون يتكلمون ويتكلمون دوماً اللغة الرومانسية ذات الاصل اللاتيني ، والمستتقة مباشرة من اللاتينية ، والمتميزة تماماً عن القشتالية . وكان لهذه اللغة الكاتالونية ، في القرن الثاني عشر ، أهمية عظيمة : ونشرت لها آثار شعرية وآثار أدبية ، ومؤلفات حقوقية .

ثم إن تركيب الجملة في اللغة الكاتالونية يشبه تركيبها في اللغة الفرنسية أكثر من القشتالية . ومنذ ١٨٢٥ لم يسمح بتعليم اللغة الكاتالونية في المدارس ، وبخاصة ، كفت البورجوازية والارستقراطية في المدن عن التكلم بالكاتالونية . ولكن الشعب ظل يتكلم بلغته ، ويشجعه الاكليروس على ذلك . وكان الكهان يبشرون باللغة الكاتالونية . واستمرت البلديات في استعمال اللغة الكاتالونية وكذلك التجار في علاقات الأعمال . وبالرغم من هذا الاختلاف اللغوي الموجود ، فمن الممكن القول بأنه لا يوجد ، حوالي العام ١٨٣٠ ، « احتجاج كاتالوني » على النظام الاسباني .

٢ — اليقظة الكاتالونية

لم تحدث هذه اليقظة استجابة لفكر « محلي » بل استجابة لفكر « اوروبي » ، لأن تأثير الحركة « الابداعية » كان في أصل اليقظة الكاتالونية . والابداعية كما نعلم تبحث عن إثارة الذكريات التاريخية والاعتماد على إعادة بناء الماضي . وكان الكتاب الابداعيون ، وبخاصة الابداعيون الانكليز يتمتعون بخطوة في كاتالونيا ويقرؤون فيها كثيراً . وقد استلهمت الحركة القومية الكاتالونية نوعاً من هذا التأثير .

وتجلت هذه اليقظة بعدة مظاهر نذكرها فيما يلي :

النهضة الأدبية . - يلاحظ في كاتالونيا ، تحت تأثير الابداعية ، نزعة لدراسة الماضي واخلاق الماضي ، والتقاليد الشعبية ، والاهتمام عن كسب باللغة الكاتالونية . فقد نشر أول نحو للغة الكاتالونية في ذلك الحين . وكان المحرك لهذه النهضة الأدبية كارلوس آرييو الذي نظم في ١٨٣٣ ، باللغة الكاتالونية ، قصيدة تسمى « نشيد الوطن » ثم تمت هذه النهضة الأدبية في كاتالونيا فيما بعد في اثر دوبيو اي اووس ، وهو كاتب وفقيه نشر ، في ١٨٤٠ ، قصائد باللغة الكاتالونية ، وفي اثر ييفور ، وهو مؤلف مجموعة اغاني وقصائد باللغة الشعبية . وعادت اللغة الكاتالونية لغة أدبية ، على حين أنها ، منذ قرنين ، كانت تنزع لأن تكون لغة شعبية .

وظهرت اللغة الكاتالونية ، باعتبارها لغة أدبية ، في ١٨٥٩ ، بتأسيس « العاب زهرية » في برشلونة كان لها تأثير كبير في حث استعمال اللغة الكاتالونية ، ونشر استعمال اللغة القومية في الشعب المثقف في كاتالونيا ، وفي أوساط البورجوازية والارستقراطية . وقد أيقظ هذا العمل الفكري عاطفة النعرة الكاتالونية .

المنافع الاقتصادية . - وازدادت هذه اليقظة بتأثير المنافع الاقتصادية . فقد أخذ النشاط الاقتصادي في كاتالونيا ، في القرن التاسع عشر ، سياء تختلف عن سياء اسبانيا عموماً . وهذا يرجع إلى أن الحكومة الاسبانية في ١٧٧٨ ، في عهد الملك شارل الثالث ، ألغت الحصر الذي منح حتى الآن إلى ميناء قادس وميناء اشبيلية من أجل العلاقات مع الممتلكات الاسبانية في أمريكا : فحتى ١٧٧٨ ، كانت التجارة الاسبانية مع الممتلكات

الاسبانية في أمريكا تجري بواسطة أحد هذين الميناءين . وقد ساعد الغاء الحصر بارسلونة على المشاركة بالتجارة ، وأدى ذلك إلى إنشاء صناعات مختلفة في بارسلونة : صناعة الحرير والصوف ، اللذين كانا ، في الأصل ، مخصصين لتجهيز مواد التصدير إلى المستعمرات في أمريكا . وفي بداية القرن التاسع عشر ، حوالي ١٨٢٥ - ١٨٣٠ ، عندما بدأ استخدام الآلة ينتشر في أوربه ، على مثال انكلترا ، أصبحت كاتالونيا أهم مركز صناعي في اسبانيا . وابتداء من ١٨٤٠ ، كان تفوق كاتالونيا في الصناعة حادثاً معروفاً . وهذا مايمثله في بحثنا . فقد وجد الصناعيون الكاتالونيون في اختلاف مصالح مع باقي اسبانيا بسبب النظام الجمركي : وكانت الحكومة ، في ذلك العصر ، ترجو نظام التبادل الحر ، أو ، على كل حال ، نظاماً يقتضي رسوماً جمركية معتدلة . وعلى العكس ، كان صناعيو النسيج الكاتالونيون بحاجة إلى نظام حماية جمركية يمكنهم من النضال ضد المنافسة الأجنبية . وعلى صعيد هذه المنافع الاقتصادية ، بدأت كاتالونيا تشعر بأنها تمثل شيئاً يختلف عن باقي البلاد الإسبانية .

المظهر السياسي .- وأخيراً أخذت هذه النهضة مظهراً سياسياً ، وظهرت نقطة انطلاق هذه الحركة السياسية في ١٨٦٠ . وفي هذا الحين نشر مؤلف كورتادا المسمى « كاتالونيا والكتالونيون » . وفي هذا المؤلف ، ينتج كورتادا على السياسة المركزية التي سلكتها الحكومة الاسبانية منذ عصر فيليب الثاني . وبعد قليل ظهرت كتب بي أي مارغال والميرال . فقد وضع بي أي مارغال قضية بنية الدولة واوصى بتحويل اسبانيا الى دولة اتحادية . وأنشأ الميرال ، في ١٨٨٠ ، منظمة أخذت اسم « المركز الكاتالوني » ، وكانت ترمي الى الدفاع عن حقوق كاتالونيا ضد الادارة الحركات القومية ٣ - (٢٨)

الاسبانية . وفي ١٨٨٦ نشر الميرال كتابه الأسامي « الكاتالونية » . وعرض في هذا الكتاب مطالبة الكاتالونيين بالاستقلال الذاتي . ولنلاحظ أنه طرح بصراحة كل فكرة انفصالية ، ولم يكن ليريد أن يجعل من كاتالونيا دولة مستقلة ، بل قبل ان يراها تعيش في اطار الدولة الاسبانية ، و اراد ان يبدل بنية الدولة في الاتحاد الذي دل عليه بي أي مارغال ، أي في اتجاه البنية الاتحادية ، (الفيدرالية) .

ومع ذلك ، لانجسد في حركات الأفكار هذه وحدة كاملة : فقد كان بعضهم « تقليديين » ويريدون تأمين نظام خاص لكاتالونيا وارجاع « الشخصية التاريخية » لكاتالونيا ، ولكنهم لا يهتمون مطلقاً بقضايا الدولة العامة . والآخرين يتقيدون بمثل اعلى مجرد ويريدون أن يعملوا باسم مبدأ يمكن أن يؤدي الى تنظيم جديد عام للدولة الاسبانية .

وقد تأكد هذا الوعي القومي بعد ذلك بقليل في كتابين أو ثلاثة كتب تضم ، بالاجمال ، الأسامي من مذهب القومية الكاتالونية : كتاب توراس أي باجس وكتاب دوران أي فانتوزا ، وبخاصة كتاب برات آل ريبا . ونشر توراس أي باجس في ١٨٩٣ كتاباً يسمى « التقاليد الكاتالونية » . وكان هذا المؤلف كاهناً ، ثم أصبح اسقفاً في كاتالونيا . وفي كتابه يطبق مبادئ « حركة القوميات » بملاحظة تاريخ كاتالونيا ومحاول ان يري ان بالامكان وجود روح كاتالونية ظهرت في مختلف العهود في اثر المفكرين والشعراء ورجال الدين . أما دوران أي فانتوزا ، فقد نشر في ١٩٠٥ مؤلفاً يسمى « الافليمية والاتحادية » ، ودرس فيه قضية الدولة الاتحادية وقضية كونفدراسيون الدول من وجهة النظر الحقوقية . وأخيراً نشر برات آل ريبا في ١٩٠٦ ، مؤلفاً أساسياً يسمى « القومية الكاتالونية » ، وأعطى فيه تعريفاً للعاطفة القومية الكاتالونية ، ودل على أن

الكاتالونيين ، المذكري التي تخامرهم في التقاليد القومية ، يشكون من نظام المركزية الذي فرضته عليهم حكومة مدريد ، وانهم يشعرون بتشكيل « كتلة طبيعية » ، وباختصار ، انهم يريدون أن يبقوا « كاتالونيين » .

٣ - الدور العملي للمطالبة الكاتالونية في حياة اسبانيا السياسية

وابتداءً من ١٨٨٥ تأكدت هذه المطالبة الكاتالونية في الوقائع . فقد دعا « المركز الكاتالوني » ، الذي تكلمنا عنه ، جميع الكاتالونيين لتجديد البلاد خارجاً عن نفوذ مدريد ، ودعا مشتركه إلى اجتماعات اهدت فيها « مذكرة للدفاع عن منافع كاتالونيا المعنوية والمادية » ، ووجهت هذه المذكرة إلى الملك ألفونسو الثاني عشر ، وفيها طالب الكاتالونيون بتأسيس نظام اقليمي في كاتالونيا مستوحى ، « من النظام الساري في النمسا - هونغاريا » (وهذه العبارة غامضة) . وفي الوقت نفسه أكد مؤلفو هذه المذكرة لزوم الحفاظ على وحدة الوطن الاسباني . وفي الحقيقة ، لم يكن لهذه المبادرة أي مفعول في مدريد . فقد استقبل الملك بودي المندوبين الكاتالونيين ، وقال بأنه هذا الأمر يرجع إلى وزارته ، ودفنت الوزارة القضية .

وفي آذار ١٨٩٢ ، تشكل تجمع جديد يسمى « الاتحاد الكاتالوني » ودعا الى مجلس يعقد في مانريسا ، إحدى مدن كاتالونيا ، يحضره مندوبون عن جميع أجزاء البلاد . وقد حضر مجلس مانريسا ٢٤٣ مندوباً عن خمسة عشر اقلياً كاتالونياً . وحرر هؤلاء المندوبون وثيقة أساسية ، بسبع عشرة مادة ، وسميت هذه الوثيقة « أسس مانريسا » وتشكل ميثاق المطالب الكاتالونية حتى ١٩١٤ .

وثيقة أسس مانريسا . - تقترح هذه الوثيقة تنظيم الدولة الاسبانية من جديد على الأسس التالية :

١ - أن تظل حكومة مدريد ، الحكومة المركزية الاسبانية ، مختصة بالقضايا العائدة للعلاقات الخارجية ، وتدخل في ذلك العلاقات الاقتصادية ، والجيش ، والاسطول ، والعلاقات مع الكنيسة ، والاشغال العامة ذات النفع العام .

٢ - ان تحصل كاتالونيا على الاستقلال الذاتي في جميع القضايا الأخرى ، أي أن يكون لها تشريعها الخاص المدني والجزائي ، ونظامها البوليسي ، والضريبي ، والتعليمي الخاص .

٣ - أن يكون جميع الموظفين وجميع أعضاء الاكايروس ، في كاتالونيا ، كاتالونيين بخاصة .

٤ - ان تستعمل اللغة الكاتالونية وحدها في الادارة في كاتالونيا .

٥ - أن تتأمن ادارة كاتالونيا ، في الأمور الآتفة الذكر ، بمجلس اقليمي منتخب يعين لجنة تنفيذية مؤلفة من خمسة أو سبعة أعضاء .

ونظم الاتحاد الكاتالوني دعاية على هذا الأساس بنشر « موجز المذهب الكاتالوني » ، فلاقى هذا الموجز نجاحاً كبيراً . وقد وضع هذا الموجز « بشكل أسئلة وأجوبة » وفيه نجد توكيدات قاسية حيال اسبانيا : ويقول : إن وطن الكاتالونيين كاتالونيا لا اسبانيا ؛ وان الدولة الاسبانية « انشاء اصطناعي » ، وان كاتالونيا ، على العكس ، أمة ، لأن للشعب الكاتالوني عاطفة مشتركة . وهكذا نرى ، دون لفظ الكلمة ، امكان تأسيس حركة انفصالية على أساس « موجز المذهب الكاتالوني » .

الحركة الانفصالية . - تمت هذه الحركة أثناء الحرب الاسبانية -
الاميركية : وهي الحرب التي فقدت فيها اسبانيا ، في ١٨٩٨ ، كوبا ،
أكبر مستعمرة في الأنتيل ، وجزر الفيليبين ، أكبر مستعمرة اسبانية
في المحيط الهادي . وأدت هذه الحرب الاسبانية - الاميركية إلى دمار
الامبراطورية الاستعمارية الاسبانية ، لأن الاسبان « صفوا » فيما بعد
مابقي لهم من ممتلكات في المحيط الهادي ، عندما باعوا الباقي إلى ألمانيا .
وأدت الحرب إلى سقوط الصادرات وإلى أزمة اقتصادية . وعززت هذه
الأزمة العاطفة « الكاتالونية » : فقد احتج الكاتالونيون على طرق مدريد
السياسية التي أدت إلى انحطاط القوة الاسبانية في العالم . وبفضل هذا
الضيق الذي ران على اسبانيا عقب هزيمة ١٨٩٨ صدرت رسالة تسمى
« القضية الكاتالونية » ، اشترتها « اللجنة القومية » الكاتالونية المقيمة في
باريس ، وفيها عبرت بوضوح ، في هذه المرة ، عن الفكرة الانفصالية
التي يمكن بموجبها الانفصال عن المملكة الاسبانية لمحاولة تشكيل دولة
مستقلة .

وفي الحقيقة ، يجب ألا نأخذ هذه الفكرة الانفصالية مأخذ الجد كثيراً ،
لأن الصناعة الكاتالونية كانت ، عملياً ، بحاجة إلى السوق الاسبانية
لتنعيش . ولم تنصور الاوساط البورجوازية ، في أي وقت ، الانفصالية
التي كانت فقط مذهب بعض المفكرين المتحمسين المندفعين .

وفي نيسان ١٩٠٠ عقدت العناصر المناضلة ، في كاتالونيا ، اجتماعاً
لتشكيل منظمة ، سميت « العصبة الاقليمية » لان « الاتحاد الكاتالوني »
بدا معتدلاً . وأعلنت العصبة بأنها تريد أن تعمل ، ولكن بوسائل
قانونية فقط ، للحصول على الاستقلال الذاتي لكاتالونيا في داخل الدولة

الاسبانية . وعلى رأس هذه العصبة وجد رجال سيلعبون في المستقبل دوراً هاماً في الحركة الكاتالونية فخص بالذكر منهم فرانسييسكو كامبو ، وبويغ أي كادا فالش ، وبرات آل ريبا .

وفي تموز ١٩٠١ رفعت العصبة الاقليمية لأول مرة القضية الكاتالونية إلى البرلمان الاسباني ، فسمع عرضاً كاملاً للمطالب الكاتالونية . ولم تتصور الحكومة الاسبانية أن تتنازل لهذه المطالب : بل اقتضت على اقتراح حلول متواضعة جداً ، مثلاً ، وذلك باعطاء حقيبتين في الوزارة إلى كاتالونيين ، أو قبول استقلال جامعة برشلونة . ورأى الكاتالونيون أن هذا غير كاف ، ولذا قامت مظاهرات فريدة بعد عدة أشهر بمناسبة زيارة الاسطول الفرنسي لميناء برشلونة ، وقام الشعب يصرخ : « لتسقط اسبانيا » ، وغنى نشيد « الماريسيز » . ولا يعني هذا أن الكاتالونيين يريدون الانفصال عن اسبانيا وطلب ضمهم إلى فرنسا ، بل كان واسطة اظهار مزاج ميء ضد الدولة الاسبانية .

ولتهدئة المطلوب ، ارضت الحكومة الاسبانية المنافع الاقتصادية الكاتالونية ارضاءً جديراً بالتقدير بالاصلاح الجمركي الذي تم في ١٩٠٤ . ولقد رأينا أن الصناعة الكاتالونية كانت تطالب بنظام الحماية الجمركية . وحصلت كاتالونيا في هذا الحقل على ما يرضيها ، كما حصل أصحاب المصانع النسيجية الكاتالونيون على مضاعفة الرسوم الجمركية ، واقتصرت السوق الاسبانية عملياً ، ابتداء من ذلك الحين ، على الانتاج الكاتالوني ؛ وحذفت المنافسة الأجنبية .

ورغم هذا الارضاء ، الذي منحه الحكومة الاسبانية على الصعيد الاقتصادي ، شهدت السنوات التالية نكسة جديدة وعناد التحريض

على الاستقلال الذاتي في كاتالونيا . وفي ١٩٠٧ تأسس تجمع جديد أخذ اسم « التضامن » . وحصل هذا التجمع الجديد في الانتخابات التشريعية ، في نيسان ١٩٠٧ على نجاح عظيم : فعلى ٤٤ نائباً عن كاتالونيا وجند ٤١ نائباً يمثلون « التضامن » . وهكذا تقدم النواب الكاتالونيون بعرض مطالبهم من جديد على البرلمان الاسباني ، ولكن الاستقلال الذاتي الذي طلبوه كان أكثر تواضعاً مما نصوا عليه في برنامج ١٨٩٢ : فقد طالبوا فقط بأن تعهد الدولة الاسبانية ، في كاتالونيا ، إلى هيئات كاتالونية ، بإدارة القضايا المتعلقة بالاشغال العامة والتعليم والاحسان . ووعد رئيس الحكومة هووا أن يخول عدداً من الاجراءات اللامركزية شريطة « الحفاظ على وحدة الوطن الاسباني » . وانقسم الكاتالونيون على هذا البرنامج : وكانت رأي المعتدلين ، وعلى رأسهم فرانسيسكو كامبو ، قبول مشروع الحكومة . ولكن عناصر « اليسار » ، العناصر الجمهورية ، قالت إن مشروع الحكومة غير كاف . وعندئذ انحل تجمع « التضامن » ، وظلت الحياة السياسية مضطربة في اسبانيا خلال عدة سنوات . وقام النزاع بين العناصر المعتدلة والعناصر الجمهورية . ولكن الرأي العام تطور في ١٩١١ في الاتجاه الذي يفضله المعتدلون وهو الاكتفاء ببرنامج الحد الأدنى .

عندئذ سمحت الحكومة الاسبانية ، في قرار ١٨ كانون ١٩١٣ ، للبلديات في التجمع ، في منطقة واحدة ، لتشكيل رابطة . وسميت هذه الرابطة ، باللغة الاسبانية « رابطة البلديات » (مانكومونيتاد) . وقرر الكاتالونيون الافادة من هذا القرار الحكومي . وفي ٦ نيسان ١٩١٤ تجمعت البلديات الكاتالونية في « رابطة البلديات » ، وتقرر أن يكون لأقاليم

كاتالونيا مجلس عام ، مؤلف من ٩٣ عضواً ، يصوت على موازنة المنطقة ، ويسوي القضايا المتعلقة بالتعليم والأشغال العامة ، وينتخب لجنة تنفيذية من ثمانية أعضاء ، على أن يكون رئيس هذه اللجنة في الوقت نفسه رئيس الادارة في كاتالونيا . وكان هذا الرئيس ، في بادى الأمر ، في ١٩١٤ ، برات آل ريبا ، أي مؤلف « المذهب الكاتالوني » ، وبعد ذلك بقليل ، بويغ أي كادافاش ، الذي كان رئيس « رابطة البلديات » في ١٩١٨ .

النتيجة . - لقد وجدت منذ الآن فصاعداً ، في برشلونة ، هيئة مختصة بالقضايا العائدة للتعليم والأشغال العامة . وبإمكانها أن تنشئ مدارس يعلم فيها باللغة الكاتالونية ، وأن تنشئ طرقاً ، وجسوراً والنخ . وهذا شيء قليل . وهذا الإصلاح يدل على « لامركزية ادارية » ، ولكنه في فكر الكاتالونيين مرحلة نحو استقلال ذاتي أوسع : لقد اعتبر الزعماء الكاتالونيون أن « الرابطة البلدية » يمكن أن تصبح شيئاً فشيئاً أداة سياسية ، وعلى اعتبار أنها ستدفع رواتب هؤلاء الموظفين الكاتالونيين فإن هؤلاء الموظفين يمكن أن يصبحوا عملاء « الكاتالونية » .

وهكذا كان الكاتالونيون في ١٩١٤ بعينين جداً عما كانوا يطالبون به . لقد حصلوا على ارضاءات متواضعة ، ولكنهم رأوا ان هذه الارضاءات يمكن ان تؤلف نقطة انطلاق للحصول ، فيما بعد ، على ارضاءات اوسع . ويجب ان نعترف ان كاتالونيا لاتستطيع الحصول على اكثر من ذلك في العام ١٩١٤ ، لأن المطالبة بالاستقلال الذاتي لم تجد نقطة استناد في النقاط الأخرى من اسبانيا ، عدا البشكنس (الباسك)

ولقد برزت هذه الحركة اثناء الحرب العالمية الأولى ، لأن كل اضطراب ، خلال هذه الحرب ، مما حول « حق الشعوب في تقرير

مصيهرها . ففي آذار ١٩١٦ نشرت جريدة « صوت كاتالونيا » بياناً يقول فيه المحررون بعجز اسبانيا من وجهة النظر السياسية والاقتصادية والاستعمارية ، وينسبون هذا الانحطاط الى التفوق الذي تمارسه قشتالة . وان مايجب هو انشاء « اتحاد » بين مختلف مناطق اسبانيا على ان يكون لكل منها كامل الاستقلال الذاتي الاداري ، وحق الافادة من لغته الخاصة .

ثم استؤنفت المطالبة بالاستقلال الذاتي ، في تشرين الثاني ١٩١٨ ، واعدت جميع الأحزاب السياسية الكاتالونية ، في ذلك الحين ، مشروعا وبلغته ، في ١٩١٩ ، الى مؤتمر السلام . وقد أفادت جميع الشعوب ، من كوربا حتى ايرلنده ، من ظروف مؤتمر السلام للتعريف بأسباب استيائها من النظام السياسي الذي تخضع له . وقد أفاد الكاتالونيون من هذه الظروف ، كسائر الشعوب ، وارسلوا الى مؤتمر السلام مذكرة ولم يكن لهذه المذكرة أي نتيجة .

ولكن الحركة الكاتالونية أخذت في ١٩٢٢ طابعاً انفصالياً بظهور تجمع جديد سمي « الدولة الكاتالونية » وكان رئيسه ماسيا . وطالب هذا التجمع باستقلال كاتالونيا ، لا بالاستقلال الذاتي . واثناء دور دكتاتورية بريموادوريغيرا تبنت الحكومة الاسبانية ، حيال الكاتالونية ، سياسة القمع . وفي ١٩٢٥ حذفت نظام « رابطة البلديات » الذي وجد منذ ١٩١٤ ، وحذفت أيضاً « الألعاب الزهرية » التي وجدت منذ ١٨٥٧ . وحرمتم الحكومة الاسبانية على الاكايروس استعمال اللغة الكاتالونية ، وهذا ماكانت تفعله دوماً في كل عصور التاريخ . وحاول ماسيا أن يقاوم وينظم ثورة في كاتالونيا فأخفق .

وبعد سقوط الملكية في ١٩٣١ ، واعلان الجمهورية في اسبانيا أخذت

كاتالونيا نظاما في ١٩٣١ ، والفت ، في داخل الجمهورية الاسبانية ، جمهورية كاتالونية ، واختصت السلطة الاتحادية بالشؤون الخارجية ، والشؤون العسكرية ، والجمارك ، والقضايا المتعلقة بالهجرة وغيرها . والسلطة الاقليمية ، السلطة الكاتالونية ، اختصت بالقضايا الاقتصادية ، والتنقلات ، والقضايا المتعلقة بالصحافة والتعليم ، والشرطة المحلية ، والحقوق المدنية . أي ان الكاتالونيين ، في ١٩٣٢ ، حصلوا تقريبا وبصورة تامة على تحقيق البرنامج الذي وضع في ١٨٩٢ . ومن الممكن القول أن « أسس مانريسا » قد طبقت في السياسة الاسبانية .

الفصل الثاني والعشرون

قضية الوحدة الرومانية

حدود القضية الرومانية . - لفهم القضية الرومانية يجب الصعود إلى عصر الامبراطورية الرومانية . ففي ذلك العصر ، كانت المناطق الواقعة بين نهر الدانوب وجبال الكاربات مأهولة بالداسيين . وقد فتح الرومانيون داسيا واستعمروها ، وتبنى الداسيون اللغة اللاتينية ، لغة الرومان ، واللغة الرومانية مشتقة من اللغة اللاتينية . وتأثر الداسيون بنفوذ الحضارة الرومانية ، وتبنى الرومانيون ، أي الداسيون - الرومانيون بجمعهم ، إبتداءً من القرن الرابع عشر ، الديانة الارثوذكسية .

وفي بداية القرن التاسع عشر شكلت شعوب اللغة الرومانية كتلة كثيفة على نهر الدانوب وقوس جبال الكاربات في المناطق التي تسمى الأفلاق (فالاشيا) والبغدان (مولدا فيا) . وخارجاً عن هذه المناطق ، حيث يبدو السكان في كتلة كثيفة ومتجانسة ، وجدت مناطق مجاورة اختلطت فيها شعوب اللغة الرومانية بالشعوب الأخرى . ففي داخل القوس المشكلة بسلسلة جبال الكاربات ، في هضبة ترانسلفانيا ، كانت تختلط بالمجر والاممات والساكسون ، ولكن الرومانيين يؤلفون الأكثرية . وفيما وراء نهر البروت ، رافد الدانوب ، والدنيستر ، في المنطقة التي تسمى اليوم بسلارابيا ، كانت شعوب اللغة الرومانية تختلط بشعوب اللغة

الروسية . وأخيراً ، في جنوب مصب الدانوب ، في منطقة الدوبروجا ،
توجد شعوب رومانية مختلطة بشعوب بلغارية .

لقد شكلت الشعوب الرومانية ، في النصف الأول من القرن السادس
عشر ، أمارات مستقلة . ثم فتحت الامبراطورية العثمانية هذه البلاد ،
ولكن الامبراطورية العثمانية نفسها فقدت فيما بعد بعضاً من هذه المناطق :
فقد تخلت عن ترانسلفانيا في ١٦٨٩ إلى هونغاريا ، وتنازلت في ١٧٧٥
إلى النمسا عن البوكوفين ، أي عن الوادي الأعلى لنهر البروت . وأخيراً في
١٨١٢ تنازلت الامبراطورية العثمانية إلى روسيا عن بسارابيا أي عن المنطقة
الواقعة بين البروت والدنيستر .

وفي منتصف القرن التاسع عشر كانت البلاد المأهولة بشعوب اللغة
الرومانية مجزأة بين عدة دول ، وهي كما يلي :

في الامبراطورية الرومانية . - توجد ، في الافلاق والبغدان ، كتلة
كثيفة من الرومانيين في جنوب وفي جنوب - شرقي الكاربات ، وكانت
الافلاق والبغدان تحكمان من قبل امراء تابعين لسلطان القسطنطينية ،
ولكن روسيا ، منذ معاهدة أدرنة ، حصلت على حق تعيين الحكام من
هذين الاقليمين ، ولذا فان هذين الاقليمين مع بقائها جزءاً من الامبراطورية
العثمانية ، وجدا في الواقع ، تحت شبه - حماية روسية . وفي جنوب
مصب الدانوب ، في الدوبروجا الشمالية ، خضعت شعوب اللغة الرومانية
لادارة الامبراطورية العثمانية المباشرة ، ولم تؤلف جزءاً من أمارتي البغدان
والافلاق .

في الامبراطورية النمساوية . - وجدت الشعوب الرومانية في

امبراطورية النمسا ، التي أصبحت منذ تسوية ١٨٦٧ ، دولة النمسا - هونغاريا موزعة كما يأتي :

١ - في هضبة ترانسلفانيا ، في داخل قوس الكاربات ، وجدت الشعوب الرومانية مختلطة بالجر والساكسون ، ولكن تفوق الرومانيين كان واضحاً في هذه المنطقة ، ويمتاون أكثر من مليوني نسمة .

٢ - في البوكوفين ، أي منطقة وادي البروت الأعلى ، يحتل الرومانيون القسم الجنوبي ، والسلافيون القسم الشمالي .

٣ - في منطقة بانات - تيميسفار الواقعة في الجنوب الغربي من ترانسلفانيا ، في شمال بلغراد مباشرة ، وجدت الشعوب الرومانية مختلطة بشعوب اللغة الألمانية أي بأنسال المعمرين الالمان الذين أتوا إلى هذه المنطقة في القرن الثاني عشر ، وبشعوب اللغة الصربية .

في الامبراطورية الروسية . - وجد الرومانيون في الامبراطورية الروسية التي تملك بسارابيا منذ ١٨١٢ . وكان الرومانيون يؤلفون فيها الاكثية أي ٦٠٪ من السكان تقريباً . ويقدر عددهم من ٢٣٠٠٠٠٠ إلى ٢٥٠٠٠٠٠ روماني .

وبالإجمال ، يؤلف مجموع الرومانيين ، في منتصف القرن التاسع عشر ، كتلة من ٩ إلى ١٠ ملايين نسمة بحسب زارة بين ثلاث دول مختلفة : الامبراطورية العثمانية ، والنمسا ، والامبراطورية الروسية ، وامن أحد من هؤلاء الرومانيين كان يعيش في دولة مستقلة .

في ١٨٤٨ ، ظهرت حركة الاستقلال القومي في أمارات مولدافيا وفالاشيا وترانسلفانيا ، واضطر زعماء هذه الحركة إلى الاغتراب والالتجاء في الخارج . وجاء معظمهم إلى باريس وألفوا فيها ، منذ ١٨٤٩-١٨٥٠

كتلة ضمت زعماء « الحركة القومية » الرومانية ، بمن كانوا يحملون بتحقيق استقلال الشعوب الرومانية مثل : الاخوين براسيانو اللذين لعبا دوراً هاماً جداً ، والجنرال روزيني والأمير غيسكا . وعندما جاء هؤلاء الزعماء الشبان الرومانيون إلى باريس ، في ١٨٤٩ ، أو في ١٨٥٠ ، اتصلوا بالرجال الذين كانوا يمثلون آنذاك النخبة الفكرية في فرنسا ، مثل ميشليه ، ادغار كينيه ، فيكتور كوزن ، ليروم وجود قومية رومانية يحذر تشجيعها . ولكن بعد انقلاب نابوليون الثالث ، لم يبق لميشليه وفيكتور كوزن وادغار كينيه نفوذ سياسي ، فمال الرومانيون عندئذ إلى رجال العهد وحاولوا أن يتقربوا من نابوليون الثالث ، ونجحوا في ذلك بوساطة ابن عم الامبراطور ، الأمير جيروم ، وهو الذي قدم جان براسيانو إلى نابوليون الثالث .

ان الغرض الذي دعا إليه هؤلاء الرومانيون هو أنه ينبغي خلق رومانيا « حرة » بمساعدة فرنسا ، وقالوا ان فرنسا تستطيع أن تكون متأكدة من عطف وود المفكرين الرومانيين . وكان من عادة « المجتمع الروماني الطيب » أن يبعث شبانه إلى باريس لتحصيل دراساتهم العليا ، وكانت اللغة الفرنسية منتشرة بين أثرياء الناس في رومانيا .

وعلى اثر حرب القرم ، في ١٨٥٦ ، وضعت القضية الرومانية وأخذت حلاً جزئياً ، وأدت قرارات ١٨٥٦ إلى تشكيل دولة رومانية تضم البغدان (مولدافيا) والافلاق (فالاشيا) دون الشعوب الرومانية الأخرى .

ان قضية تشكيل الدولة الرومانية تتضمن مرحلتين : المرحلة الأولى من ١٨٥٦ إلى ١٨٥٩ ، وفي خلالها تحقق « اتحاد شخصي » بين

مولدافيا وفالاشيا ؛ والمرحلة الثانية من ١٨٥٩ إلى ١٨٦٧ وفيها تأسست الدولة الرومانية الأصلية .

١ - المرحلة الأولى : تشكيل الاتحاد الشخصي بين البغران والافونق (١٨٥٦ - ١٨٥٩)

لقد تحولت حالة الامارتين ، مولدافيا وفالاشيا ، أثناء حرب القرم ، لأن القيصر بعد أن احتل الأمارتين ، في بداية الحرب ، اضطر في حزيران ١٨٥٤ ، أن يجلو عنها ، ولأن النمسا ، وإن كانت غير محاربة ، بادرت واحتلت عسكرياً هذين الاقليمين مؤكدة بأنها ستعيدهما إلى تركيا في آخر الحرب .

وقد أبقظ هذا التحويل أمل القوميين الرومانيين . فقد كانوا ، حتى ذلك الحين ، يخشون السيطرة الروسية ، لأن الروس منذ معاهدة ادرنه ، كانوا يسيطرون على الامارتين . أما الآن فقد أصبح هم الرومانيين ألا تبقى النمسا سيده الوضع . ولهذا السبب نشر براسيانو ، في ١٨٥٥ ، كراساً يسمى « مذكرة عن النمسا في القضية الشرقية » ، ووسع ، في هذا الكراس ، الفكرة التالية : يجب تعمير أوربة الشرقية بالاعتماد على مبدأ القوميات ، أي بتشكيل دول تضم شعوب اللغة الواحدة . وان فرنسا تجد فائدتها في هذا الحل ، لأن الرومانيين ، إذا ما وصلوا إلى تأسيس دولة مستقلة بمساعدتها ، لا يسعهم إلا أن يعترفوا بجميلها . وهذا التأكيد مشكوك فيه ، وسنرى الدليل على ذلك عما قليل .

وعندما انتهت حرب القرم ، عاجلت معاهدة باريس ، في موادها من ٢٢ إلى ٢٧ قضية أمارتي مولدافيا وفالاشيا ، وقررت الغاء « حماية »

روسيا على الامارتين واجلاء النمسا عنهما ، ونصت على تنظيم جديد « للبلاد الرومانية » وذلك بأن يكون للامارتين ، مع بقائها تابعتين لتركيا ، « ادارة قومية مستقلة وذاتية » ، (وهذا التحرير غريب) ، لأن الدول في الواقع ، عند تحريرها لهذه المادة ، كانت تفكر بالاستقلال الذاتي لا بالاستقلال ، وقبلت بأن يكون لهذه الشعوب الرومانية الحق في إدارة نفسها بحرية ، ولكن دون تشكيل دولة مستقلة .

ووجب مواد معاهدة باريس يجب أن ينشأ مجلسان أحدهما في مولدافيا والآخر في فالاشيا . وعلى هذين المجلسين أن يعينا حاكمي الاقليمين . وعدا ذلك ، يجب أن تقوم لجنة دولية بتحقيق ميداني بغية طرح أسس النظام النهائي ، بعد أن تتاح الفرصة للسكان للتعبير عن آمانيهم .

وصلت لجنة التحقيق إلى بخارست ، في شهر آذار ١٨٥٧ ، وعاد الرومانيون الذين هاجروا في ١٨٤٩ إلى باريس إلى بلادهم منذ أن زال « النظام الروسي » وشكلوا لجنة سميت « لجنة الاتحاد » . وقامت هذه اللجنة بالدعاية لصالح الوحدة الرومانية . فاذا نجحت هذه الحركة ، أي إذا توصلت الأفلاق والبغدان إلى الاتحاد ، تشكلت ، على نهر الدانوب الأدنى ، دولة تقارب خمسة ملايين نسمة . وهذه الدولة التي تقبض على أفواه الدانوب ، ستحتل في اوروبا وضعاً هاماً على طرقي المواصلات الكبرى . ولهذا السبب أصبحت القضية الرومانية فجأة قضية دولية .

موقف الدول . - لذا يجب أن نفهم منافع الدول وموقف هذه الدول من القضية .

فرنسا . - كانت فرنسا لأول وهلة تجذب فكرة وحدة مولدافيا وفالاشيا ، واستلم نابليون الثالث زمام المبادرة واقترح اتحاد الامارتين ،

لأن هذا يتفق وتطلعات الامبراطور العامة ، فقد كانت بناصر مبدأ القوميات ، رغم أنه لم يدفع به دوماً حتى نتائجها المنطقية . ومن جهة أخرى ، كان نابوليون الثالث يرغب باعادة النظر في وضع اوربة الدولي ، كما حدد في ١٨١٥ . ولذا فإن إنشاء الوحدة الرومانية كان فرصة طيبة لاثارة إعادة النظر هذه . وأخيراً ، بدأ يفكر بالقضية الايطالية : فقد كان يعلم بأن من طبيعة هذه القضية اثارة حرب بين فرنسا والنمسا ، ولم يكن ليغضبه قيام دولة طيبة للنفوذ الفرنسي على الدانوب الأدنى ، يمكنها أن تضايق النمسا بتهديدها من الخلف .

وفي شهر نيسان ١٨٥٦ أعطى نابوليون الثالث إلى سفير فرنسا في القسطنطينية ، توفنيل ، تعليمات دقيقة لتشجيع وحدة مولدافيا وفالاشيا . ومن جهة أخرى ، كان قنصلا فرنسا في فالاشيا ومولدافيا ، بـكلار في بخارست ، وفيكتور بلاس في ياسي ، نشيطين ، في ١٨٥٧ ، في تشجيع حركة الوحدة الرومانية . وشهد ممثل فرنسا في لجنة التحقيق الدولية ، عندما جاء إلى بخارست ، في ١٨٥٧ ، تظاهرات عامة لصالح الاتحاد . وأخيراً صرحت « المونيتور » ، الجريدة الرسمية للحكومة الفرنسية ، في شباط ١٨٥٧ ، بأن رغبة نابوليون الثالث تحقيق اتحاد مولدافيا وفالاشيا وأن لا داعي للشك في السياسة الفرنسية ، لأنها ترغب في هذا الاتحاد .

المعارضة . - وجاءت المعارضة من ثلاث دول : تركيا ، انكلترا ، النمسا .

تركيا . - كانت تركيا سيدة هاتين الامارتين ، ومن الطبيعي الحركات القومية ٣ - (٢٩)

ألا تستسلم لأول وهلة لهذه التجزئة ، ولكنها استسلمت بسهولة في حرب
القرم ، لاسيا وانما كانت حليفة فرنسا .
انكلترا . - لقد كان مبدأ سياسة الحكومة الانكليزية دوماً ،
منذ بداية القرن التاسع عشر ، الحفاظ على سلامة الامبراطورية العثمانية :
لذا كانت معادية إلى الوحدة الرومانية ، وترى ، من جهة أخرى ، أن
هاتين الامارتين يمكن أن تكونا مسرحاً للمكائد الروسية . ولذا أعطت
الحكومة الانكليزية إلى عاملها في بخارست أن يعارض اتحاد الأمارتين
الرومانيتين « بجميع الوسائل المشروعة » . وفي الحقيقة ، إن هذا الرأي
لم يكن رأي جميع الانكليز : فقد وجد في مجلس العموم ، بعد قليل ،
نقاش كبير ، ووجد من دافع عن حق الرومانيين بالاستقلال ، ولكن وزير
الشؤون الخارجية أجاب بأن هذه الوحدة الرومانية ليست مطابقة لمصلحة
انكلترا .

النمسا . - كانت النمسا معادية بوضوح إلى الوحدة الرومانية .
ولا ترغب مطلقاً في رؤية تشكيل دولة على مصب الدانوب . وكانت
تخشى ، من جهة أخرى ، انعكاسات هذه الوحدة في صربيا ، لأن صربيا
كانت أيضاً اماراً تابعة لتوكيا : فاذا حصل الرومانيون على استقلالهم ،
فإن هذا الاستقلال يوحى إلى الصرب بفكرة المطالبة باستقلالهم . وأخيراً ،
كانت النمسا تخشى من أن تثير وحدة مولدايا وفلاشيا انعكاسات لها
في ترانسلفانيا : لأن الرومانيين ، من رعايا النمسا ، إذا رأوا أن
الرومانيين في مولدايا وفلاشيا شكلوا دولة مستقلة ، رغبوا أن يلتحقوا
بهذه الدولة . وهكذا كان للنمسا دواعيها في معارضة الوحدة الرومانية .
روسيا . - أما روسيا فلم تتقدم في البدء بشيء . ولكنها مالبت
أن رأت أن وحدة مولدايا وفلاشيا من طبيعتها اضعاف الامبراطورية

العثمانية . وضعف الامبراطورية العثمانية هدف دائم للسياسة الروسية في القرن التاسع عشر . ومن جهة أخرى ، إن هذه الوحدة الرومانية من طبيعتها مضايقة النمسا ، ولذا لم تغضب روسيا منها ، لأن القيصر يحقد على النمسا التي لم تدعمه في حرب القرم فحسب بل ومددته وأخيراً ، فكرت روسيا بأن هذه الوحدة المولدافية - الفلانية من طبيعتها اغاظة انكليترا ، ولذا رأى القيصر فيها فرصة لتهديم هذا الحلف الفرنسي - الانكليزي الذي كان معادياً لروسيا .

ولا عجب ، بعد أن رأينا اختلاف وجهات النظر ، إذا أثارت القضية الرومانية مفاوضات معقدة جداً في ١٨٥٧ و ١٨٥٨ .

المفاوضات . - لم يكن باستطاعة الرومانيين في ذلك الحين أن يعملوا بأنفسهم شيئاً كبيراً . ولا يمكنهم أن يعملوا إلا في الحد الذي تساعدهم فيه إحدى الدول الكبرى .

ولقد رأينا أنه توجب تشكيل مجلسين في الامارتين . وجرت الانتخابات ، ولكن الحكومة العثمانية دبرت الأمور « لتزييف » هذه الانتخابات : فقد أخرجت من القوائم الانتخابية $\frac{1}{3}$ السكان ، ولتمنع المطالبات أوقفت مصلحة البريد . ولذا ففي انتخابات تموز ١٨٥٧ ، وعلى الأقل في مولدافيا ، لأن الانتخابات فيها كانت أكثر حرية ، لم يستطع معظم الناخبين أن يصوتوا : فعلى ٢٠٠٠ ملك زراعي كبير ، مارس ٣٥٠ فقط حقهم في الانتخاب ؛ وعلى ٢٠٠٠٠ ملك صغير ، صوت ٢٣٠٠ . وعلى ٣٢٠٠ كاهن ، صوت ٢٩ . ولنلاحظ أن الحكومة التركية ، بتزييفها الانتخابات ، قد عملت باتفاق كامل مع الحكومة النمساوية . ولدينا عن ذلك وثائق واضحة ودقيقة في هذا المعنى :

فقد كتب السفير النمساوي في القسطنطينية إلى وزير الشؤون الخارجية النمساوي ، بأن « جميع الوسائط صالحة » لمنع الوحدة الرومانية . أما العامل الانكليزي في بخارست فقد صرح ، في تقرير له إلى حكومته ، بأن الانتخابات كانت « نظامية تماماً » . ولكن هذا الشكل من السلوك أثار احتجاجاً في الأوساط الرومانية .

طلبت الحكومة الفرنسية والحكومة الروسية بالغاء الانتخابات ، وتلقى سفير فرنسا في القسطنطينية ، توفنيل ، الأمر بطلب جوازاته إذا لم تتنازل الحكومة التركية ، وتظاهر بالذهاب حتى السفينة التي تقله إلى فرنسا . وعلى العكس ، نصحت الحكومة الانكليزية تركيا بالانتنازل ، وحصل توتر فرنسي - انكليزي دام بضعة أيام ، بسبب القضية الرومانية . ولكن هذا التوتر وجد انفراجاً سريعاً عندما التقى الامبراطور نابوليون الثالث والملكة فيكتوريا ، في ٦ آب ١٨٥٧ ، في قصر اوسبورن هاوس في جزيرة وايت الانكليزية . وفي هذه المقابلة ابرمت تسوية : وبوجبها وعدت فرنسا بالآلا تقترح اتحاد امارتي مولدافيا وفالاشيا ، ولكنها اشترطت أن يكون لهماين الامارتين « نظم متماثلة » . وقبلت انكلترا ، مقابل هذا الوعد ، بالغاء الانتخابات . وفي ٢٢ آب ١٨٥٧ أبطلت الحكومة العثمانية الانتخابات .

وجرت انتخابات جديدة ، في ٢٨ ايلول ١٨٥٧ ، وأعطت في هذه المرة نتائج ملائمة لأنصار اتحاد الامارتين : فعلى ٨٧ نائباً منتخباً ، وجد ٧٠ مناصراً للاتحاد ، و ٦ معادين ، و ١١ محايداً في مولدافيا . وفي فالاشيا كانت الأكتريية أقل وضوحاً ، لوجود منافسات محلية ، ولكن ، منذ أول جلسة للمجلس ، اعترف بوجود اكثريية لصالح الاتحاد . وصوت المجلسان ، الديوانان ، كما يسميان ، على اقتراح واحد يطالب

بالاستقلال الذاتي لامارتي مولدافيا وفلاشيا ، واتحاد هاتين الامارتين
« في ظل أمير أجنبي » ، وأخيراً تأسيس حكم تشيلي .

موقف الدول من التصويت . - لقد اتفقت فرنسا وروسيا ، في
مقابلة بين نابوليون الثالث والكسندر الثاني ، في شتوتغارت ، على التوصية
باتحاد الامارتين . وقاومت انكلترا والنمسا . ولكن مقاومة الحكومة
الانكليزية ضعفت ابتداء من شباط ١٨٥٨ ، عندما غادر بالمرستون
السلطة وجرت استقالته استقالة السفير الانكليزي في القسطنطينية
ستراتفورد ريدكليف ، المعادي جداً للرومانيين ، وأصبحت السياسة
الانكليزية أكثر مصالحة وتوفيقاً . وانعقد مؤتمر ، في باريس ، في أيار
١٨٥٨ وانتهى بإبرام تسوية سجلت في اتفاقية ١٩ آب ١٨٥٨ ، وتنص
هذه الاتفاقية على ما يلي :

١ - « على الامارتين أن تظلّا تابعتين وموضوعتين تحت الضمانة
الدولية المشتركة .

٢ - على الامارتين أن تشكلا دولتين منفصلتين ، ولكل منهما أمير
ينتخبه المجلس .

٣ - يمكن مع ذلك أن يكون للامارتين قوانين واحدة ، وتنظيم
عسكري واحد ، ونظام جمركي واحد ، ونظام نقدي واحد .

٤ - للامارتين حق عقد حلف بينهما .

وبالاجمال سمح للامارتين أن تكونا متائلتين ولكنهما حرمتا من حق
اعلان اتحادهما .

ولكن الانكليز كانوا دقيقين ، وكانوا يفهمون أنهم تنسازلوا ، في
الحقيقة ، عن كل ما هو أسامي . ولكن الحكومة الانكليزية ، حيال

الرأي العام والبرلماني ، تستطيع أن تقول : ان موقفني لا يمس لأنني لم أقبل بالاتحاد .

ولكن هل سيدوم هذا الاجراء النصفى الذي قبني في آب ١٨٥٨ ؟ لقد فهم القوميون الرومانيون أن باستطاعتهم أن يعملوا وأن لهم واسطة بسيطة في الوصول إلى أهدافهم . ولما كان يجب على كل مجلس ، في مولدافيا وفي فالاشيا ، أن ينتخب أميراً فيكفي أن ينتخب أميراً واحداً ويتم الاتحاد . ولتلاحظ أن مؤتمر باريس لم يتوقع هذه الحالة : لقد ترك للرومانيين هذا الباب المفتوح للحوال التي يريدون استعماله . والواقع إن المجلسين ، عندما انعقدا ، بعد الانتخابات التي جرت في مولدافيا ، في ١٧ كانون الثاني ١٨٥٩ ، ثم في فالاشيا في ٥ شباط ، انتخبا نفس الشخص ، الكسندر كوزا ، أميراً وهو ابن ملاك اطيان كبير . وتم الاتحاد ، وأخذ كوزا لقب « أمير رومانيا » . وتحقق هذا الاتحاد الشخصي ببساطة في شخص كوزا ، ولكنه لم يتحقق حقوقيّاً بشكل قطعي موقف اوريه من الانتخاب . - وجه الأمير كوزا نداء إلى نابوليون الثالث : يقول : « إن مصير الرومانيين بين يدي جلالتم » . وصرح نابوليون الثالث في رسالة إلى الهيئة التشريعية : « إن مصلحة فرنسا في كل مكان يدافع فيه عن قضية عادلة » . واستاءت الحكومة النمساوية ، ولكنها كانت ، في ذلك الحين ، منهمكة في القضية الايطالية ، فلم تقم برد فعل . ودعت روسيا وجهة النظر الفرنسية ، ورأت انكارتاً أن أمامها ولما عنتها قضايا أهم من القضية الرومانية وظلت متبردة . وأخيراً ، وبعد أن توقف انعقاد المؤتمر الدولي ، بسبب حرب ايطاليا ، قبلت الدول ، في بروتوكول ايلول ١٨٥٩ ، انتخاب الأمير كوزا المزدوج . وقبل الواقع وأفادت رومانيا من حرب ايطاليا .

٢ - تشكيل الدولة الرومانية (١٨٥٩ - ١٨٦٧)

يجب أن نتتبع هو الحوادث بين ١٨٥٩ ، سنة انتخاب الأمير كوزا ، و ١٨٦٧ . لقد وجد الأمير كوزا الوسطة لتحقيق الوحدة الكاملة ، أي الانتقال من الاتحاد الشخصي إلى الاتحاد الحقيقي . ولكن هذا العمل فسد بأزمة داخلية انتهت بتنازل كوزا عن العرش . ومع هذا فان جاكوس أمير جديد ، أجنبي في هذه المرة ، على العرش ، أيد اتحاد الأمارتين في دولة واحدة .

الأزمة الداخلية . - عندما أصبح كوزا أميراً على رومانيا ، عام ١٨٥٩ ، كان شاباً ، ولم يبلغ الأربعين عاماً ، وعاش في شبابه كال كثير من أبناء العائلات ، في باريس ، وكان طالباً في السوربون ، ولكنه لم ينجح في تأدية امتحان . وعاد إلى مولدافيا وانخرط في الحركة الثورية في عام ١٨٤٨ واضطر إلى الجلاء عن البلاد . وفي ١٨٥٧ عاد إلى بلاده وانتخب نائباً في « ديوان » مولدافيا . وكان كوزا وطنياً رومانياً متحمساً جداً ، ولكن لم يكن له أي خبرة سياسية ، ولا أي طريقة إدارية ، ومع هذا فقد استطاع بسرعة أن يحصل على نتائج هامة ورئيسية . وفي رحلة رسمية إلى القسطنطينية ، باعتباره تابعاً للسلطان ، حصل على السماح بتحويل الاتحاد الشخصي إلى اتحاد « حقوقي » ، أي توحيد حكومتي ومجلسي الامارتين . ولكن الحكومة العثمانية أعطت هذا السماح وبينت أنه صالح مدة حكم كوزا فقط ، ولذا ففي اليوم الذي يزول فيه كوزا ، يصبح السماح لاغياً .

واتخذ كوزا اجراءات ضرورية لتوحيد الجمارك والعدل وإدارة المالية . وفي ٥ شباط ١٨٥٩ قرر صهر مجلسي مولدافيا وفلاشيا ،

وأصبحت الوحدة المولدانية - الفلاشية ، في ذلك الحين ، حقيقة واقعة . ثم طفق كوزا يبحث عن تثبيت سلطته . وكان في صعوبة مع المجلس الذي انتخب بالتصويت الضريبي وسيطر عليه كبار الملاكين من أصحاب الأتبان . وفي ١٤ أيار ١٨٦٤ ، قرر حل المجلس وتعديل الدستور : وذلك بأن يكون المجلس من الآن فصاعداً منتخباً بتصويت أوسع يسمح للفلاحين بالتصويت . ومن جهة أخرى ، يتضمن تعديل الدستور زيادة سلطات الأمير واختصاصه بمبادأة القوانين ، وتمت الموافقة على هذا التغيير باستفتاء وجد فيه ٦٨٢٠٠٠ صوت « مع » و ١٣٠٧ فقط « ضد » .

وعندما قويت سلطة كوزا تبنى في البلاد اصلاحاً كبير الأهمية : وهو قانون ٢٤ آب ١٨٦٤ الذي حول وضع الفلاحين . ففي مولدايفيا وفي فالاشيا كان الشعب فلاحاً بخاصة وكانت أكثرية الفلاحين العظمى متصرفين يعيشون على أملاك كبار المالكين ويخضعون إلى نظام الاتاوات والسخرة . وفي ٢٤ آب ١٨٦٤ طلب كوزا التصويت على قانون يحجر الفلاحين : بحذف الاتاوات الاقطاعية ، وحذف الأعشار ، وتسليم الفلاحين المتصرفين ثلثي الارض التي يفلحونها ، أي إذا كان الفلاح يفلح تسعة هكتارات من الأرض ، فله الحق في أن يملك ملكية تامة ، هذه المرة ، ستة هكتارات على تسعة . وهكذا خلعت الملكية عن كبار المالكين بمعدل ثلثي ما يملكون .

كان هذا التحويل حادثاً رئيسياً : لأن الفلاحين حتى الآن لم يلعبوا أي دور في الحركة القومية ، ولذا فقد مالوا إلى التفكير ، ابتداءً من هذا التاريخ ١٨٦٤ ، بأن النظام الجديد ، أي النظام الذي أوجدته الحكومة الرومانية ، كانت مفيداً لهم ، لأنهم « تحرروا » في ظله ،

وبالتالي علق اصلاح الأراضي الفلاحين الرومانيين بفكرة الوحدة الرومانية .

وبالرغم من هذه النتائج ، فقد انتقد نظام الأمير كوزا بعنف لأسباب عدة : وهذه الأسباب ، التي تقدم عادة ، ليست كافية . ولا شك في أنه كان للأمير كوزا خلية يقيمها في قصره الخاص ، وله منها أولاد سفاح ، وأراد أن يعترف بهم شرعاً ، وأن يجعلهم ورثته . وعدا ذلك ، كان محاطاً بأناس فاسدين ومتهمين بسرقة التجهيزات المخصصة للجيش ، وبطلبات بمنوحة إلى دور تجارة خارجية مقابل جعلائل مالية أعطيت لهم أجراً ومكافأة على خدماتهم . وأصبح كل هذا نقداً متداولاً . ولكن هل شكلت هذه الفضائح سبباً حاسماً ؟ حقاً لقد كانت هنالك أسباب أخرى . لا شك أن كوزا سبب استياء الأحرار لأنه قوى سلطات الأمير في التعديل الدستوري الذي أجراه . وكان هؤلاء الأحرار يهتمون كوزا بأنه يريد تبني طرق دكتاتورية . وكان كبار الملاكين للأراضي ضده بخاصة ولا يغفرون له اصلاح الأراضي الذي قام به .

وشكل هؤلاء الخصوم لجنة مرية لتحضير انقلاب . ولكن يجب أن نعلم ما يقوله نابوليون الثالث : لقد بعث الرومانيون رسلاً ، واتصلوا بالامبراطور واستطاعوا أن يقنعوه بأن كوزا محب للروس ، ولا يجب فرنسا . حتى ان نابوليون الثالث مسمح للرومانيين ، إذا أرادوا ، أن يتخلصوا من كوزا وأرسل براسيانو رسالة إلى أصدقائه في بخارست يقول لهم : يمكنكم أن تعملوا . وبأمر اللجنة السرية دخل ضباط القصر ليلاً ، واستولوا على الأمير واضطروه أن يوقع ، على الفور ، تنازله عن العرش ، وبعد ذلك اقتيد كوزا حتى الحدود .

ولم يحل هذا الانقلاب القضية الرومانية ، بل ، بالعكس ، عقدها .
لقد سمحت الحكومة العثمانية لكوزا بتحقيق الاتحاد ، ولكن طيلة
حكمه . وبما أن كوزا غادر السلطة ، فإنه يحق للحكومة العثمانية
بأن تصرح بأنها لا تخول خلفه شيئاً . وفي الحقيقة ، لو كانت تركيا
وحدها في القضية لما أمكن أن تعمل شيئاً . ولكن في بداية آب ١٨٦٦
وجد تهديد آخر أكثر خطراً ، وهو القضية الإيطالية : فقد تحرك
الإيطاليون ، وأرادوا أن يستردوا البندقية من النمسا ، وقصروا ترتيباً
ربما يستطيعون بمرجه افناع النمسا بتسليم البندقية إلى الإيطاليين عن طيب
خاطر على أن تعوض ذلك بأخذ مولدافيا وفالاشيا .

الأمير شارل هوهنتسولرن . - وقد عبرت الحكومة الإيطالية عن
هذه الفكرة بشكل مكشوف ، وكلمت نابليون الثالث بها . واهتمت
سفارات أوربه بالقضية ، وكان أمام الرومانيين متسع للعمل ، ولو تركوا
منصب أمير رومانيا شاغراً لكان ذلك خطراً . ولهذا السبب عاد جان
براسيانو إلى باريس وبادر بإيجاد مرشح . لقد تطلع إلى الأمير شارل
هوهنتسولرن سيفهارنفن وهو من الفرع الكاثوليكي لآل هوهنتسولرن ،
وابن عم ملك بروسيا . ويبدو أن أول شخص لفظ هذا الاسم كانت
السيدة كورنو وهي أخت نابليون الثالث بالرضاع ، وكانت على صلات
بمنازة معه ، وتعرف شارل هوهنتسولرن معرفة جيدة ، لأنها استقبلت
عدة مرات عند أميرة باد ، جدة شارل ، وهي بوهارنية النسب . وكانت
السيدة كورنو مقتنعة بأن هذا الأمير غير « بروسي » ، بل ، بالعكس ،
سيكون صالحاً للنفوذ الفرنسي ، ولكنها كانت مخدوعة تماماً .

طلب الأمير شارل رأي بسمارك فأجاب : « سر ولا تردد » .

وقبل الأمير وتقرر أن يذهب إلى رومانيا ، وفي الوقت نفسه نظم براسيانو استفتاء لقبوله فقبله . وكان يراد أن يذهب إلى بخارست . وللوصول إلى رومانيا يجب اجتياز الأراضي النمساوية . وحصل الأمير على جوازات مزيفة ، باسم ممثل تجاري سويسري . ولم يعرفه أحد ، ووصل بخارست وحياء الشعب وأصبح أمير رومانيا في ايلول ١٨٦٦ . وفي ٢٠ تشرين الأول ١٨٦٦ اعترفت به الحكومة العثمانية أميراً وراثياً على رومانيا ، ثم اعترفت به الدول .

٣ - قضية الوحدة الرومانية من ١٨٦٧ إلى ١٩١٤

لقد رأينا الظروف التي تشكلت فيها الدولة الرومانية ، وكيف دعت هذه الدولة ، في ١٨٦٧ ، شارل هو هنتسولرن . ورومن هذا الأمير اسمه وأصبح يسمى كارول . وبقيت هذه الدولة تابعة للامبراطورية العثمانية وتضم فقط امارتي مولدا فيا وفلاشيا ، أي انه بقيت خارج الدولة العثمانية شعوب تمثل رقماً يساوي تقريباً رقم سكان الامارة الرومانية ، وهم رومانيو ترانسلفانيا والبوكوفين وبانات - تيميسفار ، رعايا النمسا - هونغاريا ؛ ورومانيو بساراييا ، رعايا روسيا ؛ والرومانيون المبعثرون في الدوبروجا ، رعايا الدولة العثمانية . ووضعت قضية الوحدة الرومانية أمام هذه الشعوب . وغرضنا أن نبين كيف وضعت القضية بالنسبة لهذه الشعوب بين ١٨٦٧ و ١٩١٤ .

يجب ملاحظة مظهرين : من جهة موقف الشعوب الرومانية التي كانت تعيش خارجاً عن الامارة الرومانية ، وكانت خاضعة لسيطرة أجنبية ، ومن جهة أخرى ، موقف الحكومة الرومانية حيال قضية الوحدة الرومانية . مصير وموقف « الاقليات الرومانية » في النمسا - هونغاريا

وروسيا والامبراطورية العثمانية . - لقد كانت الشعوب الرومانية في الحقيقة ممتزجة بالشعوب الأخرى . وكانت الكتلة الوحيدة الكثيفة بشكل كاف كتلة روماني ترانسلفانيا ، وكانت في آخر القرن التاسع عشر نحو ٢٤٠٠ .٠٠٠ نسمة وتشكل في ترانسلفانيا العنصر الأهم عددياً أي ٧٢ ٪ من سكان ترانسلفانيا . وكان رومانيو ترانسلفانيا وحدهم ، في هذا الدور الذي يهمننا ، يقومون بنشاط « قومي » . وهم وحدهم الذين أعلنوا عن مطالب تساعد على ربط حركتهم بالحركة العامة للقوميات .

رومانيو ترانسلفانيا : - لقد كان رومانيو ترانسلفانيا يؤلفون ٧٢ ٪ من السكان تقريباً . وكانوا ممتزجين بالعناصر الأخرى، المجر والساكسون ، ولكن هذه العناصر لم تكن لتوجد على محيط ترانسلفانيا ، بل بالعكس ، كانت توجد في وسط هضبة ترانسلفانيا . وكانت الكتلة الرومانية مؤلفة في أكثريتها من الفلاحين ، بينما نجد العنصر السائد والمتفوق اجتماعياً في الكتلة المجرية . لقد كان كبار الملاكين كلهم مجراً تقريباً ، وكان لترانسلفانيا قبل ١٨٤٨ دياط ، أي مجلس يمثل لحد ما رأي الشعب المحلي . وفي ١٨٤٨ حاول المجر انشاء دولة هونغارية وحدوية فاصطدموا بمقاومة روماني ترانسلفانيا كما اصطدموا بمقاومة الكرواتيين . واشترك الرومانيون والكرواتيون عملياً ، في ١٨٤٨ وفي بداية ١٨٤٩ في الحرب الأهلية ضد مجر هونغاريا . وفي ١٨٤٩ أسقط في يد المجر وأخفقت محاولتهم تماماً في إنشاء هونغاريا مستقلة . ومن ثم أعيد تأسيس دياط ترانسلفانيا ، وصوت هذا الديايط على قانون وقعه امبراطور النمسا ، في ٢٦ تشرين الأول ١٨٦٣ ، وفيه يعلن المساواة في الحقوق بين مختلف « أمم » ترانسلفانيا أي بين العناصر الرومانية والعناصر المجرية والعناصر الساكسونية .

وفي ١٨٦٧ أبرمت تسوية «تساوية - هونغارية» ، وبموجبها أصبحت

الامبراطورية النمساوية ، كما نعلم ، ملكيه ثنائية ، ملكية مؤلفة من دولتين : النمسا وهونغاريا ، دولتين تتحدان في بعض الشؤون المشتركة . وفي هذه التسوية ، في عام ١٨٦٧ ، الفت ترانسلفانيا جزءاً من الدولة الهونغارية .

وكانت مبادئ السياسة الجبرية في هذه الدولة الهونغارية تقضي بأن تكون هونغاريا دولة وحدوية ، أي دولة لا تقبل الاختلافات المحلية من وجهة نظر النظام اللغوي أو الإداري . ومن جهة ثانية يسيطر المجر على هذه الدولة .

أما السياسة العملية الجبرية حيال القوميات غير الجبرية في هونغاريا ، وبخاصة حيال روماني ترانسلفانيا ، فقد درسها طويلاً المؤلف الانكليزي سيتون واتسون وقام بتحقيقات ميدانية وخرج منها بانطباعات عدة .

النظام الانتخابي . - لقد رتب النظام الانتخابي بشكل يشجع فيه العناصر الجبرية . ولم يكن التصويت عاماً ، بل كان ضريبياً معقداً للغاية . وينص القانون على سبع وثلاثين فئة ناخبين . وكان الناخبون في أكثريتهم من كبار أصحاب الأقطان ، شريطة أن يدفعوا ضريبة مباشرة أعلى من ١٤٥ كورون ؟ والمسكفون الذين يدفعون ضريبة مباشرة ٢١٠ كورون ، والحرفيون ، شريطة أن يستخدموا عاملاً على الأقل ، والمستخدمون الذين يتقاضون أجراً أعلى من ١٤٠٠ كورون ؛ والموظفون الذين راتبهم أعلى من ١٠٠٠ كورون ، يضاف إلى ذلك ما يسمى « الكفاءات » أي الأشخاص الحائزون على شهادات جامعية . وقد رتب كل ذلك إما لافادة الملاكين الأغنياء نسبياً ، وأما العناصر المدنية في السكان . وقد رأينا أن الأكثرية العظمى من روماني ترانسلفانيا كانوا فلاحين فقراء ، ولذا فإن قسماً عظيماً من هؤلاء الفلاحين الرومانيين لا يملكون حق

التصويت . ومن جهة أخرى ، كان على من يرشح نفسه للانتخابات أن يعرف اللغة المجرية ، ومعظم هؤلاء الفلاحين الرومانيين لا يعرفون المجرية . وأخيراً ، نظم توزيع المقاعد في برلمان بودابست بشكل يفيد المدن بالنسبة للأرياف . والعنصر الروماني كان عنصراً فلاحاً : فعلى ٧٤ مقعداً للنواب في ترانسلفانيا ، لم يكن للرومانيين إلا ثلاثون . وبالرغم من أن الرومانيين يؤلفون ٧٢٪ من السكان ، لا يستطيعون أن يكون لهم في الحلد الأعظم إلا ثلاثون نائباً في برلمان بودابست ، على حين كان لمجموع هونغاريا ٣٧٢ نائباً . يضاف إلى ذلك أن الادارة لم تشعر بحرج في تطبيق الضغط على الانتخاب : كان التصويت عاماً ويجب أن يعلن شفويّاً . ومكتب التصويت لا يتكلم إلا المجرية : فاذا وجه سؤالاً إلى ناخب ، كأن يطلب اليه عنوانه وكان الناخب غير قادر على الاجابة بالمجرية ، بطل تصويته . وأخيراً ، كانت الادارة تطبق طرقاً ملتوية للوصول إلى الغاية نفسها ، أي لإبعاد الفلاحين عن حق التصويت : كأن ترتب الأمور بشكل تغلق جسراً للمواصلات في يوم الانتخاب ، فيضطر الفلاحون من منطقة ما أن يدوروا عدة كيلومترات ، ولا يلحون ويعودون إلى دورهم ولا يصوتون .

نظام الصحافة . - ومن جهة أخرى كانت الصحافة حرة مبدئياً ، ولكن القانون المجري لعام ١٨٧٨ يحرم الهجوم الموجه « ضد الوحدة الأرضية ، والدستور ، وإذا كان هذا الهجوم يقتضي فكرة اللجوء إلى القوة » . وأخيراً يعاقب القانون كل مقال في جريدة « من طبيعته إثارة الحقد بين مختلف القوميات » . ولا يمكن تشكيل الجمعيات إلا باذن من الحكومة . وقد وجد أن الحكومة رفضت السماح لجمعية زراعية لأنها كانت رومانية . وكذلك الاطر الادارية يجب أن تتشكل فقط من

أناس قادرين على التكلم باللغة المجرية . وعليه فإن كل موظف، ولو كان ثانوياً ، يجب أن يعرف المجرية ، ويجب أن يعرف نظرياً أيضاً اللغة المحلية ليكون قادراً على إجابة السكان بلغتهم ، وعلى الأقل في المصالح التي لها علاقة بالجمهور . أما في الواقع ، فإن جميع الوظائف الهامة كانت محتجزة للمجر . وفي ترانسلفانيا التي يؤلف الرومانيون فيها ٧٢ ٪ من السكان لا يوجد إلا ٦ ٪ من الرومانيين الموظفين . أما الموظفون الآخرون فكانوا مجراً يعرفون الرومانية قليلاً أو كثيراً ، وفي الغالب لا يعرفونها مطلقاً .

والنتيجة هي أن الشبان المثقفين الرومانيين في ترانسلفانيا ليس لهم أمل بالحصول على وظيفة إدارية ، عندما ينهون دراساتهم العليا ، وأمكنهم أن يعملوا ذلك . ولذا كانوا مضطرين إلى الانصراف والافادة من شهادتهم في بلاد أخرى ، كأن يهاجروا إلى الامارة الرومانية ويحاولوا أن يجدوا لهم وظيفة . ونتيجة انطلاقهم تجريد الحركة القومية الرومانية من عناصرها الفكرية ، من كل ما يمكن أن يكون أطرها وزعماءها .

التعليم . - كانت التعليم يعطى في الجامعات ، وفي التعليم الثانوي ، وفي جميع مؤسسات الدولة باللغة المجرية . ومن الممكن وجود مؤسسات حرة ، ولكن في الواقع ، في كل ترانسلفانيا ، في ١٨٨٥ ، وجد أربع مؤسسات حرة للتعليم الثانوي . أما التعليم الابتدائي فكان يعطى في نوعين من المدارس : مدارس الدولة وتعطي التعليم باللغة المجرية ؛ والمدارس الحرة ، ويمكنها أن تعلم باللغة المحلية ، شريطة أن تعلم المجرية أيضاً .

هذه هي الظروف التي وجد فيها الشعب الروماني في ترانسلفانيا من الوجهة القانونية ومن الوجهة الواقعية .

مدى الاحتجاج . - يجب ألا ننسى أن الأكتريية العظمى من الشعب الروماني في ترانسلفانيا كانت تتألف من الفلاحين ، وكان هؤلاء سلبين . وفي الحقيقة ، أن الحركة القومية الرومانية في ترانسلفانيا كانت عمل أقلية من المفكرين .

الأحزاب الرومانية . - بعد ١٨٦٧ تأكد اتجاهان بين الرومانيين في ترانسلفانيا : الأول ومحركه رئيس الأساقفة ساغونا ، والثاني ، وزعيمه باريتيو . كان الاتجاه الأول يقبل مقاومة النفوذ المجري بالوسائل القانونية والبرلمانية ، ويراد بذلك العمل ما أمكن على انتخاب نواب رومانيين في برلمان بودا - بست ومحاولة الحصول على تحسين للنظام بتأثير هؤلاء النواب . وكان الاتجاه الثاني اتجاه المقاومة السلبية : وهو يرى أن لا شيء يرجى من الجر ، ولذا فالأفضل الامتناع ، ورفض المشاركة تماماً في حياة الدولة .

لقد سيطر الاتجاه الأول حتى ١٨٧٥ : فقد وجد بين ١٨٧٠ و ١٨٧٤ نحو خمس وعشرين نائباً رومانياً في برلمان بودا - بست . ولكن هذا الاتجاه ضعف بعد وفاة رئيس الأساقفة ساغونا وظفر الاتجاه الآخر ، اتجاه الامتناع . وفي ١٨٧٥ صرح اجتماع للناخبين الرومانيين بأن الذين يقبلون بالجلوس في برلمان بودا - بست خونة وتبني أسلوب الامتناع البرلماني . وفي الحقيقة ، ان كل هذا لم يذهب إلى بعيد . ولكن ابتداءً من

١٨٨١ يرى ، بين رومانيي ترانسلفانيا ، تشكل حزب سياسي في مؤتمر عقد في سيميو حضره نحو مائة وخمسين مندوباً عن الناخبين الرومانيين . وقام باريتيو بعبادة هذا الاجتماع ، وتبنى الحزب القومي الروماني البرنامج التالي :

- ١ - الاحتجاج على القوانين المدرسية والقوانين الانتخابية ، لأن هذه القوانين سنت لمصلحة الجبر وحدهم .
- ٢ - المطالبة باستعمال اللغة الرومانية في الادارة في ترانسلفانيا ، وبالتالي المطالبة بوصول الرومانيين بنسبة عادلة الى الوظائف .
- ٣ - مطالبة الدولة بمساعدة المدارس الدينية التي تعطي التعليم بالرومانية .
- ٤ - توسيع حق التصويت لجميع المكلفين ، وأراد بعضهم الذهاب حتى التصويت العام .

ونلاحظ أنه لا يوجد في هذا البرنامج أي أثر للانفصالية ، أي ان رومانيي ترانسلفانيا لم يطلبوا الانفصال عن هونغاريا ، بل طلبوا ببساطة نظام الاستقلال الذاتي في إطار الدولة الهونغارية .

واصبح نشاط هذا الحزب هاماً في حوالي ١٨٩٠ . وفي ذلك الحين ، لم يتردد مؤتمر الحزب القومي الروماني في التلميح بوجود « أسرة رومانية كبرى من أحد عشر مليون نسمة » . وهذا أول تلميح واضح بإمكان وجود وحدة رومانية . ولكن يجب أن نلاحظ أن رومانيي ترانسلفانيا لم يلحوا كثيراً على فكرة الوحدة الرومانية ، بل كانوا يصرحون بانهم يقبلون ببقاء الدولة الهونغارية ، أو بالأحرى ، بالملكية الثنائية : وكل ما يطلبونه ببساطة هو أن تقرر الحكومة الهونغارية ، حيال رومانيي ترانسلفانيا ، تبني سياسة أكثر مصالحة وتوفيقاً بما كان في الماضي . وكان هذا المطلب ، - في ١٨٩١ ، مطلب رجل تجب معرفة اسمه : وهو اوديل بوبوفيتشي . فقد نشر في ١٨٩١ « بيان الى الرأي الأوربي » في موضوع سوء المعاملة التي يلقيها رومانيو ترانسلفانيا من جانب الحكومة الهونغارية ، وعلى اثر

هذا البيان حكم على اوريل بوبوفيشي بالسجن أربع سنوات، ولكنه استطاع ان يفر ويعبر الحدود .

وفي كانون الثاني ١٨٩٢ ، انعقد مؤتمر الحزب القومي الروماني ، في هذه المرة أيضاً . في سبب ، وقرر ارسال مذكرة إلى امبراطور النمسا ، ملك هونغاريا ، وأتى بهذه المذكرة الى فينا وفد من ثلثائة روماني . فرفض الامبراطور فرانسوا - جوزيف أن يستقبل الوفد وصرح بأن ينقل هذه المذكرة إلى الحكومة الهونغارية . وبالطبع أجابت الحكومة الهونغارية بأن موقعي هذه العريضة ليس لهم أي حق في التكلم باسم الشعب الروماني . وعندئذ نشر الرومانيون مذكرتهم ، ووجهوا جميع الانتقادات إلى أعمال الادارة المجرية في النظام المدرسي والاداري والانتخابي وغيرها .

أجابت الحكومة الهونغارية هذه التظاهرة في أيار ١٨٩٤ بلاحقات قضائية ضد أعضاء الحزب القومي الروماني بسبب « التحريض ضد القومية المجرية » . ولقد رأينا أن القانون الهونغاري في الصحافة ينص على جريمة من هذا النوع . وأقيمت الدعوى أمام محكمة عدلية مجرية ، وطعن المتهمون في صلاحية المحكمة مصرحين بأن القضاة كانوا في الوقت نفسه طرفاً في النزاع ، وقرأوا تصريحاً يناشدون فيه الرأي العام العالمي . ثم حكم على رئيس اللجنة الرومانية مع أربعة عشر منها آخر بعقوبة السجن وأمرت الحكومة بمجل الحزب القومي الروماني ، لأن برنامج هذا الحزب لا يتلاءم مع « أنظمة الدولة الهونغارية » .

وهكذا أخفقت هذه المحاولة الأولى من روماني ترانسلفانيا .

وفي ١٩٠٥ ظهر الحزب القومي من جديد، وكان برنامجهم في هذا العام مطابقاً تقريباً لبرنامج ١٨٨١، أي ان الشعب الروماني في ترانسلفانيا ، مع تصريجه بأنه يريد احتوام سلامة الدولة الهونغارية ، يرغب في الحصول ، في نطاق

هذه الدولة ، على استقلاله الذاتي . وكان يطالب بخاصة بمساواة اللغة في الادارة ، وفي العدل ، وفي التعليم ، ويطالب بالاصلاح الانتخابي ، أي بالتصويت العام والاقتراع السري وإعادة النظر في توزيع المقاعد .

التفوق المجري : - وفي هذه المرة أيضاً لم تؤد مطالب رومانيو ترانسلفانيا إلى شيء . وبالعكس ، في ١٩٠٧ وفي ١٩٠٨ ، طلبت الحكومة الهونغارية التصويت على قانونين من طبيعتها زيادة التفوق المجري .

القانون الأول : قانون ١٩٠٧ . - وهو القانون المدرسي . وبوجبه تقدم الحكومة الهونغارية مساعدات إلى المدارس الحرة ، ولكن شريطة أن يصبح المعلمون الأحرار موظفين في الدولة ، وأن تتمكن الدولة من تسميتهم وعزلهم . ومن جهة أخرى ، أن تعلم جميع المدارس الحرة التاريخ والجغرافيا والحساب باللغة المجرية . إذن في التعليم الابتدائي يتلقى تلاميذ المدارس الحرة الجزء الأساسي من تعليمهم باللغة المجرية . وقد اعتبر رومانيو ترانسلفانيا ان قانون ١٩٠٧ موجه لحق المدارس الحرة ، لأن هذه المدارس مازالت مستمرة في إعطاء التعليم باللغة الرومانية .

القانون الثاني : قانون ١٩٠٨ . - وهو القانون الانتخابي الذي أقر التصويت الاكثري وبدل الشروط المطلوبة للناخب ، وذلك باعطاء فرائد أعظم أيضاً لمن يحصلون على درجة في التعليم . ولكن هذا القانون كان في صالح السكان من غير ابناء الريف . ولما كان رومانيو ترانسلفانيا فلاحين ، فان هذا القانون لم يكن في صالحهم .

احتج الرومانيون ضد قانوني ١٩٠٧ و ١٩٠٨ ولم يحصلوا على شيء آني . وعندما تفاقمت الحالة الدولية في البلقان ، في العام ١٩١٣ ، قرر رئيس مجلس الوزراء الهونغاري ، الكونت ايتين تيسزا ، الذي لعب دوراً هاماً

أثناء حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ ، ان يقترح على الحزب القومي الروماني
المفاوضة وعرض أن يعين في ترانسلفانيا موظفين قادرين على الكلام باللغة
الرومانية ، واقترح إعطاء مساعدة الدولة الى المدارس الحرة الرومانية ،
 وإنشاء كراسى الأدب الروماني في جامعات هونغاريا ، وأخيراً ، تأمين
نظام الاستقلال الذاتي للكنيسة الموحدة في ترانسلفانيا . فأجاب رومانيو
ترانسلفانيا بأن هذه التنازلات غير كافية . وبقيت القضية عند هذا الحد ،
وأخفقت المفاوضات .

وفي الحقيقة كان زعماء الحركة القومية الرومانية في ترانسلفانيا ، في
ذلك الحين ، يعتبرون ان الأمل لم يفقد ، ويعلمون ان تيسرا معاد لهم ،
ولا يعتمدون عليه . ولكنهم يعرفون ايضاً أن أفكار الأرشيدوق فرنسوا -
فرديناند ، وارث عرش النمسا - هونغاريا ، تختلف عن أفكار وسطه .
وانه يتصور تعمير الدولة النمساوية - الهونغارية على أساس جديد :
فقد تصور بلى ارادته ، على ما يبدو ، لانه ليس لدينا وثيقة أكيدة
عن القضية ، «اتحاد الدول» ، وان رومانيي ترانسلفانيا في نطاق اتحاد الدول
يستطيعون الحصول على درجة الاستقلال الذاتي . وان الأمل في حكم
فرانسوا - فرديناند من طبيعته ان يذهب برومانيي ترانسلفانيا الى
اتباع أسلوب التآني والتمهل .

ولكن كيف جرى ان رومانيي ترانسلفانيا وهم أكثر القوميات تلاحماً
في هونغاريا ، وقد حافظوا على هذا التلاحم بفضل كايروسهم ، لم يحتاجوا على
النظام الهونغاري احتجاجاً حاراً شديد اللهجة ؟ ان هذا الاعتدال يتضح
إذا أخذنا بعين الاعتبار موقف الحكومة الرومانية .

موقف الحكومة الرومانية من قضية الوحدة الرومانية . - في الحقيقة
ان الحكومة الرومانية ، بين ١٨٦٧ و ١٩١٤ ، لم تحاول تحقيق

التطلعات القومية بنشاط ، كما لم تبحث عن إنهاء الوحدة القومية . ولكن يجب الا ننسى ان هذه الامارة الرومانية كانت ، في ١٨٦٧ ، دولة صغيرة مؤلفة من خمسة ملايين ، دولة مضطرة الى مراعاة الحذر والتبصر والفطنة ، لاسميا وان امامها دولاً كبرى ، وعلى حساب هذه الدول الكبرى يجب ان تمارس المطالبات القومية التي تفيد منها : روسيا ، فيما يتعلق برومانيي بسارابيا ، والنمسا - هونغاريا ، فيما يتعلق برومانيي ترانسلفانيا والبوكوفين وبانات - تيميسفار . وترددت الحكومة الرومانية في القاء نفسها في مثل هذه المغامرة . ويجب ان نأخذ بعين الاعتبار ، عدا هذا العامل الاساسي ، شخص الامير ايضاً : وهو ان شارل هوهنتسولرن بروسي وأنه حكم حتى تشرين الأول ١٩١٤ .

قبل مجيء شارل هوهنتسولرن الى عرش رومانيا ، أي في زمن حكم الأمير كوزا ، كانت قضية ترانسلفانيا مضطربة بشكل جدي . وفي أثناء حرب ١٨٥٩ ، أي أثناء حرب فرنسا والبيمونت - ساردينيا ضد النمسا - هونغاريا ، فكر رئيس الحكومة الساردية ، كافور ، ان من المناسب للعمليات العسكرية في ايطاليا ، إثارة ثورة في ترانسلفانيا ، لأن من طبيعة هذه الثورة أن تضايق النمسا - هونغاريا . ووضع كافور خطة يستطيع بموجبها المهاجرون المجر ، في ١٨٤٩ ، من غادروا هونغاريا اثر اخفاق حركة الاستقلال ، من أمثال كوسوط واصدقائه ، أن يتجمعوا في الامارة الرومانية ، في أسفل الكاربات ، ثم يعبرون الكاربات بمساعدة الجيوش الرومانية ، وينفذون الى ترانسلفانيا ليحاولوا القيام فيها بثورة .

وضعت هذه الخطة بجد وعناء ، لأن الرومانيين والمجر ، في الواقع ، يكرهون بعضهم ، وبالرغم من ان المهاجرين المجر كانوا اعداء الحكومة الرسمية في الامبراطورية ، فقد كان الرومانيون يحذرون منهم . وبفضل وساطة قنصل فرنسا في باصي ، فيكتور بلاس ، ابرم اتفاق ، في ٢٠

أيار ١٨٥٩، بين المهاجرين المجر وحكومة الأمير كوزا: وبموجبه تعهد المهاجرون المجر ، أن يمنحوا في حالة النصر الاستقلال الذاتي الإداري الى الرومانيين في ترانسلفانيا ، وان يمنحوا غير المجرين حقوقاً مساوية لحقوق المجر . ونرى هنا ان القصد لم يكن مطلقاً ضم ترانسلفانيا الى الامارة الرومانية ، بل منح الرومانيين في ترانسلفانيا نظام الاستقلال الذاتي المطابق لرغبتهم .

ومع ذلك لم تقبل حكومة الأمير كوزا بهذا الاتفاق : وكانت تحذر ، وبخاصة لم تشأ التسليم بإمكان احتمال ربط ترانسلفانيا بالدولة الرومانية ، لأن قبول الاستقلال الذاتي معناه التسليم بهذا الالحاق . لذا لم تقبل الاتفاق وأعلنت به كافور ونابوليون الثالث في تموز ١٨٥٩ .

وعندما أصبح شارل آل هوهنتسولرن ، في ١٨٦٧ ، أمير رومانيا ، اختلفت الظروف . ومن البديهي أن يأخذ شارل هوهنتسولرن بعين الاعتبار رأي الحكومة البروسية : وقد قال له بسمارك ، في ١٨٦٨ ، بأن بروسيا لا تشجع ، بأي حال من الأحوال ، تطلعات رومانيا الى ترانسلفانيا . ومن جهة أخرى ، أراد شارل هوهنتسولرن أن يتجنب المغامرات نظراً لأن دولته ضعيفة ونظراً للمصاعب الداخلية التي واجهتها في السنوات الاولى من تأسيسها ، وكانت لديه الوساطة لفرض هذا الحذر ، لأن زعماء الأحزاب ، في الحياة السياسية الرومانية ، حتى ١٩١٤ ، كانوا دوماً قليلاً أو كثيراً أدوات بيد الأمير . وفي الحقيقة ، لم يكن في رومانيا انتخابات حرة ، لأن تطبيق الضغط الانتخابي مكن الملك من الحصول دوماً على أكثرية الحزب الذي يرغب أن يراه في السلطة . ولذا سيطرت إرادة الملك .

سياسة الملك . - لقد وجد الملك نفسه أمام ظروف دقيقة للغاية ،

وأول هذه الظروف أزمة الشرق ، في ١٨٧٧ - ١٨٧٨ ، التي أثارت الحرب الروسية - التركية . وإذا وقعت هذه الحرب اجتاز الروس الأراضي الرومانية ، لأن إمارة رومانيا تابعة للامبراطورية العثمانية . وباعتبار أن الروس في حرب مع تركيا ، فقد توقعت رومانيا أن تكون ميدان قتال بين روسيا والامبراطورية العثمانية . فما العمل في هذه الحالة ؟ الحل الأول الممكن هو الحفاظ على الحياد . أي تحمل الغزو الروسي ، لأن الإمارة الرومانية مازالت تابعة للامبراطورية العثمانية . والحل الثاني : هو الاشتراك مع روسيا ، وفي هذه الحالة يكون للغزو الروسي طابع آخر : وهو أن يتم بأشكال أكثر ملاءمة .

قررت الحكومة الرومانية أن تأخذ بالحل الثاني ، لأنها رأت فيه فائدة : فقد رأى شارل هوهنتسولرن أمير رومانيا بأنه إذا تحزب لروسيا ، استطاع أن يصبح ملكاً ؛ ومن جهة أخرى ، إذا أصبحت رومانيا حليفة روسيا ، استطاعت أن تأمل بأن تعاملها روسيا معاملة حسنة . ولا ننسى أن روسيا في العام ١٨٥٦ ، في معاهدة باريس ، فقدت المناطق الثلاث الجنوبية من بيسارابيا ، حول مدينة بولغراد . وكانت الحكومة الرومانية تخشى دوماً من أن تسترد روسيا هذه المناطق الثلاث : فإذا كانت رومانيا حليفة روسيا في الحرب ضد تركيا ، استطاعت أن تؤمل ألا تطالب روسيا بهذه الأراضي .

تفاوضت الحكومة الرومانية مع المستشار الروسي غور تشاكوف ، ووقع اتفاق في ٢٦ نيسان ١٨٧٧ . وينص هذا الاتفاق على أن تتحرك رومانيا المروء حراً للجيوش الروسية لمهاجمة الامبراطورية العثمانية ؛ وأن يأخذ الرومانيون على عاتقهم حماية مواصلات الجيش الروسي . ومن جهة أخرى ، تعد الحكومة الروسية إمارة رومانيا بالحفاظ على سلامة

أرضها . وكان الرومانيون يفهمون من ذلك أيضاً : سلامة أرض المناطق الثلاث من بسارابيا الجنوبية .

وفي الواقع ، كان للرومانيين دور نشيط أثناء الحرب الروسية - التركية ، وعملوا أكثر مما وعدوا : فعندما أخفقت الجيوش الروسية أمام بلفنا ، ووجد القائد الروسي في صعوبات ، قبل الرومانيون التعاون مع الجيش الروسي وأرسلوا ٥٠.٠٠٠ رجل لحصار بلفنا . وبالرغم من الخدمات التي أدوها لروسيا ، لم تعامل رومانيا معاملة حسنة عند تنظيم السلام : لأن الروس ، عندما أبرموا معاهدة سان - ستيفانو ، أهملوا دعوة الحكومة الرومانية ، للاسهام في المفاوضات ، وعلمت الحكومة الرومانية فجأة شروط السلام . وفي شروط السلام هذه خصت روسيا نفسها بالمناطق الثلاث من بسارابيا الجنوبية ، وطلبت إلى تركيا أن تعطي رومانيا ، بصفة تعويض ، الدوبروجا الشمالية أي القسم الممتد من الدوبروجا حتى نقطة واقعة إلى الجنوب قليلاً من ميناء قونستانتزا . واستاء الرومانيون كثيراً من هذا البدل : فقد انتزعت منهم ثلاث مناطق ذات أهمية استراتيجية ضخمة ، لأنها واقعة مباشرة في شمال دلتا الدانوب ، و أعطوا الدوبروجا ، وهي أرض عقيم تقريباً يسكنها شعب خليط للغاية من الرومانيين والترك والتتر والبلغار . ومن المؤكد أن هذا البدل كان في غير صالح رومانيا .

وتساءلت الحكومة الرومانية ، مرة أخرى ، عما يجب عمله فرأى بعضهم أن من الأفضل القبول ومحاولة تحسين الشروط قليلاً . ولكن زعيم الحزب الليبرالي الروماني براسيانو تبني موقفاً متشديداً وقال : من الأفضل لرومانيا ، إذا لم تستطع أن تعمل غير ذلك ، أن تسلم بتحمل هذا الحل ، وتدعه يقوض عليها على أن تحتفظ بحقوقها للمستقبل . وهذا

ما جرى في آخر الأمر : ففي مؤتمر برلين ١٨٧٨ ، لم يدع الرومانيون ، بل ترك الهم أن يرسلوا مندوباً عنهم . وقرأ براميانو مذكرتهم على المؤتمر . وبعد ذلك دعي إلى الانصراف ولم يؤخذ بعين الاعتبار بأي مطلب من المطالبات الرومانية . وقررت معاهدة برلين ، في ١٨٧٨ ، بأن تعيد رومانيا إلى روسيا المناطق الثلاث من بيسارابيا الجنوبية ، وأن تأخذ رومانيا الدوبروجا عوضاً عنها . واعتبر الرومانيون هذه الشروط نكبة ، وأصبح سوء الظن حيال روسيا ، حتى ١٩١٣ ، نقطة أساسية في السياسة الخارجية الرومانية .

ومع ذلك ، فقد كسب الرومانيين شيئاً في هذه القضية : وهو الاستقلال التام . وفي الواقع ، ان الملك كارول ، بعد أن قطع العلاقات مع الامبراطورية العثمانية ، حصل ، في عام ١٨٨١ ، على لقب ملك .

وهذه التجربة الشاقة التي تمت في ١٨٧٨ والغضب الذي نجم عنها في الرأي الروماني ضد روسيا ، قد تفاقما خلال السنوات التالية ، لأن الحكومة الرومانية تأكدت من أن السياسة الروسية في البلقان تعمل لصالح البلغار : ففي مؤتمر برلين ١٨٧٨ اوجدت روسيا اماره بلغارية ، وحتى ١٨٨٥ سيطر النفوذ الروسي في بلغاريا . وأصبح وضع رومانيا خطراً لأنها أصبحت « محاصرة » بين اماره بلغاريا ، التابعة لروسيا في الواقع ، والدولة الروسية . وبحث الرومانيون عن حماية أنفسهم . وكان عليهم أن يخرجوا من عزلتهم ، ويجاولوا إيجاد نقطة استناد في الخارج . وكان بإمكان رومانيا ، إذا أرادت ، أن تمت يدها إلى النمسا - هونغاريا ، وهي مطمئنة بأن تستقبل استقبالاً حسناً . ولكن يجب أن نفكر - بالنتائج : فاذا قامت رومانيا ، بهذه الحركة ، تخلت عن كل مطالبة بترانسلفانيا . وكان من المستحيل عليها أن تصبح حليفة النمسا - هونغاريا ،

وفي الوقت نفسه ، أن تدعم انفصالية روماني ترانسلفانيا . ويفهم جيداً أن الرومانيين ترددوا . لقد ترددوا من ١٨٨١ إلى ١٨٨٣ . وإذا قرروا في العام ١٨٨٣ فذلك بناءً على مبادرة بسمارك عندما دعا ، إلى غاشتاین ، جان براسيانو ، زعيم الحزب الليبرالي الروماني ، واستطاع أن يقنعه بأن من المفيد لرومانيا أن تتحالف مع النمسا - هونغاريا .

وأبرم هذا الحلف ، في ٣٠ تشرين الأول ١٨٨٣ ، بالنصوص التالية: « إذا هوجت رومانيا ، دون إثارة من جانبها ، فعلى النمسا - هونغاريا أن تقدمها بالمساعدة المسلحة . وإذا هوجت النمسا - هونغاريا ، دون إثارة من جانبها ، في قسم من دولها المتاخمة لرومانيا أي في البوكوفين أو في ترانسلفانيا ، فعلى رومانيا أن تعطيها مساعدتها المسلحة .

وهذه المعاهدة ، دون أن يلفظ اسم روسيا ، كانت موجبة لأن تلعب دورها ضد روسيا لأن الدولة التي تستطيع أن تحتاج النمسا - هونغاريا في البوكوفين أو ترانسلفانيا هي روسيا وحدها . كان الحلف سرياً ، وحفظ السر بشكل يدعو إلى الإعجاب : وتدل الوثائق الدبلوماسية الألمانية على أن الملك شارل هوغنتسولرن حفظ نص المعاهدة في صندوقه الحديدي الشخصي ولم يودع نسخة من هذه المعاهدة في محفظات وزارة الشؤون الخارجية الرومانية ، ولم يطلع الملك عليه إلا بعض الرجال السياسيين : ثلاثة أو أربعة على الأكثر ؛ وفي بعض الأحيان ، كان وحده يعرف المعاهدة ، لأن الآخرين ماتوا : وعندئذ قرر أن يخبر رجلاً أو رجلين سياسيين لئلا يكون وحده كتماً لهذا السر . ولم يكن الرأي العام ليعلم بوجود هذا الحلف .

ويجب أن نقول ان الرجال السياسيين الرومانيين سلموا بهذه الحالة . وبعد وفاة جاث براسيانو ، في ١٨٩١ ، خلفه ستوردزا على رأس الحزب الليبرالي . وبعد قليل على استلامه توجينه الحزب

القي خطاباً شديداً صرح فيه أن سياسة الجر في ترانسلفانيا تجعل التفاهم النمساوي - الروماني ، مستحيلاً ، مع أن هذا التفاهم موجود ، وبشكل حلف اوبعد سنتين ، في ١٨٩٥ ، أصبح ستوردزا رئيساً لمجلس الوزراء ، فاختلفت لغته ، وخطب خطاباً صرح فيه بأن بقاء الوحدة الأرضية في النمسا - هونغاريا ضروري للتوازن الأوربي . حتى ان الرجال السياسيين المعادين للتفاهم مع النمسا - هونغاريا كانوا مستعدين لتفسير موقفهم إذا وصلوا إلى السلطة ، لأنهم يجدون أنفسهم في حضرة الملك ويطلعون على وجود المعاهدة .

إلا أن السياسة الرومانية تطورت في ١٩١٣ ، أثناء الحرب البلقانية الثانية ، الحرب بين بلغاريا من جهة ، وصربيا واليونان من جهة أخرى . وتدخلت رومانيا في هذه الحرب ولعبت دوراً هاماً في إنهاء سحق بلغاريا . وابتداء من ذلك الحين ، أصبحت علاقات رومانيا والنمسا - هونغاريا باردة ، بل وسيئة تقريباً : فقد استاءت النمسا - هونغاريا من تدخل رومانيا في الحرب البلقانية الثانية وأشعرتها بذلك . ونعلم تقارير وزير النمسا - هونغاريا في بخارست ، في ذلك العصر ، الكونت تشرنين : ففي كل شتاء ١٩١٣ - ١٩١٥ مافىء تشرنين يكرر على حكومته : لاتعتمدوا على رومانيا ؛ ومن المعلوم أن الحلف ميت ولكن المعاهدة موجودة ، وهذه الحالة شائعة ومعروفة في السياسة الدولية ، فقد توجد المعاهدة ولكن المتعاقدين يعلمان جيداً بأنها لن يطبقها إلا إذا لزم الأمر . وكان الملك كارول ، وهو الهوهنتسولرني ، يرغب بدعم الدول الوسطى ، ولكنه صرح إلى الكونت تشرنين بأنه ، إذا قامت حرب أوربية ، فسيكون ولا شك غير قادر على جر بلده في هذه الحرب . وهذا ماحدث في ١٩١٤ : فعندما دعا الملك كارول ، في ٣ آب ١٩١٤ ، مجلس التاج ،

وجمع فيه رؤساء الأحزاب السياسية الرومانية وأعلم هذا المجلس بأن رومانيا أبرمت معاهدة سرية مع النمسا - هونغاريا منذ ١٨٨٣ ، وانها مضطرة بالتالي أن تدعم النمسا - هونغاريا ، لم يكن بين الواحد والعشرين رجلاً سياسياً حاضراً ، إلا رجل واحد يدعم الملك وهو كارل . أما الآخرون فقررُوا حياد رومانيا ، حتى انه شوهد في هذا المجلس ، رجل سياسي روماني ، تالك يونيسكو ، يلجأ إلى إمكات دخول رومانيا الحرب إلى جانب فرنسا ضد النمسا - هونغاريا . فأجاب الملك كارل : إذا حدث هذا يوماً ، فسيذهب ويعود إلى الممكات الذي أنى منه ، . وهذا يعني التهديد بالتنازل عن العرش .

ولكن الملك كارل لم يتنازل عن العرش ، لأنه مات في ١٠ تشرين الأول ١٩١٤ . وبعد وفاته ، تطورت السياسة الرومانية تدريجياً : ولندكر أن الحكومة الرومانية ، في آب ١٩١٦ ، اعتقدت بانتصار مريع لدول الوفاق ، وأصبحت حليفة فرنسا وانكلترا وروسيا . ولكنها قررت ذلك بعد فوات الأوان بقليل ، أي في وقت ضعف فيه الهجوم الروسي الذي تعتمد عليه : وغلبت رومانيا واجتاحتها الجيوش النمساوية - الألمانية ، ووقعت صلحاً منفرداً مع المانيا في بداية ١٩١٨ ، وهذا لم يمنعها ، عندما دار مصير السلاح ، وانتصرت دول الوفاق ، من أن تنجي ثمار النصر ، كما لو كانت وفية حتى النهاية . وفي ١٩١٩ تحققت الوحدة الرومانية بعد أن كسبت رومانيا ترانسلفانيا بكاملها ، وثاني بانات - تيميسفار ، وبسارابيا ، مع أن سكان بسارابيا روس في جزء منهم ، واحتفظت بالدوبروجا ، حتى ان الدولة الرومانية ، في ١٩١٩ ، لم تضم جميع شعوب اللغة الرومانية فحسب ، بل ضمت أيضاً شعوباً من قوميات أخرى .

تبت الاعداد

B	A
Bach	أبردين
Bachelor walk	أبروز
Balaton	آلاندا (جزر)
Balfour, Arthur	الميرال
Bamberg	الز
Baritiu	اندرامي
Bassano	أنهات
Batisti, César	أنجو
Bebel	أنونزي
Beclard	انتونيسي
Behaine, Lefebvre de	أريسيه
Belfast	أرماغ
Belfort	أرندت
Benedetti	اسبرومونته
Bennigsen	اسكويت
Bentivegnia	اتيليو ، ليغوي
Bernadotte	اوغستنبورغ

Cambo, Francesco	کامبو ، فرانسیسکو	Bertolini	بیروتولینی
Cambon, Jules	کامبون ، جول	Beust	بوست
Capet, Hugue	کابت ، هوغ	Beyreuth	بیروت
Caporetto	کاپوریتو	Bjorson	بیورسون
Caprera	کاپیرا	Biarritz	بیاریتز
Carlos Aribio	کارلوس اریبو	Bismarck, Bohlen	بسمارک - بوہلن
Carol	کارول	Blommaert	بلومرت
Carp	کارب	Bolgrad	بولگراد
Carson, sir Edward	کارسون ، الیسر ادوارد	Boni	بونی
Casement, Roger	کازمنت ، روجر	Bolzano	بولزانو
Castelfidaro	کاستیلفیدارو	Boncompagni	بونکومپانی
Cavendish	کافندیش	Botzen	بوتزن
Cavour	کافور	Boulanger	بولانجیه
Cauwelaert	کاوویلبرت	Brater, Karl	براتر ، کارل
Chambery	شامبری	Brenner	برنیر
Champs - Elysées	شانزلیزیه	Bücher	بوخر
Charleroi	شارلوروا	Bulow	بولوف
Cherbourg	شیربورغ	Bunde	بونده
Christensen	کریستنسن	Bundesrat	بوندسرات
Churchill, Randolph	تشرشل راندولف	Buol	بوول
Cipriani	سیپریانی	Butt', Issac	بوت ، اسحاق
		C	
		Cadorna	کادورنا ، جنرال

D		Civita - Vecchia	سييفتا - فيكشيا
Daens	دينز	Clarendon	كلارندون
Dalmatie	دالماسيا	Cobourg	كوبورغ
Dalvigkh	دالفيخ	Combes	كومب
David, Jean	دافيد ، جان	Conart, Pierre	كونار ، بيير
Davitt, Michael	دافيت ، ميكائيل	Connoly	كونولي
Decker	دكر	Connubio	كونوبيو
Delbruck	دلبروك	Conscience, Henri	كونسيانس ، هنري
Delcassé	دلكاسيه	Conzanza	قونستانزا
Delle	ديل	Cormons	كورمونز
Denfert - Rochereau	دنفر - روشيرو	Cornu, Mme	كورنو ، السيدة
Deroulède, Paul	ديروليد ، بول	Corradini, Enrico	كوراديني ، انريكو
Destree, Jean	ديستريه ، جان	Cortada	كورتادا
Disraëli	ديزرائيلي	Craig, Sir Jemes	كرايغ ، السير جيمس
Dniester	دنيستر	Crispi, Francesco	كريسبي ، فرنسيسكو
Doda	دودا	Cromwell	كروموويل
Dollfuss, Auguste	دلفوس ، اوغست	Cullen	كولتن ، المونسنيور
Donnersmarck , Henckel Von	دونوممارك ، هنكل فون	Curragh	كوراغ
Düppel	دوبل	Cuza, Aleseandre de	كوزا ، الكسندر دو
Duran y Ventosa	دوران اي فانتوزا	Czernin	تشرنين

Froeschviller	فروشفيليه	E	
Fulda	فولدا	Eugénie	اوجيني
	G	F	
Gabriac	غابرياك	Fabrizzi , Nicolas	فابريزي ، نيكولا
Gambetta	غامبيتا		فابريزي ، نيكولا
Gand	غاند	Faily	فايي
Gastein	غاشتايين	Favre , Jules	فافر ، جول
Ghika	غيسكا ، الأمير	F , Les Trois	الثلاث F :
Gialdini	جبالديني	« Fair Rent »	
Giromagny	جيروماني	« Fixity of Tenure »	
Glatz	غلاتز	« Freedom of Sale »	
Glücksburg	غلو كسبورغ	Fenians	الفينيان
Gneiseneau	غنيزنو	Fenianisme	الفينيانية
Gofone	غوفونه ، جنرال	Fermanagh	فرماناغ
Goritzia	غوريتزيا	Ferry , Jules	فيرتي ، جول
Görres , Joseph	غورز ، جوزيف	Fiume	فيومه
Gortschakoff	غورتشاكوف	Flensburg	فلنسبورغ
Gourmont , Remy de	غورمون ، ريمي دو	Flourens	فلورن
Griffith , Arthur	غريفت ، آرثر	Forbach	فورباخ
Grosjean	غروجان	Forstner	فورستنر
Goyon	غويون ، جنرال	Franck , Louis	فرانك ، لوي
Gudrun	غودرون	Fransquillons (Les)	الفرنسكيون (Les)
		Freiderich , Neumann	
			فريدريك ، نويمان
		Fried Jung	فريد يونغ

I		H	
Ibsen	ايبسن	Habeas Corpus	هابيئنا كورپوس
Irrédentisme	الاستردادية	Haderseben	هادرسيبن
Isonzo	ايسونزو ، نهر	Haguenau	هاغناو
Istrie	ايبستريا	Hakon VII	هاكون السابع
J		Homburg	هومبورغ
Jaurès , Jean	جوريس ، جان	Hammond	هاموند
Jessen	يستن	Hanotau	هانوتاو
Johanssen	يوهانسن	Hardenberg	هاردنبرغ
Jonescu , Tak	يونيسكو ، تاك	Harse	هارس
K		Hawarden	هاوردن
Kanzler	كانزلى	Healy , Tom	هيلى ، توم
Karolyi	كارولي	Hertington	هرتينجتون
Keller	كيلر	Hohenzollern , Charles de	هوهنتسولرن ، شارل دو
Kelly	كيللى	Höjer	هوجير
Kerry	كيرى	Holstein	هولشتاين
Kiel	كيل	Hohenlohe , Clovis Von	هوهنلوها ، كلوفيس فون
Klas , Heinrich	كلاس ، هاينريك	Hübner	هوبنير
Köller	كولر	Huysmans	هويسمانس
Koniggrätz	كونيغرايتز	Hyde , Douglas	هايد ، دوغلاس
Kork	كورك		
Kronprinz	كرونپرنز		
Krüger	كروغر		
Kuhlmann	كوهمان		

M		L	
Mac Neill	ماك نایل	Ladins	لادين ، شعب
Maëstricht	مستریخت	Lafarina	لافارینا
Maffi	مافی	Lafontaine	لافونتین
Magenta	ماجنتا	Lagnago	لانیاغو
Mancini	مانشینی	Lagueronnière	لاغیرونییر
Mancomunidad	مانکومونیتاد	Lamarmora	لامارمورا ، جنرال
Manresa	مانریسا	Lamoricière	لاموریسییر ، جنرال
Marcel - Sembat	مارسیل - سامبا	Landau	لاندائو
Manteuffel	مانتویفل	Landesausschuss	لاند سامشوس
Marcora	مارکورا	Landtag	لاندتاغ
Maura	مورا	Langensaltza	لانغزالتسا
Maynooth	ماینوٹ	Larkin	لارکین
Mayo	مایو	Lassalle , Ferdinand	لاسال ، فردیناند
Menilmontant	مینیلمونتان	Law , Bonar	لو ، بونار
Mentana	منتانا	Léon , Leonie	لیون ، لیونی
Michelsen	میشلسن	Lepic	لوبیک
Minden	میندن	Lérída	لیریدا
Minghetti	مینغیتی	Limerick	لیمیریك
Miquel , Johannes	میکیل ، جوہانس	Lippe	لیپ
Mommsen , Theodore	مومسن ، تیئودور	Londonderry	لوندوندیری
		Lornsen	لورسن

O' Leary	اوليري	Moniteur (Le)	المونيتور (الجريدة الرسمية في فرنسا)
Olga	اولغا	Moore	مور
Ollivier , Emile	اوليفير ، ايميل	Mouravieff	مورافيف
O'Mahoney , John	اوماهوني ، جون	Moustier	موستيه
Orangisme	اورانجيه (جمعية)	Mulhouse	مولهوز
Osborne	اوسبورن	Münster	مونستر
Oscar II	اوسكار الثاني ، ملك السويد	Murat	مورا
Oslo	اوسلو	Musset , Alfred	موسيه ، ألفرد
O'Shea , Catherine	اوشي ، كاترين	N	
Ostende	اوستاند	Nansen	نانسن
Oswald	اوسولد	Narvik	نارفيك
P		National Verein	ناسيونال فراين (الجمعية القومية)
Page	باج	Ney , Edgard	ني ، ادغارد
Palatinat	بالاتينا	Nigra	نيغرا
Paléologue	باليلولوغ	Nicotera	نيكوتيرا
Pallavicini	بالافيتشيني	Nikolsburg	نيكولسبورغ
Palmerton	بالمرستون	Nordau , Max	نورداو ، ماكس
Pangermanisme	الجامعة الجرمانية	O	
Pantaléoni	بانتاليوني	Oberdan , Guillamme	اوبردان ، غليوم
Papisme , (Le)	البابية	O' Brien	اوبريان
Parnell	بارنيل	Oglia	اوليو
Pelletan	بيلليتان		
Pepoli	بيبولي		

R			
Radenbach , Albert	رادنباخ ، البيرت	Persano	برسانو
Radowitz	رادفيتز	Peters	بيترز
Raess	رايس	Pfordten, Von der	بفوردتن، فون در
Rantzau	رانتزاو	Phoenix - Park	فونيکس - پارک
Rappallo	رابالو	Pifferrer	بيفرر
Rattazzi	راتتازي	Pi Y Margall	بي اي مارغال
Razzini	رازيني	Place , Victor	بلاس ، فيكتور
Rechberg	رشبرغ	Plevna	بليفنا
Reichsrat	رايخسرات	Plombières	بلومبيير
Reichstag	رايخشتاغ	Pirenne , Henri	پيرين ، هنري
Redmond , John	ريدmond ، جون	Poincaré , Reymond	پوانکاريه ، ريمون
Reimer	رايمر	Popovici , Aurel	بوبوفيتشي ، اوريل
Renard , Jules	رونار ، جول	Porta pia	پورتا پيا
René , Karl	رونيه ، کارل	Prat de la Ripa	برات آل ريبا
Rentengüter	رنتنغوتو	Pray	پري
Ricasoli	ريکازولي	Preiss	پرايس
Reichsland	رايخسلاند « ارض امپراطورية »	Primo de Rivera	پريمو دو ريفيرا
Riva	ريفا	Puig y Cadafalch	پويسغ اي کادافالاش
Roberts	روبيرتز	Q	
Rosebery	روزبيري		
Rosetti	روزيتي	Quarnero	کوارنيرو

Seely	سيلي	Rouher	روهر
Settembrini	ستمبريني	Rovereto	روفيريتو
Sibiu	سيبو	Rubio y Ors	روبيو اي اورس
Simrock	سيمروك	Russel, John	رسل ، جون
Sinn - Fein	سن - فاين	Ryswick, Theodore Van	ريسفيك ، تيودور فان
Schnabelée	شنايبلية	S	
Solarno	سولارنو		
Solferino	سولفيرينو	Sabouroff	سابوروف
Spalato	سبالانو	Sadowa	سادوفا
Staatthalter	شتاتالتر	Salerno	سالورنو
Stratford Redcliffe	ستراتفورد ريد كليف	Seton - Watson	سيتون - واتسون
Steen	شتين	St - Cloud	سن - كلود
Stephens, John	ستيفانس ، جون	St - Stephano	سان - ستيفانو
Storting	ستورتينغ (مجلس النواب في النرويج)	San - Martino	سان - مارتينو
Sturdza	ستوردزا	Saverne	سافيرن
T		Schleswig	شلازفيغ
		Schneegans	شنيغانز
Tazzoli	تازولي	Schonerer, Georges Von	شونورير ، جورج فون
Tegethof	تيغتهوف	Schopenhauer	شوبنهاور
Tessin	تيسن	Schultz - Delitzsch	شولتز - ديليتش
Thiers	تيير	Schulverein	
Tbile	تيله		
Thouvenel	توفنيل	(الاتحاد المدرسي)	

W		Treitschske , Heinrich Von	
Wagner , Adolf	فاغنر ، آدولف	ترايتشكيه ، هنريك فون	
Walweski	والويسكي	Trentin	ترانتان
Waterlé	واتليه	Tisza , Etienne	تيسزا ، ايتين
Wedel	ويديل	Tonkin	تونكين
Welfe	ويلف	Torras y Bagès	توراس اي باجيس
Weser	فيزير	Trondhem	تروندهم
Willems	فيلمز	Tyrone	ثيرون
Windhorst	فيند هورست	U	
Wittich (Werner)	فيتيك ، فرنو	Ulster, (L')	اولستر
Y		V	
Ypres	ايپر	Varnbühler	فارنبوهار
Z		Verviers	فيرفيه
Zara	زارا	Villafranca	فيلافرانكا
Zimmermann	تسيمرمان	Visconti Venosta	فيسكونتي فينوستا
Zollparlement	تسولبارلمان	Vogt , Karl	فوغت ، كارل
Zollverein	تسولفراين	Volksblad	فولكسبلاد

الفهرس

المقدمة

الفصل الأول

الحركة القومية الألمانية

اليقظة القومية في ١٨٥٩ ص ١٥ ، تعبير الكونفدراسيون الجرمانى
غداة ١٨٥٠ ص ١٧ ، العمران السياسى ١٩ ، العمران الاقتصادى ٢١ ،
اليقظة القومية عام ١٨٥٩ ص ٢٥ ، الازمة الدولية عام ١٨٥٩ ص ٢٦ ،
حركة الراي ٢٨ ، الاتجاه الأول ، الاتجاه الثانى ، الاتجاه الثالث ٢٩ ،
الجمعية القومية ٣٠ .

الفصل الثانى

الحركة القومية الألمانية

من ١٨٦٣ إلى ١٨٦٥ .

قضية اصلاح الكونفدراسيون ٣٢ ، محاولة ١٨٦٢ ص ٣٣ ، محاولة
١٨٦٣ ص ٣٥ ، قضية الدوقيات الدانماركية ٤٠ ، انعكاسات قضية
الدوقيات ٤٨ .

الفصل الثالث

أزمة ١٨٦٦ في ألمانيا

أصل أزمة ١٨٦٦ ص ٥١ ، قضية الدوقيات ٥١ ، قضية اصلاح الكونفدراسيون الألماني ٥٢ ، موقف الدول الكبرى ٥٢ ، جهود بروشيا ٥٣ ، جهود النمسا ٥٤ ، تمزق ألمانيا ١٨٦٦ ص ٥٩ ، موقف الرأي العام ٥٩ ، موقف الحكومات ٦٣ ، موقف الدول الألمانية ٦٤ ، موقف بافاريا ٦٤ ، موقف دوقية هس ٦٥ ، موقف مملكة ساكس ٦٥ ، موقف مملكة هانوفر وهس الناحية (أو هس. - كاستل) ٦٦ .

الفصل الرابع

أزمة ١٨٦٦

انشاء اتحاد ألمانيا الشمالية ٧٠ ، حالة ألمانيا الشمالية ٧٠ ، تصفية النزاع الدستوري البوسني ٧١ ، وضع بروشيا حيال دول ألمانيا الشمالية الأخرى ٧٥ ، شلزفيغ وهولشتاين ٧٦ ، فرنكفورت ٧٦ ، هانوفر ٧٧ ، تنظيم اتحاد ألمانيا الشمالية ٧٩ ، مبادئ مشروع الدستور ٨٢ ، المبدأ الأول ٨٢ ، المبدأ الثاني ٨٣ ، المبدأ الثالث ٨٣ ، السلطات الاتحادية ٨٦ .

الفصل الخامس

قضية ألمانيا الجنوبية

من ١٨٦٧ الى ١٨٧١

قضية ألمانيا الجنوبية (١٨٦٧ - ١٨٧١) ٨٨ ، جهود بروشيا ٨٩ ، معاهدات التحالف السرية ٨٩ ، فرتامبرغ ٩١ ، دوقية باد الكبرى ٩١ ،

بافاريا ٩٢ ، دوقية هس - دارمشتات الكبرى ٩٢ ، انشاء البرلمان الجرماني
(تسولبارلمان) ٩٤ ، مقاومة المان الجنوب ٩٧ ، وضع الرأي العام
في المانيا الجنوبية ٩٧ ، في دوقية باد الكبرى ٩٧ ، في دوقية هس
الكبرى ٩٨ ، في بافاريا ٩٨ . رأي حكومات دول المانيا الجنوبية ٩٨ ،
في بافاريا ٩٨ ، في فرتامبرغ ١٠٠ ، في دوقية هس الكبرى ١٠٠ ،
في دوقية باد الكبرى ١٠٠ ، في فرتامبرغ ١٠٢ ، في هس - دارمشتات
١٠٣ ، في باد ١٠٣ ، تأسيس الامبراطورية الألمانية ١٠٤ .

الفصل السادس

قضية الوحدة الألمانية

من ١٨٧١ الى ١٩١٤

القضايا الداخلية ١٠٩ ، قضية وزراء الامبراطورية ١١١ ، قضية مالية
الرايخ ١١٢ ، الاصلاح الانتخابي البروسي ١١٤ ، القضايا الخارجية ١١٨ ،
قضية المان النمسا ١١٩ ، وجهة النظر الألمانية ١٢٠ ، حركة الجامعة
الجرمانية ١٢٣ ، برنامج الجامعة الجرمانية ١٢٤ ، وجهة النظر النمساوية ١٢٦ .

الفصل السابع

الحركة القومية الايطالية

بعد ١٨٥٠

الحركة القومية الايطالية بعد ١٨٥٠ ص ١٢٩ ، مملكة ساردينيا ١٣١ ،
الدولة الحبرية ١٣١ ، مملكة الصقليتين ١٣١ ، دوقيات ايطاليا الوسطى
١٣٢ ، امارة موناكو ١٣٢ ، حالة الدولة الايطالية بعد ١٨٥٠ ، البلاد
الومباردية - البندقية ١٣٤ ، مملكة الصقليتين ١٣٥ ، الحركة الليبرالية

١٣٧ ، الحركة المائزنية ١٣٧ ، الدولة الحبرية ١٣٧ ، الدوقيات ١٣٨ ،
ملكه اليموننت - ساردينيا ١٣٩ ، كافور ١٣٩ ، سياسته الدينية ١٤٠ ،
المبدأ الأول ، المبدأ الثاني ، المبدأ الثالث ١٤٠ ، نقطة الفكرة القومية :
١٤٢ ، الجمعية القومية ١٤٣ ، مبادئ الجمعية الايطالية ١٤٤ ، ظروف
نمو الحركة القومية ١٤٨ ، موقف فرنسا ١٥٠ ، موقف انكلترا ١٥١ ،
ظروف السياسة الداخلية ١٥٤ . المراحل الكبرى للحركة القومية ١٥٥ ،
المرحلة الاولى : ضم لومبارديا إلى اليموننت - ساردينيا ١٥٦ ، المرحلة
الثانية : قضية ايطاليا الوسطى ١٥٧ ، المرحلة الثالثة : قضية الصقليتين
١٦١ ، طريقة كافور ١٦٢ ، المرحلة الرابعة : قضية الدولة الحبرية ١٦٤ ،
صعوبات الذوبان ١٦٦ ، موقف الحكومة ١٦٧ .

الفصل الثامن

الحركة القومية الايطالية

من ١٨٦١ الى ١٨٦٦

الحركة القومية الايطالية (١٨٦١ - ١٨٦٦) ١٧٠ ، ظروف
السياسة الايطالية ١٧١ ، تفتت الأحزاب ، الأزمة المالية ١٧١ ، معارضة
اليمن ١٧٢ ، معارضة اليسار ١٧٣ ، خطة الحكومة الايطالية ١٧٦ ،
الصعوبات من جانب بروسيا ١٨١ ، الصعوبات من جانب فرنسا ١٨٢ ،
المعنى الصحيح للمعاهدة ١٨٤ ، التداعي الجزئي للخطة الايطالية ١٨٥ ،
العمليات العسكرية ١٨٦ ، العمليات البحرية ١٨٩ ، الحية الدبلوماسية ١٨٩ .

الفصل التاسع

الحركة القومية الايطالية

القضية الرومانية

القضية الرومانية (قضية روما) ١٩٢ ، المرحلة الاولى : حل غاريبالدي ١٩٣ ، دوافع غاريبالدي ١٩٤ ، محاولة غاريبالدي الاولى (١٨٦٢) ١٩٥ ، محاولة غاريبالدي الثانية (١٨٦٧) ١٩٨ ، اتفاق ايلول ١٩٨ ، البروتوكول السري ١٩٩ ، التفسير الفرنسي ٢٠٠ . المرحلة الثانية : حل الحكومة الايطالية ٢٠٥ ، محاولة الحل الدبلوماسي ٢٠٥ ، حل القوة ٢٠٨ ، موقف الدول ٢٠٩ .

الفصل العاشر

الحركة القومية الايطالية

الاستردادية اويطالينة

الاستردادية الايطالية ٢١٣ ، التيرول الجنوبي ٢١٣ ، منطقة البندقية الجولينية ٢١٤ ، دالماسيا ٢١٥ ، المرحلة الاولى (١٨٦٦ - ١٨٨٢) ص ٢١٨ ، وجهة النظر النمساوية - الهونغارية ٢٢١ ، المرحلة الثانية : (١٨٨٢ - ١٨٩٦) ص ٢٢٣ ، موقف الرأي العام ٢٢٤ ، موقف الحكومة الايطالية ٢٢٧ ، المرحلة الثالثة : (١٨٩٦ - ١٩١٤) ص ٢٢٩ ، في إستريا - دالماسيا ٢٢٩ ، في الترانثان ٢٣٠ ، في فيوم ٢٣١ .

الفصل الحادي عشر

قضية أيرلنده

قضية أيرلنده ٢٣٥ ، الحالة الدينية ٢٣٧ ، حالة البروتستانت ٢٣٨ ،
حالة الكاثوليك ٢٣٩ ، الحالة الاقتصادية والاجتماعية ٢٤١ ، نتائج
التحويل ٢٤٣ ، النتائج الاجتماعية ٢٤٤ ، الحالة السياسية ٢٤٦ ، الاحتجاج
الأيرلندي ٢٤٨ .

الفصل الثاني عشر

قضية أيرلنده

من ١٨٦٨ إلى ١٩١٠

المحاولات الأيرلندية ٢٥٤ ، عمل الأيرلنديين ٢٥٥ ، بارنيل ٢٥٦ ،
عمل الأحزاب السياسية الانكليزية ٢٦٢ ، نتائج الدور : (١٨٦٨ -
١٩١٠) ص ٢٦٣ ، القضية الدينية ٢٦٤ ، النتائج السياسية ٢٦٥ ،
النتائج المادية ٢٦٥ ، الإصلاح الزراعي ٢٦٦ ، اصلاح ١٨٧٠ : النقطة
الاولى ٢٦٦ ، النقطة الثانية ٢٦٧ ، اصلاح ١٨٨١ ص ٢٦٧ ، النقطة
الاولى ، النقطة الثانية ، النقطة الثالثة ٢٦٨ ، التطبيق العملي لهذا القانون
٢٦٨ ، قانون ١٨٨٥ ص ٢٦٩ ، قانون ١٩٠٣ ص ٢٦٩ ، قانون
المناطق المحترقة ٢٧٠ ، القضية السياسية ٢٧٠ .

الفصل الثالث عشر

قضية أيرلنده

الدور من الأيرلندية

من ١٩١٠ إلى ١٩١٤

نقطة المعارضة الأيرلندية ٢٧٥ ، الشكل المعتدل ٢٧٦ ، الشكل

الانفصالي ٢٧٧ ، حل الحكومة البريطانية ٢٨٠ ، السبب الاول ٢٨١ ، السبب الثاني ٢٨١ ، قضية تطبيق الحكم الذاتي ٣٨٣ ، قضية اولستر ٢٨٤ ، المقاومة البروتستانتية ٢٨٨ ، المقاومة السكتاوليكية ٢٨٩ ، قضية كوراغ ٢٩١ ، قضية باتشيلرووك ٤٩٢ .

الفصل الرابع عشر

قضية الشلزيغ الشمالية

قضية شلزيغ الشمالية ٢٩٦ ، أصول حرب الدوقيات ٣٠٠ ، حرب ١٨٦٤ ص ٣٠٣ ، موقف انكلترا ٣٠٤ ، موقف فرنسا ٣٠٦ ، موقف روسيا ٣٠٧ ، مصير الدوقيات من ١٨٦٤ إلى ١٨٦٦ ص ٣٠٩ .

الفصل الخامس عشر

مصير الشلزيغ الشمالية

مصير الشلزيغ الشمالية ٣١٣ ، عدم تنفيذ المادة الخامسة من معاهدة براغ ٣١٥ ، النقطة الاولى ٣١٩ ، النقطة الثانية ٣٢٠ ، سياسة الجرمنة في الشلزيغ الشمالية ٣٢٥ ، اجراءات ضغط ضد بعض الأفراد ٣٢٦ ، اجراءات ضغط تتعلق بالقضية اللغوية ٣٢٧ ، قضية الجرائد ٣٢٨ ، المهجرة الألمانية ٣٢٨ ، مقاومة الجرمنة ٣٣٠ .

الفصل السادس عشر

الحركة القومية النورفيجية

أصول الحركة القومية ٣٣٣ ، وضع النورفيج في الدولة السويدية ٣٣٣ ، تنظيم الحكم ٣٣٦ ، الفارق اللغوي ٣٣٨ ، الفارق الاجتماعي

٣٣٨ ، فاروق السياسة الاقتصادية ٣٣٨ ، الحركة الفكرية ٣٣٨ ، النزاع بين السويد والنرويج ٣٤١ ، قضية القنصليات ٣٤١ ، الحجة الاولى ، الحجة الثانية ٣٤١ ، المرحلة الاولى ، المرحلة الثانية ٣٤٢ ، المرحلة الثالثة ٣٤٤ ، تشكيل دولة النرويج المستقلة ٣٤٦ ، العقبات ٣٤٦ ، العقبة الاولى ، العقبة الثانية ٣٤٧ ، العقبة الثالثة ٣٤٨ ، وضع النرويج الدولي ٣٥٠ .

الفصل السابع عشر

الحركة الفلامنغية في بلجيكا

القضية اللغوية ٣٥٢ ، ميدان اللغة الفرنسية ٣٥٥ ، ميدان اللغة الفلاماندية ٣٥٦ ، حركة الاحتجاج الفلاماندية ٣٥٧ ، جان دافيد ٣٥٧ ، فيلمز ٣٥٧ ، هنري كونسيانز ٣٥٨ ، اليوت رادناخ ٣٥٨ ، الاتصال مع الخارج ٣٥٨ ، الاحتجاج السياسي ٣٥٩ ، النتيجة ٣٦٣ ، الحالة قبل حرب ١٩١٤ ص ٣٦٥ ، حركة المقاومة الفالونية ٣٦٦ .

الفصل الثامن عشر

قضية الالزاس — لورين

من ١٨٧١ الى ١٩١٤

ضم الالزاس — لورين

موقف الرأي الألماني والحكومة الألمانية قبل ١٨٧٠ من قضية الالزاس — لورين ٣٧٠ ، ظروف المطالبة ٣٧١ ، في ١٨١٣ - ١٨١٤ ص ٣٧١ ، بعد حكم المائة يوم ٣٩٣ ، أزمة ١٨٤٠ ص ٣٧٤ ، أزمة ١٨٤٨ ص ٣٧٤ ، في عام ١٨٥٩ ص ٣٧٥ ، في ١٨٦٦ ص ٣٧٦ ،

تحقيق اهداف المانيا ٣٧٦ ، رد الفعل الفرنسي ٣٧٩ ، الرأي الفرنسي ٣٧٩ ، الحقوق التاريخية ٣٨٠ ، الحجة اللغوية ٣٨٠ ، رأي الحكومة الفرنسية ٣٨٠ ، مفاوضات بروكسل ٣٨٤ ، قضية حق الاختيار ٣٨٤ ، قضية تحديد ارض بلفور ٣٨٤ ، معاهدة فرنكفورت ٣٨٤ ، موقف الالزاسيين - لورينيين ٣٨٦ .

الفصل التاسع عشر

الالزاس - لورين تحت النظام الألماني

من ١٨٧١ الى ١٩١٤

رأي بسمارك ٣٨٨ ، موقف الالزاسيين - لورينيين ٣٨٩ ، الدور الأول : (١٨٧١ - ١٨٧٤) ٣٩٠ ، لجنة الدفاع ٣٩١ ، عصبة الالزاس ٣٩٢ ، قضية الاختيار ٣٩٢ ، حالة الموظفين ٣٩٣ ، حالة غير الموظفين ٣٩٣ ، قضية الخدمة العسكرية الاجبارية ٣٩٤ ، الدور الثاني : (١٨٧٤ - ١٩١٠) ص ٣٩٥ ، موقف الالزاسيين - لورينيين من النظام الجديد ٣٩٧ ، قبل ١٨٩٠ ص ٣٩٧ ، بعد ١٨٩٠ ص ٣٩٩ ، اسباب تقدم الاتجاه الاستقلالي ٤٠٠ ، السبب الاول ٤٠٠ ، السبب الثاني ٤٠٠ ، السبب الثالث ٤٠١ ، الصناعة ٤٠١ ، الزراعة ٤٠٢ ، الدور الثالث : (١٩١١ - ١٩١٤) ٤٠٣ ، النقطة الاولى ٤٠٣ ، النقطة الثانية ٤٠٣ ، قضية سافيرن ٤٠٥ .

الفصل العشرون

انعكاسات قضية الالزاس - لورين

على العلاقات الفرنسية - الألمانية

الدور الأول (١٨٧١ - ١٨٩٠) ٤٠٨ ، موقف ادولف تير

اسماء الاشهر في البلاد العربية

يناير	=	كانون الثاني
فبراير	=	شباط
مارس	=	آذار
ابريل	=	نيسان
مايو	=	أيار
يونيو	=	حزيران
يوليو	=	تموز
اغسطس	=	آب
سبتمبر	=	ايلول
اكتوبر	=	تشرين الاول
نوفمبر	=	تشرين الثاني
ديسمبر	=	كانون الاول

كلمة شكر

أجزل الشكر لكل من أسهم في نشر هذا الكتاب

تاريخ
الحركات القومية
في أوروبا
تعريب

الدكتور نور الدين حاطوم

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر في جامعة الكويت

- الجزء الأول : يقظة القوميات الأوروبية (القومية والوطنية)
الجزء الثاني : يقظة القوميات الأوروبية (الحرية والقومية)
الجزء الثالث : الوحدات القومية
الجزء الرابع : السلاف والجرمن والأقليات القومية
الجزء الخامس : القومية الألمانية والقومية – الاشتراكية

علي مولا

ISBN 978-9953-66-367-0



9 789953 663676